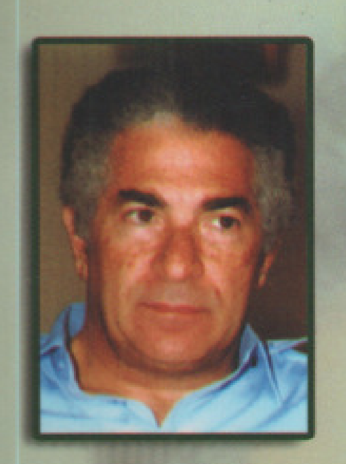


70
أنيس منصور
ساعات بلا عقارب
http://www.maktbtna2211.com
Ahmed Mady
نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
مكتبتنا
ساعات بلا عقارب
أنيس منصور





ساعات بلا عقارب

مائدة تدور حولك، أو تدور أنت حولها.. ففيها كل ما يشهى العقل والقلب والمعدة.. إنها أطعمة فاتحة للشهية.. لشهية العقل فيعرف، لشهية القلب فيخفق، لشهية المعدة فتهضم..

ولما سئل الفيلسوف الألمانى (كَانْت) عن سر حرصه على أن يمشى كل صباح مسافات طويلة أجاب: بأنه لا يمشى.. وإنما هو يقرأ الأرض بقدميه والكون فوقه بعينيه.. فهو قارئ طوال الوقت يحاول أن يفهم طوال الوقت..

ولما سئل الشاعر الألمانى جيته: ما هو أحب شىء إليك ؟ أجاب: كتاب.. وسئل: وما أحب الكتب إليك؟ أجاب: كتاب يريحنى.. وسئل: وما أحب كتاب إليك يريحك ؟ أجاب: كتاب أراحنى أننى فرغت من تأليفه.. فالمؤلف مسافر من كتاب إلى كتاب.. كتاب له أو كتاب لغيره أو كتاب يفكر فيه !

ولما سئل الروائى الإيطالى (ألبرتو مورافيا)، وكان صديقًا لكاتبنا الكبير: ما أجمل ساعات العمر؟ فأجاب: ساعات لا أشعر فيها بالزمن !

الناشر

الخميس
16
رمضان
26
أغسطس
2010
الرياض



6 221133 302555

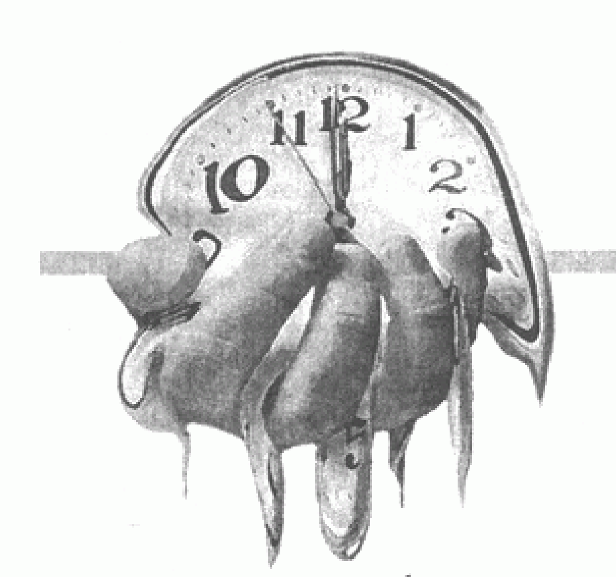


أنيس منصور

ساعات بلا عقارب



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع



مقدمة

رحلة فى بحر المعرفة

- الله يفتح عليك يا ابنى !

كنت أسمعها من أبى فى كل مرة يرانى أمسك كتاباً . وكان يعجبنى منه هذا الدعاء ، فكنت أبالغ فى قراءة الكتب . . أو فى أن أبدو أمام والدى وأنا أقرأ الكتب ، وكانت هذه الكتب - دائماً - كتب والدى . فلم تكن لى كتب خاصة وأنا دون العاشرة من عمرى . .

وكنت أسمع والدى وهو يروى لأصدقائه وضيوفنا أننى ولدت والكتاب فى يدى . ولم يكن يقصد بذلك أننى ولدت قادراً على القراءة . وإنما حيث أكون ، يكون هناك كتاب فى يدى . . أقلب فيه . . من اليمين إلى الشمال . . أو مقلوباً فى يدى . . ولم أكن أفرق بين كتب بالعربية أو بغيرها من اللغات . .

ولا أعرف لماذا كنت أنظر إلى أى كتاب على أنه مصحف . على أنه كتاب مقدس . ولذلك كان يجب أن أمسكه بعناية . وأنا أقلب فى صفحاته وأنا جالس . وقد لاحظت أن أبى لا يقرأ الكتاب إلا جالساً . ولم أعرف فى ذلك الوقت ، وإلى وقت قريب ، أن فى الإمكان قراءة الكتب والإنسان نائم فى فراشه . ولا أذكر حتى الآن ، أننى قرأت كتاباً واحداً وأنا نائم . ولأنى أحترم الكتاب ، ولأنى حريص على أن تظل أوراقه سليمة ، وغلافه سليماً ، وعلى أن أقرأه بعناية واهتمام ، فلا بد أن أكون جالساً .

ولذلك فكل الكتب التى أقرؤها تحتفظ بوقارها واحترامها تحت عينى وبين يدى . وأحب أن أرى الكتب هكذا محرمة التناول . . ومن هنا كان حرصى على أن أشترى كتباً ، وحرصى على ألا أعطى كتبى لأحد من الناس . . وحرصى أيضا على ألا أستعير كتب أحد . فأكثر الناس لا يحتفظون بالكتب نظيفة محترمة .

وأكثر الكتب التى وجدتها فى بيتنا وأنا صغير كانت دينية أو أدبية . وكان أبى رجلا متديناً . وكان ذواقة للشعر والتاريخ والنوادر . وكان رجلا محترماً . وقد لاحظت أنه حريص على أن يكون محبوباً أكثر من أن يكون مهيباً مهاباً . فكان يحب أن يستمع إليه الناس . وكان يحب الناس . وكانت روحه المرحة تذيب المسافات التى بينه وبين الناس . وكان يحفظ الكثير من الشعر . وكان ينظم الشعر . وكانت كل الكتب فى بيتنا من الشعر ومن نوادر الشعراء . فهى كتب تؤهل من يقرؤها إلى أن يكون سميراً جليساً .

ولم أدرك كل ما فى هذه الكتب من معان يوم قلبت فى معظمها . . فقد تعثرت أصابعى فى صفحاتها . وتعثر لسانى فى نطقها . وأعتقد أننى قرأتها كلها . وأعتقد أننى لم أفهمها كلها . فقد كنت أدرب عينى على القراءة فقط . وكانت المسافة كبيرة جداً بين عينى وعقلى .

وأمام سخرية بعض الأقارب والأخوة بدأت أحس وأنا صغير أننى أفعل ما لا أفهم . وأننى أقرأ ما لا أدرى . ولكنى مصرّ على القراءة . فكنت أخفى الكتب تحت السرير . وأختفى معها . وكثيرا ما نمت تحت وطأة التعب . وكان التعب مصدره أن الضوء ضعيف تحت السرير . وأن جلستى لم تكن مريحة . فكنت أقع من التعب . وأنام على البلاط ، ومرضت . وعرفت العناد فى القراءة . والإصرار على القراءة . ورأى ذلك والدى . وكان يقول : الله يفتح عليك يا ابنى .

وتعلمت القراءة فى البيت . . بل فى أكثر من بيت . . ومن الصدف الغريبة أننى عندما كنت مدرساً للفلسفة فى الجامعة ، فوجئت بأن أحد تلامذتى ، كان من بين الذين علمونى القراءة وأنا طفل صغير !

***

وذهبت إلى كتّاب القرية . .

وجلست أمام سيدنا أحفظ القرآن الكريم . أول كتاب وأعظم كتاب . وأول درس للنطق السليم للغة العربية . وجلست على الأرض . وجلس سيدنا على مقعد مرتفع . وكنا نرى سيدنا عالياً : لأنه سيدنا وأستاذنا ولأنه يحفظ القرآن الكريم . ويعلمنا القرآن الكريم . وقال . وقلنا وراءه . وكانت له طريقته الخاصة فى الأداء .

وكنا نقلده . وحفظت الكثير . ولم أكن أدرى من الذى حفظته شيئاً . ولكن كنت أسمع من أبى شرح الآيات والسور .

ولا أحتفظ لأيام الكتاب فى قرية «نوب طريف» بمركز السنبلاوين سوى ذكريات مريرة . فقد كان سيدنا قاسياً . وكانت عصاه أطول منه . فقد كان قصيراً . وكان صوته صارخاً . وكان بيته متداعياً وكان يضع نوعاً من العطور مؤلما . وكانت تنبعث من بيته ومن حول البيت روائح كريهة . وفى كل مرة أتذكر سيدنا تمتلئ أنفى برائحة كريهة . وقد ظللت سنوات طويلة لا أطيق رائحة نوع من الصابون ، لأنها تذكرنى بسيدنا وملابس سيدنا وعصا سيدنا .

وأعتقد أن سيدنا ضربنى مرة ومرة . .

وكانت صدمة عنيفة . فقد سمعت فى مجالس أبى أن الذى يحفظ القرآن مفضل على كل الناس . وأنه سوف يدخل الجنة قبل الذين لم يحفظوه . وإن من حق كل من حفظ القرآن أن يعطى يده للناس فيقبلوها . ولكن الذى يفعله سيدنا بزملائى من الأطفال شىء آخر . فنحن نجلس على الأرض . وهو يجلس فوق . ونحن ممنوعون من الطعام . وهو وحده الذى يأتى بالفطير ساخنا والقشدة والبيض ويتناول ذلك أمامنا نحن الأطفال ولا يعطينا شيئا . ولا يسمح لنا بأن نأكل وعندما يفرغ من إفطاره الذى يستغرق وقتا طويلا يطلب إلينا أن نساعد زوجته وأمه فى أعمال البيت . وكان من بين أعمال البيت : كنس البيت وإطعام الدجاج والماشية وتفريط كيزان الذرة . وكثيراً ما اشتكت زوجته أو أمه من واحد منا . . فينهال ضرباً علينا جميعاً !

إن سيدنا لا يعرف ما الذى يقوله الناس فى مجالس أبى عن الذين يحفظون القرآن . وربما كان عذر سيدنا أننا لم نحفظ القرآن بعد . يضربنا لا باعتبارنا تلامذة . ولكن باعتبارنا عمالاً جهلة بشئون البيت !

وفى كُتَّاب آخر فى قرية «كفر الباز» مركز فرسكور ترددت على كُتَّاب . وكان صاحب الكُتَّاب من أقاربى . ولم يكن عدد تلامذته كثيرين . كنا خمسة أو ستة . وكان سينا هذا يعلمنا القرآن الكريم والخط . وكان هو يكتب بقلم أحمر . ونحن نكتب بالقلم الأسود . وكان قلمه الأحمر ميالاً إلى اللون البنفسجي . وعرفنا منه

فى ذلك الوقت أن هذا اللون اسمه : دم الغزال . . وهناك لون أحمر اسمه : لحم الهوانم . وكان سيدنا يختار دم الغزال ويفضله على لحم الهوانم . وكانت الأقلام فى ذلك الوقت رفيعة وطويلة جداً . وأحياناً يصل طوله إلى المتر ونصف المتر . وكانت على شكل عصا لها رأس ثعبان . .

ولم أتعلم كثيراً فى كُتَّاب سيدنا هذا .

وذهبت إلى كُتَّاب ثالث لأحفظ القرآن الكريم . وحفظت القرآن فى سنتين .

وتطلعت إلى الوعود الكثيرة التى سمعت عنها . فقد وعدنى والدى بأن يشترى لى ملابس جديدة . وشرح لى هذه الملابس بالتفصيل . وتناقشنا فى ألوانها . . وكان أبى أكثر حماساً من أمى . فقد كانت أمى ترى فى هذه الوعود إسرافاً : إسرافا فى الكلام وإسرافاً فى الإنفاق .

ويوم حفظت القرآن جاء سيدنا معى إلى البيت . وهو فخور . ونحن فى الطريق إلى البيت كان يتعمد الوقوف عند بيوت الناس . أناس لا أعرفهم . ويقدمنى كأحسن «منتجات» الكتاب . وكأحسن تلامذته . وكانت تتردد على أذنى من أفواه لا أراها بوضوح عبارة : الله يفتح عليك يا ابنى . .

وكنت لا أرى هذه الأفواه بوضوح . فلم يكن من عادتى أن أنظر إلى أحد فى وجهه . لا أعرف لماذا . فقد اعتدت أن أنظر بعيداً عن الناس . أتفادى النظر إليهم . وأتفادى نظراتهم . فأنا أتفاداهم كأننى استدرجهم إلى أن يفعلوا مثلى . .

ولا أعرف ما الذى قاله الناس لسيدنا . .

وعندما ذهبنا إلى البيت . انطلقت أسبق سيدنا . واتجهت إلى أبى . لأقول له : إننى حفظت القرآن : وأن سيدنا فى الطريق . وأن وأن . . وأن من حقى أن أفوز بما وعدنى به .

وذهبت إلى البيت . ورأيت على وجه أبى ما اعتدت أن أراه كثيرا ولا أعرفه . رأيت وجهه حزينا . والمسبحة فى يده . وأعصابه حائرة وشفتاه حائرتان . ويداه ترتفعان بين الحين والحين إلى السماء وهو يردد دعاء حفظته وأنا طفل لا أعرف معناه . فقد كان أبى يردده كثيراً . لأنه أحب هذا الدعاء . أو لأن هناك ظروفاً متعددة متكررة كانت تقتضيه . كان يقول : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة

حيلتى وهوانى على الناس . . وهوانى على الناس - ويكرر هذه العبارة الأخيرة وصوته مخنوق بالدموع !

لقد كان أبى إذن يشكو الناس إلى الله . . ويشكو إلى الله أن يخفف من هوانه على الناس . وفى هذه اللحظة الأليمة وفى قلب هذه الشكوى من الناس ، والشكوى إلى الله ، جاء سيدنا يزف إليه هذه البشرى : أن واحداً من أبنائه التسعة قد حفظ القرآن الكريم !

لقد ذهب كل شيء . اختفت فرحتى وضاعت أحلامى وآمالى من الخوف من الهوان على الناس . .

ولا أعرف ماذا قال أبى ولا ماذا قال سيدنا . .

وأدركت أن أبى الذى يحفظ القرآن ويحفظ مئات القصائد من الشعر ، ليس أحسن حالاً من غيره من الناس . بل هو أكثر الناس تعاسة وعذاباً . . وإلا فلماذا يشكو إلى الله . فلماذا يرفع يديه إلى السماء كثيراً . لماذا يبكى وهو يصلى ؟ ولماذا يبكى وهو يرتل القرآن ؟ ولماذا هو حزين ؟ ما الذى فعله أبى ؟ لا أعرف . .

وأصبح من الصعب أن أنظر إلى وجه أبى هو أيضاً .

ولم أعد أقرأ القرآن . ولا أعتقد أننى لمست القرآن بعد ذلك . .

ويوم حفظت القرآن عرفت أن هناك كتباً مختلفة ليس من الضرورى أن يحفظها الناس . وليس من الضرورى أن يحترموها ويقدسوها . . إنها كتب فقط . وهذه الكتب تشبه أى شيء آخر . تشبه الأطباق والسكاكين ، وتشبه المقاعد . فى استطاعتك أن تلمسها وأن تتركها . وفى استطاعتك أن تقرأها وأن تتجاهلها . فليست كل الكتب مقدسة . ولا كل كتاب قرآنا وحتى عندما أمضيت سنوات عديدة أذهب إلى الكتاب وأجلس إلى سيدنا وأقرأ القرآن ، حتى «جوّدته» فما الذى حدث بعد ذلك . . ما الذى لقيته من أبى ومن غيره من الناس ؟ لا شيء . كأننى ما قرأت وكأننى ما حفظت . فعشرات من الناس فى القرية يحفظون القرآن . وهم جميعاً يقرءون فى المآتم . ويذهبون إلى المقابر . وأكثرهم أعمى وأقلهم بعين واحدة . . !

وهذه الكتب التى ليست قرآنا أعطتنى شيئاً من الحرية . فليس من الضرورى أن أحفظها كلها . وليس من الضرورى أن أقرأها كلها . وليس من الضرورى أن يعرف

أحد ذلك . فمضيت أقرأ . ولكن هذه الكتب كانت بعيدة عنى . إنها تتحدث بلغة غريبة . ولا تربطنى بها صلة . فليس فيها شىء يمكن أن أنقله لأحد . فأنا فى الليل أقرأ «أدب الدنيا والدين» وفى الصباح ألعب فى الحارة . . وفى الليل أحفظ «دلائل الخيرات» وأستحم فى الترعة . ولا صلة بين الاثنين . . ولا صلة أيضاً بين أن تضربنى أمى بشدة لأننى تشاجرت مع أحد الأطفال ولا بين أن أحفظ قصيدة «البردة» للبوصيرى . .

وقد عرفت من أمى بعد ذلك أننى لم أكن أتشاجر بالمعنى الحقيقى . فهى لا تذكر أننى ضربت طفلا ولا اعتديت على أحد . ولكن أمى فى ذلك الوقت كانت تعانى آلاماً نفسية وجسمية ومادية عنيفة . وكانت قسوتها على ، نوعاً من قسوة الأيام عليها أيضاً . . وكانت معذورة . ولم أكن أعرف عذرها .

وقد أعطانى القرآن الكريم حقاً فى أن أحضر جلسات الذكر . وأن أذهب إلى المسجد أحاول أن أفهم . ولم أكن أفهم الكثير . ولكن كان جواز سفرى إلى عالم الفقهاء هو أننى أحفظ القرآن . وحفظ القرآن هو خطوة ولا شك نحو فهم القرآن وفهم أصول الدين . . فأنا بغير شك مفضل على كثير من المصلين . .

ولم أجد من يرشدنى إلى فهم القرآن . . ولم أجد أحداً يأخذ بيدى إلى فهم كتب كثيرة . ووجدتنى وحدى . . أقرأ ما أجده . . وأبحث عما أسمع عنه . ولم أكن أجد ما أريد . وإنما أجد ما يعجب غيرى من الناس .

أذكر أننى قرأت إعلاناً فى جريدة «الأهرام» عن إحدى دور النشر فى القاهرة يطلب من القراء أن يبعثوا بعشرة قروش عن طريق البريد ، والدار تبعث لهم بنسخة من أهم الكتب التى صدرت هذا العام . وجمعت العشرة قروش وأرسلت خطابا إلى دار النشر . وكنت فى ذلك الوقت تلميذاً فى الثانية الابتدائية . ولم يصلنى رد . وسخر منى الناس . وأكدوا لى أن هذه الدار قد نصبت على . ولم أفهم فى ذلك الوقت معنى ما حدث .

ولم أرسل خطاباً إلى أحد من الناس بعد ذلك . وكنت أحب أن أكتب الخطابات إلى أصدقائى . فى أثناء الأجازة الدراسية . وكانت خطاباتى أقرب إلى المذكرات فكنت أحدث زملائى عن الكتب التى قرأتها وعن مجالس أبى وأصدقائه . ومن

الغريب أن زملائى كانوا يتلقون خطاباتى هذه بالاستخفاف ، وكانوا لا يردون عليها . وحدث أن واحداً منهم كتب لى خطاباً يقول فيه إنه سيسافر إلى الإسكندرية لسيتحم فى البحر . ولم أفهم هذا الخطاب . ولم أعرف لماذا يسافر الناس إلى الإسكندرية ، ولماذا الإسكندرية . وما الذى يفعله الناس فى البحر ، وأى نوع من البحار هو . وحاولت أن أعرف معنى هذا اللغز ولم يدلنى أحد . . ولم أعرف بحر الإسكندرية إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة فرأيته لأول مرة من الطائرة وأنا فى طريقى إلى أوروبا !

ورأيت فى الريف ما رآه الكثيرون : الحياة ضيقة خافتة مخنوقة . النهار قصير والليل طويل ، وكان نهارى أضيق من نهار الناس ، وليلى أطول من ليل الناس . فقد عشنا غرباء فى بلاد كثيرة . كنا نجرى مع أبى من قرية إلى قريته . ومن مدينة إلى مدينة . وكان انتقالنا يحدث فى الليل . . وكان الليل كريهاً وكان مخيفا . وكنت أرى فى الليل أشباحا كثيرة . وكنت أنهض مفزوعاً لأجد كل من فى البيت نائماً . وكنت أنهض من النوم لأجد سلالم نزلت من السماء . وأجد يداً طويلة تمتد لانقاذى . وفى إحدى المرات عندما تدلت هذه اليد من السماء تركتها لأجمع كتبى وأجرى معها . وعندما نزلت من السرير وجمعت كتبى لم أجد السلم ولم أجد اليد . وإنما وجدت أبى يصلى ويدعو الله قائلا : وهوانى على الناس . . وهوانى على الناس .

ولما رآنى أبى قد جمعت كتبى وكان هو قد فرغ من صلاته وضع رأسى على ركبته ولمسنى بيده حتى أنام . ونمت . وفى الصباح وجدتنى على فراشى . ولم يشأ أبى أن يأخذ منى الكتب . لقد وضعها إلى جوارى على المخدة .

ولم أعد أرى هذا السلم ، ولا هذه اليد الممدودة من السماء .

وكانت الكتب وحدها هى التى تقوم بدور السلالم . . وكان مؤلفو الكتب هم الأيدى المتواضعة التى تأخذ بيدى فيختفى النهار فى الليل وتختفى مخاوف الليل مع فجر النهار . وكنت أغلق بابى فى وجه الريح ووجه الذئاب وأفتح أبواباً أخرى فى هذه الكتب .

وفى تلك الأيام لم أكن أشعر بالأمان . فهذه الكتب لم تمنع أبى من أن يدور ويدوخ . لماذا ؟ لا أعرف . لماذا نحن على سفر دائماً ؟ لا أعرف . لماذا تجمع ملابسنا

فى حقـائب . ونضعـها فى سيارة واحـدة وننتـقل مع الليل من مدينة إلى مـدينة . لماذا ؟ لماذا يضع أبى ساعـة الحائط على ركبتـه . وتضع أمى حقـيبـة الملابس على ركبتها . وأضع أنا الكتب وبعض أدوات الطعام على ركبتى . وأظل طول الليل أنظر إلى حيوانات غريبة تتعلق بالسيارة . . حيوانات مثل الذئب وأحياناً مثل الحصان . وكلهـا تطارد السيـارة . ثم لا أنطق بكلمـة . وإنما ينقـذنى النوم من الفـزع . ويمنعنى الفزع من السؤال . وعندما تتكون مفردات السؤال على شفتى تمنعنى ابتهالات أبى إلى الله أن أقطع عليه هذه المكالمة اللاسلكية مع السماء . وأسكت . . وكل يوم أرى وأسكـت . وأخـاف وأسكـت . وأفـزع وأسكـت . وأتوهم وأسكـت . . وأنام لأرى مـا يخيفنى وأسكت . . وتجىء الكتب تنقذنى وتخطفنى من مخاوفى من الطعام الذى يوضع أمـامنا فى طبق واحـد ونفرغ منه فى دقـائق . فطعـامنا فى ذلك الوقت كـان من الممكن أن يتناوله الإنسان بيد واحدة . . فما حاجة اليد الأخرى لمن يقطع لقمة من رغيف ثم يبلها فى طبق . كـانت يد فى الطبق ويد تمسك الكتاب . . ثم اليدان معاً تمسكان الكتاب . !

وكـان لى زمـيل فى مـدرسـة أبى حـمص الابتـدائيـة . وكـان قـادراً على شـراء الكتب . وكـان يشـترى منهـا الكثيـر . وكـانت كل كـتبـه روايات بوليـسيـة . دنيـا أخـرى . . أسـمـاء أجنبيـة . . أسـمـاء الناس والشـوارع . . وهنـاك مطاردة مسـتـمـرة . مطاردة فى داخل الرواية . ومطاردة منى لهذا الصديق . فأنا أذهب إليه وآخذ كل ما عنده من روايات : عشرين رواية وأحياناً ثلاثين . وأعيدها إليه بعد أسبوع . . إنها دنيا مثيرة غريبة عجيبة . . دنيا أخرى غير هذا العالم البليد الخانق الذى نتدحرج فيه !

ولكن لاحظت أننى كنت أقرأ ولا أفهم . فأنا لا أستطيع أن أروى قصة واحدة . ولا حادثة واحدة . وإنما كل ما يحدث هو أننى أقرأ وأستمتع فقط . ويضيع الوقت . فـإذا جـاء الليل كنت مـهـدوداً ونمت . ومع الفـجـر أفـتح عـينى على هذه الروايات المثيرة . وربما كان سبب عدم حفظى لهذه الروايات أننى لا أجد من أحكى له . لا أحد . فأنا وحدى أقرأ . وأنا وحدى ملهوف . وأنا وحدى منعزل عن العالم . لا أحد . كأننى أعيش فى فراغ .

وكانت متعتى مطلقة مؤكدة . ولكن متعتى لم تكن كالأمراض معدية . لم أكن قادراً على نقلها إلى أى أحد . فلم يكن هناك أحد .

وربما كانت الفائدة النفسية المؤكدة لهذه الروايات أنها جعلتنى أتخفف من الخوف والفزع . فقد كانت هذه الروايات نوعاً من اللعب بالخوف . وفى نفس الوقت انتصاراً على الموت . فقد كنت أقرأ هذه الروايات وأنا مشدود مشدوه خائف . لكن هذا الخوف كان مجرد «اندماج» منى مع جو الرواية . . مجرد تأثر . . ثم لا يلبث أن يتلاشى . فهو خوف مؤقت . خوف فنى مدروس مركز ولكنه خوف لذيذ . . يعنى أنه من الممكن أن يكون الخوف لذيذاً مسلياً . وليس شيئاً ثقيلا بليدا : حجراً يسد الطريق أمام التفكير وأمام الحياة . . ويسد قرص الشمس . . بل ويسد الطريق إلى رحمة الله . . ولا يجدى معه هذا الدعاء الذى أقوم وأنام عليه . . أو أتساقط بين حروفه وكلماته : . . وهوانى على الناس !

وعشت سنوات طويلة فى «روايات الجيب» التى تقدم ملخصاً للأدب العالمى والتى كان ينشرها عمر عبد العزيز أمين . .

وعندما انتقلت إلى المنصورة . . انتقلت أيضا إلى عالم جديد من الكتب . فعالمى كله كتب . ودنياى كتب . ووسيلتى إلى أن أدوس الواقع وأرتقى على سلالم سحرية إلى ما فوق الطبق الواحد ، وإلى ما فوق السيارة المرتجفة فى الليل : هى الكتب دائماً .

ففى المنصورة كانت هناك مكتبة عامة . .

فيها ألوف الكتب . فى الأدب والتاريخ و «الفلسفة» وقد سمعت عن هذه الكلمة الأخيرة لأول مرة فى المنصورة . ولم أكن أعرف بالضبط معناها . ولكن أغلب الظن : أنها أفكار غريبة . وعندما لاحظت أن الناس ينطقونها باحتقار أدركت أنها نوع من الأفكار الكريهة . وغالباً الأفكار التى تتنافى مع الدين !

وقلبت فى الكتب التى قرأت عليها كلمة «فلسفة» وكانت أصابعى ترتجف كأنها تمشى على حقول ألغام . . وكانت عيناى أكثر خوفاً من أصابعى . والذى قرأته لم أفهم منه شيئاً .

وبدأت أقرأ فى التاريخ . . لم أجد متعة واضحة . ولا أذكر أحدًا من المؤلفين . .

ووجدت فى المكتبات كتباً صغيرة أنيقة عن السيرة الإسلامية . . وكانت هذه الكتب ملفوفة فى ورق سوليفان . واخترت منها واحداً من تأليف محمد صبيح . . وكان عن (محمد) . . وأخذت كتاباً ثانياً وثالثاً . . واشتريت كل المجموعة . .

الكتب سهلة العبارة . رخيصة الثمن . ويمكن أن يضعها الإنسان فى جيبه . ليفتحها فى أى مكان يجلس إليه . .

وأعظم حدث فى حياتى كقارىء عندما سمعت عن مجلتى «الثقافة» و«الرسالة» . .

وعن طريق هاتين المجلتين عرفت دنيا الأدب والفكر فى مصر . وارتبطت نهائياً بالثقافة المصرية والعربية . وتابعت المؤلفين والقضايا . وأحسست لأول مرة أننى فى «الجو» المناسب . . وأن هذه هى درجة الحرارة التى أستطيع أن أعيش فيها . . وأننى رأيت نفسى ، وعرفت قدراتى ورغباتى . . هنا . . هنا . . هنا – ومع هؤلاء وبين هؤلاء . ولغة هؤلاء . . وضمن هؤلاء . .

وقرأت للعقاد . . ، وهزنى العقاد . . وبهرنى . . وتابعته . . وتابعت معه كل قضاياه . . وأصبحت من أكثر الناس تردداً على ندوته يوم الجمعة عندما دخلت جامعة القاهرة . .

وقرأت لطه حسين . . وقرأت لتوفيق الحكيم . . وقرأت لكل أعلام الفكر والأدب والفن . . وأحببت المكتبات العامة . . فيها كل ما أريد . . وأكثر مما أريد . ولكن ليست فيها حريتى . . فأنا لا أستطيع أن أتنقل بين رفوفها . . ولا أستطيع أن أتحرك كثيراً . . ولا أجد فيها المجلات الأدبية يوم صدورها . . واكتشفت «الكراهية» فى وجوه زملائى من التلاميذ فقد كنت تلميذاً متفوقاً . . وكرهت ملابسهم الجديدة وأحذيتهم الجديدة . .

وكرهت المكتبات العامة لأنها تجعلنى أحس بأننى عاجز عن شراء ما أريد . وعاجز عن قراءة مجلتى الثقافة والرسالة فى نفس اليوم . . وأنا لا أطيق صبراً على الانتظار يوماً ويومين حتى تشتريها المكتبات العامة . .

وكرهت الكتب . وكرهت الكتابة والقراءة . ففى كل يوم يتأكد لى أن أبى لم

يستفد مما قرأ . وأن الذى قرأه – وهو كثير – لم يخفف عنه أهوال الحياة . ولم يضع يديه إلى جواره . . بل إنه ينام مرفوع الذراعين منكس الرأس مكسور النفس . فما الذى فعلته الكتب ؟ ما الذى فعلته القصائد ؟ ما الذى فعلته النوادر؟ ما الذى يمكن أن يفعله من يقرأ ومن يكتب ؟ ما الذى يمكن أن أصير إليه أنا ، دون سائر أخوتى ، إذا كنت سأهتم بالكتابة والكتب . . وبالشعر والتاريخ ؟ ليس من الصعب على أمى أن ترى نفس النهاية . . نفس المصير . . وربما كان مصيراً أسوأ من مصير أبى . . فقد كنت أسبق إلى حفظ القرآن من أبى . هذا رأيه الذى يؤكده كل يوم وفى كل مناسبة . ثم أننى قرأت فى وقت قصير أضعاف ما قرأ هو . ثم أننى تلميذ مجتهد . أكثر اجتهاداً من أبى ومن كل إخوتى الذين يكبروننى والذين يصغروننى .

وكرهت الكتب . كرهت حبى للكتب . كرهت ضعفى أمامها . كرهت تعلقى بها . . وازدادت كراهيتى يوم حملتها جميعاً لأبيعها بالأقة . كرهت أن أحملها . كرهت أن أبيعها . كرهت أن يشتريها أحد . كرهت كل الناس فى الشارع . فليس فى أيديهم كتب ملفوفة بفوطة حمراء نظيفة . كرهت الجدران التى أتساند عليها . التى أتخبط فيها . كرهت البقال . كرهت رائحة الجبنة والصابون والحلوى ، كرهت الميزان النحاسى ، كرهت الموازين . كرهت الأقة والأوقية . . كرهت القروش . . كرهت الخبز الساخن الذى اشتريته بعد ذلك . . كرهت الخبز الذى كان خمس أقات من الكتب . . بعتها على أنها ورق . . مجرد ورق . . هل العقاد ورق ؟ هل طه حسين ورق ؟ هل الشعر مجرد ورق ؟ هل (أدب الدنيا والدين) مجرد ورق ؟ هل السيرة النبوية ورق فى ورق ؟

حتى كرهت كلمة : كرهت . .

كيف أنام ؟ كيف ينام البقال الذى اشترى كل ما عندى من كتب . طبعاً سوف ينام هذا الجزار ! هذا الذى رأى الكتب ملفوفة فى فوطة كأنها طفل . . لقيط . . بل طفل شرعى . . بل أن بيع الكتب ليس إلا نوعا من بيع الناس كرقيق . لا يوجد رقيق . فكل الناس ككل الناس . ولكن القادرين من الناس اشتروا الفقراء . جعلوهم سلعة . . جعلوهم عبيداً . . الفلوس هى التى جعلت بعض الناس سادة . . وجعلت أكثر الناس عبيداً . . الفلوس هى التى جعلت أناساً يملكون شراء الكتب ولا يبيعونها من أجل الرغيف . . وجعلت بعض الناس يبيعونها حية دامية نابضة من أجل رغيف . .

إننى بعت كتبى . لقد بعت قطعة من نفسى . وإن كانت كلمة «نفسى» لم يكن لها معنى فى ذلك الوقت . فلم تكن لى نفس . . بل لم يكن (لى) أى شىء - فحرف الياء فى كلمة «نفسى» لا تعنى أى شىء . . ولا أظن أننى استخدمت هذا الحرف إلا أخيراً جداً عندما أتحدث عن شىء يخصنى ، فلم يكن يخصنى شىء طول عمرى - لأننى كنت واحداً ضمن كثيرين . . وهؤلاء الكثيرون لا شىء يخصهم . بل هم لا يخصون أحداً من الناس !

ومن الآن عندما استخدم هذا الحرف فإننى أحس أننى استعرته . . أننى استأجرته . . وأننى سوف أرده إلى أصحابه . !!

وقررت بعد ذلك ألا أمشى فى هذا الشارع من أوله لآخره . . ولم أذهب إلى بقال طول عمرى . . ولم أنظر إلى ميزان . . ولم أذق طعم الجبنه والحلاوة عشرات السنين . .

وفكرت فى الانتحار . وكانت هذه أول مرة . . فقد فكرت بعد ذلك كثيراً وعلى فترات متباعدة . ولأسباب مختلفة . . وقررت من أول مرة أن ألقى بنفسى فى النيل . ولم أنس أن أكتب خطاباً لأبى أعتذر فيه . . وعندما وقفت على كوبرى المنصورة تذكرت أن أمى مريضة وأنها تتقلب فى فراشها رافعة يديها إلى السماء . . وأن أبى هو الآخر يرفع يديه إلى السماء . .

وعدلت عن الانتحار . . ولا أعرف ما هى القوة الغريبة التى جعلتنى أتذكر هذا كله . . وجعلتنى أعدل عن الموت . .

وأسعد أيام حياتى يوم جاء ترتيبى الأول فى التوجيهية . . وكان من نصيبى أن أفوز بجائزة من الكتب . وجائزة مالية . الكتب قدمها لى وزير المعارف نجيب الهلالى باشا فى ذلك الوقت . والمبلغ كان خمسة وعشرين جنيهاً . وكان مبلغاً كبيراً فى سنة ١٩٤٣ . فقد ذهبت مع أبى واشترينا دفتر توفير . وأودعنا هذا المبلغ . وذهبت إلى مكتب البريد أسحب جزءاً . وسحبت خمسة جنيهات واشتريت أول كتاب قيم فى حياتى وكان فى «تاريخ الفلسفة اليونانية» للكاتب الألمانى تسللر . . أول كتاب . أول مرجع . أول نواة فى مكتبة أصبحت الآن تضم أكثر من خمسين ألف كتاب بست لغات مختلفة . .

وفى تلك الليلة - ليلة اشتريت هذا الكتاب - لم أعرف النوم فكل شىء جديد . كل شىء غريب . ورق الكتاب ، غلافه السميك ، رائحة الورق ، رائحة الحبر ، طعم الورق ، ضخامة الكتاب . اللغات المكتوبة فى الهوامش : الألمانية واليونانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية . . . وكنت فى ذلك أعرف القليل من الألمانية والفرنسية والإيطالية . .

لم أنم تلك الليلة . . ولم يسقط الكتاب من يدى إلا على دقات غريبة على السلم الخشبى . وكانت غرفتى تقع إلى جوار قصر من قصور الزمالك . فصاحبة القصر سيدة من عائلة يكن . وكان أبى يعمل مفتشاً على أراضيها الواسعة . . وصحوت من استغراقى فى القراءة . واقتربت الأقدام . وانهالت الدقات على الباب بعنف . ولم أجرؤ على أن أتقدم من الباب . وصحا أبى . وذهب يفتح الباب . ومن مجموعة الصرخات العنيفة والكلمات الملتوية لم أتبين إلا كلمة : حاضر . . حاضر . .

وكان أبى هو الذى يقولها . .

وأقفل الباب . . وطلب منى أن أنام . . وأطفأ هو المصباح . وغلبنى النوم . ونمت . وسألته فى الصباح . فقال : إنها رأت نور الغرفة .

ولم أفهم . وعاد أبى يقول : إنها بخيلة . ولابد أنك كلفتها ما قيمته عشرين مليماً من الإضاءة !

وكانت تلك أول ليلة أقرأ فيها كتاباً قيما . ومن فلوسى . .

واعتدت أن أقرأ بالنهار . ولم أقرأ على ضوء المصباح فى هذه الغرفة ليلة واحدة . واعتدت أن أنام فى ساعة مبكرة مع العصافير والدواجن . وأصحو مع صياح الديك . . وعلى ضوء النهار أقرأ . .

وعلى ضوء مصابيح شارع الأمير حسين فى الزمالك - وهو نفس الشارع الذى أسكن فيه البيت رقم ٣٨ كنت أقرأ وأقرأ . .

وقد لاحظت هذه السيدة - نعمت هانم يكن - أننى لم أعد أستخدم المصابيح . . وأن بعض بوابى القصر لاحظوا أيضاً أننى أجلس تحت مصابيح الشوارع وأقرأ . فاستدعتنى السيدة وطلبت منى أقرأ لها بعض الكتب . وطلبت من أحد الخدم أن يصحبنى إلى مكتبتها . . وذهبت لأرى مكتبة رائعة . وكانت الكتب كلها بالفرنسية وفى القانون والتاريخ العثمانى والثورة الفرنسية . وهناك كتب لعدد كبير من أدباء فرنسا .

وأحسست بالضياع ، فلا أعتقد أن لغتى الفرنسية فى ذلك الوقت تمكننى من القـراءة ، ولا أعـتـقـد أننى قـادر على قـراءة أو حـمل شىء من هذه الكتب إلى غرفتى . . ولا قادر على قراءتها فى بيت هذه السيدة .

وأخشى إن أنا رفضت لها طلباً أن يؤدى ذلك إلى إحراج أبى . . فقررت بينى وبين نفسى أن أنفذ لها أية رغبة ، حتى لو طلبت منى أن أرتب هذه الكتب وأنظفها كل يوم . . فقد كنت أفعل أسوأ من ذلك فى كتاتيب القرى . .

وطلبت منى هذه السيدة أن أقرأ لها بعض هذه الكتب فى الليل - يعنى أذهب إليها فى القصر وأقرأ لها بصوت مرتفع بعض هذه الكتب . . واعتذرت بأن لغتى الفرنسية لا تسعفنى . وأنقذنى من هذه السيدة أننى مرضت ، وكان زكاماً حاداً . واحتملت الزكام ، ولكن أنقذنى نهائياً منها ، إن أصابنى مرض جلدى . وعرفت فيما بعد أن هذا المرض كان قد أصابها هى أيضاً قبل ذلك . إذن فأثاث القصر قديم . وليس بعيداً أن تكون عندى حساسية للتراب المتناثر من الصوف أو القطيفة . فالحمد لله الذى أنقذنى من أن أقرأ لسيدة حرمتنى أعظم متعة فى حياتى . . جعلتنى أطفىء النور فى ليلة عرسى : أول ليلة أقضيها مع كتاب عظيم اشتريته بمالى !

ولكنى غفرت لها بعد ذلك عندما أهدتنى كتاباً فى عيد ميلادها . وكان هذا الكتاب هو «الأفكار» للمفكر الفرنسى باسكال . . وقد هزنى هذا الكتاب . . هزنى من أعماقى . . وهزنى فى سن مبكرة .

وأحسست أن هذه السيدة الجامدة البليدة قد أسدت لى معروفاً لن أنساه . فهذا الكتاب بما فيه من أفكار غريبة وجريئة وجديدة قد فتح لى آفاقاً عريضة . . فهو ليس كالكتب . . والمؤلف ليس كأى أحد من الناس قرأت له أو قرأت عنه .

***

وعندما دخلت الجامعة . . دخلت العالم الواسع العميق . . وأصبح كل شىء قريباً عند أطراف أصابعى . . كل المفكرين والأدباء والفنانين . . والعظماء والعباقرة . . السموات والأرض . . الجبال وأعماق المحيط . . والخيال والوهم . . إننى أتردد على مكتبة الجامعة . . إننى أعيش . . واستدرك ما فات . . وما فات كثير

جداً . . ولم أعد أشعر بأى نقص ولا أى عجز أمام مئات الألوف من الكتب فى هذه المكتبة . . فأمامها يفقد الإنسان أى أمل فى أن تكون له مكتبة . بل إن فقدان الأمل شيء طبيعى . فلا أمل . . ولا يأس أيضاً . . بل لا تفكير فى أمل أو يأس . . فهذه المكتبة عند رموش عينى . . كل شيء . . كل فكر . . هذه هى الحياة . . هى الدنيا . . لو كان الإنسان يستطيع أن يقرأ طول عمره ! لو كان العمر يتسع لكل هذه الكتب ؟

إن الفتحة التى أنظر منها إلى العالم الخارجى - خارجى أنا - قد اتسعت . . كانت فى أول الأمر فى اتساع ثقب المفتاح . . ثم أصبحت فى اتساع النافذة . . ثم أصبحت فى اتساع الأفق نفسه . .

وامتلأت دنياى بالأسماء : أسماء المفكرين وأسماء الكتب . . وأسماء النظريات والكلمات العديدة ، وأصبح كل شيء لامعاً باهراً . . جديداً . . حيّاً . . منعشا . .

كأننى سمكة انتقلت من بئر إلى بحر . . ومن بحر إلى محيط . .

وتمنيت كثيراً أن أترجم الكتب التى أعجبتنى . وحاولت أن أترجم . وترجمت . ومزقت ما ترجمته . ترجمت كتاباً فى «علم الجمال» وكنت أقرؤه مع المرحوم الدكتور منصور فهمى باشا . . فقد كان يدرس لى وحدى . فقد كنت طالب الفلسفة الوحيد فى قسم الامتياز . وكنت قد ترجمت هذا الكتاب ليكون نصّاً أدبياً . وترجمت كتاباً عن الفيلسوف «كنت» . وترجمت كتاباً عن الفلسفة الماركسية . . وظلت هذه الكتب عندى . وما تزال . ولا أظن أننى سأنشرها . فهى محاولات فى الفهم . ولذلك فهى أيضاً محاولات فى الترجمة : أى نقل فهمى إلى الآخرين . .

وحاولت الكتابة . .

وكتبت عدداً من المقالات . ونظمت عدداً من القصائد . وكتبت عدداً من القصص . وبعض المسرحيات من فصل واحد .

وكلها محاولات جاءت فى فترات الاستراحة من القراءة والدراسة . . وأرى أيضاً أنها لا تستحق النشر . . ولكنها فقط تدلنى على ما الذى كان يدور فى نفسى فى ذلك الوقت . وقد لاحظت أنها تكشف خوفاً شديداً وقلقاً هائلاً . وأننى فى

هذه المحاولات أشبه واحداً يمشى على صفيح ساخن فوق نار جهنم . وربما كان الشىء الوحيد الغريب هو أننى كنت أتحدث عن الأمل - عن الأمل فى النجاة من الموت ومن جهنم !

والنجاة لا تزال ممكنة عن طريق الكتاب . . الذى أقرؤه والذى أكتبه . وما أكثر ما يمكن أن أقرأه . فأنا أقرأ فى معظم مجالات المعرفة الإنسانية . وأجد الراحة فى أن أتنقل بين الأدب والعلم والرحلات والجغرافيا والتاريخ والنقد والفلك . . إنها رياضة نفسية وعقلية . . وهى راحة ولا شك . فإذا تعبت من الأدب استرحت فى الفلك . وإذا مللت الفلك انطلقت مع الحشرات . .

وأحياناً أقرأ فى أول الليل . . وأحياناً أقرأ عند منتصف الليل . . وأحياناً أقرأ قبل أن أكتب . . حتى أكتب . . أو حتى لا أكتب . . وفى كثير من الأيام أقرأ حتى أجد رغبة فى الكتابة . وأحياناً أكتب وأكتب حتى يخيل إلى أننى لن أقرأ بعد ذلك . ولكن بعد ذلك أقرأ وأقرأ .

ولا أقرأ إلا جالساً . . وإلا على مكتبى . . ولا أقرأ نائماً . أو مسترخيا . ولا أعرف - ولم أعرف - كيف يمكننى أن أسترخى وفى نفس الوقت أفهم ما أقرأ . لا أعرف . ولا أدرى كيف أعرف أن أنام وأعود وأمسك كتاباً . حاولت فلم أفلح . ويظهر أننى أقرأ الكتاب وكأننى أكتبه . تماماً كما تترك سيارتك لواحد يقودها بدلاً منك . . فأنت لا تستطيع أن تتجاهل حركات يديه ورجليه . . ولا إشارات المرور . . فلا أنت تقود السيارة ولا أنت تجلس إلى جوار قائدها . . وإنما أنت الإثنان معا . . وكذلك عندما أقرأ كتاباً فأنا أجلس إلى جوار سائق الكتاب . . لا أستطيع أن أنسى أننى سائق مثله . . ولا أستطيع أن أتجاهل حركة يديه وساقيه . . بل حركات عينية وأذنيه . . ولا أنسى أن أضع يدى على قلبه . . ولا أن أضع يدى على قلبى . . لا أستطيع إلا أن أكون كاتباً وأنا أقرأ لغيرى من الكتاب !

ولى أصدقاء كثيرون بين المؤلفين . أعرفهم وأعرف متى أقرأ لهم . وما الذى أتوقعه عندما أقرأ . وما الذى فى استطاعتهم أن يقدموه لى . فهناك الكاتب الذى أحس أنه مثل البنك . أستطيع أن أجد عنده كل أنواع العملات وأن أغير عنده ما معى من أموال . . وأن أحول الأوراق المالية الكبيرة إلى فكة . . وهناك الكاتب الظريف المسلى . . وهناك الكاتب الذى يعطى الأمل فى الحياة . وهذا الأمل لا

يجىء إلا عن طريق الفن . . وهناك الكاتب الذى يستطيع أن يعلو فوق الدنيا ويراها من أعلى . . ويحملنى معه . . لأرى ما لا عين رأت . . وأعود إلى الأرض أكثر يأسا من الإنسان . . ومن الحياة . .

وأصبح من السهل أن أعرف ما الذى أجده وما الذى أتوقعه . . وأحيانا أستريح إلى هذا الذى أتوقعه . . لأننى أريده . أريد أن أسمع ما اعتدت أن أسمع . وأن أفكر فيما اعتدت أفكر . .

وعندما أريد أن أوقظ خيالى . . وأنبه حواسى . . وأضع قلمى إلى جوارى ، أقلب فى كتب الشبان الجدد فى أوروبا وأمريكا . أرى معهم الدنيا ، وقد تغيرت معالمها وتبدلت ملامحها . وأصبح للحياة طعم اليأس . وأصبح لليأس طعم البارود . .

ولكن ليس فى الدنيا أمتع من كتاب . .

إن ساعات كثيرة يقضيها الإنسان فى القراءة لهى ساعات من السعادة .

حتى لو كان الكتاب يتحدث عن التعاسة الإنسانية : فإن مشاهدة عملية الخلق وعملية الإبداع الفكرى عند مؤلف الكتاب يجعلنى أنسى التعاسة وأنشغل طول الوقت بلمس نبضات المؤلف . فليست سطور الكتاب إلا عروقاً من الدم .

إن ساعات القراءة لا أول لها ولا آخر . . إنها ساعات لا علاقة لها بالزمن . . إنها خارج الزمن . .

نحن نقرأ ونقرأ وننظر إلى ساعات فلا نجد لها أرقاما . . ولا نسمع إلا دقات . . فلا زمن . فلا الساعة تحركت . . لا قدمت ولا أخرت . . إنها تدق . . إنها تنبض . . إنها تخفق . . إنها لحظات لا تحبسها العقارب . .

لقد تحديت نفسى أكثر من مرة . لقد حاولت أن أضع الساعة أمامى وأسجل الزمن على ورقة . .

ثم أشرع فى قراءة أى كتاب . . وبعد وقت قصير أو طويل . . أرفع عينى عن الكتاب . ثم أخمن الزمن ، وفى جميع المرات لا أعرف .

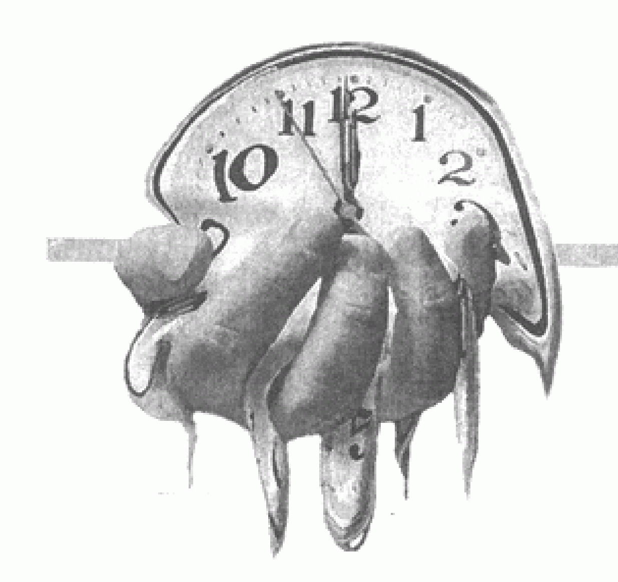
لأن الكتاب يستغرقنى تماما . . يجعلنى لا أشعر بالزمن . . ويجعلنى أنسى متى بدأت . وأنسى متى توقفت عن القراءة . . ولا كم من الزمن راح منى . . أو ضاع منى . . أو أضعته فى القراءة . . أو على الأصح كسبته من القراءة . . وفى القراءة

- وفى جميع المرات لا أعرف . . ولم أستطع أن أعرف - فساعات القراءة . . هى ساعات نسيان الساعة . . ولحظات نسيان الزمن . . وساعات تدق وتدق فقط . . فعقاربها أغرقها استغراقنا فى الكتاب الذى نقرؤه . . وكل كتاب هو سفينة مشحونة بالبضائع فى محيط الفكر . . أو كل كتاب هو بوصلة ترشدنا فى غياهب العقل الإنسانى . .

وفى هذا الكتاب أعرض نوعاً من هذه البوصلات . . إن كل ساعة لا أقرأ فيها . . هى ساعة كلها عقارب تلسع . . وأن ساعة أقرأ فيها لهى ساعة بلا عقارب . . هى ساعة بلا زمن . .!

وانتقلت من القراءة إلى الكتابة . . إلى القراءة . . وأصبحت أعيش ما أقرأ . . وأعيش ما أكتب . . وفى مهب عواصف الزمن أقمت لنفسى كوخاً من الورق المطبوع !

أنيس منصور



هذه الواو التى بينى وبينك

- أنت فين يا أخى ؟
- الدنيا مشاغل .
- طيب يا أخى اغلط واسأل . . . . إنت كسلان تمد إيدك وتحرك قرص التليفون .
- ضرورى إن شاء الله أمر عليك . . . . ضرورى . . .
- . . . . الخ .

كلام يدور بين الناس فى كل وقت . بل إن الشكوى من عدم الاتصال هى افتتاحية الحديث بين الناس - فكل واحد يشكو من أن واحداً آخر لا يتصل به ولا يسأل عنه . ولا يكلف خاطره أن يطلبه فى التليفون ، مع أن هذا الذى يشكو فى استطاعته أن يتصل بك وأن ينشط فيمد يده من جيبه إلى قرص التليفون . وتنتهى مبررات الشكوى ، ولكن الشكوى عنصر ضرورى فى الكلام بين الناس . . واعتاد الناس الشكوى ولذلك فهم حريصون على أن تظل أسباب الشكوى قائمة . وهى : أنت فين يا أخى ؟

هل المسافة بين الناس بعضهم وبعض اتسعت فجأة ؟ أم أن المسافة بين عقول الناس تباعدت فجأة ؟ أم أن المسافة بين عقول الناس تباعدت فجأة هل انتقلت قلوب الناس إلى جانب آخر من الجسم ؟ هل اتجهت عواطف الناس إلى أشياء أخرى بعد أن جربت التعلق بالناس ففشلت ؟

هناك عشرات الأسباب . . ولكن النتيجة أن المسافة بين الناس قد تباعدت وفى استطاعتك أن تتساءل : من الذى أعرفه من سكان الدور الذى أنا فيه ؟ من الذى أعرفه من سكان العمارة . . الشارع . . . المدينة ؟ من الذى أعرفه من الزملاء فى

العمل ؟ من الذى تربطنى بهم صلة ؟ وما معنى هذه الصلة ؟ هل هى مجرد زمالة ؟ هل هى صداقة ؟ هل هو الشوق والحنين إذا غاب واحد منا عن الآخر ؟

وأكثر من هذا . . . ما الذى يربطك بالذين يعيشون معك فى نفس الشقة . أمك ؟ زوجتك ؟ أولادك ؟ هناك صلات . ولكن ما شكلها ؟ هل عندك وقت لأن تجلس وتأخذ وتعطى . وتصلح ما انكسر من العلاقات الزجاجية الشفافة . . . وكيف تصلح هذه العلاقات ؟ بالجلوس أمام التليفزيون ؟ إن الجلوس أمام التليفزيون يحول المتفرجين إلى أناس صامتين . لا يتكلمون فكأنهم فى بلدين مختلفين يتفرجون على شىء واحد ؟ هل تذهب إلى السينما ؟ إن السينما هى تليفزيون كبير . يجلس أمامه الناس بالمئات ولا تربطهم أية صلة بعضهم ببعض . والذهاب إلى مباريات كرة القدم ؟ إنهم يجلسون بعشرات الألوف ولكن لا صلة بينهم . . إنهم متجاورون فى المكان . إن الصلة بينهم صلة جغرافية . تماماً كما يتقارب نهر وجبل . وجبل وصحراء .

إن الحضارة هى المواصلات . . . فالحضارات كلها نشأت فى وديان الأنهار . لأن الأنهار وسيلة – مواصلات تربط بين الناس . وتطورت السفن إلى بواخر . وتطور الحمام الزاجل إلى طائرات . وتطور الزعيق والمناداة إلى تليفون وميكرفون . وتقارب الناس . فهل استطاع التليفون أن يقرب بين الناس ؟ لقد أصبح التليفون إمكانية معطلة . إنه على استعداد دائم لأن يوصل ما تريد إلى مرتديه من الناس . ولكن التليفون على الرف . لا لأنه عاجز عن القيام بشىء . ولكن لأن صلتك بالناس هى التى على الرف .

هل استطاع التلغراف أن يحل مشاكل الوقت بين الناس ؟ فبدلاً من أن تبعث إلى أى إنسان عزيز فى مناسبة عزيزة بخطاب طويل فى استطاعتك أن تختصر وقتك وأن تنقذ نفسك من الكذب العاطفى فتبعث ببرقية . فهل تفعل ذلك ؟ طبعاً لا . . لماذا ؟ لأن المسافة بينك وبين معارفك وزملائك وأصدقائك وأقاربك أبعد من أن يصل إليها تلغراف . إنها مسافة بعيدة عن العين وعن القلب . . . فما الذى يشغلك ؟ إنه كثيراً جداً . . . وهو نفس الشىء الذى يشغل غيرك . . .

حتى السلام باليد . . . .

لقد ابتدع الإنسان من ألوف السنين عادة السلام باليد . وكان غرضه أن يعرف إن كان عدواً يحمل سلاحاً . ولذلك كان لابد أن يحرص على أن يمد يده التى أخفاها عدوه وراء ظهره . فإذا امتدت اليد جاء ذلك دليلا على أنه لا سلاح وراء ظهره - طبعاً هذه أيام كان الإنسان لا يستطيع أن يخفى القوس والسهم والرمح والسكين فى جيبه . كان ذلك قبل عصر المسدسات وأجهزة التسجيل التى تأخذ شكل زراير الجاكته ودبوس الكرافته . ولكن فى عصر هذه الأجهزة الصغيرة الدقيقة عدل الإنسان عن عادة السلام . إنه يكتفى بأن يهز رأسه أو عينيه . إنهم فى الهند يرفعون اليدين مضمومتين للسلام على الشخص الواحد وعلى ملايين الأشخاص أيضاً .

وأنا أعتقد أن الإنسان بالعدول عن السلام باليد أصبح أكثر صراحة لأنه بالفعل يخفى شيئاً لا وراء ظهره ولكن تحت جلده . أما هذا الشىء فهو : أنه لا مبرر للسلام . فالمسافة أبعد من أن تقطعها يدى إلى يدك . .

***

ولو استمعت إلى الرسائل التى يبعث بها الطلبة إلى أولياء أمورهم أو الغرباء إلى أقاربهم هنا أو فى الخارج ، لرأيت شيئاً عجيبا . ففى برامج : (أبناؤنا فى الخارج) فى البرنامج العام و (ألف سلام) فى صوت العرب (وأهازيج ومكاتيب) فى إذاعة فلسطين تجد عنصراً واحداً مشتركاً : أن الجميع يشكون من قلة الرسائل . الابن لا يبعث لوالديه منذ شهرين . . . والابن لا يبعث لوالديه منذ سنوات . . . وأحياناً من عشر سنين . .

حتى برنامج (ما يطلبه المستمعون) فى كل الإذاعات ليس إلا نوعاً من الرسائل غير الشخصية والتى ليس لها أى معنى أو دلالة خاصة . فما معنى أن تبعث : سوزى وتوتو وفيفى ونوسه ونوال إلى خالتهم خيرية وعلية بأغنية يا عوازل فلفلوا لفريد الأطرش بمناسبة النجاح فى الإعدادية ؟؟

ما الذى تقوله هذه الأغنية بالنسبة لواحدة نجحت فى الإعدادية ؟ ما علاقة كلام الأغنية بالتهنئة ؟ ما العلاقة بين كلمات الأغنية وبين الذين أهدوها للطالبة

التى نجحت ؟ لا علاقة . . لا معنى . . . لا يوجد أى شىء يعنى دلالة شخصية . . . لا يوجد أى شىء يدل على أن هناك صلة ذات معنى وإنما (الإهداء) فقط . . . وهذا الإهداء معناه أن تطلب بعض المستمعات إلى فريد الأطرش عن طريق مقدمة البرنامج سامية صادق أن يمد يده مهنئاً طالبة الإعدادية بالنجاح فيقدم لها أغنية عمرها ثلاثون سنة ؟ . . . .

***

ومن الغريب إننا قد لاحظنا هذه المسافات التى بيننا . ونحاول بشىء من الخجل أو التورط أن نضيقها . فنندفع إلى الزيارات بعصبية . فلان يرى من الضرورى والواجب والأصول أن يزور فلاناً . . وهذا الفلان يرى من الضرورى والأصول أن يرد الزيارة . ولكن ما الذى يحدث فى هذه الزيارة ؟ لا شىء . ما الذى يقوله الناس ؟ لا شىء . . يجلسون وكأنهم واقفون . ويقفون وكأنهم ينتهزون فرصة للهرب ؟ ولكن من أى شىء يهربون ؟ يهربون من إحساسهم بأنهم . . . (يمثلون) بعضهم على بعض . . . يمثلون الشوق والحنين والصدقة والمحبة والوحشة . . .

وهو تمثيل يقوم به ممثلون أمام ممثلين هواة أيضاً . ولكن هذه هى التمثيلية الوحيدة الكاذبة والتى أكسبها التكرار اليومى حق الحياة بين أناس عواطفهم غائبة .

***

سمعت أخيراً عن شلة من الأصدقاء قرروا أن يتزاوروا . كل يوم أحد فى بيت . وقرروا فى نفس الوقت أن يلقى واحد من الحاضرين بحثاً فى موضوع يختاره . وأثناء الكلام يقدمون الشاى - وهو أسلوب مهذب لتخفيف حدة الكلام . أو طريقة لكى يصبح للألفاظ طعم الجاتوه . وحاجة الإنسان إلى أن يغير ريقه معناها أن فيه رائحة غير مستحبة . ومن المؤكد أنها رائحة الكلام الذى يخرج من فم السيد المتحدث . فما معنى هذا ؟ معناه أن الناس عندما يقررن أن يلتقوا مجرد التقاء يجدون أنفسهم فى حاجة إلى مبرر . فى حاجة إلى سبب وجيه . فاللقاء نفسه ليس غاية . وإنما هو وسيلة إلى شىء . ومعنى ذلك أنه إذا فكر إنسان فى أن يزور جاره فيجب ألا يندهش إذا سأله الجار : خير إن شاء الله ؟ .

وسيندهش الجار طبعاً إذا علم أنها مجرد زيارة فقط . لمجرد الزيارة يعنى لوجه الله . . . زيارة بلا غرض . زيارة غاية فى ذاتها وليست وسيلة لأى شىء آخر .

***

وفى هذه اللحظة : ما الذى يربطنى بك ؟ اللغة . . . هى التى تربطنى بك . . . هذه الكلمات التى نعرفها نحن الاثنين . . . هذه المعانى التى أحاول أن أنقلها إليك على أكتاف هذه العبارات . . فالعبارات مثل عربات القطار . . . مثل الترام . . . مثل الطائرات . . . كلها وسائل للنقل بينى وبينك . . . وبين كل الذين حولك . . . فهل أنا مفهوم عندك ؟ يجوز ! هل أنا محبوب منك ؟ يجوز ! هل أنت مفهوم من الذين حولك ؟ هل تستطيع أن تنقل بسهولة كل ما فى رأسك إلى رءوس الآخرين ؟ ألا تشكو من أنك تؤذن فى مالطة ؟ أى فى مكان بعيد فلا يسمعك أحد .

إذن لماذا تتكلم فلا يفهمك أحد ؟ لماذا تظهر فلا يراك أحد ؟ لماذا تقترب فلا يحس بك أحد ؟

هل الناس ينظرون ولا يرون - أى يفتحون عيونهم دون أن يعرفوا بوضوح ما يرون ؟ هل الناس يسمعون ولا يصغون - أى هل يفتحون آذانهم ولا يدركون ماذا تقول ؟

المشكلة هى : أن اللغة مشكلة . . .

والإنسان يحاول من عشرات الألوف من السنين أن يعبر . . . أى يحاول أن يكتشف وسيلة أوضح وأسرع للعبور والتعبير . . . أى للنقل بين الناس بعضهم وبعض . وليس الدين والفلسفة والأدب والفن والعلوم إلا محاولة إنسان أن يقرب المسافة بين الناس بعضهم وبعض .

ليست إلا محاولة (للحوار) بين الناس . والحوار معناه : أن أراك وأن أتحدث إليك أنت . . . وأن تسمع ما أقول وأن ترد على ما تسمع . . وأن نتبادل عملات ثابتة القيمة . فتضيق المسافات بيننا فلا نصبح فى حاجة إلى جسور لغوية . . . أو كبارى . . أو أسلاك علمية .

وإذا كانت المواصلات عندنا هى : السيارات والقطارات والطائرات والتلغرافات والتليفونات فهناك مواصلات أخرى بين الناس وهى مواصلات الكلمات فى

الأدب والخطوط فى الفن . . . وهذه المواصلات لها أسماء أيضاً هى : الواقعية وفوق الواقعية والتكعيبية والتعبيرية والمستقبلية والتأثيرية والوجودية . . . واللا معقولية وكل هذه المذاهب ليست إلا ماركات لمواصلات جديدة بين الناس . . ومذهب اللامعقول أو العبث معناه أنه لا صلة بين الناس . . وأنا لا حوار . . لا لغة لا تفاهم بين الناس . . . وأن كل إنسان يتحدث إلى نفسه . . مجنون دون أن يدرى .

. . . أو ماركات لمواصلات تحاول أن تقصر هذه المسافة التى بينى وبينك . .

وما أبعد المسافة التى «بينى وبينك» . .

أن هاتين الكلمتين متجاورتين . . لا يفصلهما سوى مليمترات . .

ولكن هذه المسافة فى الحقيقة هائلة عرضاً وطولا وعمقاً وعقداً وتاريخا ؟

فهل هناك أبسط من أن تقول الأرض « و » الشمس . . ؟

ولكن هذه «الواو» التى بين الأرض والشمس طولها ٩٣ مليون ميل .

***

وكما وصل سوف يصل الإنسان إلى القمر وإلى المريخ وإلى الزهراء . . . ولكن على هذه الكواكب سوف تتجدد نفس المشكلة : وهى أن المسافات بين الناس أبعد من المريخ . . . وسيبقى عاجزاً عن تضييقها عاجزاً عن قطعها . وما دام الإنسان عاجزاً عن أن يكون مفهوما سيكون عاجزاً أن يكون محبوباً من الزهراء . . . لأن الإنسان ما يزال . . فالمسافة التى بينه وبين الناس لا يمكن أن يقطعها الضوء نفسه وهو أسرع وسيلة للمواصلات بين أطراف الكون كله .

بينى « و » بينك .

هذه المسافة هائلة مخيفة ومحاولة الإنسان معرفتها وإلقاء الضوء عليها حديثة جداً . فعلم النفس - مثلا - هو أحدث العلوم التى اهتدى إليها الإنسان فما الذى اهتدى إليه علم النفس ؟ اهتدى إلى أن الإنسان حيوان والحيوان ليس اجتماعياً بطبعه . وإنما هو وحش بطبعه . . وعقل الإنسان هو الذى يجعله يهذب أظفاره ومخالبه ويبدو متحضراً . . . ولكن يظل وحشاً قد تحضر . ويكفى أن تثير إنساناً وأن

تهدده فى حياته لترى أنك لست أمام وحش . . . وإنما أنت أمام الإنسان الأول بل أمام حيوانات الغابة قبل أن يظهر الإنسان . . . وربما كانت هذه هى الحالة الوحيدة التى يصدق فيها الإنسان : أن يغضب وأن يثور .

هنا فقط تحس إنك أمام عدو حقيقى . أمام كراهية مؤكدة . أمام تاريخ الإنسانية كلها ذلك التاريخ الذى لم تحفظ به أوراق البردى والصخور .

فهل من المعقول أن تتلاشى المسافة التى بين الإنسان والإنسان ؟ نعم فى لحظة الغضب فقط . . . فى لحظة القتل . . . فى لحظة الدمار والحروب ! فقط يصبح الإنسان طبيعياً وصادقاً عندما يكون مدمراً ؟ إذن ما معنى الصداقة والحب والتضحية ؟

أن لها جميعاً معانى باقية . . ولكن هذه المعانى النبيلة هى عبارة عن حبات لؤلؤ فى الوحل . . هى مصابيح صغيرة شاردة فى مهب العواصف . . . أن الكثير مما يشغل الإنسان فى حياته وفى عمله ليس إنسانياً . ولكى يعود الإنسان إلى إنسانيته محتاج إلى أن يتوقف بعض الوقت ويواجه الناس . ويتساءل : لقد نسيت يدى . . ونسيت أن للآخرين يدين أيضاً فإذا لم أمد يدى فلن يمد أحد يده . . . ولن ينشلنى من عزلتى أحد . . ولن ينقذنى من أن أكون مثل روبنسون كروزو أحد . . . إذن يجب أن أعمل مثل نوح عليه السلام . سوف أبنى سفينتى على الأرض .

وليضحك الناس . ولكن سوف أنفخ فى شراع السفينة حتى تنزل إلى البحر وأقطع هذه المسافة التى بينى وبين الناس . لأن أحدًا لا يريد أن يقطع هذه المسافة . . كل ينقطع عن الناس . . أن يقتطع نفسه من الناس . . وأن يقتطع الإنسانية من نفسه أيضا . . ثم يشكو فى نفس الوقت من أنه محاط بجزيرة لا إنسانية .

ولكن نوح لم يصنع السفينة وحده . . لقد اشترك معه أبناؤه وزوجاته وزوجات أبنائه .

والأدباء والفنانون والمفكرون هم نوح وأولاده . . . ومهمتهم جميعاً أن ينبهوا الناس إلى طوفان اللامبالاة . . . إلى طوفان الزمالة بلا حب ؟ بين الناس فى البيت والعمل .

لقد تصور بعض أصحاب دور السينما فى أمريكا أن تحويل دور السينما إلى قاعة صغيرة سوف تؤدى إلى تعميق الصداقة بين الناس وهى بالفعل عمقت المسافة بين الناس جعلت بينهم خندقاً عميقاً . .

فهل هناك أصغر من البيت حيث يسكنه أربعة أو خمسة أفراد ؟ فما الذى فعله هذا العدد الصغير وهذه المساحة الصغيرة ؟ . . لا شىء !

***

فما هو الحل إذن !

الحل هو أن ينتزع الإنسان نفسه من كل انشغال يستغرقه حتى يغرقه . . ومن كل تسلية تستوى عليه . . وتسلبه الحوار . . وتسلبه وسائل المواصلات . . تسلبه اللغة مع الآخرين . . تسلبه صفة جوهرية : هى إنه اجتماعى بطبعه . . .

إنها مسافة هائلة تلك التى بينى وبينك . . هذه (الواو) . . . ما أطولها وما أعرضها وما أعقدها . . . لا أعرف لماذا كان الفراعنة يطلقون على الوجع فى الرأس كلمة (واوا) إنهم لم يكونوا يعرفون اللغة العربية طبعاً . . إذن لقد تنبأ الفراعنة بأحد معانى حرف (الواو) .



صرخات ينقصها الأدب

فى كل مرة أقرأ لأديبات سوريا ولبنان أحس أن المرأة لم تصدق أنها أصبحت حرة . . . وأن الرجل حطم لها القفص وقال لها : طيرى . . .

وطارت المرأة ثم عادت تحط على القفص تدفع بابه أمامها وتسلل وراءه وتستدرج الرجل حتى يقف على باب القفص . . وحينئذ تلعن القفص وصانع القفص والواقف أمامه . . . . ثم تلعن ضعفها وحنينها إلى القفص وإلى رجل يحرسها . . .

فهى كالذى نزل من الطائرة ولكن ما يزال أزيزها فى أذنيه . . . . كالذى نزل من الباخرة ولكن ما يزال يمشى مهتزاً كأنه فوق الموج . . . . كالذى خرج من السجن . . . وما يزال يتلفت حواليه . . ويمشى وذراعاه وراء ظهره كأن السلاسل ملفوفة حول يديه . .

مع أنهم نزلوا . . . . مع أنهم خرجوا . . . مع أن باب السجن قد انفتح . . باب القفص انكسر . . .

والمرأة لا تصدق أنها أصبحت حرة . . . فإذا صارت حرة بادرت وأعطت حريتها إلى رجل . . . نزلت عن حريتها بكامل حريتها إلى رجل تختاره . . . وتبكى وتلعن الرجل الذى أعطاها باليمين وأخذ منها بالشمال . . . وتنسى أنها هى التى أعطت وأن سعادتها فى أن تعطى كل شىء للرجل مهما كان هذا الشىء غالبا . . .

لقد قرأت كل ما كتبته الصديقات . سميرة عزام . . وليلى بعلبكى . . . وغادة السمان . . وكوليت سهيل . . .

وربما كانت سميرة عزام أكثرهن عقلا . . . وأقربهن إلى الواقعية . . . وإن كانت فى مجموعتها (وقصص أخرى) لا تتخذ أسلوباً واحداً . . . وإنما كل قصة لها لون

ولها شكل . . . فهى أيضاً تصرخ . . . وتضرب الحوائط الوهمية التى تصنعها المرأة . لتندب حظها . . . وتلعن عجزها وهوانها على نفسها وعلى الرجل . . . .

وليلى بعلبكى . . . . تصرخ وتخربش وتلعن وتبصق على الناس كل الناس وخصوصا أعز الناس عليها . . على والديها وعلى إخوتها . . وعلى المجتمع الذى أورثها الشعر الأسود والقوام النحيف . . وحرمها من عضلات الرجل وصوته الغليظ وشعره الكثيف وحريته المطلقة فى أن يخطىء فلا يحاسبه أحد . . وفى أن يقف على محطة الترام فى أية ساعة من ساعات الليل فلا يعاكسه أحد . .

إن الصفحات الأولى من قصتها الطويلة (أنا أحيا) تجعلك تشعر كم هى طويلة هذه القصة كم هى طويلة أظافر ليلى بعلبكى . . . وكم هى حرة لو أرادت . .

ولكنها تمشى وذراعاها وراءها . . . . إنها القيود الموروثة . . . إنها الأنوثة . . . إنها مخاوفها من الحرية . . .

وما كتبته غادة السمان فى مجموعتها (عيناك قدرى) تجعلك تحس أن الأديبة مصابة بحالة من الرعب . . . من الخوف الشديد . . . فالليل رهيب . . . والنجوم مشاعل من نار لن تلبث أن تنقض على الناس . . فتقام المشانق والصلبان على أعمدة النور . . ولكن غادة السمان حارة ملتهبة الألوان والصور . مجنونة الحركة مدوية الصراخ . . . . إن كل خطوة تؤكد لك أنها تحطم قفصاً واسعاً من حديد . . . . قفصاً من وهم . . من خرافة ولكنها صادقة فى مخاوفها . . صادقة فى إصرارها على أن تحطم هذا القفص الذى لا يفارقها . . هذا القفص هو ضلوعها . . . . هو أنوثتها . . . ولكنها تحاول المستحيل . . . إنها تريد أن تحطم نفسها بنفسها لتبقى قوية فى مواجهة الرجل . . . .

وقرأت كل ما كتبته كوليت سهيل . . . . لقد كانت قصتها الأولى (أيام معه) مناجاة . . . ابتهالاً . . . . صلوات . . . . صرخات . . . . ووراء هذه المظاهرة العاطفية الملتهبة اختفت معالم القصة التى كانت تريد أن ترويها لنا . . . .

وقصتها الثانية (ليلة واحدة) هى استئناف لقصتها الأولى . . . . ومشكلة هؤلاء الأديبات واحدة . . . .

إنهن يصرخن . . . . ولكن هذه الصرخات يجب أن يكون لها إطار أدبى فهؤلاء الأديبات : إما واحدة لديها الجرأة على الكتابة . . . وبها ميل إلى النشر . . وأما واحدة لديها الميل إلى الكتابة وعندها الجرأة على النشر . .

ولكن مفهوم القصة القصيرة ليس واضحاً إلا عند سميرة عزام . . .

أما ليلى بعلبكى فهى لا تعرف الشكل الأدبى للقصة الطويلة . . . . فقصتها الطويلة تحتاج إلى اختصار وإلى تركيز وإلى وضع نهاية لها . . . فهى قد بدأت على شكل قصة وانتهت على هيئة مقال أو بحث طويل . . .

أما كوليت سهيل فهى تحتاج إلى نظرة خاصة . .

فقد كان الاهتمام بما تكتبه كوليت سهيل مسئولاً عن قصص كثيرة ظهرت فى كل العالم العربى لها . فهذا الشكل الأدبى لا توجد به حدوته . . . ولا حادثة ولا شخص . . . ولا تعرف الكاتبة نفسه ما الذى تريد أن تقوله . . . ولا كيف تقوله . . . ولكنها تضع عبارات واندهاشات . . وتعبيرات ليس لها معنى واضح . . . أو ليس لها معنى على الإطلاق وتنتهى عادة بابتسامة منها أو قهقهة عالية من أحد أشخاصها مستنكراً كل واحد يحاول أن يفهم أو تسول له نفسه أن يندهش لهذا الكلام الذى لا معنى له . . .

وكوليت سهيل كاتبة نموذجية . . . .

فهى نموذج للفتاة العربية المتحررة المثقفة . . . . التى تئن وتصرخ . . . من أى شىء؟ هذه هى مشكلة . . . . إنها تصرخ وأنت لا تعرف لماذا تصرخ . . . . فهى تقفل على نفسها الباب وتلعن النوافذ . . . . تقفل على نفسها كل شىء وتلعن الشوارع وتتمنى لو أصيب الرجال كلهم بالعمى حتى لا يروا وأن يصاب ضميرها بالخرس حتى لا ينطق . . . ولكن لماذا ؟ والجواب لأنها ليست حرة . . . لأنها لا تستطيع أن تمارس حريتها على حريتها . . . ولكن من الذى وقف ضد حريتك ؟ والجواب : لا أحد . . .

لقد قرأت آخر مجموعة قصصية لكوليت سهيل أسمها (أنا والمدى) والكاتبة تسميها (قصصاً) وأنا لا أعرف إصرارها على هذه التسمية . . . .

وقد استهلت هذه المجموعة بإهداء غريب . . . وعليك وحدك أن تفهم وإذا فهمته فأنت قادر على أن تستوعب الكتاب كله . . . أما إذا لم تفهم فذنبك على جنبك

ولا عـذر لك فليس من الضـروري أن تفـهـم . . . أنهـا تكتب مـا تشـعـر به ومـا يعجبها . . وأنت بالصدفة أحد قرائها . . . . أو لن تكون بعد ذلك من قرائها . . . .

أما الإهداء فهو : إليـه . . . إلى الذى عانق المدى . . . ثم ألقاه عند حدود بيتى الصغير . . ليجد فى عينى . . إليه أهدى هذا الأنا . . . ومداه . . .

وهذه المجمـوعة تتـألف مـن سبـع قـصـص بعـضـها عـلى شـكـل مقـالات . . . أو تأملات فى المرأة . . . فى السحاب . . . فى السمـاء . . أو ليس من الضرورى أن تكون هناك سمـاء وكل مـا فى القصص أو هذه المشروعات القصصيـة غـامض - مبهم - ضباب - ألغاز - أسرار .

وتظل تنتقل أنت من موضوع إلى موضوع إلى أن تفاجأ بموضوع أو بقصة - كما تسميها كوليت وتجد حواراً بين المؤلفة وأحد الصحفيين أو أحد النقاد ينتهى الحوار بأن هذا الصحفى أبلة وسخيف . . . أبلة لأنه لا يفهم ما تقوله هى . . ولأنه لا يجد تسمية لهذا الذى تقوله . . وسخيف لأنه عنيد . . .

تصوروا أنه يريد أن يفـهم ؟! . . أمـا الذى يريد أن يفـهـمـه هذا الصـحـفى فـهـو مشكلة بسيطة جداً أنها تقول : لـقد عـشت وحـدى ورغم أننى كنت وحدى فـقد عشت مع الذى أحببته وعشقته . . .

وهو يحاول أن يفهم . . . .

كيف كانت وحدها ثم عاشت مع شخص تحبه وتعشقه ؟

أما حل هذه الفزورة فهو أن الشخص الذى أحبته وعشقته هو قلمها أو فنها أو هو حبها لعزلتها . . .

وتندهش منه جداً كيف أنه لا يفهم أى كلام تقوله !

ويتعجب هو كيف أنها لا تقول كلاماً يفهمه الناس .

وتسأله : يعنى إيه الناس ؟

وجوابه لا بد أن يكون : النـاس الذين أصـدرت لهم هذا الكتـاب . النـاس الذين يجب أن تستـمدى مادة كلامك منهم . تكتبين منهم وتكتبين لهم وتكبـرين بهم

وتعيشين عليهم . . الناس . افتحى الشباك . . الذين صنعوا الورق والحبر وطبعوا الورق وحملوه وباعوه . . . وانتظروا وانتظرت أنت من ورائهم . . .

وربما كانت القصة الوحيدة التى لها معنى القصة فى هذه المجموعة هى القصة التاسعة . . . فهى فى هذه القصة تحاول أن تكتب قصة . . . بأن تعلن عن ضيقها بالناشر . الذى يرغمها على كتابة قصة . . وليست فى رأسها فكرة . . وهى فكرة أن يدفعها أحد إلى الكتابة وتقول أنها نزلت إلى الشارع لتشترى الصحف لعلها تجد فكرة أو معنى - وأنا لا أصدقها - تجعله محوراً لقصة من قصصها مع قصصها لا توجد بها حادثة . . ولا شىء ولا صوت . . وإنما ظلام فى ضباب فى سحاب فى دموع . . وأخيراً تقع عيناها على رقم . . وتشاء الصدفة أن يكون هو رقم ورقة اليانصيب التى اشترتها . نفس الرقم إذن لقد ربحت البريمو ستسافر إلى حبيبها . . . ستبنى بيتا أنيقا . . . وتعود إلى البيت لتكتشف أن جدتها العجوز قد كنست هذه الورقة القديمة . . وألقت الكناسة فى صندوق الزبالة . . وجاء الكناس وحمل الزبالة إلى أطراف المدينة . . . كارثة ضاعت آمالها فى الزبالة . . وتركب السيارة وتصل إلى أطراف المدينة وتجد كل قذارة الناس هناك . . . كل أحلامها وآمالها الوردية ملقاة هناك تحت هذا الجبل القذر . . ويخطر لها أن تستأجر رجلا يفتش عن هذه الورقة ولكن استئجار رجل شىء فظيع . . . فكرة حقيرة . . . أن هذه الفكرة جعلت أعماقها تتسخ . . . ولا يمكن أن ترتكب هذا العمل الوحشى . . . وعادت إلى السيارة ليسألها السائق إن كانت قد فقدت شيئاً فتقول له بل وجدت شيئاً . . . وجدت إنسانيتى . . .

وجدت القصة التاسعة فى هذه المجموعة . . .

وعيب هذه القصة التى بها حدوته وبها حادثة . . أنها بدأت كمقال وانتهت كمقال أيضاً وأن المؤلفة تحتقر هذا الشكل من الكتابة . . . إنها لا تريدها أن تكون قصة . . . فجاءت قصة رغم أنفها . .

وأنا أقترح على كوليت سهيل أن تعاند نفسها فتنشر القصص التى لاتعجبها . . . وأن تبعث بها إلى الناشر كما فعلت فى هذه القصة التاسعة . . . .

أما إذا كانت قصصها ابتهالات وصلوات فى محراب غريب . . محراب لاينتسب إلى أى دين محراب يقف فيه المؤمن - أو القارىء - دون أن يعرف إلى من يتكلم ومع من يتكلم ولا من الذى يسمعه ولا ما الذى تقوله فاقترح أن تسميها (تأملات صوفية) .

ولكن أثر كوليت سهيل على الأديبات الناشئات - يرجع إلى أنها أشارت إلى حقائق كان من الصعب على الفتاة أن تخوض فيها . . . فهى اعترفت بأنها أحبت . . . وإنها تعبد الذى تحبه . . . . وجاء النقاد وأشاروا وأكدوا أن الأديبة السورية تعنى ما تقول . . . فهى لا تخاف من الواقع الذى تخفيه قصتها الأولى . . . . وهى تعترف بذلك .

وانتشر أدب الاعترافات بين الأديبات الناشئات . . . .

ويبدو أن الأديبة السورية كوليت سهيل عندما لاحظت أن أديبات كثيرات بدأن يعترفن وأن اعترافاتهن ينقصها الحياء والحياة . . عادت إلى تغليف اعترافاتها . . إلى تغليف الحياة فى الحياء وإلى وضعها فى مناديل من سحب موشاة بلون الشفق . . . ولذلك فقصتها الأولى أوضح من قصتها الثانية . . ومن كل القصص القصيرة التى جاءت بعد ذلك . . . . وأنت عندما تقرأ لكوليت شعرها ونثرها تحتار فى معرفة أيهما الشعر ؟

***

ومنذ سنوات ظهر ديوان شعر بالفرنسية طبع فى باريس بعنوان (صرخات) لكاتبه مصرية اسمها (جويس منصور) وجويس فتاة جميلة رقيقة حادة عنيفة . . . وصرخاتها الفنية لها دوى تحسبه فوراً من أول قصيدة . . وجويس لا تعرف الدموع ولكنها تعرف العرق ولا تعرف البكاء وإنما تعرف الألم . . .

وأحسن نقد ظهر لهذا الديوان ما قالته الأديبة الفرنسية فيلموران : الشابة الحلوة جويس منصور أدركت أنها حرة منذ زمن طويل . . . . وأن الرجل أحياناً يشكو القيود ، القيود التى لا تشكو هى منها . . فهى تقول ما تريد وعلى النحو الذى تريد وبنفس الدرجة من الصراخ والجرأة . . . ولا تعرف بالضبط أين حدود الرجل وأين حدود المرأة . . . . فالفن لا يعرف هذه الحدود . . . .

وأحسن ما قالته الشاعرة جويس منصور فى هذا الديوان : إننى لم أنشر كل ما كتبت فقد كتبت قبل هذا الديوان مئات القصائد . . . ولكن عيبها فى نظرى أننى ألعن فيها أناساً أبرياء . . . وأنى أعلن أنهم يقفون فى طريقى . . . . ولكنى اكتشفت أن أحداً لا يعطل نموى وأن أحداً لا يعترض مواهبى . . . . فلماذا لا أمشى كالناس بدلاً من أن أقفز كالأرنب وأزحف كالثعبان . . يجب أن آخذ حريتى . . . يجب ألا أطلبها من أحد . . .

ويجب ألا أتوهم أن اللصوص لا نهاية لعددهم . . وأنهم جميعاً من الرجال وأنهم انصرفوا عن كل شيء وراحوا ينصبون المصائد لشيء واحد هو : حريتي إلا ما . أتفهمني ؟

***

إنه نفس المشكل . . . . وهي أن المرأة لا تصدق أنها حرة . . . وأن من حقها أن تكتب وأن تقول . . . بالشكل الذي يعجبها . . . أما البكاء والندب والخوف من القيود فإن هذا يعطل نموها . . . . ويوقف تطورها . . . يجب أن تتخفف من مخاوفها التاريخية وأن تلحق بالرجل فهذا من حقها . . . .

إلا إذا كانت المرأة تريد أن تكتب ولكنها لا تستطيع . فإذا استطاعت فلابد أن تكون هنا قيود فنية . . . . فلا فن بغير قيود . . . أما إذا كانت هذه القيود تضايق المرأة فلا أعرف ما الذي يريحها .

وإذا كانت القصة يجب أن يكون لها إطار . . وأن يكون لها معنى وأن هذه الأصول العادية جداً تبكي المرأة فتنتقم منها ومن الرجل . . بلعن القصة وبعد ذلك تسميها – قصصا . . فلا أعرف ما الذي يضطر المرأة إلى الكتابة وإلى نشر الذي تكتبه وإلى انتظار رأي الناس . . .

وإذا كان الفن – عند الأديبات الناشئات – هو التحرر من قيود الفن فما أتفه ما تكتبه وما تنشره المرأة . . .



قصة ٩٠ دقيقة

شكوى

من طه حسين : أن الناس يلقون بالماء عند ناصية الشارع الذى يسكن فيه . وهذا يجعل له رائحة كريهة ويضاعف عدد البعوض فى هذه المنطقة . . إنها ليست شكوى ولكنها شكوى من الشكوى التى قدمها للمحافظة فلم تفعل شيئاً ؟

وهو شارع ضيق جداً . . كأن شارع الهرم وهو منطلق فى اتجاه الإسكندرية قد استدرك قليل ليغير اتجاهه . . محاولا أن يقلد طه حسين الذى كانت حياته وفلسفته استدراكاً لسير الأدب والفن والفلسفة فى العالم العربى . .

وفى نهاية الشارع الضيق يوجد بيت طه حسين . .

وقد دخلت هذا البيت مرات عديدة .

ولكن فى هذه المرات الأخيرة كنت شديد القلق . . فقد وافق طه حسين على أن يكون ضيف برنامج التليفزيون «نجمك المفضل» الذى أتولى إعداده . . وخشيت أن يؤدى البرنامج إلى إرهاقه . . وخافت السيدة حرمه من المصابيح الضخمة أن ترفع درجة حرارة المكان . . تخشى على طه حسين - ونحن أيضا - من أصابته بالبرد . .

ووعدت أنا بأن نراعى كل شىء : صحته ونظام البيت ، وألا نرهقه بالأسئلة ، وأن يكون تسجيل البرنامج فى الوقت والمكان ومع الأدباء الذين يريدهم . .

وفى التليفون قلت للمرحوم حسن حلمى مدير التليفزيون : طه حسين ضيف الحلقة القادمة !

وكنت قد سألت طه حسين فقال بالفرنسية : موافق .

ضيف الحلقة القادمة . . موافق ؟

ولم أجد لكلمة «موافق» هذه إلا بعض المعانى السهلة : وهى أننى سوف أذهب لمقابلته مرة أو مرتين . . واتفق معه على الموضوعات التى سنناقشها فى البرنامج وأعددت الموضوعات بالفعل . واتفقت مع عدد من الأدباء يمثلون أهم ملامح الأدب والفكر ، وحملت معى الأسئلة وقرأتها على طه حسين . . واستراح لكثير منها .

وذهبت مرة أخرى إلى طه حسين . . والتقت ليلى رستم مقدمة البرنامج بطه حسين . . وتحدثت إليه بالعربية وبالفرنسية . . وجاءت حرم الدكتور طه حسين . . ودارت المناقشات بسرعة عن الجو . . وكان الجو بارداً فى تلك الليلة . . وتمنينا جميعاً أن يكون الجو أحسن فى يوم التسجيل وتمنيت أن يكون بارداً نوعاً ما . . حتى إذا جاءت مصابيح التليفزيون وأضافت إليه بعض الحرارة كان الجو محتملا . . فلا يضيق به طه حسين أو السيدة زوجته .

وروت زوجة طه حسين كيف أن درجة الحرارة فى باريس سنة ١٩١٧ يوم زواجها كانت ١٨ تحت الصفر . . وكيف أن باريس أثناء الحرب العالمية الأولى لم يكن بها فحم ولا تدفئة . . وكيف أن البرودة جعلت وجهها أزرق . . وكيف أنها كانت تجد صعوبة فى الذهاب إلى الجامعة وإلى المكتبة مع طه حسين . .

وروى طه حسين كيف أن لطفى السيد كان يداعب السيدة حرمه عندما يطلب إليها أن تترجم بعض الكلمات الفرنسية إلى العربية . . فقد طلب منها ترجمة الكلمة «آن» معناها : حمار . . فنطقت كلمة حمار هكذا : أومار . . وطلب إليها مرة أن تترجم الكلمة الفرنسية «روج» ومعناها : أحمر فقالت : أومار .

وكان لطفى السيد يضحك ويقول : يعنى ألا تجدين فارقاً بين الحمار والأحمر !

وتمنيت أن يرى جمهور التليفزيون هذه الروح الحلوة لطه حسين ، وأن يروا هذه المناقشة الحية الدافئة بين طه حسين الأب والزوج والأستاذ لزوجته السيدة سوزان .

وفى اليوم التالى عدت إلى طه حسين أيضاً أطمئن على صحته . . واطمئن على ما يفعله مهندسو التليفزيون فى بيت طه حسين . . واتجهت إلى الحديقة فوجدت الكاميرات ، والأسلاك ، كلها فى حالة استعداد . . ولم يكد طه حسين يعلم أننى موجود فى الحديقة حتى أرسل لى سكرتيره فريد شحاته . . وصعدت إلى الدور

الثانى . . فوجدت طه حسين جالساً على مقعد إلى جوار سريره . وكان بملابسه الكاملة . . وسألنى :

ما هذه الضوضاء ؟

قلت : إنهم مهندسو وعمال التليفزيون .

سألنى : وماذا يفعلون ؟

قلت : يمدون الأسلاك . . أنهم سيصورون الفيلا من الخارج . .

فقال : لا تصوير . . فى داخل البيت . .

فقلت : وهو كذلك . لا تصوير فى داخل البيت . . ولكن ربما احتاجوا إلى تصوير الشارع والحديقة . . وهو ضرورى كمقدمة للبرنامج أو للحديث معك . .

قال : حسن حلمى جاء وصورنى وكذلك البيت من الداخل ومن الخارج . .

قلت : حسن حلمى صورك فعلاً لأنه يقوم بعمل فيلم عن حياتك . . وهذه الصور التى التقطها لا يمكن الاستعانة بها .

ولم أعرف كيف أشرح لطه حسين أن هناك نوعين من التصوير : التصوير بالأفلام والتصوير بالفيديو . . وأنهما لا يمكن تركيبهما معاً خارج الاستديوهات . وأنا لا أدعى أننى أعرف هذه الحقيقة من وقت طويل . فقد عرفتها أخيراً جداً !

ولكنى أكدت لطه حسين أن كل شىء سوف يتم تصويره وتسجيله تماماً كما يريد . .

وجاءت السيدة حرمه وأشارت إلى النافذة فرأت عدداً كبيراً من المهندسين والعمال وكلهم يقفون فى الحديقة . والحديقة مبللة إلى حد ما . وأكدت لها أن البيت سيحتفظ بكل ما فيه من نظام وجمال . .

وقبل موعد التسجيل بساعة ذهبت إلى بيت طه حسين . . وعندما اتجهتا من شارع الهرم إلى الشارع الضيق ، وضعت يدى على وجهى . . لقد أدركت الترجمة الحرفية لكلمة «موافق» التى قالها طه حسين . . فقد ترجمها المهندسون إلى معان أخرى لم تخطر لى على بال . . لقد رأيت سيارات كبيرة وكثيرة ملأت الشارع كله . . والسيارات لها أزيز وطنين وهدير . . وأبوابها مفتوحة وبها عدسات تبرق

وتلمع وميكروفونات . . وهناك سيارة تولد التيار الكهربى . . والناس وقفوا فى البلكونات والنوافذ المجاورة . .

واتجهت إلى الحديقة . . فوجدت معانى هندسية لكلمة «موافق» يا خبر أسود . لقد انفتح الصالون . كل أبواب الصالون . . والمقاعد تجاورت وانحشرت والستار نزل على المداخل ليفصل بين البيت وبين الصالون . . وعدد الموجودين عشرون أو مائة . . أو مليون . . لقد تضاربت الصور فى رأسى . . وارتفعت دقات قلبى . . يا خبر أسود . . والكاميرات دخلت الصالون . . والميكروفونات تناثرت على المناضد . . وكل هؤلاء المهندسين والعمال قد وقفوا بأحذيتهم على السجاجيد . . ولا أعرف إن كان صحيحاً ما رأته عيناى من أن واحداً من الواقفين قد وضع رجله على مقعد . . أو أن هذا وهم . .

ولما اقتربت منهم أكثر قالوا : المدام فى ثورة وتسأل عنك . لقد أمرتنا بأن نخرج فوراً وأن نحمل المصابيح إلى الحديقة . . لا تسجيل اليوم . .

يا خبر - لا أعرف لون الخبر فقد اختلطت الألوان أمام عينى . .

وجاءت مدام طه حسين وقالت لى فى ثورة : شايف . . الذى حدث . . شايف . . دكتور طه يريد أن يتحدث إليك فوراً . .

واتجهت إلى السلم . . وكانت خطوتى ثقيلة . . وأضاءت لى مدام طه حسين الطريق . . ودخلت ووجدت طه حسين على نفس مقعده إلى جوار السرير وبادرنى بقوله : هل يرضيك هذا ؟

وقلت له : إن هذا العدد الهائل من الناس ليسوا أدباء . . وليسوا جمهوراً فى البرنامج وإنما هم مهندسون وعمال يضبطون أجهزة التليفزيون فقط . وفى استطاعتى أن أخرجهم جميعاً . وفوراً . .

ونزلت وطلبت إليهم أن يخرجوا جميعاً . . وطلبت إليهم أن يحرصوا على المقاعد والسجاجيد وعلى الآنية النادرة الموجودة فى الصالون . . وطلبت إليهم إطفاء الأضواء .

ونظرت إلى الساعة وقلت : لم يبق إلا خمس دقائق ! يارب اجعل هذه الدقائق تمر فى سلام !

أما الدقائق الخمس هذه فهى التى بقيت على مبارحة السيدة حرم طه حسين للبيت . فهى مدعوة على حفلة بالسفارة الفرنسية . . خمس دقائق . . أربع دقائق . .

ونزل طه حسين من غرفته وقد عاونته السيدة حرمه وسكرتيره فريد شحاته . وتصدر الصالون . وكانت الإضاءة خافتة . ولم يكن يجلس جواره إلا ثلاثة أو أربعة من الأدباء . أما رجال التليفزيون فقد وقفوا فى الحديقة . وجاءت السيدة حرم طه حسين تهمس فى أذنى محذرة منذرة : إياك أن ترهقه . . إبعد المصباح . . احترس من الهواء . .

حاضر . . حاضر . .

وبقيت دقيقة واحدة ، ونحن واقفون فى صمت . وجاءت مدام سوزان وتأكدت من أن البطانية تغطى ساقى طه حسين . وألقت نظرة أخرى على المصابيح وعلى الواقفين فى الحديقة . وخرجت من الصالون ومن الباب الخارجى إلى الشارع . وإلى شارع الهرم . .

وصرخت فى المخرج سعيد عياده : المصابيح كلها تضاء . اجلسوا جميعاً . . التسجيل يبدأ بعد عشر ثوان . .

واشتعل الصالون بالضوء وبالحرارة . .

وانتهزنا الفرصة . واحمرت عيون الكاميرا المتجهة إلى ليلى رستم – ثم إلى طه حسين . . ثم إلى الأدباء الموجودين . . وارتفع صوت طه حسين قليلاً قليلاً . . وضحك وضحكنا وحمدنا الله على روحه الحلوة وعلى معنوياته العالية . . وكانت ضحكته تصريحاً لنا جميعاً بأن نضحك .

ومضت نصف ساعة . . والتفت ورائى فوجدت مهندسى التليفزيون يهزون رءوسهم بما معناه : كويس . .

ومضت نصف ساعة أخرى . .

وأكمل البرنامج ساعة ونصف الساعة . . وانطفأت الأنوار وانخفضت درجة الحرارة فجأة . واتجهت إلى طه حسين ومددت يدى أشكره فقال لى : لم تنفذ شيئا مما وعدتنى به .

وأنا أحتكم إلى القراء هل يرضيكم أن يتحدث طه حسين نصف ساعة وأن يجيب على خمسة أسئلة ؟

إن طه حسين لم تخنه الذاكرة . وأسلحة سخريته لم تصدأ . وقد أشاعت فيه المناقشة حرارة الشباب والجدل . . بل إننا بعد نهاية التسجيل جلسنا نستأنف المناقشة أكثر من نصف ساعة !

إن طه حسين أكثر حيوية ومرحا مما يتصور ومما تتصور السيدة حرمه . .

ولولا أن أشرطة التسجيل قد انتهت لاستمعت إليه ساعة أخرى . .

وفى الظلام وقبل أن تجىء مدام طه حسين من حفلة السفارة ، تسللت عائداً . . هارباً وشاكرا ! . .

ومن ورائى هؤلاء الأدباء شركائى فى البرنامج : د . عبد الرحمن بدوى ، وعبد الرحمن صدقى ، ويوسف السباعى ، وثروت أباظة ، وأمين يوسف غراب ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، ونجيب محفوظ ، ومحمود العالم ، وكامل زهيرى . .

وعدت وفى نفسى أن أناقش طه حسين فى رأى له عن العقاد لم يعجبنى . . ولا الملايين أيضاً !



مكافأة لمن يفهم

من المؤكد الآن أن طه حسين كان يعنى ما يقول فى التليفزيون من أنه لم يفهم «عبقريات العقاد» وعندما سألنى : هل تفهم عبقرية عمر وقلت نعم إننى أفهمها هى وغيرها من العبقريات لم يسترح إلى هذا الرأى .

وقد تضايق الناس من رأى طه حسين هنا لأسباب مختلفة . . فبعضهم رأى أنه ليس من اللائق أن «يجرح» طه حسين كاتباً كبيراً كالعقاد بعد وفاته . . وبعضهم قال أن طه حسين لم يكن يستطيع أن يقول ذلك والعقاد حى . . وبعضهم لم يصدق إن طه حسين لم يفهم هذه العبقريات .

وقد نشر عامر العقاد ابن أخى الأستاذ العقاد خطابات تؤكد إعجاب طه حسين بعبقريات العقاد . .

وقال لى صلاح طاهر : إنه سمع طه حسين يبدى إعجابه بعبقرية عمر بالذات فى بيت العقاد بمصر الجديدة . . وسمعه يقول : إننى عندما قرأت عبقرية عمر ، أحسست إننى أقرأ عبقرية العقاد . .

ولكن طه حسين أصر فى جلساته الخاصة على أن يؤكد أنه لم يفهم عبقرية عمر وأنها غامضة شديدة الغموض .

ولقد جاء حفيد طه حسين الطالب بكلية النصر بالمعادى يسأله : إذا كنت أنت لم تفهم عبقرية عمر المقررة علينا هذا العام ، فكيف نفهمها نحن ؟

وكان هذا صدى رأى طه حسين عند معظم الطلبة . .

ولكن طه حسين مصر على موقفه .

وجلست إلى طه حسين ساعتين وهو يؤكد لى أنه لم يفهم (عبقرية عمر) ولا عبقرية محمد ولا أية عبقرية أخرى . .

ولما سألت طه حسين : إذن أنت ترى أن العقاد لم يحسن كتابة هذه العبقريات . . ولا تعجبك واحدة منها . . فهل هذا رأيك فى بقية كتب العقاد . . هل فى استطاعتك أن تختار لى أحسن كتب العقاد ؟

وكان رد طه حسين : بإخلاص لا أعرف . . فقد قرأتها منذ وقت طويل . .

وعاد يسألنى مرة ثالثة : هل فهمت عبقرية عمر ؟

فأجبت : نعم فهمتها .

وضحك طه حسين . .

ويوم احتفاله بتسلمه الدكتوراه الفخرية السابعة فى بيته عاد طه حسين يروى للأستاذ سيد يوسف وزير التربية والتعليم وللدكتور سليمان حزين وزير الثقافة كيف أن حفيده جاء يسأله كيف يفهم «عبقرية عمر» . . وضحك طه حسين وضحك الوزيران . .

ثم اتجه طه حسين يتحدانى قائلا ، وكان قد حضر الدكتور عبد القادر حاتم أنا أراهنك بما تشاء إذا استطعت أن تلخص لى عبقرية عمر أو تقول لى ما الذى يقصده العقاد ؟

فقال الأستاذ سيد يوسف : إنه يستطيع . .

وقال الدكتور حزين : وإذا لم يستطع فإنه سوف يقدم لك صورة أخرى لعبقرية عمر . .

وسأله الدكتور حاتم إن كنت أنا أرهقته كثيراً فقال طه حسين : إنه لا يرهقنى . . بالعكس إننى سعيد به . .

ولم أصدق أن طه حسين جاد فيما يقول . .

وذهبت أبحث عن التقرير الذى كتبه طه حسين لترشيح العقاد إلى جائزة الدولة التقديرية .

فوجدت أن طه حسين كتب بتاريخ ٣ أبريل سنة ١٩٦٠ عن العقاد :

«إن لديه القدرة العالية على فهم النصوص وتعمقها والاطلاع الواسع الغنى» .

وقال أيضاً : وكانت للعقاد فى التراجم طريقة انفرد بها وأجاد فيها وهى أنه يتناول العظيم من جانبه الذى كون له عبقريته . وبهذه التراجم استطاع أن يعرض على أبناء هذا الجيل صفحات مشرفة من أمجادنا الخالدة . .» .

وقال أيضاً : لقد استطاع أن يلقى على أولئك الأعاظم ضياءً ساطعاً بحيث يشعر هذا العصر بقوة عبقريتهم وسلطان أخلاقهم ، وبحيث يدرك عظمة الإسلام ورجاله أتم إدراك ، فيجد أبناء هذا العصر فى مطالعة كتب الأستاذ العقاد قدوة لهم يقتدون بها فيزدادون صلابة فى إيمانهم وشدة فى قوميتهم» .

وقال طه حسين فى هذا التقرير :

إنه ولا شك من رسل الحرية فى عصرنا . . وهو الذى نادى بالحرية السياسية والحرية الفنية والحرية الفكرية ، قل أن نجد له بين المعاصرين من يساويه» .

انتهى كلام طه حسين عن العقاد الذى قدم صفحات مشرقة من أمجاد العرب فى سلسلة عبقرياته . وانتهى كلام طه حسين أيضاً عن العقاد رسول الحرية الذى لا يساويه أحد !

وليس عندى ما أقوله تعليقاً على كلام طه حسين ، لأننى قبلت التحدى وقبلت الرهان . . وقبلت أن أكون طرفاً فى هذه النكبة التاريخية !

***

وعندما سألت نجيب محفوظ عن رأيه فى عبقرية عمر أو عبقريات العقاد كلها ، لم أكن متهما لنفسى ، وإنما لجأت إلى واحد من أكثر أدبائنا إنصافاً وذكاءً واطلاعاً . وقال لى نجيب محفوظ : أن عبقرية عمر بالذات من أبدع ما كتب العقاد . . إننى أنظر إلى كل عبقرياته فتعجبنى من الناحية الفنية . . وفى عبقريات العقاد لا نجد السرد التاريخى . . فالحقائق التاريخية معروفة عند كل الناس . ولكن العقاد يقدم لك عملا فنياً ، يقدم لك شخصية غير موجودة بهذه الصورة فى التاريخ . . ولذلك فالعبقريات أعمال خلاقة . فهو يبلورها بصورة لا نجدها فى أى مصدر تاريخى . . والفيلسوف أرسطو على حق عندما قال : إن الفن أصدق من التاريخ . .

وقال نجيب محفوظ أيضاً معلقاً على كتاب «أبى نواس» للعقاد ، وهو فى رأى طه حسين من أسوأ ما كتب العقاد : إن المنهج النفسى الذى يعتمد عليه العقاد قد بلغ أوجه فى دراسة أبى نواس .

ويقول أيضاً : إن العقاد عندما تحدث عن عبقرية محمد ، فإنه أعطانا عبقرية محمد وقصة محمد أيضاً . إنه يعطيك شيئاً أكثر من التاريخ وأروع من التاريخ . .

وسألت الثالث الكبير توفيق الحكيم : وأنت ما رأيك فى عبقريات العقاد ؟

وأجاب توفيق الحكيم :

إنها سلسلة ممتعة . وقد اعتمد العقاد على المنهج النفسى . وهو ولا شك يختلف فى تحليله للعبقريات عن كل السير التاريخية . والعقاد يفترض فى قارئ العبقريات أن لديه إلماماً بسيرة هؤلاء العلماء ولذلك فهو يمضى فى رسم شخصياته العظيمة ببراعة وعمق . .

ثم سألنى توفيق الحكيم إن كان طه حسين لا يزال يؤكد أنه لم يفهم العبقريات وكان ردى : إنه لا يزال يؤكد بحماس يدهشك . . حماس كان مكتوماً ثم تدفق فجأة .

وحاول طه حسين أن يغير من الكلام عن عبقريات العقاد فسألنى : وهل يعجبك شعر العقاد ؟

فقلت : هل أفهم من هذا السؤال أنك تريد أن تقول مرة أخرى إنك لم تفهم شعر العقاد . .

فأجاب طه حسين : ديوان العقاد «وحى الأربعين» هو أحسن دواوينه .

وعدت أسأل طه حسين مستوضحاً : هذا الديوان هو أحسنها أو إنه ديوانه الوحيد ؟

وسألنى طه حسين : وهل يعجبك شعر العقاد ؟

فقلت : نعم يعجبنى . ولا خلاف على شاعرية العقاد . . وعلى شعره الفلسفى والعاطفى . . إلا إذا كان من رأيك أنه بعد «وحى الأربعين» لم يقل شعراً . .

وقال طه حسين : أظن أن مطربة لا أعرف اسمها قد غنت له قصيدة .

ونادى طه حسين سكرتيره فريد شحاته يسأله عن اسم هذه المطربة . وأظن أن فريد شحاته قال أن اسمها نادرة .

وضحك طه حسين ليقول : أظن العقاد كانت قصيدته تقول : فضض ضياءك يا قمر .

وضحك طه حسين مرة أخرى ليقول : تصور العقاد يقول فضض ضياءك يا قمر . . أى جمال فى هذا المعنى . ضوء القمر الفضى . . ومجرى النهر الفضى . . هل يعجبك هذا المعنى !

وأحسست إننى مرة أخرى سأكرر الإجابة والمناقشة والدهشة والحيرة أمام موضوع آخر يشبه موضوع عبقريات العقاد . .

وتذكرت أن طه حسين عندما أصدر قصته «دعاء الكروان» جعل إهداءها للعقاد هكذا :

إلى صديقى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد . . سيدى الأستاذ أنت أقمت للكروان ديواناً فخماً فى الشعر العربى الحديث . هل تأذن فى أن أتخذ له عشاً متواضعاً فى النثر الحديث وأن أهدى إليك هذه القصة . تحية خالصة من صديق مخلص .

وتذكرت أن طه حسين هو الذى بايع العقاد أميراً للشعراء وكان ذلك منذ ستين عاماً !

إذن لا بد أن يكون رأى طه حسين فى الشاعر العقاد مثل رأيه فى المؤرخ والناقد والمفكر العقاد !

وانتقل طه حسين يتحدث عن أنه حصل على الدكتوراة الفخرية سبع مرات : من باليرمو ومن روما ومن مونبلييه ومن ليون ومن مدريد ومن أثينا ومن اكسفورد .

وروى كيف أن التقاليد فى جامعة اكسفورد كانت تحتم عليه أن يرتدى الروب والبرنيطة أثناء الحفلة فقط . وبعد ذلك يخلع الروب والبرنيطة . وكيف أن فريد شحاته الغلبان - هذا تعبير طه حسين - قد اشترى له روباً بثلاثين جنيهاً وأهداه لطه حسين . .

وكيف أنه استقال من كلية الآداب عندما رأت وزراة إسماعيل صدقى أن تمنح كلية الآداب الدكتوراة الفخرية لبعض رجال السياسة . واعترض طه حسين لأن عميد كلية الآداب ليس عمدة يعطى هذه الشهادة لمن يشاء رئيس الوزراء .

وانتظرت أستمع الغرض من هذه المقدمة فقال طه حسين : وأنا قد سمعت العقاد يقول لأحد الوزراء فى مجلس الفنون بالحرف الواحد : يعنى أنا أصدرت أكثر من سبعين كتاباً ومع ذلك فالجامعة لم تلتفت إلىَّ . .

ويفسر طه حسين كلام العقاد هذا بقوله : لقد طلب العقاد من الوزير أن تعطيه الدولة الدكتوراه الفخرية التى أعطتها من قبل لأحمد أمين . . وهذا ضد التقاليد الجامعية لأن الدكتوراة الفخرية تعطى للأجانب فقط . . وأنا شخصياً عندما ذهبت إلى السوربون وأنا وزير للمعارف أقاموا لى حفلة واعتذروا من عدم إعطائى الدكتوراة الفخرية لأننى سبق أن حصلت على الدكتوراة من السوربون . .

ولم يكن طه حسين فى حاجة لأن يوضح لى أكثر عندما قال : ولم يكن من الممكن أن يحصل العقاد على الدكتوراه من كلية الآداب . . لأنه لم يحصل على الماجستير والليسانس والتوجيهية !

وعلى سبيل التغيير والترويح عن النفس سألته إن كان له رأى فى توفيق الحكيم فقال طه حسين : أنا الذى قدمت توفيق الحكيم . فقد جاءنى الدكتور كامل حسين والأستاذ حسن محمود وقدما لى كتاب توفيق الحكيم «أهل الكهف» وكتبت عنه وأصبح معروفاً .

ولاحظ طه حسين أن توفيق الحكيم فى السنوات الأخيرة يقول كلاماً غير مفهوم . .

ولما سألنى عن الذى يفعله توفيق الحكيم قلت له : لا أعرف ما الذى يفعله إنه يجلس فى مكتب . . ويتردد عليه الأدباء والنقاد وتلامذة الجامعة . وآخر رحلة قام بها الحكيم كانت إلى الأقصر . .

وهز طه حسين رأسه .

ومضيت أقول له : وكانت الرحلة على حساب جريدة الأهرام .

واعتدل طه حسين قليلاً ليقول : لقد اشتغلت فى الجمهورية وفى أخبار اليوم كل هذه السنوات الطويلة ولم يحدث أن دفعوا أجر رحلتى . . أما توفيق . . .

وضحك طه حسين ليقول : فهو شاطر فى هذه المسائل المالية . . وهل كتب شيئاً بعد عودته ؟

قلت أنا أيضاً ضاحكاً : لم يكتب إلا مقالا وعندما سئل لماذا لم تكتب قال ضاحكاً : لقد سافرت فى سفينة نيلية وكانت المطربة شادية فى الغرفة المجاورة .

وضحك طه حسين وازداد وجهه إحمراراً وانفتحت شهيته للكلام عن توفيق الحكيم . .

وقد رويت لتوفيق الحكيم ما قاله طه حسين فقال الحكيم وهو مختلج الصوت : إننى لم أكن أفتن النساء أبداً . . ولكن طه حسين كان طول عمره يفتن النساء بطريقته فى الكلام وبشخصيته . . وعندما كنت فى جنوب فرنسا من ثلاثين سنة

كانت هناك سيدة أمريكية تطارده . . كانت تحبه . . وكان هو يتسلل من ورائنا ويهرب ليجلس إليها على أحد المقاهى . . فهو الذى يفتن النساء وتطارده النساء . . أما أنا فلم يحدث قط . . وهناك نساء أخريات . . أعتقد أنهن ثلاث أو أربع كن يطاردن طه حسين . .

وحاولت أن أنبه توفيق الحكيم إلى أننى أنا الذى قلت إن شادية كانت فى نفس السفينة ، وليس طه حسين هو الذى قال ، ولكن توفيق الحكيم كان قد روى لى هذه المغامرة .

ولما طلبت فنجاناً آخر من القهوة إتجهت إلى طه حسين أقول له : هل من الممكن أن أشرب فنجاناً آخر . .

فأجاب طه حسين : لسنا بخلاء يا سيدى . .

فقلت : تقصد أن توفيق الحكيم هو وحده البخيل .

ودافع طه حسين عن كرم توفيق الحكيم قائلا : عندما قدمت توفيق الحكيم لعضوية المجمع اللغوى قلت إنه ليس بخيلا ولكنه يحب أن يشتهر بالبخل . . وإذا بتوفيق الحكيم يتضايق ويقول إن هذا الرأى سيجعل الناس يطاردونه ويحاولون أن يعرفوا بالتجربة إن كل بخيلاً أو كريماً .

وقال طه حسين : ليس بخيلاً توفيق الحكيم فقد كان يدعونى إلى الغذاء أو إلى العشاء كلما عدت من أوربا .

قلت : مرة كل سنة ؟

قال : هذه المرة تكفى . . ثم إنه أهدى ابنتى أمينة مجموعة من الأسطوانات وقد حدث عندما هاجمت إحدى مسرحيات الحكيم وقلت إنه فى حاجة إلى أن يقرأ المزيد من الفلسفة أرسل لى خطابا يشتمنى فيه ويقول إنه يعرف الفلسفة أكثر منى وأحسن منى . . فأعدت إليه الأسطوانات . وغضب الحكيم وجاء وصالحنى ومعه الأسطوانات .

واشتعلت السيجارة فى فم طه حسين ثم قال : وأرسلت لى السيدة والدة توفيق الحكيم خطاباً حاداً أقول فيه إنه ليس مهماً أبداً أن أكتب عن توفيق الحكيم فهو بحمد الله رجل غنى وأنه يملك مائة أو مائتين من الأفدنة !

ودق جرس التليفون وكان المتحدث محمد حسنين هيكل ودعاه طه حسين إلى حضور الحفلة التى سيقيمها بمناسبة الدكتوراه الفخرية . .

وبعد أن انتهت المكالمة قال طه حسين . . إنه يريد أن ينشر الجزء الثالث من الأيام فى جريدة «الأهرام» .

وضحك طه حسين باقتضاب : إن حسنين هيكل يريد أن ينشرها فى «الأهرام» وبعد ذلك تنشرها «دار المعارف» مجاناً ؟!

وسألت طه حسين : وهل أنت فرغت من الجزء الثالث من الأيام ؟

فأجاب : أبداً !

وأخيراً اتجهت إلى توفيق الحكيم فى التليفون أسأله : قل لى أريد أن تساعدنى على الفهم . لماذا يصر طه حسين على إهانة العقاد وتجريحه بهذه المناسبة . . تصور أن تلامذة المدارس عندما ذهبوا إليه يسألونه عن العبقريات أكد لهم أنها أقل بكثير مما كتبه هو عن السيرة وعن الفتنة الكبرى . . وأنه لولا أن هناك سوء تفاهم بينه وبين أحد المسئولين فى وزارة التربية والتعليم ما تقررت كتب للعقاد . . ما رأيك أنت ؟

وكانت حيرة توفيق الحكيم واضحة جداً . . وحيرة كثيرين جداً من الأدباء والمثقفين .

وجاء رأى توفيق الحكيم مرة أخرى على شكل رد أو على شكل نصيحة أو لفت نظر . . قال توفيق الحكيم مملياً ومعقباً على هذا «المطب» الأدبى ومنهياً هذا المقال بخبث شديد :

«أخونا العزيز طه حسين من المستحسن مراعاة راحته والحرص على صحته وعدم محاسبته على كلامه فهو لا يمكن أن يكون قصده الإساءة إلى ذكرى العقاد وهو راقد فى قبره . فهو ولا شك يعرف قدر العقاد ومكانته الشامخة وأن أى رأى خاص له الآن فى كتاب من كتب العقاد لا يعنى أى انتقاص من قيمة العقاد ومؤلفاته . فالناس بالألوف يقرءون وسيظلون يقرءون عبقريات العقاد ويفهمونها . . وسيعنون بها ويستمتعون . والعقاد لم يقصد بها أن تكون سيرة من السير أو منهجاً من مناهج الدرس والبحث ولكنها أعمال أدبية يكشف فيها العقاد بمصباح فكره النفاذ عن عناصر العظمة الإنسانية فيمن تناولهم» .

انتهى كلام توفيق الحكيم . .

وبقى طه حسين يؤكد أنه لم يفهم العقاد لا اليوم ولا أمس ؟!



وأخيراً قابلته

الفتاة الرقيقة التى تقوم بالأعمال القنصلية فى سفارة سويسرا بالقاهرة مدت يدها تأخذ منى جواز السفر فشعرت بالامتنان لهذه الرقة ولسرعة الإجراءات فى إعطائى الفيزة فقلت لها : أنا ترجمت ثلاث مسرحيات لفريدريش ديرنمات الكاتب السويسرى العظيم .

وهزت رأسها بنفس الرقة ، وكأنها تعرف هذه الحقيقة عن ديرنمات وليس عنى أنا . ولم تعجبنى فيها هذه الرقة الرسمية . . الرقة «العامة» . . وكنت أتصور أننى أستحق نوعاً خاصاً من الرقة لأننى ساهمت فى نقل الفكر السويسرى المعاصر إلى لغتنا العربية . ولا شك إننى أردت أن أقول لها : إذا أنت أعطيتنى تأشيرة الدخول إلى سويسرا بسرعة ، فأننى أستحق هذه التأشيرات بصفة خاصة . .

ثم استوضحت إن كانت تعرف حقيقة المسرحيات التى ترجمت إلى للغة العربية ، فقالت إنها تعرف ذلك .

ولم تشأ أن تقول لى شيئاً آخر وهو أن أحد الناشرين لمسرحيات ديرنمات قد أرسل خطاباً إلى المسرح العالمى عندنا يطلب حق الأداء الفنى لمسرحيات ديرنمات التى ظهرت فى القاهرة . مسرحية : علماء الطبيعة التى ترجمها د . عبد الرحمن بدوى ومسرحية : رومولوس العظيم التى ترجمتها أنا .

ولما تلقى المسرح العالى هذا الخطاب ضحك المخرج حمدى غيث لأننا لم نوقع الاتفاقية الدولية الخاصة بحق الأداء العلنى . ولا حمدى غيث أجاب بكلمة ولا المسرح ولا وزارة الثقافة . .

واعتبرت هذه الابتسامة الرسمية إذناً بالدخول إلى سويسرا رغم كل هذا . وإننى إذا كنت قد سرقت شيئاً ، فهى سرقة أدبية وليست سرقة على الإطلاق ما دمنا لم نوقع هذه الاتفاقية .

وقررت أن أجعل هذه بداية الحديث مع فريدريش ديرنمات . فهو كاتب مسرحى عظيم ومن أشد الأدباء سخرية . ولابد أن تكون هذه نكتة أو لابد أن أجعلها نكتة . وسوف أقول له أيضاً أن الأديب الإيطالي البرتو مورافيا عندما زار القاهرة لأول مرة قابلته وقلت مرحبا به : إنه من الصدف الغريبة أن تصدر اليوم ترجمة لإحدى رواياتك . .

وبسرعة رجل البوليس الذى ضبط لصاً متلبساً اعتدل وأنزل ساقا من فوق ساق وسألنى عن اسم المترجم والناشر . وقلت له : لم نوقع الاتفاقية إياها !

ولما طلبت ديرنمات فى التليفون كانت هذه المعانى فى ذهنى . لكن جاء صوته هادئاً منخفضاً مرحباً . ولاحظت أن صوته هامس وأن به خشونة الذين يدخنون كثيراً . وإن هذه الخشونة لا تحجب صوته ، كما لا يحجب الضباب الذى يغطى زجاج النافذة العالم الذى أمامه . . وقال : يوم الجمعة !

وكانت المسافة طويلة جداً بين الأربعاء والجمعة ، لكنى أمضيتها فى البحث عن دراسات وكتب عن ديرنمات . وكانت متعة أن أبحث عن ديرنمات فى بلاده وفى مكتبات برن وجنيف ونيوشاتل . . وأن أسمع رأى الناس فيه . أنه ككل نبى فى وطنه غريب . . إنهم لا يقرءون كثيراً ما يكتبه ديرنمات . ولكنهم يفضلون عليه كاتباً سويسرياً آخر أقل شهرة هو : ماكس فريش . ويرون أن ماكس فريش أكثر عمقاً .

ولكن الذى يقولونه عن ديرنمات : إنه رجل ساخر؟! . كأنه ليس من المفروض أن يسخر الإنسان . أو كأن من المفروض أن المؤلف يجب أن يكون سويسرياً جاداً . لأن السويسريين جادون صامدون كالجبال ، وفى غاية الدقة مثل ساعاتهم . . وديرنمات يسخر من الجبال وسكان الجبال ودقة الشعب السويسرى .

وقبل لقائى بديرنمات نشرت له صحيفة «جازيت دى لوزان» مقالاً هاجم فيه الجمود والخمول فى الشعب السويسرى . وأنهم مشغولون بأشياء كثيرة ليست من

بينها القيم الإنسانية . . وأنهم لا يشاركون فى قضايا الإنسانية . وأنهم يؤمنون أن الفلوس هى كل شىء . وأنهم اختاروا هذا الحياد اللاإنسانى وبذلك ضمنوا المستقبل . فهم شعب لا يخاف من الحرب . . شعب لا يعرف معنى الموت . . بينما العالم كله يعانى من القلق والخوف من انتظار الموت بين زعيم وآخر !

وكان الطريق إلى بيت ديرنمات غريباً مثيراً . .

فالطريق جبلى وعلى جانبيه أشجار الغابات الكثيرة الخضراء المائلة إلى الزرقة وأرض الطريق سوداء . والجو بارد . والأمطار منظمة ثقيلة . وليست فى الطريق أية معالم تدل على أن أحداً يسكن هذه المنطقة . وارتفع الطريق والسيارة تلهث ونحن نتطلع إلى جانبى الطريق . . لا أحد . . لا بيوت . لا علامات . . لا شخص واحد يقول : هنا يسكن ديرنمات . . لا أرقام . ولكن السائق ينطلق بالسيارة واثقاً من أن السيارة ستعرف الطريق والبيت . وفى نهاية الطريق وجدنا أول بيت ووجدنا أمامه بضع سيارات . ولكن البيت كان على سفح الجبل . . فالباب والسور أعلى من سطح البيت . ووقفت فوجدت شاباً صغيراً . وقبل أن أسأله قال : هذا البيت لديرنمات . . ولكنه من الناحية الأخرى . .

وديرنمات يملك بيتين متجاورين . .

أحدهما يسكن فيه مع زوجته الممثلة السابقة وأولاده الثلاثة . . والثانى بيت يعمل فيه . . والبيت الذى يعمل فيه له جدران عالية كأنها لوح ورق أبيض تجمد وفى انتظار صاحبه العظيم أن يكتب عليه ما يريد ، ونزلت السلم . وانفتح الباب . ووجدت ممراً مغطى بالسجاد . ووجدت سلماً آخر ينزل إلى تحت . . واصطدمت يدى وأنا أتساند على الحائط برف من الكتب . . ولم ألاحظ أن الكتب عليها تراب . . ونزلت . . ووجدت نفسى أمام حائط عريض طويل من لوح زجاجى واحد يطل على الجبل . . وبينه وبين الجبل شرفة واسعة . . ورأيت حوض سباحة يصل بين البيت الذى ينام فيه وبين البيت الذى يكتب فيه . . وبيت الكتابة عبارة عن دورين اثنين وكل دور عبارة عن غرفة واحدة واسعة . . الغرفة التى أقف فيها الآن واسعة وبها أربع مناضد كبيرة . . وبها مقاعد وثيرة ومريحة . .

وفجأة وجدت نفسى وجها لوجه أمام سيدة رشيقة متوسطة القامة إنها زوجة فريد ريش ديرنمات . . وهى تقول : أهلاً وسهلاً هر منصور . .

وورائى وجدت فريدريش ديرنمات نفسه . .

لا يختلف كثيراً عن الصور التى أعرفها . . إلا أنه أقصر قليلاً وإلى أن كرشه أكبر قليلاً . وكان يرتدى القميص والبنطلون . وفى فمه سيجارلو - وهو وسط بين السيجار والسيجارة - وهذه «السيجارلو» لا تفارق فمه إطلاقاً حتى عندما يتكلم ولذلك يخرج الكلام من فمه هامساً ومنخفضاً وغير واضح أحياناً .

وابتسامة ديرنمات تظهر فى عينيه ومن تحت المنظار الغليظ . . وعندما يبتسم جداً ، وهو قلما يضحك فإذا ضحك تحول وجهه إلى طفل . .

ورأسه كبير والشعر الأبيض قد ملأ رأسه . . وأشار إلى أن أجلس . وجلس إلى جوارى . وتراجع فى مقعده ولف ذراعيه حول رأسه . وانتظر أن أبدأ الكلام . وقلت : إننى سعيد جداً للقائك شخصياً . فقد لقيتك كثيراً فى مسرحياتك وبقى أن ألقاك شخصياً وأنا أعرف الأستاذ صانع هذه الروائع الأدبية . .

وبأدب الكاتب الكبير وفى رقة الذى أستمع إلى هذا الكلام كثيراً ، ويريد أن يسمع شيئاً جديداً ، شكرنى واقترب أكثر وبدأ اللمعان فى عينيه يؤكد رغبته فى سماع شىء مختلف .

وقال لى : أهلاً بمترجمى العزيز ؟

واسترحت لهذا الاقتراب منى ومن هذه التحية . وضايقتنى كلمة «مترجمى» هذه وقلت : وكتبت عنك دراسات أدبية ومقارنات بينك وبين الأدباء الجدد فى ألمانيا وسويسرا وأوروبا . .

وسألنى : هل وجدت صعوبة فى ترجمة مسرحياتى .

قلت : لم أجد صعوبة . . ولكن وجدت صعوبة فى فهم بعض شخصياتك .

وكان هذا بالضبط ما أراد أن يعرف فبرق وجهه ليقول : مثل من ؟ قلت : شخصية رومولوس العظيم . .

وهنا ضحك ديرنمات وكذلك زوجته . . واعتدل وملأ بحث السيجارلو في فمه وقال : مسكين رومولوس هذا . . لقد تحير النقاد فى تفسيره . . حتى أن الذين ترجموا المسرحية إلى الفرنسية ظنوا أننى أقصد به ديجول مع أن هذا لم يخطر على بالى . . وظن الروس أننى أتحدث عن ستالين . . فى حين أن رومولوس هذا كما تعرف هو إمبراطور وضعته الظروف فى مكان فريد من التاريخ الرومانى .

قلت : وهو أن يصفى الإمبراطورية الرومانية .

قال : ليس هذا فقط . . وإنما وضعته مكان الطبيب الذى يعرف كل شىء ويعرف أنه لا أمل . وأنه من الحماقة أن يكون لديه أمل فى إنقاذ الإمبراطورية القديمة المنحلة . . وأنه يريد فى النهاية أن يفوز بلقب : الإمبراطور الذى قضى على الإمبراطور وعلى الإمبراطورية . . وكأنه يعرف هذه الحقيقة . . أو هذه النكتة . . وأنه هو شخصياً نكتة . . ولكن نكتة لا يستطيع أن يضحك لها ، وإنما يضحك عليها ولكن لأن هذه النكتة حيوية ومرحة . . فهى شىء محزن !

وقلت : وشديدة المرارة .

وضحك ديرنمات ليقول : تقصد القهوة التى نشربها . . أنها على الطريقة العربية . . هكذا تقول : ألف ليلة وليلة !

ولم أكن قد لاحظت هذا العدد الكبير من الفناجين التى وضعت أمامى . . وهى فعلا من فناجين عربية . والكميات التى توضع فيها قليلة جداً . . ولاحظت أننى كلما فرغت من فنجانى الصغير نهضت السيدة حرمه ، ودون أن أدرى فملأت الفنجان مرة أخرى . تماماً كما يقال عن العرب فى الكتب أو فى الأفلام القديمة . . وعرفت أن هذه صورة قديمة لحياة العرب ، ومعنى هذا أننى لابد أن أقول له ما هو المفهوم الآن من كلمة عربى وعرب وعروبة . . ومعنى هذا أيضاً أن ديرنمات لا يعرف الكثير عن العالم العربى . وإنها فرصة عظيمة لكى أدله على العالم العربى وأدعوه لزيارته .

ووجهت إليه الدعوة باسم «أخبار اليوم» أن يزور مصر . فوافق وأن يبقى فيها أسبوعاً . فوافق . . وطلب إلى أن أبعث إليه ببعض الكتب أو الدراسات عن مصر . ووعدت .

وسألته : ما الذى تقرأ أو قرأت عن الأدب العربى ؟ فقال : قرأت ألف ليلة وليلة . . بل قرأتها كثيراً جداً . . وأعجتنى . وأقرأ الآن كتاباً عن الأمير أرسلان . .

ثم نهض واختفى وعاد ومعه كتاب عن مذكرات الأمير أرسلان . وهذا الكتاب مترجم إلى الألمانية عن الفارسية عن العربية !

واقترب ديرنمات ليقوم هو بسرعة بدور الذى يريد أن يعرف عن العالم العربى فقال لى : المسارح الآن موجودة فى القاهرة أو فى الإسكندرية ؟

قلت : أكثرها فى القاهرة .

قال : أى أنواع المسارح عندكم ؟

قلت : كل أنواع المسرحيات . . نحن نعرض المسرح الحديث فى مصر وفى العالم . . عرضنا مسرحياتك مثلاً . . ومسرحيات سارتر وأنوى وميللر وتنسى وليامز وبرشت . . والمسرح الكلاسيكى عند شكسبير وموليير . . والمسرح الطليعى عند بكيت ويونسكو . . والمسرح الإغريقى .

وسألنى : وما الذى يقدمه المؤلفون المصريون ؟

قلت : مسرحيات باللغة العربية . . وباللغة العامية . .

قال : والمسافة بين اللغتين كبيرة .

قلت : ليست كبيرة ولكنها تتقارب . .

قال : هذا طبيعى . . مع التقارب بين الناس والطبقات والثقافات . لكن هل هى مشكلة ؟

قلت : ليست مشكلة . . بل إن كاتباً كبيراً عندنا هو توفيق الحكيم قد حاول أن يكتب المسرحية بلغة وسط بين العامية والفصحى . . والفارق بين الأداء الفصحى والأداء العامى هو فى النطق . . وهذه حالة خاصة باللغة العربية نفسها . .

وعاد يسأل : وهل اللغة العربية هى اللغة المفهومة فى العالم العربى كله ؟

قلت : اللغة العربية فعلا مفهومة فى البلاد العربية . . ولكن العامية مختلفة من بلد إلى بلد . . واللغة العامية المصرية مفهومة فى كل البلاد العربية . . بسبب الإذاعات المصرية والأفلام المصرية . .

قال : والمسرحيات الكوميدية تظهر عندكم بأية لغة . .

قلت : بالعامية غالباً .

قال : وجمهور الكوميديا أكثر طبعاً . .

وضحكت . . أنا ضحكت لأن السيدة حرمه قد ملأت لى الفنجان السابع وشربته دون أن انتبه إلى العدد . وقد أحسنت عندما قدمت لى قطعة من البسكوت . . فقد أصبح ريقى مراً جداً . وكأنما هذه المرارة فى فمى ذكرتنى بمرارة النكتة التى عاشها «رومولوس» فى مسرحيته «رومولوس العظيم» فعدت أقول له : لكن شخصية رومولوس هذه . .

فقال : أعرف . . شخصية انهزامية . . شخصية سلبية . .

قلت : هذا ما أردت أن أقول . .

وتدخلت السيدة حرمه لتقول : ويمكن أن تقول إنها متشائمة . . وأن زوجى هو الآخر متشائم . . كل هذا يمكن أن يقال . .

قلت : هذا هو الشعور العام الذى لا يفارقنى وأنا أقرأ هذه المسرحية . . وبعد أن ترجمتها . . وبعد أن كتبت دراسة عنها . .

وسكت ديرنمات ليتفرج على زوجته وكأنها تلميذة مجتهدة فى مدرسته . . أو كأنها تقول نفس الكلام الذى قاله زوجها ثم زهق منه . . أو كأنها ممثلة على مسرح وليست فى حاجة إلى «ملقن» . . قالت : ولكن زوجى شاهد على عصره .

وهنا تدخل ديرنمات : هل من رأيك أنه لا يوجد إنسان سلبى فى هذا العصر . . هل من رأيك أنه لا يوجد ملوك أو حكام سلبيون . . هل ترى أنه لا يوجد من الحكام من لديه استعداد لأن يحرق أمته من أجل مجد زائف . . إن نيرون لم يدخل التاريخ لأنه أحرق روما . . بل لأنه أحرقها وراح يغنى . . فهو دخل التاريخ لا كرجل أهلك روما وإنما أهلكها وغنى .

قلت : ولكن شخصية رومولوس بهذا المعنى وفى هذا الإطار من صنعك أنت . . فأنت الذى أجريت على لسانه الكلام . . وأنت الذى جعلته أضحوكة . .

قال : جعلته أضحوكة . . ولكنى عاقبته على هذا الهزل . . ولكن ليس من الضرورى أن يكون العقاب مميتا . فهو ميت بالفعل . . بل إنه هو الذى دفن نفسه من البداية . . فكان موته أقوى من حياة الآخرين . . وموت بعض الناس أقوى وأعمق من حياة ملايين المستمعين .

قلت : لكن التشاؤم واضح مع ذلك فى هذه المسرحية . . وفى مسرحية (علماء الطبيعة) . . فأنت فى هذه المسرحية ماذا قدمت لنا . . أنت وضعت العالم أمام مقصلة . . فالعلماء أما أن يدخلوا مستشفى المجانين وفى ذلك إنقاذ للعالم أو ينتحروا ! . فأنت رأيت أنه من العقل أن يكون العالم الذرى مجنوناً . . لأن الجنون يجعله يقوم بتدمير العالم كله . . وإذا بقى أى عالم ذرى عاقلا ، فمعنى ذلك أنه يعطى سر هلاك العالم لدولة من الدول . . وعندئذ تصبح هذه الدولة هى وحدها القادرة على التحكم فى البشرية وإفنائها . . فكأنه إذا احتفظ بعقله ، أدى ذلك إلى أكبر عمل مجنون . . فلا حل لهلاك العالم !

وظهرت تكشيرة على وجه ديرنمات تعادل التكشيرة التى على وجهى فقد زهقت من فناجين القهوة وقال : ولكن هناك أشياء كثيرة يمكن عملها . . هناك أمور كثيرة يمكن القيام بها . . إنها ليست مشكلة . . وإنما هى معضلة حقيقية . . هذا السباق فى التسلح النووى جعل الدول الكبرى على نفس المستوى من الخطورة . . فنحن فى خطر حقيقى . . بين اليمين واليسار . . وهناك فى اليمين مجانين وفى اليسار أيضاً . . ولا يزال بعض الأفراد قادرين على إهلاك الملايين . . ومع ذلك فأنا لم أفقد الأمل . . فهناك أشياء كثيرة يمكن عملها . .

ثم عاد يقول لى : لو أن طبيباً ذهب إلى قبائل البدائيين وكتب بحثاً ، سوف يقولون عنه أنه رجل إنسان . . ولو أن فناناً ذهب إلى هذه القبائل وصور حياتها بما فيها من صعوبات وآلام فسوف يقولون عنه : أنه متشائم . . وأنا شخصياً لست متفائلاً ولا متشائماً . . إنما واقعى فقط والواقعية هى الشرف الذى يدعيه كل الأدباء والفنانين . . حتى الرومانسيون يقولون لك : إنهم يكتبون من «واقع» الحياة العاطفية والذين يكتبون عن مستقبل البشرية يقولون لك أنهم يكتبون عن «واقع» الحياة فى المريخ . . وأنا فعلاً أرى نفسى شاهداً على عصرى . . وأكتب ما أشاهده بالفعل !

ثم عاد يقول بنفس التكشيرة : كثيراً ما يقع المؤلف فى غرام إحدى شخصياته . . أو على الأصح تتسلط عليه إحدى شخصياته فيتغزل فيها . . أو يتركها تفعل ما يعجبها . . وهذا عيب فى الفنان . . لأن الفنان يجب أن يستسلم وهو يعلم أنه عاش فى الطريق الذى يريد . . كما . نستسلم لموج البحر ونحن نتجه إلى الشاطئ . . وأنا لم أقع فى غرام أبطالى . . ولم أجعلهم يهربون منى . .

قلت : واضح جداً أنه لا يوجد هذا الغرام ولا هذا الحب . . لا حب فى مسرحياتك !

فضحك ديرنمات . . إن أسهل شىء فى الدنيا هو الحب . . والحب الرومانسى بصفة خاصة . . ولكن الحب الواقعى صعب جداً . . فمثلاً فى مسرحية «هبط الملاك فى بابل» نجد الفتاة الملائكية تحب إنساناً لا وجود له والحب الرومانسى هو نوع من الحب لإنسان لا وجود له . . إنسان بلا إنسانية . . إنسان بلا عيوب . . إنسان دائم . . إنسان أبدى . . إنسان قادر على كل شىء . . حتى فى عجزه . . وكل هذه صفات لا وجود لها . . ولكن ليس أسهل من تخيلها . .

واقترب منى وهو يشير إلى أن ألتقط قطعة من البسكوت لعله أراد منى أن أكون أكثر واقعية ثم قال : إن الشاعر دانتى نفسه كان عاجزاً عن الحب . . عاجزاً بالمعنى الجسمى للكلمة . . فهو لم ير محبوبته بياتريتشة إلا وقتاً قصيراً . . ولكنه بعد ذلك قدم لنا هذا الحب الميتافيزيقى فى جمال وفى سهولة . . ولكن دانتى لم يكتب لنا قصة حب واقعية . . لأنها أصعب من هذا الحب الرومانسى . . بل أن الروائى الأسبانى سرفانتس قدم لنا شخصية دون كيخوتة . . وهذه الشخصية عاجزة عن الحب الواقعى . . ولكن ليست عاجزة عن الحب الخيالى المثالى . . لأن هذا الحب أسهل . . والأغانى التى نسمعها ليلاً ونهاراً تتناول موضوعاً واحداً هو الشعور بالغربة بين الحبيب والمحبوب . . وكلها تنبع من هذا المعنى . . ولذلك فهى أغان غير حقيقية . . غير واقعية . . فهى تقوم على الوهم وتشجع الاستغراق فى الأوهام . .

ثم يضحك كالأطفال لتظهر إحدى أسنانه الذهبية اللامعة فى الجانب الأيسر من فمه .

وسألت ديرنمات : أنت الآن مشغول بماذا ؟

فقال بسرعة : أنا مشغول الآن بكتابة مسرحية عن الشيوعية . .

قلت : دراسة عن الشيوعية .

قال : لا مسرحية عن أول مرة طبقت فيها الشيوعية . . كان ذلك فى سنة ١١٣٣ فى مدينة منيستر بألمانيا . . وأنا أعتقد أن المسيحى الأول هو الشيوعى الأول . . وأعتقد أيضاً أن الشيوعية خرجت من المسيحية . . ومن الكاثوليكية بالذات .

ثم هدأ قليلاً كأى قاض عادل يريد أن يصدر حكماً طال انتظاره فى قضية صعبة جداً : لعلك تلاحظ أن البلاد البروتستانتية لم تنتشر فيها الشيوعية مثل ألمانيا وسويسرا وأمريكا . والسبب هو أن البروتستانتية تعتمد على الحرية الفردية . . ولذلك فالولاء للدولة أو للحزب أو للمنظمة لا يتفق مع البروتستانتية . . فى حين أنه من السهل جداً على أى كاثوليكى أو حتى أرثوذكسى أن يكون شيوعياً لأن الكاثوليكية تطلب من المؤمن بها الولاء التام للكنيسة ولشخص البابا . . أو لجسم الكنيسة . .

وقال : إن كارل ماركس نفسه من أبوين يهوديين ولكنهما تحولا إلى المسيحية . . فاختارا الكاثوليكية . . ثم كارل ماركس هو المؤسس الحقيقى للشيوعية . . والزعيم الايطالى تولياتى كان معقولاً جداً عندما أعلن أنه من الممكن الجمع بين أن يكون الإنسان شيوعياً وكاثوليكياً فى نفس الوقت . . فهو لم يخترع وضعاً أو لم يعقد زواجاً بين مذهبين غريبين ، وإنما هو زواج بين اثنين من الأقارب !

وقبل أن يكمل كلامه عاد فسألنى : وأنتم فى مصر ما هو موقفكم من اليهود ؟

قلت : من اليهود ؟ نحن لا نعادى اليهود . . ففى مصر يهود وحاخام اليهود عربى من أصل يمنى . وإنما نحن أعداء الصهيونية . . أعداء لكل من يؤيد دولة إسرائيل وسياسة إسرائيل التوسعية العدوانية على بلادنا . . فنحن لا نعادى اليهود وكثير من المؤلفين والعلماء اليهود يلقون ما يستحقونه من حفاوة واحترام : فنحن نعرض مسرحيات آرثر ميللر وكافكا وفرفل وارفنج والاس . . والأديب الإيطالى البرتو مورافيا قد ترجمت كل أعماله . . وأنا شخصياً ترجمت له أكثر من أربعين

قصة قصيرة . . وجاء كثيراً إلى مصر وزار إسرائيل . . ونحن لا نعاديه ما دام لم يتخذ موقفا سياسياً معادياً لنا . . وكل مؤلفات برجسون وبروست وموروا وديهامل وفرويد وكارل ماركس مترجمة إلى اللغة العربية . .

واندهش جداً ديرنمات وقال : لم أكن أعرف ذلك . .

ثم سألنى وكأنه ينقل المناقشة إلى موضوع قريب من الكلام عن إسرائيل واليهود : والسد العالى ما الذى سوف يفعله لمصر ؟

قلت : إنه أعظم مشروعات الثورة المصرية . . وسوف يؤدى إلى كهربة الكثير من المصانع التى نقيمها . . وسوف يؤدى إلى رى مصر ريّاً دائماً وإلى زيادة الأرض المزروعة . .

وسألنى : هل تحاولون فى مصر تحويل المياه المالحة إلى مياه عذبة .

قلت : فلسنا فى حاجة إلى ذلك . . فلدينا الكثير جداً من الماء . . ولكن إسرائيل تحاول فلديها القليل من الماء . . ونحن فى حرب بشأن تحويلها مياه نهر الأردن . والكويت ينقصها الماء ولذلك تقوم بعملية تقطير لمياه الخليج وخلطها بالمياه العذبة التى تجىء إليها من العراق . .

وبدأ الاهتمام واضحاً جداً على زوجة ديرنمات وسألتنى : إذن أنتم لستم أعداء لليهود . . إننى لم أسمع بهذا من قبل . . وكل هذه الأعمال الأدبية لليهود مترجمة إلى اللغة العربية ؟ هذه الروح الإنسانية . . هذا شىء عظيم . .

واتجه ديرنمات ليسألنى فى موضوع خاص . . وواضح أنه خصوصى لأنه ضيق المسافة بين حاجبيه وقال لى : ما هى المشاكل التى يعانيها الأدباء فى مصر . . هل هى نفس المشاكل التى يثيرها النقاد ؟

قلت : النقاد هم مشكلة الأدباء .

فضحك ليقول : فى كل عصر . . ولكن الأدباء يعرضون المشاكل على النقاد . . فإذا لم يكن هناك ابداع فنى فما الذى يقوله النقاد؟

وسأل : هل هناك تعارض بين الحياة فى الريف والحياة فى المدينة ؟

قلت : لا يوجد تعارض . . وهناك اختلاف . . وهذا طبيعى . . ولكن التقارب بين الريف والمدينة وبين أبناء الريف وأبناء المدن ، واضح جداً . . وذلك عن طريق العمل والتعليم . . والفوارق بين الطبقات آخذة فى الذوبان . . وهذا طبيعى فنحن مجتمع اشتراكى . .

وسألته إن كان قد قرأ شيئاً عن الأدب العربى أو المصرى الحديث قال : أريد أن أقرأ . . ولكن لا أجد شيئاً فى متناولى . .

قلت : كثير من أدبائنا المعاصرين قد ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأوربية . . وأرجو أن أتمكن من أن أبعث لك ببعضها . .

قال : فعلا أريد ذلك وقبل أن أجىء إلى مصر . وأرجو أن تكون زيارتى فى ديسمبر . .

قلت : يسعدنا جداً . . وأرجو أن يكون ذلك فى الوقت الذى يناسبك أيضاً . .

قال : بالمناسبة . . هل رأيت فيلم الزيارة ؟

قلت : رأيته وأعجبنى . . ولكن المسرحية أجمل . .

قال : أنا لم أره حتى الآن .

قلت : أليست لك أفلام أخرى ؟

قال : عندى قصة يجرى تصويرها الآن . . وهى قصة «يونانى يتزوج يونانية» وهى قصة رجل يونانى طيب يعلن عن رغبته فى الزواج من يونانية . . وتجىء إليه فتاة جميلة جداً وتتزوجه . . ويكتشف أن عروسه هذه عشيقة لكل الذين يعملون معه فى الشركة وهذا العشق هو الذى أدى إلى ترقيته . .

قلت : فى مسرحية الزيارة كانت البطلة سيدة مليونيرة اشترت المدينة والناس . . واشترت القانون . . من هذه السيدة ؟

وضحك ليقول : إنها العصر . . إنها الفلوس . . إنها الضعف الموجود عند الناس . . بعض النقاد قالوا إننى أقصد أمريكا . . وبعضهم قال إنى أقصد ألمانيا . .

وبعضهم قال إننى أقصد سيدة بالذات . . على كل حال لقد أراحنى النقاد لقد تركوا لى عناوين أناس لم أكن أعرفهم . . ولا يهمنى من الذى تتجه إليه هذه التهمة . . وإنما المهم أن هناك تهمة . . وأن هذه التهمة معقولة ومقبولة فى النهاية !

وسألت ديرنمات : إن كانت هناك تهم موجهة إليه . .

قال : أقول لك شيئاً مريحاً . . لا أحد برىء . . أو أحسن طريقة أسأل زوجتى !

وضحكت زوجته وهى تقول كأنها تساومه على الحقيقة : هو على كل حال إنسان مريح .

ونهض ديرنمات ليقول : هذا يكفى . . أسألها فى موضوع آخر لأنها ستغير رأيها حالاً !

وعادت الزوجة تقول : فعلا مريح . . ولكن . . وصرخ ديرنمات : ألم أقل لك . .

وأخذت الزوجة طابع الجد لتقول : هو مريح فعلا . . إنه يجلس على مكتبه لا يتحرك بالساعات . . ويظل يكتب بالساعات وينتقل من ترابيزة إلى ترابيزة .

ثم أشارت إلى الترابيزات الكثيرة . . وقالت : هنا يرسم . . لأنه رسام أيضاً . . وهنا يقرأ . . وهناك يكتب . . وهو يكتب بيده . . وبعد ذلك يستأجر من يكتب له على الماكينة . . ولكن . .

وسكتت لتسحب من هذا المديح شيئاً آخر : ولكن عيبه أن عندما يكون غارقاً فى التفكير أو فى العمل يتحول إلى إنسان آخر لا أعرفه . . ولا يمكن أن أعرفه . . وتحس أنه إنسان فى حالة حزن شديد . . كأن مسرحية ضاعت منه أو كأنه فقد النص الوحيد لإحدى مسرحياته . . وقد حدث أن جاء بعض الصحفيين لزيارته لأول مرة . . وهو الذى حدد الموعد . . ونزل للقائهم وسلم عليهم . . ثم تركهم واتجه إلى مكتبه فى الطابق العلوى وظل يكتب ساعة . . وبمحض الصدفة ذهبت لأسأله عن شىء . . فوجدت الضيوف وحدهم . فأسرعت إليه أنبهه إلى هذا الذى حدث . ونزل بسرعة وسلم عليهم من جديد معتذراً . . وفجأة أصيب بحالة سرحان شديد جداً . . وأستأذن وصعد إلى فوق يستمر فى الكتابة . . واعتذرت أنا للضيوف . وناديت أولادى يجلسون معهم .

وسألت عن أولاده فقال : إنهم فى إنجلترا . . وقد شاهدوا مسرحيتى الأخيرة ، التى افتتحت اليوم .

قلت : مسرحية «الشهاب» .

قال : نعم هى . .

قلت : هل أعجبتهم ؟

قال (ضاحكا) : إنهم معجبون بوالدهم . . تماماً كأمهم . . وأنت سمعتها الآن وهى تمتدحنى . .

قلت : ما هى فكرة «الشهاب» . . أنا قرأتها وأريد أن أعرف منك . . وأريد أن أستأذنك فى ترجمتها .

فهز رأسه قائلا : لا مانع . . إنها مشكلة البعث . . فى الكتاب المقدس تجد أن المسيح قد أحيا لعازر . . كان لعازر ميتاً وأحياه المسيح . . ولكن بعد أن عاش لعازر لا نعرف ما الذى حدث له . . وأنا تناولت هذه الحادثة . . هذه المعجزة . . وأظهرت ما الذى يمكن أن يحدث لإنسان لو أنه مات . . ثم فوجىء الناس بأنه لم يمت !

قلت : وهل مات فى النهاية ؟

قال : ضاحكاً : إن الناس لم يعطوه فرصة لكى يموت . . لقد أنزلوا عليه ستار الفصل الثانى والأخير .

قلت : وكيف قابلها النقاد فى إنجلترا ؟

قال : بعضهم بعث لى رأيه بعد أن قرأ النص . . وكذلك المخرج والممثلون . . ولكن لا أعرف رأى الجمهور بعد .

قلت : وهل يهمك ؟

قال : يهمنى . . ولكن لا أعلق أهمية كبيرة على ذلك . . والفنان يجب أن يقول الحقيقة فقط . . وليست للفنان مهمة أكبر ولا أبسط من أن يكون قاضياً عادلاً وأن يكون أميناً . . وبذلك يكون مواطناً صالحاً ، ومواطناً عالمياً .

قلت : باعتبارك مواطناً سويسرياً . . إلى أى الأحزاب السياسية تنتمى ؟

فأجاب : ليس لى حزب سياسى . . بل الأحزاب السياسية ليست ضرورية لسويسرا . . فالحزب وسيلة من وسائل الاستقلال السياسى ، ونحن فى حالة استقلال سياسى . . ولكن عيب سويسرا الآن أنها اكتفت بهذا القدر : أى بأن تكون مستقلة سياسياً دون أن تمد يدها إلى الشعوب الأخرى . . ودون أن تشارك فى قضايا الإنسانية . . وهذا هو الذى أصابها بالجمود والعزلة . . مع أن العزلة شىء غير طبيعى . .

قلت : وبالنسبة للفنان أيضا ؟

قال : الفنان ينعزل أثناء الابداع . . حتى هذه العزلة ليست تامة . . وإنما هى عزلة تقتضيها طبيعة الابداع . . ولكنه ينعزل ليكون أكثر أنصالاً ووعياً لمهمته ولأهميته . .

وانتقل بنا الحديث عن الأدب السويسرى المعاصر وعن الفلسفة الوجودية . . وعن الفلسفة عمرماً . فقال : إن أحسن من كتب الفلسفة هو الفيلسوف الألمانى «كانت» ، وأحسن ما كتبه «كانت» هو رأيه فى نظرية المعرفة . . أى معرفة الإنسان للعالم ولنفسه . . وهذه فى رأيى أهم شىء بالنسبة للإنسان ، وبالنسبة للفنان . .

وسألته : هل قرأت الوجودية وإلى أى حد كنت تراها معقولة ؟

فأجاب : قرأت الكثير فيها . . وأنا أعرف سارتر شخصياً .

وتدخلت الزوجة لتقول : إنه رجل رقيق جداً . . ومهذب جداً . . وضاحك دائماً . . وضئيل الجسم . . ولكن تحس أنه مثل قط صغير وقط متحفز دائماً . . يدور حول نفسه . . ويتجه إلى كل جهة . . ومشرق دائما . . ولامع وحاد الذكاء . إننى أحب هذا الرجل وأعجب به إلى أقصى حد .

ونهض ديرنمات وراح يجمع عدداً كبيراً من الكتب ويقول : هذه ترجمة يابانية لمسرحياتى . . وهذه إيطالية ، وهذا هو أحسن كتاب صدر عنى . . وهذا كتاب صدر عن الأدب السويسرى عموماً . . ولكنه لا يعجبنى . .

ثم ضحك وهو يقول : وهذا شريف . .

وتلفت لأرى كلبه الصغير .

وقال : لقد اخترت له اسماً تركياً . . وأنا أحب الكلاب . عندى كلب وعندى ببغاء وأحب أولادى أيضاً !

ثم تحول كأى عصفور يقفز من هنا إلى هناك . . واتجه إلى أحد المناضد وقال لى : وهذه رسوماتى . . فأنا أرسم الشخصيات بالقلم قبل أن أكتب عنها . . أو أجعلها تتكلم وكثيراً ما هربت من الكتابة إلى الرسم . . فالرسم هو كتابة بلا كلمات . . وهذه صور فوتوغرافية . . أرجو أن أحتفظ بهذه . . وأنت خذ هذه . وهذه . . وأرجو أن تعيدها إلى مرة أخرى . .

وقلت : حاضر . . بعد نشرها .

قال : فليست عندى إلا نسخة واحدة وهى صور جميلة ومعبرة كما ترى . .

ثم تأمل صورة وأبعدها عن وجهه قليلاً ليقول : لو كنت أعرف كيف أصف ما يدور فى رأس هذا الرجل !

وهذا الرجل هو ديرنمات نفسه .

ثم اتجه إلى الشرفة . . وأطل على الجبل من ارتفاع ٤٠٠ متر ، وأشار إلى حمام السباحة البنفسجى . . وقال لى : إننى أقيم فى هذا المكان سبعة شهور من السنة ، والشهور الباقية أتفسح فيها . . فأنا أعمل فقط سبعة شهور فى السنة !

قلت : كتابة للمسرح . .

قال : لا . . مسرحيات ، ومسرحيات للإذاعة والتليفزيون ، ومقالات وأحاديث ، وقصص قصيرة وروايات . وكلها فى وقت واحد . . ألم تسمع من زوجتى إننى مريح جداً . . مريح جداً ! . . فالناس يروننى على حالة واحدة : أكتب فقط !

وعندما عدنا إلى داخل بيت الكتابة . . أشار ديرنمات أن أجلس وأشار إلى فنجان القهوة . . قلت : هذا يكفى . . ولكن أنا لاحظت أنك لا تشرب قهوة . . ولا زوجتك . .

فقال : أليست هذه هى التقاليد العربية ؟

قلت : ليس كل العرب .

قال : أنت لا تشرب القهوة بهذه الكثرة ؟

قلت : لا . .

قال : ولماذا لم تقل ؟

قلت : جئت لأسمع لا لكى أقول . .

قال : هل تريد شيئاً غير القهوة ؟

قلت : نعم .

وقلت زوجته : ماذا ؟

وقالت : أن أشكرك . . وأن أحلم بزيارتكما لنا فى القاهرة . .

***

وصافحته والسيدة حرمه . . واتجهت إلى الدرج وفى نيتى أن أقول لديرنمات : لا داعى لأن توصلنى إلى باب البيت . . ولكنى فوجئت أن ديرنمات قد جلس إلى منضدة الرسم وأخذ يرسم . . ومن ورائه زوجته تضحك فى هدوء وتهز رأسها وتمط شفتيها وتقول : ألم أقل لك ؟ . .

وقلت لها : يرسم . . يكتب . . يسرح . إنه كاتب عظيم !



الذى اختفى ٢٠ عاماً

نجح هذا الأديب فى أن يخفى نفسه عن العيون عشرين عاماً . . وبين حين وآخر يظهر بنشر قصة قصيرة ثم يعود إلى مكان بعيد فى قلب أمريكا ليختفى من جديد . . وكان الناس يتساءلون عن هذا الأديب الغريب الذى يحمى عزلته بكل ما أوتى من وسائل الهرب والتخفى . . فهو يركب سيارته وينطلق بها . . وعند أى مكان يفرغ فيه بنزين السيارة ، يتركها ويأوى إلى أى فندق شهراً أو شهرين دون أن يعرف أحد عنوان . . والصحف تسأل ووكالات الأنباء والنكت تصوره هارباً وتصوره فى شكل الحيوانات والطيور . . تماماً كآلهة الأساطير القديمة . . الذين يطاردون بعضهم البعض فى جلود الحيوانات . وفى ريش الطيور . وفى أعماق الوديان وتحت الماء . .

لقد اختفى الكاتب الأمريكى سالنجر عشرين عاماً لا يطفو على سطح الحياة العامة إلا نادراً . . ولم يحدث فى تاريخ الأدب الأمريكى أن انتشرت قصص أديب وفى وقت قصير كما انتشرت قصصه . . فهو قد صدرت له قصة واحدة طويلة وثلاث قصص متوسطة الطول . ثم ثلاثون قصة قصيرة . . وقصته الأولى باعت فى شهر واحد ربع مليون نسخة .

وصدر عنه هو فى سنة ١٩٥٩ حتى الآن أكثر من عشرين كتاباً كلها تضم دراسات تاريخية ونقدية لهذا الكاتب الذى اختفى لينمو بعيداً عن الناس . وليظهر كبيراً . . ودفعة واحدة . .

وهو يعترض على عبارة «دفعة واحدة» لأنه لم يكبر دفعة واحدة . . وإنما نما وترعرع وأزهر وأثمر بعيداً عن العيون . . تماماً كأشجار الغابات المظلمة . . فأشجارها

تكبر . . وفروعها تتسابق نحو الشمس . دون أن تمتد إليها يد . ودون أن يدرى بها أحد . ودون أن تلتقط لها صحيفة صورة واحدة !

ويقول سالنجر : أتمنى لو كنت أخرس أصم حتى لا يتحدث الناس معى . إننى أفضل أن يكتب لى الناس ما يريدون . . فإذا تجمع عندى كل ما كتبه الناس فإننى أحمله معى . إلى كوخ أصنعه بيدى . . وأجعل هذا الكوخ بالقرب من غابة هائلة ، وليس فى داخلها . . فإننى أريد أن يمتلىء كوخى بأشعة الشمس !

وجيروم دافيد سالنجر طويل القامة نحيف يمشى بسرعة . ولا يركز نظراته فى شىء أو فى أحد . . ويندهش النقاد كيف أن هذا الرجل البولندى الأصل يبدو سارحاً ، مع أن كتاباته تدل على دقة الملاحظة وقسوتها . .

وسالنجر عندما كان يقفل على نفسه الأبواب ، فلكى يرى أكثر ويسمع أقل . . وكان يهتم بكل ما ينشره عنه النقاد . وكان يفكر فيه طويلاً . وقد حدث أن أعاد كتابة قصصه القصية عدة مرات . . وأرسلها للنقاد . . وسألهم : إن كانت هذه القصة بالصورة التى اقترحتها تعجبكم ؟

وقبل أن ينتهى الناقد إلى رأى يكون سالنجر قد أجاب فى نهاية القصة بقوله : أنا شخصياً لا تعجبنى .

وعندما كانوا يسألون سالنجر عن سر اهتمامه بكلام النقاد كان يقول : إن الشاعر كيتس قد مات بتأثير عبارات لإذاعة أطلقها أحد النقاد عليه . .

وقد أشار الشاعر بيرون إلى هذا المعنى عندما قال : غريب هذا العقل المتوهج ، تخمده كلمة جاءت فى مقال ! .

ويرى سالنجر أن النقاد أشرار بالطبع - ولكن بعض الشر مفيد . وهو يحاول أن يستفيد من هذا الشر القليل !

***

وقد التقى الكاتب الأمريكى الذى ظهر أخيراً . بكل كبار الأدباء فى العالم ولكن فى ظروف شاذة . .

لقد قابل همنجواى فى أحد الخنادق فى أوربا أثناء الحرب العالمية الثانية وكان سالنجر قد فرغ لتوه من قصة قصيرة . . وكان يكتبها على الآلة . . وأعطى القصة

لهمينجواى الذى كان يعمل مراسلاً حربياً . . وأمسك همنجواى القصة وقرأ صفحتها الأولى والثانية . . وقرأها كلها وقال : يا إلهى فى هذا الخندق أجد هذه الموهبة !

وعندما سأله همينجواى عن اسمه أجاب قائلاً : أنا أحد المعجبين بك فقط .

أما الكاتب الأمريكى فوكنر فقد قابله فى إحدى الحانات عند الفجر . . وكان فوكنر مخموراً جداً . . ولاحظ الكاتب الكبير أن هذا الشاب النحيل ينظر إليه طويلاً . وسأله فوكنر : هل تريد أن تقرأ لى قصيدة .

وأجاب الشاب النحيل : عندى قصة .

واستند فوكنر إلى ذراع الشاب وهو يقرأ له القصة . وعندما انتهى منها نظر إلى الكاتب العظيم وسأله : ما رأيك ؟

فأجاب فوكنر : حاول أن تكتب قصة طويلة . .

وعاد الشاب النحيل يسأله : وهذه القصة لم تعجبك ؟

فأجاب : إنها تصلح أن تكون قصة طويلة . . فما يزال فى الزجاجة خمر كثير .

أى ما يزال فى القصة القصيرة معان كثيرة يمكن أن يفصح عنها فى قصة أطول !

وقابل سومرست موم . وصارحه موم بأن عنده موهبة ملتهبة . . ولكن ليست عنده ثقة فى نفسه .

أما مقابلة سالنجر للكاتب الأمريكى الأرمنى الأصل سارويان فكانت غريبة جداً . .

فقد كان سالنجر يحب فتاة جميلة اسمها أونا . . هذه الفتاة ابنة الكاتب العظيم يوجين أونيل وصارت بعد ذلك زوجة شارلى شابلن وكان يبعث لها بالخطابات الطويلة ويستخدم أروع أساليبه الساحرة المشرقة بالمعانى والانتقادات الصارخة وكانت أونا تقرأ هذه الخطابات لصديقاتها . . وكثير من الصديقات نقلن هذه الخطابات واحتفظن بها .

وكانت من بين هذه الصديقات فتاة سمراء جميلة . . وكانت تحب خطيبها . ولكنها تخجل من الكتابة إليه . . فهى لا ترى نفسها قادرة على أن تكتب وتصف وتحدثه عما فى نفسها . وراحت تنقل صفحات كاملة من هذه الخطابات وتبعث بها إليه . .

وانقطعت رسائل خطيبها . . وفى يوم بعث إليها بخطاب طويل يقول فيه : قرأت خطاباتك وأعجبت بها جداً . . ولذلك اعتذر عن الزواج منك !

وطارت الخطيبة إلى خطيبها تسأله عن السبب وكان من رأيه : أن الفتاة التى تكتب بهذه الصورة الساخرة القاسية ، لا تعرف الرحمة . ولا تعرف الحب وإنما كل الناس عندها صور كاريكاتورية وكذابون ومنافقون وفى غاية السفالة . . ولا أدرى إذا كان هذا هو رأيك فى الزواج !

واعترفت الفتاة بأنها كانت تنقل هذه العبارات من خطابات أرسلها شاب اسمه سالنجر إلى صديقته أونا . .

أما هذا الخطيب الذى أعجب بسالنجر دون أن يراه فهو الكاتب الأمريكى : وليام سارويان !

***

وسالنجر (٤٤سة) هذا الكاتب الذى هز الجيل الجديد فى أمريكا وفى أوربا أيضاً أصبحت له مشكلة لا يعرف لها حلا : وهى أنه أصبح عاجزاً عن أن يكون وحده . . إنه فقد لذة العزلة . . متعة الكوخ المليء بالضوء . . بالقرب من إحدى الغابات الكثيفة .

وقد أعجبتنى هذه العبارة التى جاءت على لسان أحد أبطاله فى قصته الكبرى «فرانى وزوئيه» : أن الفنان كالسمكة الجائعة التى تسللت إلى أحد الأركان الضيقة . . لقد تمكنت من دخول الوكر الضيق ، لأنها خاوية البطن . . ولكن فى هذا الوكر وجدت طعامها وأكلت . . وأكلت حتى امتلأت . . وعندما حاولت أن تخرج وجدت باب الوكر يضيق عنها . . لأنها قد امتلأت بالطعام بالمعانى . . بالأفكار ، بالتأملات . . ولا يمكن أن تخرج من باب الوكر الضيق إلا أن تفرغ ما فى جوفها على الورق . . وكذلك كل فنان يجب ألا يغادر عزلته ، كوخه البعيد عن الناس ، إلا بعد أن يكون قد فرغ من عمل فنى يقدمه للناس .

***

وهذا الكاتب الأمريكى الذى أحدث دويا فى الأوساط الفنية فى العالم شعاره : أبعد عن الناس . لترجع إليهم بما هو أكثر نفعاً لهم وأبقى على الأيام . . أبعد عن الناس من أجل الناس .



هذه **خطوطه الخارجية :** إنه الشاعر الروسى يفجينا يفتشنكو . . . (ى . ى) أبيض طويل (١٨٩سم) . جنكيز خان وأنفه عمودى على شفتيه . ويبدو أن هذا الأنف قد ترك ظلا على الشفة العليا فلا يزال هذا الظل غائراً . ورأسه صغير وكتفاه جامدتان . وهو خفيف الحركة رغم أن وزنه (٨٠ كيلو) .

خطوطه الخارجية : هى الشىء الوحيد الذى ينفرد به إنسان عن إنسان آخر . فأجسامنا فردية وأفكارنا عامة .

وهو يحمل معه بدلة واحدة خضراء . وقميصاً واحداً بلا كرافته . وقميصاً واحدا بكرافته وحذاء واحداً . وفى يده حقيبة صغيرة بها فيتامينات وحبوب حنجرة . وماكينة حلاقة . وفى جيوبه سجائر أمريكية .

إنه مثل واجهة من الجليد . . .

أبعاده الداخلية : الزرقة فى عينيه قاسية جامدة . وأحياناً تظهر على أنفه من أعلى خطوط مريرة . وفجأة ينسحب من الدنيا إلى عالم آخر فإذا هو صامت مأخوذ . . وبسرعة ينتقل من الجلوس إلى المشى . . . ومن المشى إلى النوم فى أى مكان وبسرعة وعمق . . .

وقد اعتاد أن يكون ضيفاً فى القارات الخمس . ولذلك عندما يقف أمام السيارة ينتظر من يفتح له الباب . . وعندما يضع السيجارة فى فمه يتركها فى مكانها إلى أن يتقدم له إنسان ويشعلها . وعندما يمشى مع أصدقائه أيا كانت صلتهم به فهو يتقدمهم وإذا أراد شيئاً فإنه يطلبه فوراً . . ويظهر الإصرار والطفولة فى وجهه . لأنه طفل مدلل .

وهو فى الحقيقة طفل يجلس على ركبتى ٣٢٠ مليونا من الروس . وفيه قلق وحيرة واضحة فهو على سفر دائماً . ينام فى الطائرات والسيارات والقطارات ولا يحمل إلا عبقريته الفنية . وهو يذهب فى كل مكان فى العالم ليلقى شعراً باللغة الروسية ولكنهم قد سمعوا عنه ويريدون أن يروه . ولا يهم ما الذى يقوله . ولكن يكفى أن يروه يتغنى بشعره وأن يسمعوا إلى من يترجم شعره بلا أداء . . . أو من يترجم الشعر ويترجم لهم الأداء .

ولا شك أنه محروم من التقدير . . فهو يحظى بتقدير الذين يرونه كممثل أو كمطرب . . . ولكن لا يحظى بتقدير من يفهم روح ما ينظم وكيف يقوله .

وهو ينتقل من قارة إلى قارة بلا ورقة ولا قلم . . . وإنما كأنه أحد رواد الفضاء . . . وهو لا يبحث إلا عن آذان تسمعه عندما يلقى شعره . ولذلك فحديثه (مونولوج) ومن النادر أن يدخل فى (ديالوج) أى فى حوار وإذا دخلت معه فى حوار تشعر بالضيق . . لأن الحوار ليس من طبيعته . فطبيعته أن يقول وأن يتغنى وأن يرى الأيدى تصفق وكثيراً ما رأى الدموع فى العيون أيضاً . . .

وكثيراً ما كنا نحن - كامل زهيرى ورجاء النقاش وأنا - أثناء مرافقتنا له فى أسوان والأقصر نحس أننا أمام طفل . والمشكلة هى إنه ليس طفلاً . ولكن فيه طفولة وفيه نضج وفيه ذكاء وفيه حيرة . ونشهد أن كامل زهيرى كان أقدرنا على تحمل طفولته الجميلة . وقال كامل زهيرى عن نفسه إنه يثير فيه عاطفة الأبوة والأمومة معاً - أى الأبومة . . . إنه نار تتلوى تحت الجليد . . .

جذوره التاريخية : والشاعر (ى . ى .) من مواليد سيبريا . وإحساسه بالوحدة واليتم كان مبكراً ففى طفولته افتقد والديه فقيل له إنهما فى ميدان القتال . وكان على الطفل أن يكون رجلاً يعتمد على نفسه . فراح يغنى ويرقص ليعيش . وكانت بعض الأغانى من تأليفه . .

كانت تقام فى قريته أغرب أنواع الأفراح : كان الجنود يتزوجون قبل السفر إلى الجبهة بليلة واحدة . فهى حفلة زفاف وحفلة تأبين . . فى نفس الوقت . . . وكان عليه أن يرقص ويغنى للحياة والموت . . للقاء والوداع . بل حرام ألا يغنى فى الجنازة المرحة . .

واختفت الأفراح الجنائزية . بإختفاء الحرب ولكن صداها ودموعها وجليدها ووحلها ما يزال عالقاً بلسانه . . .

وأخذت الحرب كثيراً من أحلام طفولته . أما أمه فقد تزوجت رجلا آخر غير والده وأما أبوه فقد تزوج امرأة أخرى . وكان له أخوة فى الدم فقط . . .

وأحس الفنان الصغير الرقيق أنه إحدى أشجار الصنوبر الصلبة فى قلب الجليد . . وأكسبه اليتم والفقر والحساسية شعوراً بالامتياز والثقة بالنفس . ومن وحدته ومرارته تدفق الشعر وذاب الجليد . وانشغل الفنان بنفسه وبما يدور فى رأسه وفى كثير من حصص المدرسة كان يكتب أشياء أخرى غير التى يقولها المدرس . وخصوصاً فى حصة الإملاء . وطرده المدرسون واحداً وراء واحد وفى كل مرة يطردونه يحس أنهم يعقدون له موعداً غرامياً مع أعز إنسان عليه : مع نفسه .

وأول ديوان صدر له كان بلا إمضاء باع الديوان عشرين ألف نسخة . أما آخر ديوان فباع مليون ونصف مليون نسخة . وليس هو الشاعر الوحيد فى روسيا . فهناك ثلاثة آلاف شاعر .

ومن الممكن أن يأكل الإنسان من نظم الشعر . فهناك وظيفة اسمها الشاعر المحترف . ولما سألنى الشاعر إن كان شاعرنا أحمد عبد المعطى حجازى يعيش من الشعر قلت إن شعره يعيش من نثره . فاندهش .

وعلى أثر معاركه الأدبية فى روسيا تردد اسمه كثيراً والتقطت وكالة الأنباء هذا الاسم وكانت الصحف العالمية قد التقطت الشاعر باسترناك . وأشادوا به على أنه شاعر متمرد . وعندما فاز بجائزة نوبل فى الأدب كان السبب الظاهرى لأنه شاعر عظيم . ولكن السبب الحقيقى كان لأنه شاعر له رأى فى الثورة الروسية . . . أى أنه فاز بجائزة نوبل باعتباره ساخطاً . . .

وحرص الغرب على أن يظل السخط ناراً مشتعلة فى داخل روسيا . ولما ظهر (ى .ى .) وجدت الصحف الغربية أن هذا الشاعر هو خير بديل لباسترناك . . . ولما دارت المناقشات المعروفة بينه وبين خروتشيف نشرت فى كل صحف الدنيا . وتلهف الأدباء والنقاد على رؤية الشاب الذى طلب من خروتشيف أن يعطى لشاعر آخر فرصته كى يصلح نفسه ويقوم خطوطه الفكرية . ومما قاله (ى .ى .) فى ذلك اليوم : أن هذا الشاعر مواطن صالح وقد أصابه الألمان بعشرين رصاصة فى جسمه فاعطه فرصة .

وكان رد خروتشيف : أن هناك مثلاً شعبياً يقول : إن أصحاب الظهور المقوسة لا يقيمها إلا القبر . . وذكرت الصحف العالمية أن خروتشيف التفت إلى هذا

الشاعر وقال له : ما الذى أستطيع أن أفعله بك . هل أبعث بك إلى سيبريا ؟ أنت مولود بها . وإرسالك إلى سيبريا مثل إلقاء سمكة فى الماء . . إننى لا أعرف ما الذى أفعله بك ورد عليه الشاعر الشاب : أتركنى أفعل ما يشاء ضميرى الصادق . .

وكانت مجلة (لايف) أولى المجلات التى التقطت الشاعر ونشرت له قصيدتين دفعت ثمنها ثلاثة آلاف دولار . . . ونشرت الصحف تقول إن (ى . ى .) هو شاعر مجلة لايف . . .

وظل الشاعر (ى .ى .) يلقى قصائده بصوته الأجش الحساس فى كل مكان . فألقى فى إحدى المرات ديواناً كاملاً على عشرات الألوف من العمال . . . وفى خمس ساعات . . .

وهو أول شاعر سوفيتى يلقى الشعر فى هذه الحشود الهائلة من المثقفين والعمال والفلاحين فى كل الجمهوريات السوفيتية وفى أوربا وفى آسيا وفى استراليا وفى أمريكا . . . وفى إفريقيا دعاه الرئيس الشاعر ليوبولد سنجور . . وأمضى ثلاثة أسابيع ضيفاً على جمهورية السنغال . . التى أهدت لروسيا وللعالم شاعراً عظيماً هو بوشكين .

وفى مصر دعاه أحمد بهاء الدين ودعانى أيضاً لمرافقته الى أسوان والأقصر . وسألنا أكثر من مرة إن كانت فى النيل أسماك . وأكدنا له أن هناك كثيراً من الأسماك . . ولما ذهبنا إلى السد العالى عاد فسألنا عن الأسماك . وعرفنا فيما بعد أن فى الاتحاد السوفيتى أنهاراً اختفى منها السمك بسبب وجود المصانع والمولدات الكهربائية على الجانبين . وفى السد العالى التقى – بالمهندسين الروس ووجد من بينهم أحد أصدقائه . وجاء يقول لنا أن هذا الصديق حاول منذ ثلاث سنوات أن يجد تذكرة واحدة ليشهده وهو يقرأ شعره وهو الآن . . سعيد لأن (ى .ى .) جاء يبحث عنه .

وفى الليل دعاه بعض الأصدقاء الروس ليلقى شعره – طبعاً وألقى وأطال ووجد من بين المستمعين شاعراً . . . وكان سعيداً . وأبدت سيدة ملاحظتها فى أن بعض قصائده حزينة . . ولكن (ى .ى .) قال لها : ولكنى ألاحظ الابتسامة العريضة على وجهك فأجابت السيدة : إننى ابتسم فقط لأنك تلقى هذا الشعر فى بيتى . . .

(آخر قصيدة سمعتها من الشاعر كانت فى بيت الفنان صلاح طاهر إنها تتحدث عن الوحدة والموت والغرق . . .)

سألته : هل عرفت شيئاً عن الحضارة المصرية القديمة قبل أن تجيء إلى هنا . . .

فأجاب : لقد نظمت قصيدة اسمها (نفرتيتى) وهى قصيدة مشهورة وقد أسرف الناس فى تفسيرها ولكن القصيدة معناها أن الملكة نفرتيتى وهى جالسة إلى جوار زوجها : نوعان من القوة ونوعان من الضعف . . . فالملك بقوته ضعيف إلى جوار نفرتيتى . . . ونفرتيتى كامرأة ضعيفة ولكنها قوية بجمالها أما الذى يبقى فهو الجمال . . . فالملك بقوته أضعف منها وهى بضعفها أقوى منه . . . فهو يمثل ضعف القوة . . . وهى تمثل قوة الضعف . . . والفن هو الذى يبقى فى النهاية . . .

قال هذه العبارة وهو يشير إلى الرسومات التى سجلها الفنانون الفراعنة على المعابد والمقابر . . . وسألته عن الأدباء العالميين الذين يعرفهم - ولم يكن حريصاً على أن يقول . ولا حريصاً على أن أسأله فهو مشغول بموسيقى أخرى لا نسمعها فى أذنيه . . . وهو يدندن عادة كأى موسيقار . . .

وقلت له على سبيل المساعدة : سارتر مثلاً ؟

قال : أعرفه ولكنى لا أحبه .

قلت : البرتو مورافيا مثلاً ؟

قال : أعرفه شخصياً . . . وأحب روايته (زمن اللامبالاة) وهو رجل غيور على زوجته الجديدة الجميلة .

قلت : لقد قابلتهما فى العام الماضى فى هافانا . . . وهى فتاة جميلة . . .

قال : ليست جميلة .

قلت : جميلة جداً .

قال : ليست جميلة . . . وهو غيور عليها جداً لدرجة أنه لا يطيق أن يجلس معها أحد .

قلت : لقد جلست معها ، ثم أستأذن مورافيا وتركنا وحدنا ساعتين . . .

قال : مستحيل . . . . وأين كان ذلك ؟

قلت : فى مدخل الفندق الذى انعقد فيه مؤتمر القارات الثلاث . . .

وضحك (ى . ى .) وهو عندما يضحك يسترد وجهه كل ألوان الطفولة . بسرعة تمتص بشرته كل هذه الورود والأضواء . ويعود وجهه جاداً جامداً . .

وهو من أشد الناس إعجاباً بهيمنجواى وأرثر ميللر والشاب الفنان إدوارد البى . . وبمسرحيته المعروفة (من الذى يخاف فيرجينيا وولف ؟) ويرى أن إليزابيث تايلور قد بلغت قمتها فى هذه المسرحية .

ولا يزال فى دهشة من التحول الذى أصاب الكاتب الأمريكى جون شتاينبك . . فهذا الكاتب عندما سافر إلى روسيا ناشد الأدباء الشبان أن يسخطوا ويثوروا قائلا : أيها الذئاب أرونى أنيابكم .

وبعث إليه (ى .ى .) برسالة يقول فيها . . .

أيها الذئب العجوز أرنى أنيابك عندما تثور على عدوان أمريكا على فيتنام .

ويبدو أن الشاعر قد تعب من الشعر وأنه لم يعد لديه ما يقوله فى نظم الشعر . وإنه كثيراً ما أمضى اليوم كاملاً فى نظم بيت واحد .

ويبدو أن الشاعر قد تعب من الشعر وأنه لم يعد لديه ما يقوله فى نظم الشعر وأنه كثيراً ما أمضى اليوم كاملاً فى نظم بيت واحد . وقد كتب قصة فيلم عن كوبا . وأقام فى كوبا تسعة شهور . وفشل الفيلم وهو الآن يتهيأ لإخراج فيلم من تأليفه وموضوعه قصة كفاح فتاة شابة .

وقد أبرق من أسوان إلى أمريكا يعلن عن وجود قصة طولها ستون صفحة موضوعها (نحن نحاول جهدنا) وهى وصف للحياة فى أمريكا . .

وجاء الرد من أمريكا يقول : موافقون سندفع لك ستين ألف دولار .

ومن ضمن مشروعاته كتابة قصة قصيرة عن ترجمان تعب من مهنته . . . تعب من التكرار الممل لنفس الحقائق التاريخية . . وتعب من الإجابات المعروفة للأسئلة المعروفة التى يسمعها وهو مغمض العينين من كل السائحين . . . ودفعه الملل إلى نوع من الهرب . . وجاء الهرب على شكل حب مجنون لإحدى الملكات . . واختلط الخيال بالواقع . . واستراح الترجمان عندما أصيب بالجنون . .

وهو يحلم أيضاً بأن يسجل الشعر الروسى من أيام بوشكين حتى اليوم بصوته . .

وأن يسجل قصائده أيضاً بصوته مع موسيقى تعبيرية . . . ولكن أعز أمانيه جميعاً : أن يصحو فى طائرة وينام فى طائرة أخرى . . .

أما أعز أمانينا نحن فهو ألا يصيبه ما أصاب كل الشعراء الروس . . . جميعاً إنهم يقتلون أو ينتحرون .



حتى قتلت الضحك

الله

خلق هذا الرجل لحكمة : وهى أن تكون حياته شعراً ، وأن يكون شعره بلا حياة !

ففى حياته ملايين الناس وملايين الجنيهات ومنها حروب ومغامرات . وقنابل وثمار البطاطة ويابانيون وإنجليز وعرب . وثراء فاحش وفقر ساحق .

وقد أتيحت له فرص نادرة فى أوربا وآسيا وأفريقيا لكى يقول شيئاً وأن يسمعه الناس فلا قال ولا سمعه أحد من الناس .

ومع ذلك فهو يصر أن يكون آخر الشعراء فى اليمن بعد مقتل الزبيرى ، وأن يكون أول شاعر فى التاريخ قد نظم قرارات الجامعة العربية شعرا !

هذا الشاعر اليمنى ، والسنغافورى الملاوى قبل ذلك ، هو عبد الله بن يحيى العلوى المولود فى سنغافورة من ٦٣ عاماً .

***

عندما مات أبوه ترك له مائة ألف جنيه . ولكنه استطاع بعد خمس سنوات أن يجعلها مليون جنيه أو ٧٣ بيتاً وفيلا استولى عليها اليابانيون سنة ١٩٤١ . وعندما انهزم اليابانيون استولى الإنجليز على كل ما فى البنوك وألغوا كل الأوراق المالية وشطبوا كل ما يملك . .

وفى سنغافورة كان يعمل رئيساً لكثير من الهيئات الإسلامية . ويبدو أن هذا النشاط كان مريحاً . وكان من عادته أن يسافر إلى بلاد اليمن كأى سائح أجنبى . فإنه من أصل يمنى وزوجته من تونس وأولاده التسعة من أمريكا وسوريا وعدن

ومصر . . وعنده تسع بنات أخريات اشتراهن جميعاً من فقراء سنغافورة . فأهل سنغافورة يبيعون الطفل الرضيع بعشرين دولاراً . وقد اشترى تسعاً من الفتيات تزوجن جميعاً . لم تبق سوى واحدة فى العشرين من عمرها الآن .

وقد كان عنده شعور بأنه غريب عن اليمن . أو بأنه سعيد بعيداً عن اليمن . ولذلك فعندما يزور اليمن يشبه أصحاب الملايين من المغتربين عندما يزورون جبال الأرز فى لبنان . وكان يلقى حفاوة سخية من الإمام يحيى ومن سيف الإسلام البدر . وقد بلغت به الشجاعة فى إحدى المرات أن ألقى قصيدة فى حضرة الإمام . ويقول الأستاذ العلوى أنه تنبأ فيها بقيام ثورة اليمن . وكانت القصيدة فى ثلاثينيات هذا القرن . يقول :

ما لصنعاء لا أراها كما	كنت أراها من قبل عشرين عاماً
فى ثراها دم وفى الجو غيم	مكفهر وفى الخدور أيامى
وأرى الروضة الجميلة ذبلى	والفراشات حولها كاليتامى
أتراها من ثورة الأمس ثكلى	أم تراها حبلى بأخرى غراماً

وهذا البيت الأخير هو الذى يعتبره نوعاً من النبوءة بميلاد ثورة بعد إلقاء هذه القصيدة بثلاثين عاماً .

وكان من عادة سيف الإسلام البدر أن يبعث له ببيتين من الشعر تلغرافيا فى كل مدينة يحل فيها الشاعر العلوى . وأنا أرفض نشر هذه الأبيات لسخافتها - ذهاباً وإياباً !!

وفى حياة الشاعر اليمنى العلوى مغامرات تستحق أن يسجلها شعراً أو نثراً ولكنه لم يفعل لأنه لم يهتز كأنه لا يزال مليونيراً !

ففى أثناء الحرب الأخيرة قام اليابانيون بترحيله هو وأولاده إلى أندونيسيا على ظهر إحدى السفن الحربية . فقطعت هذه السفينة الحربية مسافة قدرها ٥٠٠ كليو متر فى شهر . فلا تكاد تمضى السفينة ساعة حتى تصدر إليها الأوامر بأن تأوى إلى إحدى الجزر . وكاد العلوى وأولاده يموتون جوعاً . وفى إحدى المرات نزل الشاعر ليأتى لأولاده ببعض البطاطه . وصدرت الأوامر إلى السفينة فتحركت وتركت الشاعر فى جزيرة مهجورة ليلة كاملة . ولم يهتز وجدان الشاعر لأولاده ولا للبطاطه ولا للغرابة ولا للفزع الذى تجسد فى جندى يابانى كاد يمزقه بسلاحه فى الظلام . .

ونقله اليابانيون إلى طوكيو ليذيع بالعربية ضد الحلفاء .

وعندما جاء إلى مصر قبل قيام ثورتنا بعام واحد افتتح أجزاخانة فى شبرا واسماها مخزن «الأهرام» . وخسر فيها ستة آلاف جنيه . ربما كانت هذه الأجزاخانة هى المسئولة عن شعره المعقم العقيم . أو شعره المغسول النظيف من كل فن وجمال . . ربما !

وأول الأعمال الأدبية أو الفنية التى قدمها الشاعر العلوى - كتابه الذى عنوانه «تقرير سياسى منظوم - أول تقرير سياسى شعرى فى العالم العربى : وصف رائع للمغرب» . وفى هذا التقرير يروى حوادث وأحداث وأنوف وصلعات ومعاكسات السادة أعضاء الوفود العربية فى الاجتماع الـ ٣٢ للجامعة العربية فى الدار البيضاء سنة ١٩٥٩ . وهو يطلق عليه اسم : أول تقرير سياسى من نوعه . وهو فى الحقيقة ليس تقريراً ولا سياسياً . ولعله الأول من نوعه من ناحية النظم . وإن كان الشاعر العلوى يقصد أنه الأول من ناحية الشعر . . وفارق كبير بين النظم والشعر . . وهذا التقرير هو أحسن نموذج للكلام المنظوم !

قال آخر شعراء اليمن فى وصف وفد الجامعة العربية :

وسار فى موكبه «حسونة» تصحبه حاشية مصونة !

ووصف النظارات على عيون أعضاء الوفود :

على عيون أغلب الوفود نظارة لرؤية الحدود

ويزعم البعض من النسوان بأنها لرؤية الحسان

ويقول عن الوزراء :

وبعض من عرفتهم من وزرا ينام فى غرفته منتحرا

وتسمع من مترين أو ثلاث (؟!) غطيطه كالضفدع النفاث

أظن - نحوياً - مترين أو ثلاثة !

ويقول فى وصف أعضاء الوفود وقد لمعت صلعاتهم :

وفى الوفود تسعة صلعان رءوسهم كأنها الكيزان

قد حلقوا اللحى وأبقوا الشارب فأصبحوا أشبه بالعقارب

ويقول فى وصف مدينة روما :

روما . وما روما ؟ بلاد الفن   وأى فن يا ترى وحسن

سكانها تستملح الفنون   وتعشق الجبنة والمكرون

وفى هامش الديوان يشرح معنى وكيفية صناعة المكرونة . ويقول إنها منتشرة فى العالم !

***

وذهب الشاعر ممثلا اليمن فى مؤتمر باندونج . .

وذهب يمثل اليمن فى مؤتمر القارات الثلاث فى مدينة هافانا بكوبا .

وكان يلقى من الحفاوة والتقدير ما يلقاه كل رؤساء الوفود . بل كان نصيبه من الحفاوة فى هافانا وفى موسكو أعظم مما يلقاه أى إنسان . فقد كان هو رئيس الوفد اليمنى وكان هو العضو الوحيد أيضاً .

وفى إحدى الليالى انعقدت اللجنة السياسية حتى الصباح . وكان لابد أن تتحدث كل الوفود لكى تتخذ اللجنة قراراتها النهائية . وفى تلك الليلة تناوب يوسف السباعى وخالد محيى الدين رياسة اللجنة السياسية .

وأعطيت الكلمة للوفد اليمنى .

أما نحن العرب فقد سمعنا الشاعر العلوى يتكلم . . ولكن بقية الوفود أخذت تتطلع إلى الدكتور مكى المترجم المصرى الذى ينقل كلام العلوى إلى أية لغة أوربية ، ثم يتولى بقية المترجمين نقل هذه الترجمة إلى الإسبانية والفرنسية والإنجليزية .

ونظرت إلينا الوفود من الاتحاد السوفيتى حتى الصين . ونحن غارقون فى الضحك ، وهم جميعاً غارقون فى الحيرة !

وكان التعب قد أهلك الحاضرين جميعاً . وكان لديهم استعداد دائم لأن يضحكوا لا مانع من الضحك . ويريدون أن يعرفوا النكتة التى نضحك لها .

أما آخر شعراء اليمن ومندوبها لدى منظمة التضامن الأفريقى الآسيوى فقد إقترب من الميكروفون ليقول بالحرف الواحد : كنا ننتظر من كوبا أن تسقينا كوباً واحداً ولكن أبى كرمها إلا أن تسقينا أكواباً وأكواباً !

***

ولم يعرف المترجم المصرى أن ينقل التلاعب بالألفاظ فى هذه الجلسة العنيفة وغلبنا والضحك . وغلبه هو الضحك أيضاً !

(وبمناسبة الكرم هذا أذكر أن الشاعر القاضى الشماخى عندما كان مندوبَ اليمن فى مؤتمر الأدباء الذى انعقد فى الكويت ألقى قصيدة طويلة جداً . . جاءت فى مقدمتها هذه العبارة : من المحيط الأطلسى إلى المحيط الفارسى . . فتعالت الأصوات تقول له : الخليج . الخليج . . وليس المحيط . فرد القاضى الشماخى بسرعة : لقد صيره كرمكم محيطاً) .

وأطال الشاعر العلوى فى كلمته . .

وكان من الطبيعى أن ينبهه يوسف السباعى رئيس اللجنة إلى أن الوقت المخصص له قد أوشك على الإنتهاء . فأضاء له المصباح الأحمر . وكان آخر شعراء اليمن يتوقع هذا التنبيه ويتوقع أن يضىء له يوسف السباعى المصباح الأحمر . فأخرج مندوب اليمن قصيدة كان قد أعدها لهذه المناسبة وقال مشيراً إلى المصباح الأحمر :

بهذا الدم القانى الأحمر ... وما أجمل الدم للثائر

تهد القلاع وتحيا الشعو ... ب ويقضى على الظلم والجائر

فسحقاً وتباً لكل البغاة ... وويل لكل يد غادر

وذهب شاعر اليمن إلى مكانه من القاعة سعيداً بأنه أثار دهشة الحاضرين وأيقظهم من النوم وأيقظ ضيقهم بالوقت الضائع .

***

ولم يحدث فى تاريخ الشعراليمنى ، ولا الشعر العربى كله ولا العالمى ، أن أتيحت له مثل هذه الفرصة الشعبية الدولية النادرة لأى شاعر أعطيت له الكلمة وارتفعت لها مئات السماعات لكى تنقل كلامه بأربع لغات . . فقال . . ولم يسمع أحداً فكأنه لم يقل شيئاً !

والشاعر العلوى يتوعد أدباء العروبة والمتذوقين للشعر بأنه سوف يصدر خمسة دواوين أخرى عن مؤتمر عدم الانحياز ومهرجان الشعر ومؤتمر باندونج ومؤتمر كوناكرى والمؤتمر الإسلامى فى عمان . أما ديوان الشعر المكشوف فليس فى نيته أن ينشره . . وأنا أشهد أن كلامه المكشوف فيه شاعرية . . فكأن الشاعر العلوى قد شاء أن يكون شاعراً سرياً وناظماً علنياً !

أما هذا التقرير السياسى فقد طبع منه ألف نسخة . وهو غير معروض للبيع . وإنما يهديه إلى أصدقائه . وقد حمل منه إلى هافانا وموسكو عدداً لا بأس به ولا أعتقد أن أحداً قد احتفظ بهذا التقرير . فقد تركناه هناك بعيداً . . فى هذه البلاد البعيدة . وفى الجوانب البعيدة من النسيان .

وقد جعل الشاعر العلوى ، إهداء هذا التقرير السياسى الوحيد من نوعه : إلى من لا يأنس بهذا التقرير السياسى الشعبى ، ويطمئن إليه ، ويثلج به ويعض بالنواجذ عليه .

أى أن الإهداء إلى كل الناس !

أما الشاعر نفسه فهو رجل متوسط القامة أحمر الوجه . كأنه من أبناء جنوب أوربا . ولا تكاد تأنس إليه حتى يتمسك بك . . أى يعض عليك بالنواجذ – ثم يظل يلقى على مسامعك شعراً قديماً . . وشعراً حديثاً كهذا الذى جاء فى تقريره وفى برقياته ! وهو ككل اليمنيين المثقفين خفيف الدم حاضر البديهة والنكتة !

وإنها لقسمة عادلة : لقد أعطاه الله المال فضيعه ، وأعطاه الشعر فليته يضيعه !



أسوار وراء الأسوار

هـذه مسرحية بلا حوادث . .

إنها مسرحية «شخص غريب» للأديب الأيرلندى براندن بيهان . .

إنهـا فى داخل سـجن . والناس الذين يقـومـون بدور البطولة فى غـاية البـرود والجمود ولا جديد فى حياتهم . لا يتوقعون أى جديد . لقد سلموا مع ملابسهم كل أمل فى النجاة . تماماً كالذين دخلوا جحيم الشاعر الإيطالى دانتى .

فعلى باب «جحيم» الشاعر دانتى توجد هذه العبارة : أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة !

وفى داخل السجن يوجد سجن آخر :

إنه الملل . فهم جميعاً يعرفون كل شىء . الأصوات معروفة . الوجوه معروفة . الأجراس . الفئران . الجوع . البرودة . الجلادون . الحراس . كل هذه قضبان من حديد بارد . كلها تعوق الإنسان أن يتحرك . وتعوق الفكر أن يذهب بعيداً . . وكل واحد منهم قد استنفد أفكاره . واستهلك أحلامه . واستسلم . .

***

وهناك سجن آخر . .

وهذا السجن هو المساجين أنفسهم . فكل سجين يرى صورته فى غيره . يرى جموده . يرى يأسه وقد أصبح ممزقاً مهلهلاً . يرى مصيره فى الرجل الذى أمضى أربعين سنة وفى الرجل الذى خرج من السجن ليعود إليه . . فهم جميعاً مرايا . . جدران باردة من المرايا . .

***

وهناك سجن ثالث . .

فأقسى من السجن أن يكون الإنسان - فى النهاية - بمفرده محبوساً فى نفسه . أن يكون معتقلاً فى جلده ولحمه . أن يكون مسحوقاً بين الندم واليأس ، أن ينظر إلى جسمه كجثة . وأن هذه الجثة ترى نفسها بعينها !

أن أوسكار وايلد عندما دخل السجن كان يترحم على جحيم الشاعر دانتى حيث يلتقى المذنبون وجها لوجه ويتناقشون فى عذابهم . أما فى السجون الإنجليزية - كما يقول أوسكار وايلد - فالناس لا يتكلمون . . إنهم يسجنون ألسنتهم فى أفواههم .

ويقول أوسكار وايلد أيضاً : لم أكن أتصور أن الإنسان شرير إلى هذه الدرجة . . لم أكن أتصور أن الإنسان من الممكن أن يكون لا إنسانياً إلى هذه الدرجة . .

وعندما إلتقى الأديب فرانك هاريس بأوسكار وايلد فى السجن سأله : كيف وجدت السجن ؟ . . فقال أوسكار وايلد : أى سجن . . هنا أكثر من سجن .

***

وفى هذه المسرحية لا صراخ . . لا بكاء . . لا شكوى . . لا شىء يثير أحداً . ولكن الشىء الوحيد المثير والذى ينتظره المساجين بشىء من اللهفة . . أو على الأصح من التعطش هو أن ينفذ حكم الإعدام فى أحد من الناس . . هنا يشعر المساجين بشىء من الارتياح . والارتياح سببه إنهم سوف يرون شيئاً جديداً . سوف يسمعون شيئاً جديداً . سوف يتطلعون إلى وجوه جديدة . وسوف تعاودهم مظاهر الحياة : التفكير فى الغد والحقد على المحكوم عليه !

فهذا المحكوم عليه سوف يدخن أربعين سيجارة . معروف جداً هذا الرقم عند كل المساجين . أربعون سيجارة . وكل سيجارة يكون لها «عقب» سيجارة . وكلهم يفكرون فى هذا السعيد الذى سوف يحصل على واحد من هذه الأعقاب . وهذا المحكوم عليه سوف يكون له أحسن الطعام .

وهناك موكب معروف من الطعام الفاخر يقدمه السجن للمحكوم عليه . . اللحوم والفاكهة والسجائر . . واللحوم والفاكهة النادرة . . والخضراوات . . والمساجين يتفرجون على هذا المشهد . ويتحسرون . ويفكرون فى كل ما سوف يحدث بعد ذلك .

وفى هذه الأثناء يجرى حفر قبر للمحكوم عليه . . وأعماق القبر تتناسب مع طول المحكوم عليه . وحبل المشنقة طوله يتناسب مع وزن المحكوم عليه . .

والمساجين يرون فى هذا الحادث قنبلة تنسف ما عندهم من ملل وقرف . . ولذلك يتعرضون لهذه القنبلة . . بل إنهم يصنعونها . . ويصنعون غلافها وفتيلها ويصنعون شظاياها بأيديهم . .

وعندما وقعت غارة جوية على المدينة وأطفئت أنوارها ، وسقطت عليها قنبلة رأوا المدينة لأول مرة . . رأوها فى ضوء قنبلة . . رأوها فى أحضان الدمار . .

أما المحكوم عليه بالإعدام فى هذه المسرحية فهو شاب صغير . .

وهم فى السجن يقيمون محاكمة لهذا الشاب المحكوم عليه . . إنهم المساجين أنفسهم الذين يتخيلون كل ما سوف يحدث له . . ماذا يقال له . . كيف يتقبل هو كل ما يقال . . ماذا سيفعل مأمور السجن والقسيس . . كيف يتعلق المحكوم عليه من الحبل . . كيف يتدلى . . كيف يموت . . إنهم يعيشون تجربة موت . . مع أن الموت ليس تجربة . . ، لأن الإنسان عندما يموت ، يموت مرة واحدة ، والتجربة هى الحالة التى يمكن تكرارها لشخص واحد . .

ومن خلال هذه المحاكمات العنيفة . ومن خلال تجربة الموت هذه يهاجم المؤلف براندن بيهان إنجلترا والسجون الإنجليزية ويهاجم حكم الإعدام وتنفيذه . ويهاجم البورجوازية المنحلة التى تتحكم فى السجون .

***

وقد كان ظهور هذه المسرحية مثل قنبلة مروعة الانفجار فى «غارة سخط» على المجتمع الإنجليزى والفكر الإنجليزى والمسرح الإنجليزى . . وعلى العدوان الإنجليزى على السويس سنة ١٩٥٦ .

وسنة ١٩٥٦ هذه سنة فاصلة فى المسرح الإنجليزى ، ففى هذه السنة ثارت المجر ، ووقع العدوان المجنون عل السويس . وفى هذه السنة احتشدت المواهب الإنجليزية تصب سخطها فى قوالب مسرحية وسينمائية .

ففى هذه السنة ظهرت مسرحية «أنظر وراءك فى سخط» لزعيم الأدباء الساخطين جون أوسبورن (٣٦ سنة) .

وظهرت مسرحية «شخص غريب» هذه لبراندن بيهان .

وفى هذه السنة جاءت فرقة برخت إلى لندن . .

وظهرت أفلام جديدة الإتجاه مأخوذة من مسرحيات ساخطة . . فظهر فيلم «طعم العسل» للأديبة شيلاديلانى . . وفيلم «توم جونس» الذى اقتبسه جون اسبورن عن هنرى فيلدنج .

ويوم افتتاح المسرح القديم «رويال كورت» فى عهد إدارته الجديدة فى أبريل سنة ١٩٥٦ ، لم تجد الإدارة الجديدة نصاً مسرحياً واحدا يستحق أن تعرضه على الجمهور . وليس أمامها سوى مسرح شكسبير وتشيخوف وشو . .

وعندما انتهى جون أورسبورن من مسرحية «أنظر وراءك فى سخط» عرضها على كل المسارح . ورفضتها كل المسارح . وكان أوسبورن فى ذلك الوقت ممثلاً متعطلاً فى الثلاثين من عمره . يسكن فى عوامة عتيقة فى نهر التايمز . وكانت أمه تعمل جرسونة فى أحد البارات . وكانت تبعث له بنصف جنيه كل أسبوع . وتضع هذا المبلغ الزهيد فى مظروف ملفوف بعناية فائقة .

وفى هذا الوقت كان الكاتب «هارولد بنتر» يعمل ممثلا متواضعا .

وكانت شيلاديلانى فى السابعة عشرة من عمرها ، وتعمل فى شباك تذاكر إحدى دور السينما .

أما أرنولد وسكر فكان يعمل بواباً لمطبخ فى أحد الفنادق .

أما المؤلف المسرحى الأيرلندى برنداان بيهان فكان صعلوكاً فى لندن وكان مخموراً طول الوقت . وكان يصدم مشاعر الناس بالنكت البذيئة وكان يرتزق من القصص العارية التى يحيلها على دور الصحف والمجلات الجنسية . .

وكان من المألوف أن يراه الناس يقترض من كل إنسان يلقاه ، ويعد بشرفه أن يعيد هذا المبلغ ، وكان يجىء فى الموعد المتفق عليه ويعتذر لعجزه عن السداد ولكن فى نفس الوقت يعلن استعداده لأن يقوم بأى عمل مقابل هذا الدين ابتداءً من مسح البلاط حتى تسلية أية سيدة عجوز حتى تنام !

ولكن بيهان كان فى ذلك الوقت ثورة حية على المجتمع الإنجليزى والسياسة الإنجليزية التى عانى بسببها ثمانى سنوات فى مختلف السجون الإنجليزية .

وهو عندما هاجم السجون ، لم يكن فقط يعانى من الشعور بالموت أو تجربة الموت كما وصف ذلك الفيلسوف الوجودى سارتر فى قصته الرائعة «الحائط» . ففى هذه القصة يعرض علينا سارتر معنى الموت . . والفرق بين الحى وبين الميت . فالحى هو القادر على أن يتحكم فى أعضائه وفى وظائف أعضائه وهو الذى يستطيع أن يتكلم عن الغد بنفس الدرجة من الثقة فى استجابة يده لتحريكها . . أما المحكوم عليه فهو الذى يحس بأنه بلا سلطان على جسمه . وأن جسمه يتصرف كما يحلو له . وأنه لا يستطيع أن يتكلم عن الغد . . وأن العرق ينساب من جسمه دون أن يتحكم فيه . . وكأن الموت بدأ يذيبه أولا بأول . .

ولم يفعل بيهان ما فعله الأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات فى مسرحية «زيارة السيدة العجوز» عندما جعل أهل القرية يحفرون قبر البقال . وكان البقال يراهم وهم يحفرون قبره . فقد تحول أهل القرية جميعاً إلى «حانوطية» والبقال هو الميت الوحيد . . لقد أماتوه قبل أن يموت ودفنوه وهو حى .

ولكن أهل القرية قد فعلوا ذلك لأن سيدة قد اشترتهم بفلوسها . فقد تحولوا جميعاً فى نظر هذا البقال وفى نظر السيدة أيضاً إلى أناس بلا ضمائر ولا أخلاقيات . . لقد دفنت ضمائرهم فى نفس القبر الذى سيدفنون فيه البقال . . !

وفى آخر المسرحية عفت السيدة عن البقال وتركته يعيش بين أناس حكموا عليه بالموت . . بين أناس قدروا أنه يستحق الموت . أما لماذا قدروا موته ، فلأسباب مادية . ولأسباب لا أخلاقية !

وعاش هذا البقال وحده بين أناس يحتقرهم . . فعاش فى جزيرة من الاحتقار . . أو عاش فى بئر مليء بالدود . . والدود لايقوى على نهشه . لأنه أصبح مسموماً . أما السم الموجود فى دم هذا البقال فهو أنه الوحيد الذى أدرك بوضوح أنهم منحطون . . . وأنهم بلا أخلاق !

أن بيهان قد استخدم القبر وحفر القبر لأخلاقيات أخرى . ولم يشأ أن يجعل المحكوم عليه أو هذا الشخص الغريب يظهر ولو لحظة واحدة .

وبيهان لم يكن يقصد إعدام شخص واحد . وإنما إعدام كل تقاليد السجون ، وكل الأسباب الكاذبة التى ابتدعتها إنجلترا لسجن الوطنيين من أبناء أيرلندا .

***

فى هذا «الطقس» الأدبى فى إنجلترا ، ظهرت هذه المسرحية ، وكان الناس قد إستعدوا لها ولغيرها . .

ولأول مرة منذ أيام جورج برنارد شو ، يصبح المسرح قلعة خطيرة . . تماماً كما كان المسرح الفرنسى أيام احتلال الألمان لباريس . عندما ظهرت مسرحية «الذباب» لسارتر تهاجم الطغيان النازى تحت الأزياء الإغريقية ، فى رموز الأساطير القديمة .

والمسرح لا يصبح خطراً على الدولة ، إلا إذا كان يهاجم الأوضاع القائمة التى لا تعجب أغلبية الشعب . ولذلك جاءت مسرحيات «الأدباء الساخطين» أقوى سلاح ضد الأوضاع البالية فى إنجلترا . والفن يعتمد على الإيماء والإشارة . وهذه الإيماءات هى التى ترشد الناس إلى تغيير الأوضاع .

وقد كان يوم ٨ مايو سنة ١٩٥٦ هو بداية الثورة على الفكر الإنجليزى . ففى هذا اليوم احتفلت بريطانيا بذكرى إنتصارها فى أوروبا على القوات النازية وفى هذا الوقت ظهرت مسرحية «أنظر وراءك فى سخط» لتؤكد للناس أنه لا ذكرى ولا إنتصار ولا شىء يستحق الاحتفال به . وإن بريطانيا ما تزال أسوأ من أى وقت مضى .

كل ذلك فى أسلوب من الكلام العادى . . فقد جاءت هذه المسرحيات بالأسلوب الذى يتكلم به الناس . وليس ذلك الأسلوب الإنجليزى التقليدى .

ويوم ظهرت مسرحية «أنظر وراءك فى سخط» ومسرحية «شخص غريب» شعر النقاد بأن رياحاً كريهة قد هبت على المسرح . . ولكن فى نفس الوقت أعلنوا أيضاً أن هذه اللهجة والنبرة والسخط الجديد هو بالضبط ما يريده الشبان دون الثلاثين . ومن هذا المسرح الساخط التقطت الصحف والمجلات شخصياتها الكاريكاتورية والتقطت شعاراتها المتمردة على السياسة الاستعمارية والقوالب الفكرية البالية فى بريطانيا . .

وفى هذه الأثناء أيضاً ظهر فيلسوف شاب للساخطين هو كولن ويلسون فقد أصدر كتابه «اللامنتمى» وكتابه «سقوط الحضارة» وقصة «طقوس فى الظلام» و«ضائع فى حى سوهو» وغيرها . . وكلها تؤكد معناً واحداً : أن الشاب المعاصر يشعر الغربة فى هذا المجتمع القديم وأنه لابد أن يثور عليه .

وقد تولى براندن بيهان الذى توفى عن ٤١ عاماً سنة ١٩٦٤ الثورة بنفسه ومعدته فى المطاعم وفى الحانات وفى الشوارع . وكثيراً ما وقف على أحد المقاعد يقرأ أغنيات الشخص الغريب ساخراً من المسرح القديم والفكر القديم . .

***

وبعد ذلك ظهرت أسماء أخرى غير براندن بيهان وغير أوسبورن على المسرح الإنجليزى مثل آن جيليكو وكنجسلى أميس وإدوارد بوند الذى ظهرت له مسرحية «أنقذوه» . . والتى يموت فيها أحد الأطفال تحت ضربات رجل أفاق يظهر على المسرح .

لقد هاجمها البوليس والرقابة . . ولكنها استمرت تهز القيم الفاسدة فى المجتمع . .

ولا شك أن براندن بيهان موهبة أغرقتها الخمر . ولم تفلح السجون فى أن تصيب حرارتها بالبرودة . . ولم تفلح السلاسل ولا الجدران الضيقة أن تخنقها . لقد كانت موهبته أعظم من جسمه الضخم . وكانت روحه المنطلقة أقوى من الأسوار . وإذا كان البريطانيون قد أودعوه ثمانى سنوات فى السجن . فإن مسرحيته هذه قد أودعت البريطانيين فى سجن الاحتقار إلى الأبد !



كانت ليلة

الأدب

نوع من الاعترافات . . .

هذه الجملة تنطبق على تنيسى وليامز بصفة خاصة ، فهو قد تحدث كثيراً عن حياته ، الخاصة . وعن طفولته ، وعن المرحلة الحساسة جداً فى حياته ، وكيف كانت أسرته الصغيرة ، وكيف تعذب وهو طفل . وكيف أن أباه كان يعيره بأنه بنت ، وكيف كان يهرب من قسوة الأب - تاجر الأحذية - ويأوى إلى أخته ، وكيف ارتبط بأخته الشديدة الحساسية نزيلة مستشفى الأمراض العصبية ، وكيف كانت أمه نموذجاً للهوان أمام هذا الأب القاسى ، وكيف كان له عالم خاص من القصص والحكايات والتماثيل ، وكان يعيش فى هذا العالم منعزلاً تماماً عن البيت والشارع والمدرسة . وكيف أن عالمه الخاص أقوى وأجمل من العالم الواقعى ، وكيف أن الفن أجمل من الحياة ، ففى الفن نظام وارتباط وترابط ، وفى الحياة الواقعية فوضى . وقد اختار تنيسى وليامز عالم الفن الجميل . وعاش فيه أكثر من الواقع .

وغير ذلك رواه لنا تنيسى وليامز .

ولذلك فنحن عندما نقرأ مسرحياته نجد أنه قد صور نفسه وأمه وأباه وأخته فى كل هذه المسرحيات أو فى معظم هذه المسرحيات .

فالفن - إذن نوع من الاعترافات .

ولكن إلى أى حد تنطبق هذه المسرحيات على حياته ؟

أو إلى أى حد تنطبق حياته على هذه المسرحيات ؟

إن كلمة «تنطبق» هى التى تجعل السؤال صعباً ، والإجابة غير دقيقة . فهى لا تنطبق على حياته وإنما فيها شىء من حياته . أو حياته شىء من هذه المسرحيات .

ومعنى ذلك أن هذه المسرحيات تصور واقع حياته إلى حد كبير . وبذلك لا يختلف تنيسى وليامز عن كثير من الفنانين . لأننا لابد أن نجد حياة الفنان فى عمله . فالفنان هو أعماله الفنية .

ولكن هنا مشكلة تتعلق بالنقد أو بالتفسير الأدبى أو الفنى لحياة الفنان !

هل نفسر أعماله الأدبية بأن نلقى ضوءاً من حياته على هذه الأعمال ؟

هل نفسر حياته بأن نلقى ضوءاً من هذه الأعمال الأدبية على حياته ؟

أو بعبارة أخرى : هل حياة الفنان تفسر أدبه ، أو أن الأدب يفسر حياته ؟

هناك إجابات كثيرة عن هذه الأسئلة .

فالذين يرون أن الأعمال الفنية قائمة بذاتها ، وأننا يجب أن نفسرها بنفسها ، يستبعدون الفنان وحياته وعلاقته بهذه الأعمال الفنية . وهذا هو النقد الموضوعى . أو النقد العلمى . فالعمل الأدبى كائن حى موجود بذاته . وله وجود مستقل . ومنطق خاص . ويجب أن يفهم على علاته . ولا شأن لنا بالفنان نفسه .

هذا رأى .

وهناك رأى آخر وهو أن الفنان هو فنه . . أو الفنان هو كل أعماله الفنية . ولذلك فنحن نستعين بالفنان فى فهم أعماله الفنية . كما نستعين بالرسام على فهم لوحاته . وليست الأعمال الفنية إلا الدنيا كلها وقد تسللت إلى نفس الفنان وامتزجت بدمه ، ثم أعادها لنا فى هذا الإطار الجميل . فلابد إذن من أن نضع أيدينا على كتف الفنان لكى يهدينا إلى أعماقه ، وإلى فك الألغاز الموجودة فى أعماله الفنية . فهو مفتاح لأعماله الفنية .

ولابد من إثارة هذه المناقشة عند الكلام عن تنيسى وليامز ، لأنه هو الذى استدرج النقاد والمؤرخين إلى النظر فى حياته ، وفى أعماله الفنية ، وإلى المقارنة أيضاً .

وأعماله الفنية كلها تدور حول موضوع واحد : الجنس !

فقد اختار تنيسى وليامز عالم الجنس الواسع المظلم المعقد . أى أنه اختار لوناً واحداً صارخاً .

وليست شخصيات مسرحياته إلا درجات متفاوتة من نفس اللون الواحد .

وكل شخصيات تنيسى وليامز غير متوافقة فى حياتها . بل إنها أقرب إلى الفشل ، فالفشل دفعها إلى العزلة ، والعزلة دفعتها إلى التعقيد . لكنها جميعا مصرة على أن تواجه الفشل أو الحياة وأن تعيش .

ويبدو أن هذا هو رأى تنيسى وليامز نفسه ، فالحياة ليست كما تبدو لنا . إنها شىء آخر . ولكن يجب أن نواجهها . فليس لنا إلا هذه الحياة .

وليس عالم الجنس ضيقاً ، بل إنه واسع عميق غامض . وإذا كانت النماذج التى عرضها تنيسى وليامز فى كل مسرحياته لا تتجاوز ستة أنواع ، فإن المركيزدى صاد كان أول من عرض مئات النماذج الشاذة . ففى كتابه «١٢٠يوماً فى مدينة سودوم» ، عرض المركيز دى صاد أكثر من ٢٠٠ حالة جنسية شاذة ، فكان بذلك أسبق من فرويد وتلامذته . والمركيز دى صاد أيضاً قد أشار بشكل علمى إلى أن كل الانحرافات الجنسية تبدأ فى الطفولة ، فإذا بدأت تعقد الطفل ، فانعزل ، واتخذ موقفاً عدائياً من المجتمع ، إلا إذا أنقذه الفن من هذا الانحراف .

وكأن المركيز دى صاد كان يقصد تنيسى وليامز بالذات !

وواضح من مسرحيات تنيسى وليامز هذا الشعور الدائم بالفشل .

وواضح أيضاً الشعور بالعزلة ، وأن المسافات بين الناس ليست متقاربة كما نتصور . فما أقرب أجسام الناس ، ولكن ما أبعد المسافة بين قلوبهم ، أو عقولهم . بل ما أكثر اللغات التى يتحدث بها الناس . ولذلك فهم يعانون من صعوبة الفهم والتفاهم والإفهام . . فالناس فى قلاع من الغموض . وعندما يلتقى الناس . . تبدأ المشكلات كيف يتقاربون ؟ . . كيف يتعايشون ؟ كيف يشعرون بالسعادة ؟

وهذه المعانى تتردد كلها فى مسرحيات تنيسى وليامز . .

وهذا الشعور بالعزلة وبصعوبة التفاهم بين الناس هو الذى يجعله يقترب من فلسفة العبث ، أى فلسفة مسرح اللامعقول .

فمثلا مسرحيته «الحيوانات الزجاجية» وهى تصور حياته هو وأسرته وأوهامه هو وأخته - نجد أن الأم فى المسرحية تعيش فى أوهام قوية ، حتى أصبح ماضيها هو حاضرها ومستقبلها . والابنة تعيش فى أوهام أيضاً . . واللعب الزجاجية فى المسرحية هى هذا الماضى الشفاف القابل للكسر . . فهم جميعاً منعزلون عن الحاضر

وهم جميعاً معتقلون فى الماضى . وهم سعداء بهذه العزلة . وسعادتهم تؤكد فشلهم فى مواجهة الحاضر . . .

ولكنهم مع ذلك يعيشون . .

وفى مسرحيته «عربة اسمها اللذة» نرى الفتاة بلانش دى بوا التى تريد أن تتوافق مع الحياة . . نراها ونرثى لحالها ، ومن الصعب أن نجفف دموعنا ونحن نراها تخرج من الحمام تغنى لتتلقى صدمة جديدة . . إنها فتاة أرستقراطية رقيقة حساسة . صدمت فى حياتها . فسقطت وسقطت وأدمنت الشراب لتنسى . وتريد أن تعاود الحياة العادية من جديد .

تريد أن تجدد تعاقدها مع الحياة والناس ، فقد سقطت مرة . . والإنسان لا ينسى ولا يموت من سقطه واحدة . ولكن زوج أختها يفضحها ويؤكد فضيحتها فتنهار الفتاة وتصاب الجنون . .

فهذه المأساة ليست مأساة فردية ، وإنما هى مأساة المجتمع كله . فنحن جميعا قد أخطأنا فى حقها . نحن جميعاً لم نعطها فرصة أخرى لكى تعيش . . وإذا كانت هى قد أخطأت . فقد أجرم المجتمع .

وفى مسرحيته «صيف ودخان» نجد أن ابنة القسيس التى أحبت ابن الطبيب ، إنما تريد أن تكون لها حياة عادية . . حب عادى . ما المانع ؟ وفى هذه المسرحية نجد أن ابن الطبيب يخشى قيمها الأخلاقية ، بنفس الدرجة التى تخشى هى جسمه ، ويلتقى الاثنان ويتباعدان ، ولكن سرعان ما تلقى الفتاة بنفسها عند قدمى أى أحد !

إنها تريد . . وهو أيضاً يريد . . ولكن هذه الإرادة تمر بالدنيا المعقدة . دنيا الناس . . ودنيا الجنس ، فتكون النتيجة عبارات ومواقف غير مفهومة . فيتأكد التباعد بينهما . والعزلة والفشل فى النهاية !

ومسرحيته «كامينوريال» إنها تجربة فريدة يواجه فيها الإنسان كل ما ليس إنسانياً فيه . . إنها صورة جديدة للسجن الذى ابتدعه الإنسان لنفسه فهو محاصر بالأسوار والصحارى . وهو فى نفس الوقت سجين فشله التاريخى . وكل محاولات «دون كخوتة» و «سانخو بانسا» محاولات لا نهاية لها .

فى هذه المسرحية يحس الإنسان إنه ليس إلا «فأراً» أو «كلباً» أو «قرداً» فى معمل من معامل الله !

ومسرحيته «قطة فوق سطح من صفيح ساخن» . .

تروى لنا قصة الزوجة ماجى التى تحب زوجها . والزوج الشاذ جنسياً والذى يبكى على صديق له مات . ويظل يشرب ليلاً ونهاراً ، لكى ينعزل عن واقعة ويعيش فى ماضيه . والزوجة الشديدة الحساسية تتعذب وتتقلب على نار الحرمان والعار كقطة فوق صفيح ساخن . . وهذا الزوج يعلم أن والده الغنى مريض وأنه لابد أن يموت . وفى هذه الحالة يصبح الورثة هم أخاه وأولاده الأربعة . ولذلك تعلن الزوجة المحرومة أنها حامل . وبهذه الأكذوبة تنقذ الموقف الشرعى . . ولكن الموقف النفسى الجنسى ما يزال فى قمة الفشل والخيبة .

وفى مسرحيته «زمن التوافق» نجد زوجاً فى ليلة رأس السنة ومن أول ليلة لشهر العسل مع زوجته فى عربة لنقل الموتى ، ويرتعش من شدة البرد ، ومن شدة الخجل والفشل فى مواجهة هذا الموقف . فيلقى زوجته عند أحد أصدقائه الذى هجرته زوجته .

وفى نهاية المسرحية تم التلاقى والتوفيق – أو التلفيق – بين العواطف والمواقف . . ويتقارب الأزواج قليلاً قليلاً ، وتتردد الهمسات والضحكات ، وينزل الستار لنفهم أن الحياة قد عادت إلى الجميع تخوض بحراً من الفشل والعار .

وفى مسرحية «ليلة السحلية» نجد القسيس قد تحول إلى مرشد سياحى . . وهذا التحول فى ذاته نوع من الفشل فى التوافق ، وينتقل القسيس مع عدد من السيدات والفتيات إلى أحد الفنادق فيجد صديقة قديمة شديدة النهم الجنسى وقد ربطت فى بيتها عدداً من الشبان ترتوى من حيويتهم . وهى لا تريد أن تستمر فى هذه الحياة . تريد أن تستقر . . وأن يكون لها رجل . . أن يكون لها ومعها ومن أجلها هذا القسيس السابق . . وتظهر عانس إنجليزية ومعها جدها الشاعر المجنون . وتظهر فتاة صغيرة مثيرة .

وكلهم تعساء . . وكلهم يريدون أن يخرجوا من هذه التعاسة . . ولكن أحداً لا يستطيع ، ويفترقون ويعود كل إنسان إلى حياته من جديد .

وهذا العالم الذى نعيش فيه مع تنيسى وليامز فى غاية القسوة والشذوذ ، وألوانه صارخة . كأن تنيسى وليامز لا يثق فى المتفرج أو فى القارىء ، ولذلك يضع له كل

شيء باللون الفاقع ، ثم يعود فيشرحه ويشرحه . بل إن معظم مسرحيات تنيسى وليامز كانت قصصاً قصيرة قبل ذلك . فهو لا يكتفى توضيح ما يريد للقراء ، وإنما يوضح لنفسه أيضا . فلديه شيء ما ، يريد أن يقوله مرة على شكل قصيدة ، ومرة على شكل قصة ، ومرة ومرات على شكل مسرحية . . فهو ينشد الوضوح والإيضاح بكل ما يستطيع من أساليب للإضاءة على المسرح ، والتنوير فى القصة .

ولا شك أن تنيسى وليامز «حالة نفسية» تحتاج إلى أن يتوقف عندها الإنسان ليتساءل : ولماذا الجنس ؟ ولماذا الشذوذ ؟ ولماذا القسوة ؟

إننا نرى الإنسان فى عالم تنيسى وليامز كأنه قد ارتفع فوق إحدى ناطحات السحاب ثم انتحر بطريقة الهاراكيرى اليابانية - أى ضرب نفسه بالخنجر - لماذا ؟

وهذا يدفعنا إلى أعماق تنيسى وليامز ، وفى نفس الوقت إلى أعماق المجتمع الأمريكى ، فهذه هى مشكلة المواطن الأمريكى .

فأمريكا - كما يقول يوجين أونيل - كان من المفروض أن تكون أنجح بلد فى العالم . ولكن كيف ينجح بلد أعطاه الله كل شيء . يكفى أن يكون عندك كل شيء لتفقد كل شيء . . فالناس فى أمريكا عندهم كل شيء . ولذلك لا يبحثون عن شيء آخر . . فمتعة البحث والتعمق والنظر إلى داخلهم قد حرمها الأمريكان .

فكل شيء عندهم فى الخارج ، وليس عندهم فى الداخل شيء . أن كثرة الحركة والتنقل والمغامرة قد فتحت عيونهم على ما حولهم ، ولكن أعماقهم ظلت مظلمة .

ولذلك فتنيسى وليامز قد حول الأنظار إلى أعماق المواطن الأمريكى . . إلى هذه القوة الكامنة العنيفة التى تحركه دون أن يدرى . فالعمل ، والتنافس على العمل . وعلى المال ، قد جعل الناس ينسون أن لهم جنساً ، وأن بينهم ذكوراً وإناثاً . . لقد نسى الناس ، ولكن أعمالهم ومشكلاتهم وجرائمهم تؤكد هذه القوة التى تحركهم من الداخل .

وإذا كان الإنسان ضعيفاً أمام المال ، فإنه أضعف أمام الجنس .

وإذا كان الإنسان شمشوناً «جباراً» فإن شمشون الجبار هذا قد أسلم رقبته لدليلة . . وما من شمشون إلا وله دليلة !

وكل رجل شمشون . وكل رجل يصبح ضعيفاً أمام دليلة . وتاريخ الإنسانية - فى عالم تنيسى وليامز - ليس إلا محاولات مستمرة من شمشون أن يرفع رأسه فى كرامة . ولكن لا كرامة مع المرأة .

وليست المرأة هى أحسن ولا أجمل ما خلق الله . ولكن - مع الآسف - ليس لدى الإنسان غيرها .

ولا يزال الإنسـان حـائراً فى عـالم المرأة بين الحب ، الذى هو ملعب ، والزواج الذى هو مقلب ، والطلاق الذى هو مطلب ، والجنون الذى هو مهرب !

فالرجل محكوم عليه بالمرأة أن يتعذب بها . وأن يتعذب من غيرها .

وهذا واضح جداً فى كل مسرحيات تنيسى وليامز . وهو فى نفس الوقت يصور جانبا من العذاب الذى يكتوى به المواطن الأمريكى ، والانسان فى العصر الحديث .

وإذا كان مضمون مسرحيات تنيسى وليامز معروفاً عندنا ، فإن الشكل المسرحى الذى اختـاره وليـامز هو شكل تقليـدى . وإن كنا نجـده فى داخل الفصول وعلى المسرح يلجأ إلى كثير من الحيل المسرحيـة الحديثة . فهو يتلاعب كثيراً بالضوء وبتركيز الضوء على واحد من شخصياته .

وإن كان فى مسرحياته الأخيرة «اقترب جداً» من مسرح العبث - أى مسرح اللامعقول .

وهو يلجأ إلى الشاعرية فى العبارة ، وفى الجو ، وفى الرموز أيضاً .

فهو يستعين بالسحب والعواصف والرعد والبرق والمرض - تماماً مثل مسرح القرن التاسع عشر .

وهو يلجأ إلى الإيحاء والإشارة الصريحة فى مسرحياته ، فنجده يستخدم المصابيح الفاضحة ويغطيها بالورق فى «عربة اسمها اللذة» .

ويستخدم اللعب الزجاجية فى مسرحية «الحيوانات الزجاجية» .

والماعز فى مسرحية «وشم الوردة» .

والسحلية «فى ليلة السحلية» .

وتمثال الشباب الأبدى فى مسرحية «صيف ودخان» .

وعربة الموتى والصدع فى الحائط والكهف وتمثال المسيح فى مسرحية «فترة التوافق» .

وكل هذه الرموز ، وحتى أسماء الشخصيات ، يعنى بها تنيسى وليامز عناية غير عادية . ولكن يضعهم جميعاً فى مكانهم الطبيعى من المسرحية .

وهم جميعاً فى عزلة ، وورومانسيون ، وفيهم رقة ، ومهذبون .

وأضعف من العالم الذى ولدوا فيه .

ولكنهم مصرون على الاستمرار . . فى قوة وفزع وقسوة .

وإذا كانت شخصيات شكسبير العظيم الباقية هى : هاملت ، والملك لير ، وما كبث ، وعطيل ، وأنطونيو ، وروميو .

فإن شخصيات تنيسى وليامز الباقية هى : بلانش دى بوا ، وماجى ، والما ، وماكسين ، وبابى دول .

ومن المؤكد أن الإنسان عندما يكون متمرداً على وضع من الأوضاع فإنه يهرب منه ليقع ضحية لوضع آخر .

ونهاية كل المتمردين أن يصبحوا متعصبين لأوضاع جديدة . وقد هرب تنيسى وليامز من عالم الجنس القبيح الكريه فى طفولته ورجولته ، ولكنه هرب منه إليه . . هرب منه ليقع فيه . هرب من مسرح الجنس لتتحول شخصياته إلى خيالات لظل أسود . . ولكنه رائع . . فيه روعة وألوان قوس قزح عندما يرتسم فوق سحاب أسود !



معذبون بالقلب

السعادة ليس لها تاريخ !

فنحن لا نعرف إلا التعساء من المحبين ، وإلا الفقراء من الناس .

والسعادة كالموت : نهاية .

ولكن الحرص على السعادة والبحث عنها ، والعذاب من أجلها – هى البداية التقليدية لكل صراع فى القصة ، وفى المسرحية . والتاريخ قد سجل لنا هذا الصراع ، ولم يسجل لنا سطراً واحداً عن الذين أحبوا وعاشوا فى «التبات والنبات» . .

فمثلاً روميو وجولييت . .

وكل روميو وكل جولييت ، هذا الثنائى الخالد فى الأدب . . ثنائى العذاب حتى الموت ، أو الحب حتى الموت . .

وليلى والمجنون . . وقيس ولبنى . . وكثير وعزة . . وجميل وبثينة . .

والشاعر دانتى وحبيبته بياترتشة . .

والشاعر بتراركه وحبيبته لورا . .

والأديب بوكاتشيو وحبيبته فيامتا . .

والقديس أبيلار وحبيبته هلويزة . .

والشاعر توفالس وحبيبته صوفيا . .

والفيلسوف كيركجورد وحبيبته رجينا . .

والشاعر ريلكه وحبيبته نعمت علوى . .

وغيرهم من الذين عرفوا الطريق إلى السعادة . . ولم يعرفوا السعادة ولأنهم لم يعرفوا السعادة عرفهم التاريخ . .

ثم قصة فرانشيسكا وحبيبها باولو . .

هذه القصة بالذات لها دلالة خاصة .

إنها قصة الفتاة الجميلة التى بعث بها أخوها الأمير لتكون زوجة لأمير آخر فى مدينة ريمينى . وذهبت الفتاة الجميلة وقابلت الأمير وكان قبيح الشكل والخلق . واستسلمت لإرادة أخيها الأمير . ولكنها فوجئت بأن لزوجها أخاً جميلاً رقيقاً فى مثل سنها ، وفى مثل أحلامها . وأحبت الأخ الأصغر لزوجها واسمه باولو . .

وعرف الناس أمر العاشقين . ونفذ فيهما حكم الإعدام .

وقد قابلهما الشاعر دانتى فى «الجحيم» وطلب إلى فرانشيسكا أن تقول له : لماذا أحبت ولماذا كان لابد أن تحب !

وأصبح غرام فرانشيسكا مادة لمؤلفى الموسيقى والمسرحيات . إنها مأساة الفتاة التى خطبت لرجل لا تعرفه فوجدت رجلا آخر تعرفه . فأحبت الذى عرفته . ومات الاثنان من أجل الحب . أو مات الاثنان فى عناق أبدى !

وهذه المأساة لها دلالة خاصة عند قراءة مسرحية «عرفوا ما يريدون» من تأليف سيدنى هوارد . .

وسيدنى هوارد (١٨٩١ - ١٩٣٩) مؤلف مسرحية «عرفوا ما يريدون» اتهمه النقاد بأنه أخذ مسرحيته من هذه القصة القديمة . فهو أيضاً قد جعل بطلة مسرحيته فتاة تعمل جرسونة . وهى تعيسة فى حياتها ، وتلقت خطاباً من رجل لا تعرفه يعرض عليها الزواج . وجاء فى خطاب هذا الرجل أنه صاحب مزارع للكروم . فوافقت على الفور . وفوجئت بأن صديقاً له كان يكتب خطاباته ، وأن هذا العريس كان عجوزاً وأنه أرسل بصورة صديقه الشاب بدلا من صورته . وفى ليلة الزفاف تحطمت السيارة بالعريس . وتحطم العريس . وفى تلك الليلة ، وتحت تأثير الصدفة ، وفى نشوة النبيذ وحلاوة الرقص عانقت الصديق وحملت منه . واعترفت لزوجها . وقررت أن تهرب مع الصديق . ولكن الزوج الغنى الذى يحرص على أن يكون لها وريث بأى ثمن يتمسك بها ويستبقيها ويطرد الصديق . .

فالمسرحية إذن قريبة فى معناها من قصة «باولو وفرانشيسكا» .

ولكن المؤلف سيدنى هوارد لا ينفى عن نفسه هذه التهمة . بل أنه يواجه قضية الإقتباس هذه وينصح كل الأدباء الشبان أن يقتبسوا «عقداً» روائية أو مسرحية إذا لم يسعفهم خيالهم بابتكار عقدة جديدة .

فالفكرة لا تهم . والعقدة نفسها لا تهم أيضاً .

وإنما الذى يهم هو : كيف يتناول الكاتب عقدة قديمة بأسلوب جديد . . المعالجة هى التى تهم . . الاقتراب من العقدة وحلها وعرضها والإقناع بها ، والاقتناع عن طريقها هو الذى له كل القيمة !

وسواء كان سيدنى هوارد جاداً أو ساخراً ، فإنه على حق فيما يقول . .

فالأفكار كلها موجودة فى رءوس الناس . ولكن الفن ليس الفكرة ، وإنما معالجة الفكرة . والمعالجة هى التى تسمى «بالأسلوب» ، فالفن هو الأسلوب . والفنان هو أسلوبه !

وتصادف أن ظهرت فى أمريكا مسرحية يوجين أونيل التى اسمها «رغبة تحت شجر الدردار» والمسرحية تعرض مشكلة شاب أحب زوجة أبيه وأنجب منها طفلاً . .

والمسرحيتان تعالجان فكرة واحدة هى الحب الحرام أو هى الحب بحسن نية . . أو هى الحب الذى يقهر كل القيم الأخلاقية . فلا يملك الشباب إلا أن يستسلم للحب أو يستسلم لطبيعة الشباب نفسها .

فبطل مسرحية أونيل رجل عجوز تزوج فتاة شابة . .

وبطل هذه المسرحية عجوز إقترن بفتاة . .

فكأن الرجلين قدرا منذ البداية أن هذا الحب لا يمكن أن يستمر . أن الاختيار نفسه هو الذى يغرى كلاً منهما بإدراك التناقض الشديد بين الزوج الذى ودعته الحياة وبين الزوجة التى هى الحياة نفسها !

وقيل أيضاً أن مسرحية سيدنى هوارد قد أخذت عن الأسطورة الأوربية القديمة «تريستان وايزولت» . وهى الينبوع الذى لا يجف لكل الأدب الأوروبى والأوبرات . . بل أن بعض النقاد يرى أن أسطورة تريستان وايزولت ، أو «تريسترام وازولد» قد خرجت منها كل قصص الحب الحرام . . أو أن هذه لم تعد أسطورة .

وإنما هى الحقيقة ما تزال موجودة فى الأدب العالمى إلى آخر فيلم صدر عن هوليود ، إلى آخر أى فيلم صدر عن أية مدينة فى السينما فى أوروبا أو فى أمريكا أو فى القاهرة .

وهذه الأسطورة «الواقعية بطلها شاب يتيم الأب والأم اسمه تريستان وهذا الاسم يدل على الحزن والأسى . وقد تولى خاله الملك كورنول تربيته فى قصوره الفخمة .

ولما كبر هذا الشاب تريستان ظهرت عليه علامات البطولة والفروسية . . الجسمية والأخلاقية . وقد تعرض فى طريقه لأحد الأبطال الإيرلنديين فقتله . . هذا الإيرلندى اسمه مورهولت . وأسفرت هذه المعركة عن جرح أصاب تريستان من سهم مسموم .

ويبدو أن تريستان قد هزل جسمه وساءت حالته النفسية . فطلب إلى أصدقائه أن يضعوه على ظهر زورق . والزورق بلا شراع . وأمر بأن يتركوا إلى جواره سيفاً وقيثارة!

ودفعته مياه البحر إلى شواطئ إيرلندة .

وقرر أن يروى قصته لملكة إيرلندا لعلها تساعده . ولما اكتشف أن القتيل هو أخو ملكة إيرلندا غير اسمه .

وكانت لهذه الملكة ابنة اسمها آيزولت .

وتولت آيزولت علاج الفتى تريستان حتى التأم جرحه واستعاد صحته .

وحدث بعد سنوات أن فوجئ الملك كورنول بطائر يحمل فى منقاره شعرة ذهبية . فقرر أن يتزوج من صاحبة هذا الشعر ولم يجد ألا تريستان لكى يتولى مهمة العثور على صاحبة الشعر الذهبى .

وعاد تريستان إلى الزورق فركبه واتجه إلى أيرلندا . وقبيل الشاطىء تعرض له أحد وحوش البحر الذى يهدد عاصمة أيرلندا . وقتله تريستان . وأسفرت المعركة طبعاً عن جرح يحتاج إلى عناية آيزولت .

وإكتشفت آيزولت أن تريستان هو الذى قتل خالها مورهولت . ورفعت السيف تنتقم منه . وهنا أعلن لها تريستان عن رغبة خاله الملك فى أن يتزوجها وأنزلت السيف وأخذت تحلم بالعرش .

وسافر الاثنان معاً . وكانت مع آيزولت خادمتها التى قدمت للاثنين شراباً أعدته الملكة لابنتها العروس . ولم تدر الخادمة أن هذا الشراب سيربط الاثنين برباط الحب . وأن هذا الحب هو الذى سيؤدى إلى هلاك الاثنين معاً . فهو شراب الحب ، وهو حب حتى الموت . واعترف الاثنان بأنها فى حالة حب . وإنهما الحب . وذهب تريستان يقدم العروس إلى خاله .

وفى ليلة الزفاف جاءت الخادمة ونامت فى فراش سيدتها . فسيدتها لا تطيق أن يقترب منها الملك . فهى تحب تريستان . وشراب الحب مفعوله يسرى لمدة ثلاث سنوات . هكذا تؤكد الأسطورة . وفى رواية أخرى يقال أن مفعوله خمس سنوات . . ويقال مدى الحياة !

وعرف رجال القصر قصة غرام الاثنين . وطرد الملك تريستان من القصر .

ولكنه عاد فعفا عنه عندما اكتشف طيبة قلبه وسذاجته .

ولم يخمد الحب فى قلب تريستان وآيزولت . وقرر الملك أن يكتشف بنفسه خيانة زوجته . فوضع سرير تريستان فى غرفة الملك . ورش الأرض بالدقيق . وطلب من تريستان أن يسافر فى مهمة عاجلة . وقرر تريستان أن يقبل حبيبته قبل أن يسافر . ولما وجد الأرض مغطاة بالدقيق قفز من سريره إلى سرير الملكة فانفجر فى قدمه جرح قديم . فتلوث الدقيق بالدم .

وقرر الملك إعدام الاثنين فى يوم واحد . وتمكن تريستان من إنقاذ آيزولت والهرب معها إلى الغابات . وبقى الاثنان ثلاث سنوات أليمة . وفى يوم ذهب الملك إلى الغابة فوجد الاثنين نائمين تحت شجرة . وقد وضع تريستام سيفه بينه وبين آيزولت . وتأثر الملك لهذه السذاجة . فرفع سيف تريستان ووضع سيفه هو !

ولما صحا الاثنان من النوم عادا إلى المدينة يطلبان عفو الملك . وعفا عنهما . وقرر تريستان أن يترك الملكة فى حالها . . وفى نفس الوقت صارحها أنه على استعداد أن يعود إليها إذا أساء الملك معاملتها .

وانطلق تريستان ينتقل من بلد إلى بلد .

ولن ينس آيزولت . . وتزوج فتاة اسمها آيزولت أيضاً . الأولى كان يسميها آيزولت الشقراء والثانية كان يسميها آيزولت البيضاء .

وعندما أحس باقتراب الموت طلب من زوجته البيضاء أن تستدعى الملكة الشقراء لكى يراها قبل أن يموت . وطلب إليها أن تجىء فى زورق له شراع أبيض . لكى يراها عن بعد . ووعدت الملكة بزيارته . ورأت الزوجة اقتراب زورق الملكة . وكان شراعه أبيض . ولكن الغيرة جعلت الزوجة تقول لزوجها : لقد اقترب الزورق . ولكن شراعه أسود .

ومات تريستان من الحزن .

وجاءت آيزولت ورأت حبيبها وعانقته حتى الموت . ومات الاثنان فى عناق إلى الأبد ؟

***

وفى هذه الأسطورة كل جذور مسرحية سيدنى هوارد ، وكل مسرحيات وقصص الأدب الحديث . فأسطورة تريستان وآيزولت قد كانت متعة العصور الوسطى فى أوربا كلها .

وفى هذه الأسطورة كل بذور الحب والبراءة والشر ، والحب الحرام ، والحب حتى الموت ، والحب بأى ثمن . والزواج بلا مقابل .

وفيها زواج الملك وحب المواطن العادى .

ولا عيب فى أن يقتبس أى كاتب من هذه القصة ما يعجبه ، وأن يعالجه على النحو الذى يراه .

والذى أخذه سيدنى هوارد من هذه الأسطورة ليس الكثير . ولكنه أخذه من منجم عامر . وارتوى من بئر لا تجف .

وسيدنى هوارد بروحه الخفيفة وبراعته تناول هذه المسرحية وخلط الدموع بالابتسامات . وخصوصاً فى نهاية المسرحية عندما كان على الزوج العجوز أن يختار بين أن تبقى زوجته التى خانته فى أول ليلة ، وبين حرصه على أن يكون له ابن . أن المؤلف قد تناول هذا الموقف بمنتهى الرقة والرفق . وأى ضغط من جانب المؤلف كان يحيل الموقف إلى مأساة أو إلى مهزلة . والموقف فى الحقيقة هو ضحك يبعث على الأسى ، وأسى يبعث على الضحك .

وليس فى نيتى أن ألخص المسرحية ، فأفسد بذلك متعة القارىء . وإنما أحاول أن أعرف المؤلف نفسه . إنه صحفى وروائى ومسرحى ومؤلف عدد كبير من سيناريوهات الأفلام السينمائية .

ولكن معظم أعماله الفنية كانت اقتباساً من الأدب الأوربى . وقد اشترك مع عدد كبير من الأدباء والعلماء فى معظم أعماله الفنية . ومن أهم مؤلفاته : «السيوف» (١٩٢١) وهى من الشعر الحر . «وعرفوا مايريدون» (١٩٢٤) التى فازت بجائزة بوليتزر والتى تحولت إلى مسرحية موسيقية غنائية عام (١٩٥٧) باسم «الرجل السعيد جداً» . و «المسحورة» (١٩٢٤) و «الحمى الصفراء» (١٩٢٤) بالاشتراك مع العالم الكبير بول دى كرويف . . و «السعيد سام ماركارفر» (١٩٢٥) . . و «ابنة ندماكوب» (١٩٢٦) . . . و «الرباط الفضى» (١٩٢٦) . . «والمرحوم كريستوفر بين» (١٩٣٢) واقتبس «أوليمبيا» (١٩٢٨) و «مارسيليا» (١٩٣٠) و «سبيل المجد» (١٩٣٥) وظهرت له أول مجموعة قصصية بعنوان «ثلاثة سلالم إلى أعلى» ، وقد أهداها إلى زوجته الممثلة كلير آيمز .

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى كان طياراً فى سلاح الطيران الأميركى وعمل مراسلا حربياً لمجلة «لايف» فيما بين ١٩١٩ ، ١٩٢٢ . واشتغل محرراً أيضاً فى صحف «هيرست» الكثيرة جداً فى أمريكا .

وكان رئيساً لتحرير عدد من المجلات .

وأهم «خبطاته» الصحفية ما كتبه عن حوادث التجسس وعن عصابات تهريب المخدرات إلى أمريكا .

ولكن سيدنى هوارد قد اشتهر بالثقافة الفنية حتى فيما كتبه من تحقيقات صحفية . فقد كان يميل إلى تحويلها إلى مواقف درامية . وإن كان لا يبعد عن الحقيقة . فقد كان شديد الاهتمام بالشكل الفنى .

ولكن شهرته الأدبية قد بلغت قمتها بمسرحية «عرفوا ما يريدون» والتى حرص على أن يكتبها باللهجة المحلية لولاية كليفورنيا . وسيدنى هوارد مشهور جداً بمعرفته الواسعة بلهجات الولايات الأمريكية .

ولأن هذه المسرحية مكتوبة بلهجة محلية جداً ، ولأن شكل الكلمات يتفق مع الطريقة التى ينطقها بها أبطال المسرحية . فقد بدت غامضة حتى بالنسبة للأمريكان أنفسهم .

أما فيما يتعلق بأبطالها من الإيطاليين فقد جعلهم يتكلمون على هواهم وعلى حسب معلوماتهم المحددة فى اللغة الإنجليزية من ناحية النطق والنحو .

وانتهت حياة سيدنى هوارد فجأة .

انتهت وعلى مكتبه عدد كبير من الكتب لم يفرغ منها . من بينها كتاب له عن «حياة بنيامين فرانكلين» الدبلوماسى الفيلسوف . . وكتاب آخر عن «الحياة فى المدن» والمشروعات بأقلام كثيرة .

ولابد أن سيدنى هوارد كان مشغولاً بهذه الكتب معاً ، وإلا فكيف يسقط فجأة تحت عجلات إحدى الجرارات التى يملكها فى مزرعته الكبيرة . . إنه لم يكن مخموراً ولا كان يشكو من الكبد حتى يصيبه بدوخة وإغماءة . . ولم يكن يشكو من ضغط الدم . . ولا كان قلبه ضعيفاً . . فقط أن هذه الكتب استغرقته حتى أغرقته فى دمه ، وفى أرضه ، فى الأيام الأخيرة من عامه التاسع والأربعين !



الوجه الثالث

بعض الخبثاء يقول : أن المرأة كالقمر ، لها وجه آخر لم يره أحد بعد . والحقيقة أن المرأة لها وجوه عديدة . والذين رأوا وجوه حواء من العلماء والفنانين عددهم قليل جداً ، ولم تكن رؤيتهم واضحة . أما الذين رأوها بوضوح فهم كثيرون جداً وكان ذلك على فراش الموت ، ومع الأسف لم يتمكنوا من النطق بشيء . ومضوا فى سلام .

وكان الأديب تولستوى يقول : أن الرجل لا يستطيع أن يقول رأيه فى زوجته إلا بعد أن يتأكد أنهم أغلقوا عليه باب القبر بإحكام تام .

وكان الفيلسوف شوبنهور يقول : كلما سمعت رجلاً يتحدث عن امرأة بصراحة تامة ، أعرف أنها ماتت أو أنه يريد أن يقتلها .

ولكن الفنانين الكبار استطاعوا أن يقولوا كلمتهم وهم أحياء . . وبعد موتهم بقيت هذه الكلمات ، بقيت هذه الوجوه العديدة التى رأوها لحواء تطل علينا ، وتضيء لنا ، لا كالقمر الذى له وجه واحد ثابت ، ولكن كالنجوم التى تتلألأ ، أى تطل علينا بألوف الوجوه .

وأشهر هذه الوجوه جميعاً وأروعها ثلاثة :

وجه الزوجة التى تدخل الحياة الزوجية ومعها «أثاث» لم يره الزوج . هذا الأثاث صنعته من أحلامها ومن أوهامها ، من شبابها اللامع . وانتظرت فتى أحلامها . . زوجها . فجاء الفتى وفوجئت بأنه لا أحلام هناك . بل ولا فتى . . أو أن الفتى جاء ، ثم اشترط أن تصحو هى من أحلامها . . إنه لم يترفق بها وهى تحلم أنه هزها

بعنف ، اقتلع النوم من عينيها ، ثم اقتلع عينيها حتى لا ترى شيئا . . حتى تسمعه هو ، ولا تراه ولا ترى نفسها . . وتظل كحواء قبل أن تأكل من شجرة المعرفة ، وقبل أن تعرف أنها عارية وأن آدم عريان . . وقبل أن تمد يدها إلى ورقة التوت تعطى نفسها . . أن هذه المرأة انتظرت فتى أحلامها ، انتظرت الذى يملك خاتم سليمان ومصباح علاء الدين ، وبساط الريح ويقول لكل شىء : كن فيكون . . وجاء الرجل وفتح عينيه ، ولكنه لم يرها ، وفتح أذنيه ، ولكنه لم يسمعها ، ونشر ذراعيه ، واحتضن شيئاً آخر . . وفوجئت الزوجة بأن زوجها يعلق صورة لقطار السكة الحديدية على الحائط . . ماذا يريد ؟ إن القطار هو مثله الأعلى . إنه يريد من زوجته أن تمشى كالقطار . . تمشى على شريط فى مواعيد محددة . . لا تتعب ، لا تمرض لا تخطئ . واكتشفت الزوجة أن زوجها يريدها أن تكون كالكرسى ، كالترابيزة . . إنها شىء يلقيه على الأرض ثم يجده فى اليوم التالى ، فى نفس المكان ، ولم يزد عليه إلا بعض التراب . وطبعاً تكون مفاجأة كبرى للزوج عندما يجد الكرسى تحرك وله رجلان لا أربع ، وله رأى ، وله موقف ، وفى لسانه كلام ، وفى كلامه قرار . وتمتد يد الكرسى الناطق وتعلق صورة لحمار على الحائط أو أى حيوان آخر . . ماذا تريد الزوجة ! إنها تريد أن تعلن رأيها فى زوجها بصراحة . . وترى الزوجة أن زوجها قد زور فى عقد الزواج . فالعقد قد نص على أنها تزوجت إنساناً لا حيواناً . ولذلك يجب أن تخرج من البيت . لأن هذا الزوج قد حول زوجته من إنسان إلى حيوان إلى جماد . وهذه الزوجة لا تريد أن تتخلص من «آدم» إلى الأبد ، أنها تريد أن تتخلص من هذا «الآدم» فقط لأن حواء لآدم إلى الأبد . . أى لأى آدم . . وليس لهذا بالذات . . وزوجها يريد منها أن تكون له إلى الأبد ، وبأى شرط .

هذه المشكلة الحقيقة التى صورها كاتب النرويج العظيم «هنريك أبسن» فى مسرحيته الخالدة «بيت الدمية» ففى نهاية المسرحية نرى الزوجة «نورا» تخرج بملابسها . تخرج بأثاثها الذى دخلت به ، بأثاثها الوردى الذى صنعته بنفسها ، وبقلبلها وبحرمانها ، ثم تقفل الباب فى وجه زوجها ، وفى وجه جمهور المتفرجين . . وفى وجه كل أبناء القرن التاسع عشر . وكان صوت الباب صفعة على وجه الزوج ، وكل زوج . . أو كأنه الدقات التقليدية التى تعلن بداية القرن العشرين بداية المساواة والحرية الفردية للرجل والمرأة .

و «نورا» هذه صاحبة مبدأ ، صاحبة فلسفة . .

***

أما الوجه الثانى : فهو وجه الزوجة التى أحبت .

ولكن ليس المحبوب هو الذى يشغلها وإنما الحب نفسه . . فهى تحب الحب . لأن الحياة جوهرها الحب . وهى تريد أن تعيش . والحب لذيذ ممتع ، كأى «فيلم» . كأية حفلة . والحب حفلة ترقص فيها وتغنى وتشرب . وفى نهاية هذه الحفلة تعانق صاحب الدعوة . . إنها أحبت رجلا بكامل حريتها . فليس معنى الزواج أن «يصادر» الزوج قلبها وعقلها أو تصبح حياتها موقوفة عليه هو . . والزواج معناه أنها أعطت أعز ما تملك لأعز من تحب . . وأعز ما تملكه المرأة هو جسمها . . فهو مملكتها .

وعندما يسألها الزوج : أريد أن أعرف من أنت ؟

تقول له : أنا عمرى . . أنا شبابى . . أنا عشرون ربيعاً . . هذا هو أنا . . وكل فتاة مثلى هى كذلك .

هذه الزوجة تريد من زوجها أن يقوم بدور شهر زاد فى «ألف ليلة وليلة» . . كل ليلة ، ليلة جديدة ، وقصة جديدة ، ومغامرة جديدة . . فإذا انتهت الحكايات اتجهت الزوجة إلى مؤلف آخر . . فالحب فى قلبها طفل صغير تهدهده الحكايات فينام . .

هذا الوجه أبدعه كاتب فرنسا «أرمان سالكرو» فى مسرحية «امرأة حرة» . هذه المرأة الحرة اسمها «لوسى» . ولم تكن لوسى صاحبة مبدأ وفلسفة . وإنما هى تريد أن تعيش ، أن تعيش حياتها هى . . حياة غير مشروطة بأى شرط . . ولا يهمها ماذا يقول عنها المؤرخون أو نقاد الأدب . . إنها تمر بالتجربة ، وعليهم هم أن يختاروا اسماً لتجاربها .

***

والوجه الثالث . . نجده فى مسرحية «زوجة كريج» للكاتب الأمريكى جورج كيللى . . والمسرحية تمضى حوادثها فى بضع ساعات . ولكننا نشعر فى أول الأمر أنها طويلة . . ويبدو أن المؤلف تعمد الإطالة حتى يرسم لنا ملامح شخصياتها بوضوح وبعد ذلك يترك لهم المسرح وعلينا أن نتتبع ما يجرى فى هذا المنزل

ولا أقول «البيت» فهناك فارق كبير بين الاثنين . وهذه المسرحية توضح لنا الفارق الكبير جداً . . فالزوج يريد أن يكون «المنزل» بيتاً . والزوجة تريد أن تحيل «البيت» إلى منزل . هو يريد أن يضيف إلى المنزل الدفء والأمان وبذلك يصبح بيتاً ، والزوجة تريد أن تجرد البيت من هذا الدفء ومن الناس فيصبح منزلاً مليئاً بالأثاث ، ومن ضمن قطع الأثاث : زوجها !

وزوجة كريج لها رأى فى الزواج ، ولها رأى فى الزوج . . من رأيها أن الزوج «ممول» لمشروع . أما هذا المشروع فهو بيتها ، وبيتها هو حياتها ، مع زوجها ، وبعد زوجها . أى بعد وفاة الزوج ، فهذه مسألة مهمة جداً . وقد عاشت زوجة كريج تجربة رهيبة قبل ذلك . رأت أمها وكيف أحبت أباها ، وكيف أن أباها كان يبيع أمها وما تملك من أجل نساء أخريات . . ومن رأى زوجة كريج أن الزواج صفقة تجارية بين البائع والمشترى . هى أعطت حريتها لزوجها ، وزوجها أعطاها ماله والطمأنينة والاستقرار . كلاهما كسبان . وكلاهما خسران . وإذا كان الزوج يتعب فى عمله ، فهى أيضاً تتعب فى البيت ، والزوجة ترى أن البيت مكانها الطبيعى ، وأن زوجها ليس هو كل شىء . وإنها عندما تحرص على زوجها ، هى فى الواقع تحرص على نفسها ، على سلامتها ، على استقرارها . أو بعبارة أدق . إنها تحرص على الرجل الذى يحرس لها بيتها وأثاث بيتها . . ولكى تضمن هذا الاستقرار وهذا الأثاث ، عاشت فى عزلة . . اعتزلت الناس ، وشجعت الناس على أن يبقوا بعيدين عن زوجها وعن بيتها . . ثم أخرجت أصدقاء الزوج واحداً واحداً . . أرادت أن تبعد الناس عنها ، فأبعدوها عنهم . .

وكانت النتيجة أن تركت البيت عمة زوجها . . لأن من الصعب أن تعيش فى بيت ، تهتم فيه امرأتان برجل واحد - أى هى وزوجة كريج - وابنة أختها تركت البيت . . وخادمتان الواحدة بعد الأخرى . . ثم جاء دور الزوج فترك البيت . . وبقيت زوجة كريج وحدها مع أثاثها . . ولا ينقصها إلا الممول ! .

ولزوجة كريج عبارة تلخص فلسفتها فى الحياة والزواج : أن حب الرجل لا يفيد كثيراً فى تدبير العيش . . وتقول : إنى حرصت على أن يكون زواجى سبيلاً إلى تحررى .

وكل خلاف بينها وبين زوجها كان يشبه البرق الذى يكشف كل شىء فى

لحظة واحدة . . يكشف الفارق بين الرجل وزوجته ، بين المرأة التى يحرص عليها وبين المرأة التى تحرص على البيت ، ولذلك تحرص على حامى حمى البيت .

ويكفى أن يدور هذا الحوار بين الرجل وزوجته لتعرف أى خلاف بينهما .

هى : سترى أوراق الأزهار متناثرة فى أرجاء المكان . . هذا فظيع .

هو : بل سيكون ذلك أروع .

هى : لا أعتقد أن هذا رأيك لو كان عليك كنس هذه الأوراق .

هو : ولماذا أكنسها . إننى أحبها هكذا . . ولا شىء أجمل من أوراق الأزهار مبعثرة على حشائش البستان .

وفى نهاية هذه المسرحية تتساقط أوراق الأزهار على الأرض . عندما يتساقط ستار المسرح . . ولا يعيب هذه الأزهار وهى تسقط إلا عينا امرأة تنظران إليها باستنكار نظرة من يريد أن يكنسها . . لا أن ينظر إليها بارتياح . . إنها ليست نظرة الفنانة ، وإنما هى نظرة «أمينة المتحف» . . أو نظرة «صاحبة البيت» . . لا «ست البيت» ! .



من أجلها

قبل الميلاد بخمسة قرون اشتهرت سيدة اسمها لوكريسيا بأنها فاضلة وأنها فى نفس الوقت ست بيت . . وكان زوجها يباهى بها بين الرجال . وكان الرجال يضيقون من حفلات التكريم التى يقيمها الزوج لزوجته بمناسبة ومن غير مناسبة . .

وعاد كل زوج إلى بيته يسأل زوجته إن كانت فاضلة ، وكانت الزوجات يقلن عادة : طبعاً .

وكان الأزواج يسألون الزوجات : إن كن قادرات على شغل البيت دون مساعدة من الخادمات ، وتؤكد الزوجات أن الخادمات لا يقمن بعمل .

ولكن ظلت لوكريسيا هذه ، أشهر الزوجات وأجملهن . وأفضلهن .

كان لابد من الامتحان . فاتفق الرجال على أن يتركوا القرية ويذهبوا إلى روما . واتفقوا على أن كل زوج لا يقول لزوجته كم سيبقى من الأيام بعيداً عنها . وخرج الرجال وأقاموا فى معسكر . وفجأة عادوا إلى القرية . فماذا وجدوا ؟

أما لوكريسيا فقد كانت فى مكانها من البيت . وبين الخادمات اللائى يعملن فى تنظيف البيت . أما بقية الزوجات فكن فى رقص وخمر .

وتبقى لوكريسيا هى الزوجة الفاضلة الوحيدة .

وكان لابد أن يظهر شاب يحاول أن يقتحم قلعة الفضيلة والجمال وكان ذلك الشاب هو سكتوس تاركينوس ، ابن أحد النبلاء . وتسلل إلى البيت فى غياب الزوج ، وطردته لوكريسيا . وهددها بالفضيحة . وتكاثر الخدم على هذا الشاب المفتون ، وطردوه .

وفى الصباح استدعت لوكريسيا أباها وزوجها . وأعلنت أن بيتها قد أهين . وأن كرامتها قد سرقت منها . وأن هذا الشاب المفتون يجب أن يلقى جزاءه ، وأخذت عهداً على أبيها وزوجها وإخوتها أن ينتقموا لشرف الزوجة والعائلة . . وللفضيلة والجمال . وعندما أقسم الجميع على الانتقام ، أخرجت خنجراً من ملابسها وانتحرت .

أما الجثمان الشريف الجميل فقد إنتقل إلى مجلس شيوخ روما ليراه كل الأعضاء واقفين باكين . وليرفع أحد أقاربها يده معلناً الثورة على الفتى السافل وعلى أبيه وأخوته وأسرته .

وأعلنت الثورة على هؤلاء النبلاء ، وأخرجوا من روما ، وعلى جثمان لوكريسيا ، ودفاعاً عن فضيلتها وتكريماً لجمالها ، قام الحكم الجمهورى فى روما سنة ٥٠٩ قبل الميلاد !

وانتهت المادة التاريخية التى أخذ منها جان جيرودو مسرحية (من أجل سواد عينيها) وهذه ترجمتى أنا لمسرحية جيرودو التى عنوانها - الفرنسى هو : «من أجل لوكريسيا» .

وليس بين شخصيات هذه المسرحية واحد بهذا الاسم ، وإن كانت هناك واحدة بهذا الجسم والإثم . واسمها مدام بلانشار ، وهى زوجة القاضى ليونيل بلانشار ، وهى الفاضلة الوحيدة فى مدينة الشر : اكس أن برفانس . . فى عصر الامبراطور نابليون الثالث وقد ظلت هذه المدينة تنبض باللذة والمرح والخمر إلى أن جاءت هذه السيدة الفاضلة فتحولت المدينة كلها إلى مدينة الخطايا . لقد كانت مثل نقطة بيضاء فى دائرة سوداء . لقد أشرقت على مدينة مظلمة فانكشفت . . لقد كانت مثل قطعة من الذهب فى مدينة كل عملاتها الورقية بلا غطاء . فتحول الناس جميعاً إلى عملات زائفة .

وكان لابد أن تدفع الفضيلة ثمن الجمال . . فعاش الجمال مفضوحاً .

وعندما انتحرت مات الجمال ، وبقيت الفضيلة شيئاً يرتاد المدينة : لعنة تطارد كل واحدة فى طريقها إلى موعد غرام .

لقد أعدم الجمال ، ولكن الفضيلة استأنفت الحكم ضد الرذيلة .

وكانت هذه آخر مسرحية كتبها جان جيرودو . . ولم تظهر على مسارح فرنسا إلا فى سنة ١٩٥٤ ، أى بعد وفاته بعشر سنوات .

والذى لا يعرف أن هذه هى آخر أعماله المسرحية ، ليس من الصعب عليه أن يستنتج ذلك بمجرد قراءته لها . . ففيها كل مزايا وعيوب جيرودو .

فهى قد استمدت مادتها التاريخية من الأساطير . . وهذا ما فعله جيرودو كثيراً ، ولكنه أعلن أكثر من مرة : أن الأساطير وحدها هى التى تستطيع أن يكون لها وجود مسرحى . أى وجود مستقل عن المؤلف . . وإنه هو شخصياً إذا مات فيسكون أسطورة فى الأدب الفرنسى ، وأن آخر كلمة تجيء على لسانه ستكون من تأليف هوميروس .

وكانت هذه آخر كلمة على لسانه .

وفى هذه المسرحية نجد الحوار الفرنسى الأصيل . والحوار الطويل أيضاً ، الذى يجعلك تحس بأن الحركة المسرحية قد توقفت . وأنه لا يهم أن يتحرك أحد على المسرح فالكلام يغنى عن الحركة .

وجيرودو فى هذه المسرحية ، وفى غيرها ، لا يتقدم لإنقاذ أبطاله . فلهم حياة خاصة . وهم مسئولون وحدهم عن مصيرهم .

وقد حدث فى هذه المسرحية عندما ظهرت على المسرح أن حذفت منها صفحات كثيرة . تماماً كما فعل «لوى جوفيه» عندما أخرج مسرحيات جيرودو فقد اضطر إلى أن يحذف عبارات كثيرة . حتى لا تتوقف الحركة المسرحية . وحتى لا تصبح المسرحية مجرد مناقشات عقلية .

وأنت فى هذه المسرحية تشم رائحة مسرح جيرودو كله . ففى مسرح جيرودو نجد الصفات الإنسانية بصورة واضحة وصارخة فى الفضيلة والرذيلة . . الريف والبورجوازية المنحلة . . والمرأة عند جيرودو هى الأنثى . وهى جميلة دائماً . وما دامت جميلة فمحكوم عليها بالعذاب واللعنة . فإذا كانت الفضيلة سجناً ، فالجمال هو المقصلة .

ولكن عند جيرودو لا توجد فضيلة لا تقوى على المقاومة . وعلى حد قوله : إن المشكلة الأولى مع المرأة الفاضلة ليس أن تغريها ، ولكن أن تذهب بها إلى مكان مقفل . فالرذيلة تنمو وراء الأبواب المغلقة فقط .

والعيب الوحيد الذى أخذه سارتر على جان جيرودو هو أن شخصيات جيرودو ثابتة . أو شخصيات كاملة : الفاضل إلى أقصى درجة ، والشرير إلى أقصى

درجة . . كل إنسان يحاول أن يحقق أكمل صورة لفضيلته أو رذيلته . ومعنى ذلك أن فى مسرحيات جيرودو أناساً معهم مثلهم العليا . . إذ أن هناك أناساً ناقصين . . وصورهم الأنيقة جدا - وهذه الصور ليست معلقة على الجدران - وإنما هذه الصور تزاحمهم فى حياتهم . . وتعرقل سير المسرحية .

إلا فى مسرحية (من أجل سواد عينيها) . ففى هذه المسرحية وحدها لا تجد محاولة شخصيات المسرحيات تحقيق الكمال . . أو تحقيق الصورة الكاملة لصفاتهم فتكون الشخصية الفاضلة ، فاضلة إلى أقصى درجة . . وتكون الشريرة ، شريرة إلى أقصى درجة .

وعيب آخر أخذه الوجوديون على جان جيرودو هو رأيه أن الطبيعة الإنسانية لا تتغير . . مع أنه لا توجد «طبيعة إنسانية» واحدة . . وإنما توجد صفات إنسانية تتغير بالتجربة وبالمحنة وبالثقافة . وليس غريباً أن يصبح القديس لصاً ، إذا اضطر إلى ذلك . . وليس غريباً أن يتحول اللص إلى قديس إذا أراد ذلك .

إلا فى هذه المسرحية .

فقد أراد أشخاصها أن يختاروا مواقفهم . . وأن يختاروا تجاربهم القاسية ، وأن يختاروا إستمرار الصراع إلى النهاية . . وأن يتم كل شىء بلا ندم .

فليست الفضيلة لونا للبشرة . . لا يمكن تغييره وإنما هى فعل إرادى .

وليست الرذيلة لعنة . . وحتى إذا كانت لعنة . فمن الممكن أن نختارها ، وبذلك لا تصبح لعنة ، وإنما هى نعمة وهى مشيئة إنسان .

***

وجان جيرودو (١٨٨٢ - ١٩٤٤) قد ألف عدداً كبيراً من المسرحيات والدراسات والمحاضرات . وله آراء جميلة نافذة فى المسرح والتأليف المسرحى . وهى أحسن منظار يمكن أن نوزعه على القراء قبل قراءة هذه المسرحية . . وهذا المنظار من صنع جيرودو لكى تشاهد به أعماله الفنية . ولكن ليس معنى ذلك أننا عندما نخلع هذا المنظار لا نجد شيئاً .

ولكن سنجد أن عدد الألوان والظلال التى رأيناها من قبل قد تلاشت . ولكن الخطوط العامة هى هى . . وهى سليمة وواضحة .

***

وسوف أنقل هنا فقرتين طويلتين .

أحدهما عن العلاقة بين المؤلف وشخصياته المسرحية .

والأخرى عن المتفرج الفرنسى ، والفرق بينه وبين كل المتفرجين فى الدنيا .

والفقرة الأولى هذا نصها :

«هناك قانونان - إذا جاز لى التعبير - يتحكمان فى الوضع الأبدى للمؤلف المسرحى :

أولهما خاص بتعريف الوضع الحزين المضحك للمؤلف إزاء شخصياته التى خلقها وقدمها إلى المسرح .

وهذه الشخصيات كانت ، قبل أن يؤديها أحد الممثلين على المسرح ، مخلوقات طبيعة مألوفة وجزءاً من المؤلف .

ولكنها عندما تظهر أمام الجمهور تصبح غريبة ولا تنتمى إلى المؤلف .

وأول أداء يقوم به ممثل لشخصية من الشخصيات ، يكون هذا الأداء حلقة فى سلسلة طويلة من التجسيدات التى تبعدها شيئا فشيئاً عن المؤلف الذى خلقها . . ثم تهرب منه إلى الأبد !

وهذا يصدق على المسرحية من أولها لآخرها .

فهى تنتمى إلى الممثلين منذ اللحظة الأولى التى يؤدونها على المسرح . . أما المؤلف الذى يروح ويجىء بين الكواليس فليس إلا شبحاً ، يطرده موظفو المسرح إذا أطل برأسه أو إذا أخل بآداب السلوك . . ولكن بعد عرض المسرحية لمائة مرة ، إذا كانت ناجحة ، فإنها تنتمى نهائياً إلى الجمهور .

ومن المؤكد أن المسرحيات الوحيدة التى تنتمى إلى المؤلف ، هى المسرحيات الفاشلة !

لأن استقلال الشخصيات التى نجحت هو استقلال تام : فالحياة التى تعيشها هذه الشخصيات فى رحلاتها من أوربا إلى أمريكا هى إنكار دائم لأبوة المؤلف . . وبينما يتابعك أبطال رواياتك فى كل مكان ، ويعترفون بأبوتك ، فإن شخصياتك المسرحية التى تصادف أن تلتقى بها ، قد أصبحت غريبة عنك تماماً !

وربما كانت الرغبة فى معاقبة هذه الشخصيات المسرحية هى التى دفعت شاعرين مثل جيته وكلوديل ، وغيرهما من الكتاب ، إلى إعادة تصوير بطلاتهم المفضلات . ولكن بلا جدوى ! فالبطلة قد هجرت خالقها إلى الأبد .

أذكر أننى كنت اتفرج على مسرحية كلوديل التى عنوانها «البشارة إلى مريم» ، فأحسست أن هذه المسرحية تنتمى إلى ، أكثر من انتمائها إلى المؤلف الجالس إلى جوارى !

فكم من المؤلفين ، يضطرون إلى أن يبحثوا فى ممثل أو ممثلة ذكرى أبنائهم وبناتهم الذين هربوا . . تماماً كما يحدث فى الحياة العادية عندما يجد الآباء فى أزواج بناتهم أو زوجات أبنائهم ، ما يعوضهم عن أبنائهم وبناتهم .

أما القانون الثانى :

فهو يحدد موقف المؤلف من حوادث عصره ، ويحدد دوره فى هذا العصر .

وهنا ، إذا أردت أن أكون مخلصاً ، يجب أن أجرد نفسى وزملائى من كل تواضع فالشخص الذى تراه فى المسرحية مجرد صوت ، وبلا شخصية أمامك . . وبلا مسئولية ، وإنما مجرد مؤرخ أو منتقم ، وفى عنصر معين ومن دم ولحم : هو المؤلف !

ومن السخف أن نصف سنة من السنين أو قرناً من القرون استطاع أن يكون له صدى مجلجل ، وأن يكون له صورة عاطفية مثيرة ، دون أن يكون هناك ذلك الإنسان الذى يتحدث عنه .

فليست التراجيديا أو الكوميديا إلا اعترافات الإنسانية كلها - وهى جيش الخلاص والدمار - التى يجب أن تعلنها وفى نبرة مثيرة ، لأن صدى صوتها أوضح وأكثر واقعية من صوتها نفسه . . فالفن أوضح وأوقع من الواقع ! ولا شك فى هذا !

ومن هنا كانت العلاقة بين المسرح وبين الاعترافات فى الكنيسة .

فليس من قبيل الصدفة أن نعرض المسرحيات أمام الكنائس .

والمسرح يصبح فى مكانه الطبيعى جداً ، إذا ما شاهدناه أمام إحدى الكنائس ، يعترف بصورة مشرقة ، ويعلن عن همومه الصغيرة ، وصراعاته الهائلة فى الحياة ومن أجل الحياة .

فالأديب كالدرون ليس إلا الإنسانية وهى تعترف بتعطشها إلى الأبدية .

وكورنى ليس إلا احترامها .

وراسين ليس إلا ضعفها .

وشكسبير ليس إلا حبها للحياة .

وكلوديل ليس إلا خطاياها وخلاصها .

وجيته ليس إلا إنسانيتها الغامرة .

ولا تصبح الإنسانية طبيعية وصادقة مع نفسها ما لم تأت الشعوب وترتدى أبهى أزيائها وتعترف على خشبات المسارح ، فتستمتع الإنسانية إلى صوتها شجاعتها وجبنها وحبها وكراهيتها ومحنتها وأزمتها .

فلا مسرح بلا نقطة مضيئة تكشف عن الصدق : وهو أن الحى يجب أن يعيش ، والحى يجب أن يموت ، والخريف يتبع الصيف ، والربيع يتبع الشتاء ، وأن هناك عناصر أربعة ، وأن هناك سعادة ، وملايين الكوارث ، وأن الحياة حقيقة ، وأن الإنسان يعيش بالدم ، وأن الإنسان لا يعرف ذلك .

فالمسرحية هى الإطار الوحيد الأخلاقى وهى الوسيلة الوحيدة لتربية الشعب .

وهى الدرس الوحيد المفيد للكبار والصغار ، وعن طريقها يلتقى أكثر الناس تواضعاً اجتماعياً وثقافياً مع أكبر أنواع المشاكل والصراع . وهم يستطيعون عن طريق المسرح أن تكون لهم صلوات وقديسون بعقول خاصة وانفعالات عامة . . وبينهم كثيرون يحلمون .

ولكن الذين لا يحلمون فلن يستطيعوا ذلك فى المسرح - انتهى كلام جيرودو .

ولجيرودو رأى معروف عن جمهور المسرح . وهو يؤيد الجمهور الفرنسى ، ويعبر عن ذوقه ، ولذلك فيجيرودو نفسه فرنسى مائة فى المائة . . فهو يهتم بالحوار . . بالكلمة الحلوة . أكثر من اهتمامه بأى شىء آخر من عناصر البناء المسرحى والحركة المسرحية .

وهو يقول بالحرف الواحد :

المتفرج الفرنسى لأنه يحب الاقتصاد ، وحرصاً منه على أن يعرض ذوقه الرفيع ، فإنه لا يشحن كل إحساساته فى وقت واحد .

بينما نجد أن فكرة المتفرج الألمانى عن المسرح تميل إلى حشد عام لكل مقوماته فى وقت واحد .

وفى الفن ، كما فى الطهى ، خلط الأطعمة بعضها ببعض يؤدى إلى إفسادها .

وكل ما يريد الفرنسى أن يراه فى الباليه أو فى الأوبرا ، يضايقه أن يراه فى المسرح .

فهو يجىء إلى المسرح لكى يستمع ، ويتعبه أن يشاهد شيئاً آخر فى نفس الوقت .

فهو يؤمن بالكلمة أكثر من الديكور .

أو هو يؤمن بأن معارك القلوب لا يمكن أن يخوضها بتفجير الضياء والظلال ، ولا بالانهيارات والكوارث . وإنما يكسبها بالحوار .

وليست المعركة المسرحية ، فى نظره ، هى الضوضاء الصوتية ، وإنما السخرية والتلاعب بالجملة عندما ينطقها الممثل .

أما الضرب والقتل الذى يظهر على المسرح الألمانى - والأمريكى والإنجليزى أيضاً - فلا يقابله فى المسرح الفرنسى إلا خطاب عاقل أونصيحة ، ثم أن المتفرج الفرنسى ليس شاهداً سلبياً ، إنه جمهور المحلفين !

وروح الرجل الفرنسى ، مثل الخزينة ، تفتحها بكلمة !

وهو يكره طريقة الألمان - والأمريكان والإنجليز أيضاً - فى فتح الخزائن ، إنهم ينسفونها بالديناميت !

المتفرج الفرنسى يرى بإصرار ، أن الحوار أسمى إطار للكلام بين الحيوانات الناطقة وهو يريد أن يجرب بنفسه قوة الحوار وسحره وشكله ومزاياه الأدبية الخالصة .

والحركة المسرحية فى تقديره ، ليست فى استسلامه إلى حملات جسمية عنيفة من الضوء الموجع والإثارة الملتهبة ، تتهاوى كلها على رأسه فترهق عينيه وأذنيه وإنما الحركة المسرحية فى تقديره هى فى هذه المقارنة والمضاهاة الدائمة بين حياته وما فيها من صراع وخيال وبين هذا النص الأدبى الذى يعيش أمامه على المسرح . وهذا النص قادر على أن يشيع النور فى دنياه .

وهذا الفهم للمسرح ، على أنه عمل إنسانى وليس شيطانياً ، لا يسمح لهذا الإهتمام العاطفى جداً الذى يجعله للنص . بأن يبدده الإخراج بالضوضاء الصارخة والضياء المؤلمة .

فالمتفرج فى الكوميدى فرانسيز لا يمكن أن يفهم – وإن كان مبدأ مألوفاً فى بلاد أخرى – كيف تظهر الخيول الحقيقية على المسرح ، أو كيف يظهر إثنا عشر شخصاً يمثلون الناس فى باريس فى مسرحية «الباريسية» التى ألفها «بيك» .

إن المتفرج الفرنسى لا يؤمن بالديكور . . فالديكور ، فى نظره ، هو المسرح نفسه ، بأضوائه العادية ، وشرفاته .

إن المتفرج هو الذى يحتاج إلى أن يرتدى الملابس الأنيقة ، وليس الحوار فى المسرحية .

إن فرنسا هى بلد المؤلف المسرحى– انتهى كلام جيرودو

***

ومن آراء جيرودو أيضاً أن المسرح هو الواقع فى اللاواقع – هو الصدق فى الكذب ، هو هذا الإيهام الجميل بأنك تكذب ، مع أنك لا تقول إلا الحق .

ويسخر جيرودو من مفهوم الواقعية عند المؤلفين ، كما رأيناه يسخر من وضع الخيول على المسرح فيقول :

إن الواقعية ليست فى أن تأتى بساعة حقيقية على المسرح تدق خمس مرات معلنة الساعة الخامسة ، ولكن الواقعية هى أن تسمع مائة دقة لساعة تعلن أنها الخامسة !

ويقول أيضاً عندما يلتفت إلى الجمهور :

ليس من المهم أن يفهم الجمهور . المهم أن يحس فقط . ليس من المهم أن يرى تفاصيل الضرب على المسرح ، ولكن أن يشعر بالضرب وبالتعذيب فقط .

بالاختصار فإن جيرودو هو أحسن كاتب مسرح فى القرن العشرين ، إذا أردت أن تسمع المسرحية . فهو صاحب أجل حوار . وأذكى عبارة . وهو شديد السخرية . وهو مشغول بأبطاله عن الدنيا . لأن للأبطال دنيا خاصة . ولأن لهم مثلاً عليا . وأنهم حريصون على بلوغ مثلهم العليا . وهذه المحاولة المستمرة بين أبطال مسرحيات جيرودو تجعلنا نشعر بأن المؤلف يزاحم أبطاله فى الوصول إلى الكمال .

ولكن جيرودو الذى توفى مسموماً يوم ٣١ يناير سنة ١٩٤٤ يوم تحرير فرنسا ، عندما تحرر المسرح الفرنسى وانتعش فأول عمل قام به رجال المسرح الفرنسى هو أنهم وضعوا السم مرة أخرى فى مسرحيات جيرودو فأسىء تفسيرها وفهمها .

ودخل جيرودو التاريخ القديم على أنه من أعز أبناء العصر الحديث الذين قاوموا الاحتلال الألمانى ، وحكومة المتعاونين مع النازية .

وإذا كانت المسرحيات الوجودية والمسرحيات اللامعقولة ، قد نقلت جيرودو إلى الظل ، فلا ظل إلا وتجيء من بعده الضياء ، فكما أن الشتاء والصيف حقيقة ، فكذلك الضوء والظلال حقيقة موسمية .

والمسرح الفرنسى - والعالمى أيضاً - أحوج إلى جيرودو الذى يخدم الكلمة ، وصاحب الأسلوب . والفنان هو أسلوبه . ومهمة الفنان هى أن يجد أسلوب العصر عندما يجد أسلوبه .

وجيرودو هو أحسن نموذج لأشرف هدف : وهو أن يجد الفنان أسلوبه وأن يكون الأسلوب هو شاهد العصر . لأن الفنان هو المتحدث بلسان العصر . وإن الإنسانية لا تظهر إلا به وإلا عن طريقة . وأن الإنسان هو الخاطئ الذى يعترف ، وهو القسيس الذى يستمع إلى الاعتراف . . وأن صدى صوت الإنسانية وهى تعترف لأقوى من صوتها هى . . لأن الفن أقوى وأجمل وأصدق وأبقى من الحياة نفسها .

ولذلك فشخص جيرودو هو الذى مات مسموماً ! .



كما في الماضي

كان يجب أن نجعل اسمها «الأم» أو «كل أم» أو «الأمومة» لأنها تتناول الأم من كل جوانبها . فهى تقول لنا أن الأمومة وظيفة كما أن الأبصار وظيفة كما أن الأبصار وظيفة . والسمع وظيفة ، وعضو الإبصار هو العين وعضو السمع هو الأذن . وعضو الأمومة هو الابن . وتبقى الوظيفة ما بقى العضو . ولذلك نرى الأم فى هذه المسرحية تحرص على أن يظل ابنها طفلاً فى حجرها ، فى حضنها ، لا يكبر ولا ينفصل عنها ، ولا يفارقها فهى لا تشعر بأن عضلاته قد قويت ، وأن صوته قد أصبح غليظاً ، وأن شاربه قد نبت وأن من حقه أن يختار فتاة أخرى بدلاً من الأم . . إنها لا تستطيع أن تتصور أبداً أن مهمتها قد انتهت . . وأن مهمة إمرأة أخرى قد بدأت .

هذه الأم لها ولدان . . ابنها الأكبر وهو الأهم قد اختار زوجة بعيداً عن الأم : بعيداً عنها بثلاثة آلاف كيلو متر . والابن الأصغر قد اختار خطيبة والأم لا تهدأ ولا تسكن . أن جلاءها عن بيتها سيقع ومن الذى سيجلو ؟ إنهما ولداها اللذان عاشت لهما وبهما ومعهما منذ ٣٠ عاماً . . ولكن المهم عند الأم هو ابنها الأكبر . أما الأصغر فهو عالة عليه وعليها وعلى حبها . كل ما للابن الأصغر من قيمة أنه «بديل» عن الابن الأكبر . . إنه «بدل فاقد» . ولكن لا قيمة له إطلاقاً

والمؤلف بارع فى تصوير حالات الأم بين العقل والجنون ، ين الصحة وإدعاء المرض . أن الأم تتظاهر بمرض القلب وهى ليست مريضة لكى تثير شفقة الأخوين عليها . وهى تسعى بالدس بين الزوج وزوجته وبين الخطيبين لكى يبقى لها ولداها

ولا تكاد تسمع أن زوجة ابنها تنتظر حادثاً سعيداً حتى يغمى عليها . وينزل الستار وكأنه كفن يخفى وراءه امرأة تموت .

إنها تكره الحاضر والمستقبل معاً . إنها لا تعرف إلا الماضى تعيش به وتعيش معه . . إنها تحتفظ بغرفة ابنها الأكبر التى كان ينام فيها وهو طفل وهو شاب لم تتغير . إنها تريد أن ترده إلى الماضى ، كما كان وكما كانت . أن الماضى يشبه أحذية أبناء الصين . إنها أحذية حديدية صغيرة توضع فيها الأقدام لتظل صغيرة دائماً ولكن الأم تريد أن تضع الأقدام الكبيرة فى أحذية صغيرة . . ويتململ الابن الأكبر والابن الأصغر والزوجة والخطيبة .

أما الزوجة التى ثارت على الأم ، ثارت على الأمومة التى تشبه الاستعمار وأعلنت أن ابنها من حقه أن يستقل ، من حقه أن يقرر مصيره . فلم يعد يحتاج إلى وصاية الأم .

ولكن الأم تظل تتشبث بوظيفتها .

أما الزوجة والخطيبة فكل منها تصر على أن تسحب المقعد من تحت الأم ، والولدين من حضنها . . والأم تجد نفسها بلا وظيفة تجد نفسها قد فصلت من عملها الذى استغرق ٣٠ عاماً ، دون سابق إنذار ودون تسوية لمعاشها .

وتهرب الخطيبة من البيت ، من الأم . . والزوجة تقرر الهرب من البيت أيضاً . أن الأم لا تستطيع أن تتصور أن الأمومة كالنظام الملكى ، وظيفة وراثية ، وأن الزواج كالنظام الجمهورى يجىء بالانتخاب وأن الأطفال كالدول ، يحكمها الملوك وهى صغيرة فإذا كبرت يحكمها رؤساء الجمهوريات ولكن هذه الأم تستميت على العرش !

وتنتهى المسرحية كما انتهت مسرحية «بيت الدمى» للكاتب النرويجى ابسن . . بأن تهرب «نورا» من البيت وتغلق الباب فى وجه زوجها والجمهور وكل القرن التاسع عشر . . وكذلك هذه المسرحية يخرج الزوج ليلحق بزوجته ويتعانقان . . ويبقى الابن الأصغر بجوار أمه وعلى حجرها . . وهنا ينقطع الرباط . . وهو فضى لأنه دام ٢٥ عاماً بعد وفاة الزوج !

ومؤلف هذه المسرحية هو سيدنى هوارد (١٨٩١ - ١٩٣٩) الذى استطاع أن يزحف بالمسرح الأمريكى من التقليدية إلى العصر الحديث .

ومسرحيته هذه هى محاولة لتفسير معنى الامتلاك عند الأم . . وهو يرى أن الأم كثيراً ما تشعر أن ابنها هو عضو من أعضاء جسمها . قطعة حية منها . وفى نفس الوقت يجب ألا ينفصل عنها . ولذلك لا ترى ابنها قد نضج أبداً . لأن النضج الإنسانى معناه الاستقلال فى الدار وفى الحياة . . والنضج يشبه نضج الثمار . . فإذا نضجت الثمرة فإنها تسقط على الأرض . . والأم ترى أن النضوج سقوط ورذيلة . . ولذلك تريد أن يبقى ابنها بعيداً عن السقوط . . بعيداً عن الرذيلة . . وعن الرجولة أيضاً !

فالأم هنا طاغية مستبدة من وجهة نظرنا . . ولكنها ترى أن الأمومة هى نوع من السيطرة «العضوية» . كسيطرة الإنسان على ذراعيه وساقيه . .

وهذا يدل على أن الأم أيضاً لم تنضج ولا تريد . .



بابل هى التى هبطت

إن راعية غنم قالت لأقوى ملك فى العالم : لا !
انتهت القصة القديمة التى جاءت فى الكتاب المقدس تحت عنوان «نشيد الإنشاد» . .

والملك العظيم اسمه سليمان !

والفتاة البسيطة اسمها : شالوميث !

إنها ساذجة . ولكنها قوية .

وهى ساذجة لأنها لم تعرف من الذى قالت له : لا . .

وهى قوية لأنها استطاعت بلا تفكير أن تحول رجلاً قوياً إلى إنسان ضعيف عندما أعطت جسمها للعرش ، واحتفظت بقلبها لإنسان آخر أضعف منها . فهى أعطت الملك بالضبط ما لا يريد . فالملك لا يقتنع بما دون الجسم والقلب والعقل !

وشالوميث هذه هى أول فتاة فى التاريخ تعرف أنها حولت ملكاً إلى شحاذ ، أول فتاة جعلت من كلمة : لا . . جيشاً وعرشاً وتاريخاً لكل فتاة بعد ذلك . وأملاً لكل فتاة فى كل العصور !

فشالوميث الراعية ليست ضعيفة جداً . .

وسليمان الملك ليس قوياً جداً .

ففى داخل هذه الراعية طاقة هائلة . إنها ذرة تافهة بالقياس إلى سليمان . . ولكن هذه الذرة فى داخلها طاقة كرامة مدمرة !

إن كلمة : لا . . من شالوميث معناها إلغاء لكل الحروف الهجائية التى كتبت بها قوانين مملكة سليمان . إن كلمة لا : هى إلغاء لعملة الذهب والفضة والورق التى يتعامل بها سليمان وشعب سليمان .

ولكن ما أكثر ما نقول : لا . .

وما أقل ما نقولها أيضاً !

وكانت شالوميث من الأقلية النادرة فى التاريخ . إن «نشيد الإنشاد» الذى نسب إلى الملك سليمان بعد وفاته بأحد عشر قرناً قد حار رجال الدين فى تفسيره لغرابته .

فقالوا : إن نشيد الإنشاد بعاطفته الرقيقة العنيفة ليس إلا «غزلاً» من الله فى شعبه . . وليس إلا غزلاً وغراماً من المسيح فى الكنيسة . .

ولهذا التفسير «الرمزى» فقط أصبح «نشيد الإنشاد» سفراً من أسفار الكتاب المقدس !

ولكن الحقيقة أن «نشيد الإنشاد» ليس إلا أغنيات عاطفية جنسية صارخة . . وليس إلا أغانى الأفراح الشعبية . وليس إلا تمجيداً للحب . حب فتاة لخطيبها الراعى . وليس إلا احتقاراً للمال وللسلطان . فهذه الفتاة «شالوميث» قد استولى عليها الملك سليمان وأدخلها قصره . وأجلسها على عرشه . وجعل الأرض من تحتها حريراً ، ومن حولها حريراً . . ولكن الفتاة لم تنس الأرض القاحلة ولم تنس العطش والعرق . ولم تنس الأغنام . لم تنس حبيبها الفقير المسكين ، الأسود الذى لوحته الشمس . لم تنس حبها . لم تنس حبيبها . بل إن سليمان أرغمها على أن تفكر فى حبيبها . فالحب ملجأ المظلومين . وقلعة المساكين !

هذه هى قصة شالوميث القديمة . .

***

وهنا فى الأدب العربى قصة لميسون من قبيلة بحدل الكلبية المسيحية وهى زوجة معاوية وأم يزيد . . وقد ذهبت ميسون مع ابنها فى البادية . ثم عادت إلى المدينة . ولكن حب البادية والحرية ، لم يغب عن وجدانها وقد سمعها زوجها معاوية بن أبى سفيان تقول هذه الأبيات :

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلى من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق عنى
أحب إلى من قط أليف
ولبس عباءة وتقر عينى
أحب إلى من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى
أحب إلى من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج
أحب إلى من نقر الدفوف
خشونة عيشتى فى البدو أشهى
إلى نفسى من العيش الطريف
فما أبغى سوى وطنى بديلاً
فحسبى ذاك من وطن شريف

وما وطنها هذا إلا البادية . . إلا حريتها فى البادية . فالحرية تجعل الرمل ذهباً ، وكسرة الرغيف رغيفاً ، وتجعل الرياح موسيقى . ، وتجعل الخيش حريراً . . ولذلك قالت للمدينة : لا . . وعانقت البادية . . بكلابها وجوعها ودموعها !

. . ثم اقترب منها معاوية وقال لها : كنت فبنت أى كانت زوجه له أصبحت طالقاً . فردت عليه بقولها : والله ماسعدنا عندما كنا ، ولاحزنا عندما بنا - أى لم تكن سعيدة بزواجها ولاهى حزينة لطلاقها !

***

ومسرحية (هبط الملاك فى بابل) لديرنمات ، هى معالجة جديدة عميقة غنية لهذا المعنى .

ففى هذه المسرحية نجد رجلاً شحاذاً ، رفض أن يلتحق بأية وظيفة أخرى ، فالدولة التى يعيش فيها قررت القضاء على التسول . ولكنه أصر أن يبقى متسولاً .

وكان هذا الشحاذ يعيش فى عصر الملك البابلى بختنصر . . وأصر الملك على أن يقضى على التسول . .

وأصر الشحاذ على أن يقف فى وجه الملك . ووقوفه فى وجه الملك معناه : أن هذا الملك ليس ملكاً مطلقاً . وإنما هو ملك إلا قليلاً . أن هناك أناساً ومساحات فى الأرض لا يسقط عليها ظله !

أرسل الملك لهذا الشحاذ أناساً كثيرين . وعادوا كما ذهبوا عاجزين أمام شحاذ رفض أن يكون شيئاً آخر .

إرتدى الملك ملابس الشحاذ وذهب ليقنعه . ولم يفلح الملك فى إقناع الشحاذ . دخل الملك فى مسابقة مع الشحاذ على أيهما أقدر على الشحاذة . وأسفرت النتيجة عن فوز الشحاذ الحقيقى وليس الشحاذ الملك . فكأن هذه المباراة قد أثبتت أن الشحاذ الحقيقى هو ملك فى دنيا الشحاذة . أما الملك فهو شحاذ فى مملكة الشحاذين !

وانتصر فى النهاية . .

فهو شحاذ استطاع أن يقول للملك : لا . .

وفى هذه المسرحية مرة أخرى فتاة بعثت بها السماء مع أحد الملائكة لتكون هدية لأفقر إنسان فى العالم .

وقد نزل الملاك فى نفس اللحظة التى تجرى فيها المباراة بين الشحاذ الحقيقى والشحاذ الملك . وأمام الملاك ظهر الشحاذ الملك هو أفقر الشحاذين وأعجزهم عن كسب القوت . ومعنى ذلك أن هذه الفتاة من نصيب أفقر الشحاذين .

أى من نصيب الملك !

وعندما اكتشفت الفتاة أن الملك هو الشحاذ نفسه لم تصدق عينيها . فقد كانت أحبت هذا الشحاذ الملك . ثم طلبت إليه أن يترك العرش وأن يعود إلى الشحاذة فى الشوارع معها . ورفض الملك أن يكون شحاذاً . ورفضت الفتاة أن تكون ملكة . حاول الملك إقناعها . فعجز ، فحاول رجال الدين . كلهم عجزوا . فالفتاة أحبت شحاذاً ولا تريد ملكاً .

ورفض الملك أن يضحى بالعرش من أجلها .

وكانت كل مدينة بابل قد عرضت على الفتاة أن تتزوجها : أغنياؤها وتجارها وجنودها وشعراؤها .

ولكن الفتاة رفضت . وعرضهم الملك عليها ، وطلب إليهم أن يتنازلوا عن ثرواتهم من أجلها . لأنها أحبت شحاذاً ولا تريد إلا شحاذاً .

ورفض الناس جميعاً ورفضت الفتاة !!

وأمام إصرار الفتاة لم يجد الملك والشعب حلاً إلا طرد الفتاة من بابل . . إلا رفض هدية السماء .

وخرجت الفتاة من بابل . فقد رفضت بابل فرفضتها بابل . . لأنها رفضت عرش بابل من أجل شحاذ أحبته !

فقد كان ظهور هذه الفتاة فى بابل تحقيراً لشأن بابل كلها . . حكومة وشعباً وقوانين وأخلاقاً .

ولكن حرص الناس على ما عندهم من مال ودين وحرص الناس على راحتهم وعلى دنياهم ، جعلهم يطردون بنت السماء !

***

ودستويفسكى فى رواية «الإخوة كرامازوف» الجزء الأول . قد تناول هذا المعنى بصورة جميلة .

فنجد الفتى اليوشا يروى كيف أنه يفكر فى قصيدة طويلة : لا يعرف منها إلا مضمونها الآن . أما مضمون القصيدة فهو أن «محاكم التفتيش» قد أعدمت مئات الناس فى مدينة أشبيلية بأسبانيا . وعلى رأس هذه المحاكم أحد الكرادلة ، وهو شخصية رهيبة مخيفة ، لأنه قادر على أن يقتل ، باسم الدين ، أى إنسان . . إلا أن أهل المدينة فوجئوا بظهور المسيح نفسه . . وتأكدوا من أنه هو المسيح : ملامحه والضوء الذى يشع منه . والمعجزات التى حققها . فقد أتوا إليه بنعش به طفل . وانحنت كل الرءوس . وظهر الكاردينال ورأى المسيح والناس . وضاعت هيبة الكاردينال وإختفى مظهر رجل الدين . ولم ير الناس فى الكاردينال إلا قاتلاً سفاحاً . واقترب المسيح من الكاردينال . أى اقتراب المسيح والمسيحى . اقترب الدين والحاكم باسم الدين .

وأنقذ الكاردينال نفسه بأن استدرج المسيح إلى السجن . وسجن المسيح وراح الكاردينال يتحدث عن الدين ورجال الدين . وعذاب رجال الدين فى الدفاع عن

المسيحية . وتحدث إلى المسيح ، الذى لم ينطق بكلمة واحدة ، عن الصعوبات التى يخلقها بوجوده فى هذه المدينة . فقد أصبحت اليوم مختلفة عما كانت عليه يوم ظهوره .

وباختصار : أن تعاليم المسيح نفسه تعتبر مخالفة للمسيحية . . أو بعبارة أخرى : أن المسيح نفسه ليس مسيحياً !

ومعنى ذلك أنه من الأفضل للمسيح نفسه أن يترك مدينة أشبيلية ، بدلاً من أن يحاكم بتهمة الكفر بالديانة المسيحية !

ولم ينطق المسيح بكلمة واحدة . وإنما قبل الكاردينال فى فمه وخرج المسيح من السجن !

ومعنى ذلك أن الأرض قد رفضت السماء . . أن الأرض قد أغمضت عينيها وقلبها على نور السماء . لأن نور السماء يحرجها . لأن نور السماء يفضحها . ومعنى ذلك أن الأرض فضلت أن تنطوى على عارها . . . . وألا تكشفه حتى لو كان ذلك أمام السماء !

إنها أيضاً قصة الإنسان الذى قال للسماء لا . . إنها أيضاً مرة أخرى قوة أن يقول الإنسان : لا . .

وفى استطاعته أن يقولها . .

وقالها . . وقالها كثيراً . وحتى هذا الكثير ليس أكثر من اللازم !

فكان الإنسان فى حالة دفاعه عن نفسه من الممكن أن يرتكب أية جريمة وارتكبها الكاردينال ، فى مشروع قصيدة اليوشا كرامازوف ، جريمة كبرى وهى أن يعيش ظالماً بأى ثمن . وأن يبقى بأية تضحية . فمن أجل بقائه هو ، لا بقاء لغيره . أيا كان هذا الغير !

إذن : لا . . للسماء مرة أخرى !

❊❊❊

وفى قصة لجون شتاينبك اسمها «اللؤلؤة» نجد أن أحد فقراء الصيادين قد عثر على لؤلؤة ضخمة نادرة . وعرفت القرية كلها أن هذا الصياد قد عثر على لؤلؤة كبيرة . أى على كنز . إذن سوف يكون هذا الصياد غنياً ، لن يكون صياداً بعد اليوم . وربما كانت له مراكب صيد . وربما تحول أهل القرية جميعاً إلى عمال عنده . إن عثوره على هذه اللؤلؤة قد جعلهم فقراء . وجعله هو غنياً . . إن هذه اللؤلؤة قد مزقت القرية . خلقت

فيها طبقتين . . هذا الصياد طبقة كاملة . . والناس كلهم طبقة أخرى . وهو وحده يستحق أن يحقد عليه الناس . وأن يكرهوه . إنه غنى وقد فاجأ القرية كلها بثروته . لقد خدعهم . وتولى الحظ وحده أن يجعل هذا الرجل كأنه خائن للطبقة الكادحة .

وكان لابد أن يغتالوه . وحاولوا .

وتحول الصياد من صاحب لؤلؤة إلى حارس عليها . تحول إلى بواب يجلس أمام باب عمارة . إنه لا يسكنها ولكنه يحرسها فقط .

ولكى ينقذ ما تبقى من أولاده وبيته ، ذهب إلى السوق ليبيع هذه اللؤلؤة وعرفت كل القرية . وتخيلوا منظره عائداً ومعه الفلوس .

وذهب إلى السوق وعرض اللؤلؤة على كل التجار . لقد انبهروا بها ولكنهم رفضوا شراءها . لأنها لؤلؤة ضخمة غالية الثمن . ويصعب أن يجدوا لها زبوناً .

وتنقل الصياد من بائع إلى بائع . ولكنهم جميعاً أعجبوا بها . واعتذروا عن شرائها .

وعاد الصياد إلى بيته وكأن اللؤلؤة ليست إلا قطعة حجر تافهة . إنها لا تساوى وزنها تراباً . .

وبعض الناس عرف أن الصياد لم يبع اللؤلؤة . . وبعضهم لم يعرف هذه الحقيقة . وهذا البعض الآخر جاء يسرقها . أو يسرق ثمنها . وفى اللحظة التى جاء الناس يسرقونها ، كان الصياد فى طريقه إلى البحر . . ليتخلص من اللؤلؤة .

وألقاها فى البحر ، ، ألقى هذه «التهمة» بأنه غنى . . بأنه لص سرق أموال الناس . . بأنه خدعهم . . بأنه غافلهم وتحول إلى غنى دون سابق إنذار .

إنه هو الآخر رد هدية السماء إلى البحر . .

إن السماء قد أرسلت له هدية لا تقدر بمال .

وأرسلت مع هذه الهدية الخوف عليها . . والخوف منها . .

وقد ألقاها الصياد فى البحر ، دفاعاً عن نفسه وزوجته وأولاده .

***

إنها نفس اللؤلؤة . . إنه نفس الشعب . . نفس الوضع الغريب . . عندما يجد الإنسان نفسه فى خطر . .

ولذلك يجد سلامته الوحيدة هى أن يقول : لا . .

ويقولها . وهنا فقط تكتب له النجاة من الهوان . . من الفضيحة من الموت . . فما أكثر ما تقول لا . .

وما أقل ما تقولها أيضاً .

إنها إذن كلمتنا القوية التى تكشف أمامنا ضعفاً عاماً لأخلاقيات الآخرين . .

***

وهذه المعانى والنغمة الحزينة الساخرة أيضاً يعرضها ديرنمات من جديد فى روايته الأخيرة التى عنوانها «يونانى يتزوج يونانية» . فهذه الرواية تحكى لنا قصة - أو أسطورة رجل يونانى يعلن فى الصحف عن حاجته إلى زوجة . وتظهر الزوجة جميلة جداً . أكثر مما كان يتصور .

وفجأة تتغير أوضاع الدنيا التى يعيش فيها بطل الرواية واسمه أرخليوخوس . فالناس يتهافتون على إرضائه من أجل عيون الزوجة . . ويرتقى البطل من موظف عادى إلى موظف كبير . . إلى شخصية مهمة جداً . . تستحق كل نياشين الهيئات الاجتماعية والكنائس . .

ولكنه فجأة يكتشف أن زوجته كانت وما تزال عشيقة لكل الذين رفعوه إلى أعلى السلم . .

وهنا ينهار عالم البطل وفى نفس الوقت تنهار أخلاقيات الموظفين أو الأخلاقيات الرسمية .

تماماً كما ترى هذا الانهيار والهوان واضحاً فى بلاط الملك فى مسرحية «هبط ملاك فى بابل» .

وقد أشار ديرنمات أيضاً بسخرية قاسية فى مسرحية «رومولوس العظيم» إلى ما أصاب رجال الحاشية من انهيار على أثر هزائم جيوش الإمبراطور فى شمال إيطاليا فهرب الوزراء والضباط وهربت الزوجة وبقى هو وحده شاهداً على انحلال الدولة أو بقى وحده طبيباً يدفن جثة المريض الذى لا علاج له - أى الدولة .

وفى مسرحية «زيارة السيدة العجوز» استطاع ديرنمات أن يعرى لنا الناس جميعاً . فقد جعلهم يلمعون ويبرقون فى ضوء الذهب . . إنهم فى حاجة إلى مال .

وحاجتهم إلى المال جعلتهم يبيعون كرامتهم . جعلتهم يعيدون قانوناً كانوا قد عاشوا تاريخهم كله من أجل إلغائه وهو قانون حكم الإعدام .

ولكن بالفلوس أعيد القانون . وبالفلوس طبقوا القانون على مواطن لا يعرفون ما ذنبه بوضوح . .

وعندما راح أهل المدينة يحفرون لمحكوم عليه بالإعدام ، نسوا أنهم يحفرون قبراً لأخلاقيات المدينة . . قبراً للأخلاقيات الرسمية .

ولم تشأ بطلة مسرحية «زيارة السيدة العجوز» أن تطبق قانون الإعدام على الرجل وإنما عفت عنه في آخر لحظة ، واستراح الناس . ولكن الناس لم ينتبهوا إلى أنها أنقذت رجلاً واحداً ولكنها شنقت أهل المدينة كلها فى حبال السفالة والنذالة .

وفى مسرحية «هبط الملاك . . .» كان لابد أن يبقى الناس على سفالتهم . . ولذلك يجب أن تعود الفتاة التى بعثت بها السماء إلى العدم . . وإلى المجهول . . المهم ألا تكون !

***

وفى مسرحية «الشهاب» لديرنمات أيضاً وهى أحدث مسرحياته وجدنا بطلها أديباً كبيراً حائزاً على جائزا نوبل .

وبعد أن أعلنت الصحف والإذاعة أنه مات ، قام من الموت . . ليموت الناس حوله من الخوف والعار والجهل . .

فالطبيب الذى أعلن وفاته ، أغرقه العار .

ورجال الدين الذين صلوا من أجله ، أغرقتهم المفاجأة والمعجزة .

وابنه الذى ورث كل ثروته ومؤلفاته بدرس قوانين الوراثة ، ويفاجأ بأن والده قد أحرق كل شىء . . فيموت الابن من الصدمة .

فعندما فوجىء الناس جميعاً بأن الأديب الذى مات قد بعث حيا ، انزعجوا ففى موته : حياة لهم . وكرامة لهم . أما عودته إلى الحياة فهى المبرر الوحيد لأن يعيشوا كالموتى . لأن يعيشوا فى أكفان الهوان والعار !

أن واحداً فقط إستطاع أن يعدم عالماً ، أن يهلك دنيا . .

وهذا المعنى يتكرر كثيراً فى مسرحيات وروايات ديرنمات . فهو مفتون بهذا للحظة التى يتحول فيها كل شىء إلى شىء ضعيف . . أوإلى لا شىء . . والسبب

هو وجود شىء قوى ووجود حقيقة صلبة . هذه الحقيقة تنبت من الأرض أو تهبط من السماء . أو هى ضمير الناس . .

وهذا الموقف الجمالى والأخلاقى الذى ظهر فى مسرحية «هبط الملاك فى بابل» قد تناوله الأديب الفرنسى «جان جيرودو» فى مسرحية ترجمتها أنا بعنوان «من أجل سواد عينيها» . وعنوانها الأصلى هو «من أجل كريسيا» ولوكريسيا هذه سيدة فاضلة فى مدينة منحلة فوجود هذه السيدة فى المدينة قد حول كل الزوجات إلى خائنات ، وكل الأزواج إلى مغفلين . إن وجودها فى المدينة يجعل العار والفضيحة هى الهواء المسموم الذى تعيش فيه المدينة . ولذلك لابد من التخلص منها . لأنها عبء على ضمير الرجال ، وعبء على شرور النساء . وفى مسرحية جيرودو هذه نجد أن لوكريسيا هى زوجة أحد القضاة . وهى وحدها التى تعرف أسرار كل النساء وكل الرجال . فكل الناس أمامها عراة مفضوحون . وإرادت المدينة أن تستريح من نظرات المرأة التى تعرف كل شىء . . فاستدرجوها إلى الرذيلة ، إلى الفضيحة . . ليتساوى الجميع . . فلا يجرؤ أحد أن ينظر إلى أحد . . فالكل فى الهوان والشر والرذيلة سواء . .

ولكن الفتاة «كوروبى» فى مسرحية «هبط الملاك فى بابل» تحب شيئاً لا وجود له ، وتحب إنساناً وسيماً . ولذلك ضاقت بها المدينة وضاق بها الملك والشعب ورجال السياسة والدين . . ورأوها مصدر تعاسة الدنيا . . فطردوها من البلاد . . وألقوا بها فى الصحراء . .

إن الأرض قد رفضت هدية السماء !

فالملاك عندما نزل فى بابل ، هبطت بابل نفسها . . انحطت . . أحست بسفالتها . . أحسست بهوانها . . ونفاقها . .

لأن الملاك عندما هبط إلى بابل ، أشاع النور والصدق ، فانكشف كذب الناس وضعفهم وغرور الملك ورجال الدين . .

فليس الملك هو الذى هبط وإنما بابل هى التى هبطت إلى ما تحت أقدام الإنسانية . . هبطت . . برجاً وملكاً وشعباً !



رجل لكل المناسبات

مطلوب من بطل هذه المسرحية أن يدوس بعقله قوانين العقل . . وأن يلغى بضميره المستريح قوانين الضمير . .

وأن يعيش بعد ذلك - كرجل متدين - كريماً بين المؤمنين . وبذلك يرضى الملك بتاجه ، ويستقر على عرشه ، ويفرح بوريثه . . وأن تنهار بعد ذلك قداسة الفاتيكان من روما .

بطل مسرحية «رجل لكل المناسبات» - للكاتب روبرت بولت هو الفيلسوف المتدين سيرتوماس مور . . (١٤٧٨ - ١٥٣٥) . .

وهو رجل اجتماعى . حريص على العلاقات الاجتماعية . فهو مجامل وهو صديق . وهو زوج مخلص . وأب عطوف . وسيد متواضع .

وهو رجل متدين ، يؤمن بأن الكاثوليكية هى دين الكنيسة السليم وأن البابا يقف فى الملأ الأعلى بين السماء والأرض . وإنه هو ظل الله يمشى بين الناس .

ويرى أيضاً أن المجتمع الحقيقى هو الذى تسوده تعاليم الكنيسة .

ولذلك فالمجتمع هو المجتمع الدينى .

وهو رجل مثالى حالم . يتطلع إلى عالم أفضل . تسود فيه العدالة والحرية بين الناس . فكتب قصة «المدينة الفاضلة» وجعل هذه المدينة فى إحدى جزر المحيط الأطلسى . وفى هذه الجزيرة يوجد عدد قليل من الناس . وتوجد مدن على مسافات متساوية . وفى هذه المدن يملك الناس كل وسائل الإنتاج . فلا أحد يملك شيئاً . لأن الملكية هى أساس الشرور بين الناس وكل الناس فيها يعملون بقدر ما يحتاجون . فإذا أنتجوا أكثر من حاجتهم وجب أن يقللوا ساعات العمل .

وكان أبوه حريصاً على أن يجعله محامياً مثله . . ولكنه اتجه فى سن مبكرة إلى دراسة اللاهوت والأديان ودراسة الفلسفة الشائعة فى عصره . وكان على صلة بكل الشخصيات المهمة فى زمنه . . فقد كان يتردد عليه المفكر الدينى أرازموس . وهو الذى أهدى إليه كتاباً بعنوان «فى مدح الحماقة» . وهذا الرجل هاجم كل صور الانحلال والنفاق فى عصره .

ولا شك أن توماس مور قد تأثر بأرازموس . . كما تأثر أرازموس به أيضاً فكلاهما عنيف وكلاهما شديد السخرية وكلاهما يحلم بعالم أفضل .

وفى سن مبكرة إشتغل توماس بالسياسة ، واختير عضواً فى البرلمان . وأول موقف عنيف اتخذه أنه اعترض على فرض الضرائب الجديدة . وثار عليه الملك . وحبسه وحبس والده . ولم يفرج عنه إلا بكفالة كبيرة . ولم ينس له الملك هذا الموقف .

ولما جاء هنرى الثامن اتخذت الأوضاع السياسية والدينية والأخلاقية شكلا غريباً مثيراً .

فهذا الملك تزوج أرملة أخيه . . .

وهذا يتنافى مع تعاليم الكاثوليكية . ولكن البابا فى روما وجد مخرجاً من تعاليم الكنيسة ، فهذه الأرملة أسبانية . وكانت قوات الأسبان تحتل روما . . وأصدر البابا مرسوماً بشرعية زواج الملك من أرملة أخيه وأصبحت هذه الأرملة ملكة بعد ذلك .

ولكن هذه الملكة لم تنجب أطفالاً ذكوراً . . .

وأحس الملك بخطورة موقفه . وبأن العرش سوف يكون من نصيب ورثته . وكانت للملك علاقات نسوية كثيرة . . ولكنه اتفق مع سيدة أخرى اسمها آن بولين على الزواج . وكانت هذه السيدة على يقين من أنها ستنجب له طفلاً ذكراً ؟!

ومطلوب من البابا فى روما أن يعلن مرة أخرى أن زواج الملك من أرملة أخيه ليس شرعياً . وأن يطلقها . . وأكثر من ذلك أن يوافق البابا على زواجه من هذه السيدة .

مطلوب من البابا أن يتراجع عن مرسوم أصدره . . وأن يصدر مرسوماً جديداً بزواج ثان .

ومطلوب من بطل هذه المسرحية : توماس مور أن يقف إلى جوار الملك وأن يشترك معه ، كما اشترك فى إصدار كتب وبحوث دينية وفلسفية ، فى مواجهة الشعب بهذا القرار الخطير .

أما الملك فقد استعان بآخرين أكثر جرأة وأكثر مرونة فتحلل الملك من سلطان الكنيسة .

وأصدر البرلمان قراراً بأن الملك على رأس الكنيسة ، وأنه وحده الذى يعين كبير الأساقفة . وكبير الأساقفة هو الذى يعين الأساقفة - ودون الرجوع إلى الفاتيكان . فالفاتيكان قد ورث عرش الكنيسة فى انجلترا بلا سبب معقول . فلماذا لا تستقل الكنيسة فى انجلترا ولماذا لا يستقل بها الملك ؟

ووافق البرلمان على استقلال الكنيسة . . أى وافق على عزل البابا وفصل الكنيسة فى لندن عن الكنيسة فى روما .

ولكن الناس فى لندن سمعوا أن السير توماس مور لا يوافق على هذا القرار الغريب العنيف من الملك .

وسمع الملك بأن توماس مور يتناوله بالسخرية ولذلك قرر الملك أن يعرف رأى توماس مور .

فطلب منه أن يعلن موافقته على قرار البرلمان . فرفض .

فطلب إليه الملك أن يعلن عن موافقته على طلاقه وزواجه للمرة الثانية فرفض .

ولما كان الملك هو رأس الكنيسة ، هو الذى يجمع بين السلطة الدينية والدنيوية فمخالفته تعتبر : خيانة عظمى وإلحاداً فى نفس الوقت .

إذن فهذا الرجل خائن لوطنه . . وهو كافر بدينه . . والعقوبة معروفة : الإعدام .

ولم يشك توماس مور لحظة واحدة فى أنه سوف يموت ، فهو عندما رفض أن يوافق على قرارات الملك اختار فى نفس الوقت أن يموت . وهو وحده الذى اختار هذا الموقف فى مواجهة الملك . .

ولكن قبل أن يتم إعدامه فصله الملك من عمله . ومنع عنه المال . وعرف أهله الجوع الشديد . وعرفوا قسوة الحياة من غير هذا الأب الطيب اللطيف المؤمن . .

وأعدمه الملك . .

ومات توماس مور كما مات سقراط من قبل . . من أجل المبادىء الأخلاقية . . أو من أجل المبادىء التى يؤمن بها . ولا يرى أية مساومة عليها . .

فنحن فى هذه المسرحية أمام طرفين : الملك الذى يدوس القانون ويهدُره فهو هو القانون . .

والفيلسوف المؤمن الذى يتمسك بالقانون ويراه من صنع الإنسان . . ويرى أن القانون السماوى أعلى من القانون الوضعى . . وإنه على حق . ولذلك فإذا مات فمن أجل الحق .

ومؤلف هذه المسرحية قد قدم لنا شخصية ثالثة هى شخصية «الإنسان العادى» أو «رجل الشارع» . . أو «الرأى العام» وهذه الشخصية هى تعليق على أحداث المسرحية . تماماً كأنها أحد المتفرجين . . أو أحد النقاد ولكن المؤلف حرص على أن يجعل التعليق «من الداخل» أى من داخل المسرحية فهذا الرجل العادى يعلق على سير الأحداث وهو يمثل ، وهو شخصية فى داخل المسرحية . . وليس شخصية خارج المسرحية . . تماماً كما نرى فى «مسرح العبث» عند يونسكو وبيكيت . . أو عند ثورنتون وايلدر . وبخاصة فى مسرحية «بلدتنا» . . .

وهذا الإنسان العادى يمثل الرأى العام . . أى موقف الناس فى ذلك الوقت من أحداث هذه المسرحية ومن موقف الملك وحاشيته ، وموقف توماس مور وأسرته . .

وهذا الرجل توماس مور بطل ولا شك . .

بطل ليس له مثيل فى عصره . . فهو عندما قدر أن يموت شنقاً ، لم يكن أمامه نموذج يتبعه . وإنما أصبح هو بعد ذلك نموذجاً . . ولذلك جعلته الكنيسة الكاثوليكية قديساً فى سنة ١٩٣٥ . . ويوم عيده هو يوم ٩ يوليو من كل عام .

صحيح أنه كان صلباً حتى انكسر . .

ولكن الحقيقة أنه انحسر ولم ينكسر . .

وإن الأرض هى التى انهارت تحت قدميه . . فالأرض هى التى سقطت أما هو فلم يسقط . . وإنما بقى نموذجاً عالياً لصلابة رجل آمن بأنه على حق وأن الملك أقوى منه ولكنه ليس على حق . .

ولذلك لم يعط للملك فرصة أن يفرض عليه الموت فهو الذى اختار الموت . .

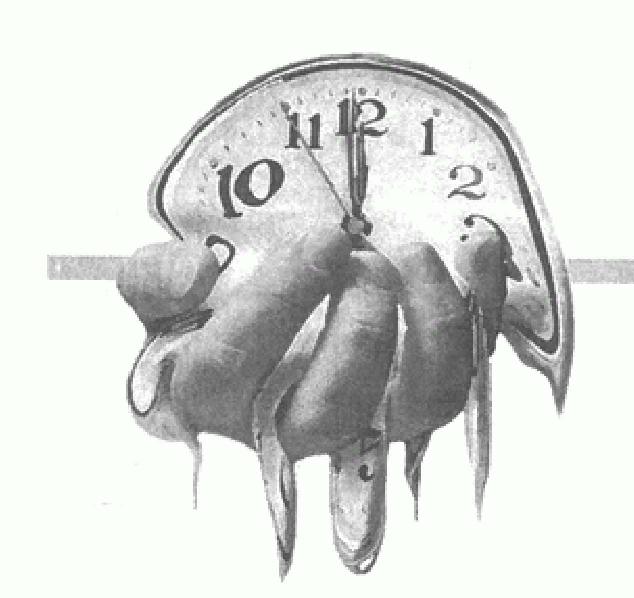
والملك أراده أن يموت خائناً لبلاده . .

فاختار أن يموت شهيداً .

والمؤلف . . روبرت بولت بحواره السريع الذكى ولمساته الخاطفة وسخريته الشائكة ، استطاع أن ينقل لوحة غريبة الألوان : الذهب ، والدم ، والوحل ، والنور . .

وعندما ظهر هذا الفيلم على الشاشة فى نهاية العام الماضى استبعد المخرج شخصية الإنسان العادى . .

فالمتفرج ليس فى حاجة إلى من يقول له أن هذا الملك طاغية مضلل مستبد . . فالناس يعرفون هذه الحقيقة أكثر مما يعرفها أبطال هذه المسرحية .



شىء على صدرى

عندما يخطىء تلميذ فإن المدرس يطلب اليه أن يكتب عبارة واحدة مائة مرة . .

والعقوبة هنا هى أن يكرر التلميذ الجملة الواحدة مائة مرة . أن يكتبها عشر مرات وهو يفكر ، وبعد ذلك يكتبها بلا تفكير . أى أنه يتحول إلى مجرد آلة تتحرك على الورق بلا وعى .

والعقوبة هنا هى الملل . . فتكرار العبارة الواحدة ، وعادة تكون عبارة سخيفة ، شىء يبعث الملل والقرف . فكأن التلميذ يصنع لنفسه الملل .

وهذه العقوبة الصغيرة تلغى العقل ، ولكنها فى نفس الوقت اختبار للصبر ، والقدرة على الاحتمال . .

والعقوبة التى يفرضها المدرس على التلميذ مرة كلما أخطأ يعانيها أيضاً المواطن الحديث فى كل الدنيا .

فهو يقرأ كل يوم ويقول كل يوم نفس الجملة ، فى الصحف والإذاعة والمسرح والتليفزيون والسينما : أن الإنسان يعيش فى خطر . أن العلم يوشك أن ينتهى . وليس فى وسع الإنسان أمام هذه النهاية الا أن ينتحر أو يستسلم . . . والانتحار هو أن يشارك فى التعجيل بهذه النهاية . . والا أن يستسلم حتى تجىء النهاية . .

والشعور بنهاية العالم شعور قديم جداً . . أن المخطوطات الفرعونية القديمة تحدثنا عن الاختلال فى القيم الأخلاقية ، والموازين الاجتماعية ، مما يؤكد أن المجتمع ينهار . وأن المجتمعات كلها سوف تنهار . . ومن ورائها العالم كله . .

والمخطوطات التى عثروا عليها فى الأردن والمعروفة باسم «أوراق البحر الميت» تؤكد لنا أن العالم فى طريقه إلى النهاية ، وأن هذه النهاية واضحة فى الفساد الأخلاقى والاجتماعى .

وبلغت الإنسانية درجات عالية من الشعور بالنهاية فى القرن التاسع عشر . ففى هذا القرن ، تحررت الأفكار وتطورت أدوات الحياة . . وكان الشعور بالنهاية معناه نهاية الأوضاع البالية وبداية مجتمع أحسن وأكثر عدلا لكل الناس . .

وجاءت الحرب العالمية الأولى فأضافت اللون الأسود إلى روح العصر . وشعر الإنسان باليأس أمام عقله ، وأمام نزعاته الشريرة . وتأكد الإنسان أنه فعلا حيوان ناطق . وأن أعماله ناطقة بحيوانيته . .

أما فترة ما بين الحربين ، فهى فترة الجروح الدامية فى قلب الإنسانية . .

وظهور كتاب «انحلال الغرب» للفيلسوف أوزفالد اشبنجلر يؤكد أن الإنسان واقف أمام نهايته . . أمام محيط واسع اسمه : الانهيار والعدم . وأن هذا الشعور بالانهيار ، لم يجعل الناس يتماسكون . وإنما جعلهم يتفككون . . وينطوون كل منهم على همومه الخاصة . وليست نهاية لكل الناس ! .

وعادت العبارات تتكرر أمام عيون الناس وفى آذانهم . . نفس العبارات بكل اللغات وفى كل ساعات الليل والنهار . . عبارات واحدة من الشرق والغرب : الحرية والمسئولية والمساواة والعدل والسلام والإنسان والإنسانية . .

وترنح العقل الإنسانى بين اليمين واليسار ، واهتز الإنسان ولم يتحرك . .

ولكن الإنسان شعر بعزلة شديدة . .

فعلى الرغم من أننا نعيش فى عصر الجماهير . إلا أن هذه الجماهير مهما تقاربت فهى متباعدة أيضا . واحساس الإنسان بأنه «مع» الناس لايدل على أنه «موجود» معهم . . وإنما فقط مجاور لهم فى المكان . .

ولكن لابد أن يكون مجاوراً لهم . ولابد أن يحرص على هذا الجوار .

وهذا التجاور مشروط . فلكى يعيش الإنسان مع الآخرين ، عليه أن يلتزم بقيود الآخرين . وأن يتشابه مع الآخرين . وأن يندمج معهم . . وأن يختلف عن حقيقته ليكون مريحاً لهم . ومستريحاً معهم .

والمخطوطات التى عثروا عليها فى الأردن والمعروفة باسم «أوراق البحر الميت» تؤكد لنا أن العالم فى طريقه إلى النهاية ، وأن هذه النهاية واضحة فى الفساد الأخلاقى والاجتماعى .

وبلغت الإنسانية درجات عالية من الشعور بالنهاية فى القرن التاسع عشر . ففى هذا القرن ، تحررت الأفكار وتطورت أدوات الحياة . . وكان الشعور بالنهاية معناه نهاية الأوضاع البالية وبداية مجتمع أحسن وأكثر عدلا لكل الناس . .

وجاءت الحرب العالمية الأولى فأضافت اللون الأسود إلى روح العصر . وشعر الإنسان باليأس أمام عقله ، وأمام نزعاته الشريرة . وتأكد الإنسان أنه فعلا حيوان ناطق . وأن أعماله ناطقة بحيوانيته . .

أما فترة ما بين الحربين ، فهى فترة الجروح الدامية فى قلب الإنسانية . .

وظهور كتاب «انحلال الغرب» للفيلسوف أوزفالد اشينجلر يؤكد أن الإنسان واقف أمام نهايته . . أمام محيط واسع اسمه : الانهيار والعدم . وأن هذا الشعور بالانهيار ، لم يجعل الناس يتماسكون . وإنما جعلهم يتفككون . . وينطوون كل منهم على همومه الخاصة . وليست نهاية لكل الناس ! .

وعادت العبارات تتكرر أمام عيون الناس وفى آذانهم . . نفس العبارات بكل اللغات وفى كل ساعات الليل والنهار . . عبارات واحدة من الشرق والغرب : الحرية والمسئولية والمساواة والعدل والسلام والإنسان والإنسانية . .

وترنح العقل الإنسانى بين اليمين واليسار ، واهتز الإنسان ولم يتحرك . .

ولكن الإنسان شعر بعزلة شديدة . .

فعلى الرغم من أننا نعيش فى عصر الجماهير . إلا أن هذه الجماهير مهما تقاربت فهى متباعدة أيضا . واحساس الإنسان بأنه «مع» الناس لايدل على أنه «موجود» معهم . . وإنما فقط مجاور لهم فى المكان . .

ولكن لابد أن يكون مجاوراً لهم . ولابد أن يحرص على هذا الجوار .

وهذا التجاور مشروط . فلكى يعيش الإنسان مع الآخرين ، عليه أن يلتزم بقيود الآخرين . وأن يتشابه مع الآخرين . وأن يندمج معهم . . وأن يختلف عن حقيقته ليكون مريحاً لهم . ومستريحاً معهم .

وأمام هذه القوى الهائلة لتكتلات الناس شعر الإنسان بأنه ضئيل . وبأنه عاجز عن فعل شىء لنفسه بنفسه . .

وعلى الرغم من أن الإنسان هو الذى صنع الكتل البشرية ، إلا أنه يخاف منها ، وإلا أنه عاجز عن الوقوف أمامها أو فى مواجهتها . . فالإنسان الذى صنع هذه القوة يخافها ، وينحنى أمامها . . كأنه ينحنى أمام قوة إلهية .

ومن أربعين سنة كتب الأديب الفرنسى هنرى باربيس فى رواية «الجحيم» على لسان بطل لانعرف اسمه ، وليس من الضرورى أن نعرف اسمه : ليست لى عبقرية . ليست لى رسالة . ليس لى قلب كبير . لاشىء عندى . لا أساوى شيئا ورغم كل هذا أريد تعويضا من هذه الحياة ! .

والعبارة يصبح معناها منطقياً مع طبيعة هذا العصر عندما يؤكد هذا البطل المجهول أن عبقريته ليست إلا بالآخرين ، وأن رسالته بالآخرين ، وأن قلبه يخفق فى الآخرين . وأنه لا شىء عنده إلا الناس ، وأن التعويض الذى قد صرف له فوراً هو أن يكون ضمن الآخرين . .

ولكن هذا التعويض لا يسعده . لأن خسارته فادحة . فهو كالذى انتحر لتصرف شركات التأمين بوليصة التعويض الى أولاده . .

ولكن هذا الإنسان - أى واحد- قد قرر أن ينتحر كفرد ، وأن يعيش كواحد ضمن الآخرين . وهذا هو التعويض الذى يقبضه ليس باعتباره فرداً ، ولكن باعتباره إنساناً آخر . . أى باعتباره «آخر» من الآخرين ! .

وهذا الإحساس بأنه لابد أن يفقد فرديته لكى يعيش ، أصبح حتمياً . وهذا الشعور بالحتمية ، جعل الفرد يتأكد من أنه لابد أن يخفى حقيقته لكى يعيش بغيرها . . أن يخفى بطاقته الشخصية ، وأن يعمل ببطاقة أخرى . . هو أنه موظف أو سائق أو عامل أو طبيب . . هذه هى البطاقة الضرورية لكى يعيش .

وهذا الشعور واضح جداً عند سكان المدن الذين يحكمون سكان الريف . والذين يفرضون على سكان الريف نموذجاً واحداً للحياة : هى حياة سكان المدن . فسكان المدن كثيرون متباعدون وحريصون على هذا التباعد . .

ولذلك فمسرح اللامعقول - أو مسرح العبث - هو تعبير منطقى عن حياة أبناء المدن الذين لا يعرفون كيف يتفاهمون . أو كيف يتفاهمون بلا كذب ولا تزوير . .

وهم يتقاربون ويتجاورون ويكذبون . . ويرون أن هذا الكذب ضرورى . إنه مثل الأقنعة الفولاذية التى يرتديها رجال المطافىء . أو الضفادع البشرية أو الذين يعملون فى البحوث الذرية . . إنها أقنعة - أكاذيب - للوقاية . .

فالصورة ليست واضحة أمامنا . .

كما أننا أصبحنا نرى أن عدم وضوح الصورة : صورتنا ومجتمعنا العالمى ومستقبل البشرية وآمال الإنسانية . كلها لم تعد ذات معالم واضحة . فقد اختلطت الصور والقيم . والمحاولات . ولم يعد الإنسان يقصد «الزمن» ، عندما يتحدث عن العذاب الذى يعانيه المجتمع الآن . إن كان يتحدث عن عذاب مضى . أو عذاب قائم ، أو عذاب سوف يجىء . .

ومن الممكن أن يكتب الإنسان قصة عذابه : فى المضارع وفى الماضى وفى المستقبل . وهو فى جميع الحالات يقصد كل هذه الأزمنة . ويجعلنا نرضى بهذا الاختلاط فى الزمان وفى المكان . .

والذين شاهدوا فيلم «العام الماضى فى مارينباد» وهى قصة وحوار وسيناريو الأديب الفرنسى آلان - روب جريبه ، لم يندهشوا . فهذا الحوار بين بطلة لانعرف اسمها ، وبطل لا نعرف اسمه ولا واحد منهما يعرف الآخر .

هو : الآخرون؟ من هم الآخرون! لا تهمنى كثيراً أفكارهم .

هى : أنت تعرف جيداً . .

هو : أعرف أنك لن تستمعى لأحد سواى . .

هى : إننى استمع إليك .

هو : إذن استمعى إلى شكواى . . إننى لا أستطيع أن أقوم بهذا الدور لا أستطيع احتمال هذا الصمت ، هذه الجدران هذه الهمسات التى هى أسوأ من الصمت . . وأنت تسجنيننى فى هذا .

هى : لا ترفع صوتك . أرجوك .

هو : هذه الهمسات ، إنها أسوأ من الصمت الذى تسجنيننى فيه هذه الأيام أسوأ من الموت . فمن هنا نمشى جنبا إلى جنب ، أنت وأنا . . مثل نعشين متجاورين تحت أرض حديقة متجمدة . .

هى : أسكت !

هو : حديقة منظمة منسقة وممراتها متوازنة ، نمشى خطوة خطوة ، جنباً إلى جنب ، يوماً بعد يوم دون أن يزداد اقترابنا أصبعاً واحداً ، ودون . .

هى : أسكت ! أسكت !

ثم نسمع عبارات تردد أصداؤها من بعيد : غريبة! حقيقة؟ لا أصدق هل التقينا قبل ذلك . . ومن وقت طويل . . لا أتذكر شيئاً . . ربما كان ذلك فى ٢٨ . . ربما فى ٢٩ غريبة . . التقينا . . وعشنا معا . . وأحببتك . . غريبة» .

كل هذا يجرى بين رجل وامرأة . . كل منهما يؤكد للآخر أنه رآه قبل ذلك . ولكنه ليس متأكداً . . وبمرور القصة والوقت يندمج الاثنان فى قصة من خيالهما أو من الواقع الذى نسياه . فلا أحد يعرف إن كان هذا الذى يجرى حقيقة أو حلما . . حدث أو لم يحدث . . أو سوف يحدث . . أو أن الاثنين يكذبان ، وأنهما اندمجا فى قصة من تأليفهما . . قصة ارتجلها كل منهما . .

أن هذه الفواصل بين ماحدث وما سوف يحدث أو ما يحدث . . ليست واضحة تماماً . .

وقد ظهرت مسرحيات كثيرة وأفلام وروايات حديثة تخلط بين الأزمنة المختلفة . . وتخلط بين الحقيقة والوهم . .

ومسرحية «أمير الأراضى البور» لماكس فريش نجد فيها هذا الخلط بين الحقيقة والحلم ، بين الماضى والمستقبل . . فبطل هذه المسرحية أحد القضاة .

ولكن لا نعرف بالضبط إن كان الذى حدث له حلم أو حقيقة . . إن كان يحلم بتغيير الدنيا أو تغيير نفسه . . وإن كان هو رجلا عاش الوف السنين . . أهو رجل سوف يعيش بعد ذلك . . وإن كانت الخادمة هى حقيقة خادمة . . وإن كان الذى حدث لها بعد ذلك هو حلم خادمة ثم التقى حلم الخادمة وحلم سيدها فى هذه المسرحية . .

والقصة الطويلة التى كتبها «ماكس فريش» أيضاً بعنوان «ليكن اسمى جانتبين» أو التى يمكن أن يكون عنوانها «ضلال المرايا» أو «مرايا الضلال» هى قصة رجل أراد

أن يكون أكثر من إنسان . . وأن يعيش أكثر من حياة . . وأن يدخل فى أكثر من إطار اجتماعى ونفسى . . وليكشف المجتمع أو يجعله ينكشف أمامه . .

وهذه القصة تؤكد أن الإنسان هو أكثر من شخص . . وأنه لا يعرف بالضبط أى هذه الأشخاص هو نفسه . .

وتؤكد أن الإنسان لكى يعرف نفسه يجب أن يكون إنسانا آخر . . والمشكلة التى سوف يعانيها أى إنسان عندما يقوم بهذه التجربة هى كيف يعود إلى نفسه أو كيف يرتد إلى حقيقته . .

إن الأمر صعب أول الأمر ، كصعوبة عودة مستر هايد إلى دكتور جيكل .

ولكن - مثل هايد وجيكل - سيكون التحول سهلا ، وهذا التحول السهل يجعل من الصعب على الإنسان أن يعرف متى يكون هايد ومتى يكون جيكل . . ولماذا ؟

وفى مسرحية «مشعلو النيران» يناقش ماكس فريش سذاجة الإنسان . وهل صحيح أن الإنسان ساذج إلى هذه الدرجة . . مثلا . . مثلا عندما ظهر هتلر فى ألمانيا واستعد للحرب ووعد الناس بالسلام ، لماذا لم يتشكك أحد فى نياته؟ لماذا لم ينظر أحد إلى جيوشه ويرفض أن يستمع إلى كلماته ؟ لماذا ؟ لقد صدق الناس ما سمعوه ، ولم يصدقوا ما رأوه . صدقوا أنه رجل سلام . ولم يصدقوا أنه سفاح . .

ومسرحية «مشعلوا النيران» تصور لنا رجلا - أى رجل معاصر- يخشى على بيته من الحرائق . رغم أن كل البيوت قد احترقت بأسلوبه واحد . ويتقدم من بيته أناس يؤكدون له أنهم مشعلو النيران . ولكنه لا يصدقهم . ويحاول واحد منهم أن يؤكد له أنه من هذا النوع الغريب من الناس ، ولكنه لا يصدقهم ويحرقون بيته . ومع ذلك لا يتصور الرجل السبب الحقيقى لاحراق بيته . إن السبب الحقيقى هو بلاهة هذا الرجل وسذاجته . .

فهل الإنسان ساذج بهذه الدرجة؟ ثم هل هو شرير إلى هذه الدرجة؟ إن الإنسان هو هذا الشرير الأبلة؟ هو هذا الذى يحرق الدنيا بنفس الطريقة ، وسوف يحرقها غداً أو بعد غد . . ورغم أنه يعرف هذه الحقيقة ، فإنه لا يحاول أن يتوقف لا يحاول أن يستخدم الإرادة فى وجه المنطق والحتمية التاريخية . .

ويؤكد «ماكس فريش» هذا المعنى فى كل مسرحياته وروايانه : إن الإنسان خليط غريب من العبط والعبقرية ، من الشر والسلام ، من الفردية والجماهيرية ، وإنه يعرف هذه الحقيقة ، وإنه مع الأسف ، لايريد أن يفعل شيئاً من أجل إنقاذ نفسه . .

إذن سوف نموت بنفس الطريقة التى ماتت بها الإنسانية من أقدم العصور . . ولابد أن تكرار هذه المعانى سيصيبنا بالملل من سماعها ، والقرف من أنفسنا ولابد أن القرف سيدفعنا إلى التغيير . والتغيير سيدفعنا إلى العنف . .

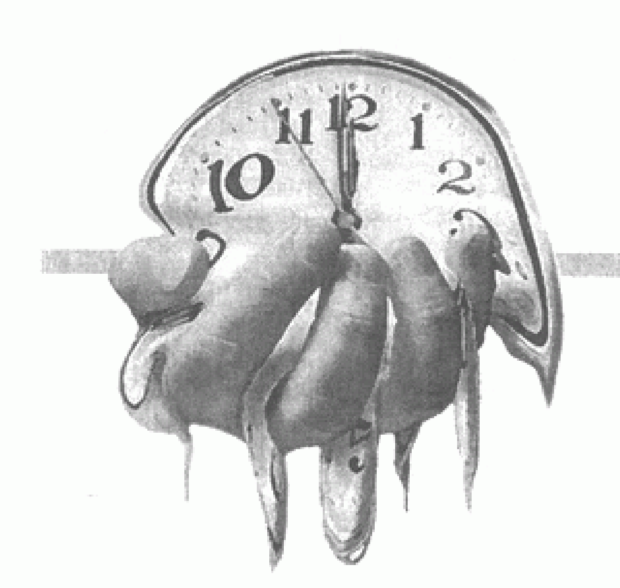
والحرب والدمار والأغلال هى أقسى صور العنف . .

هل ماكس فريش متشائم ؟

أعتقد أنه كذلك ولا ألومه . . فكلنا متشائمون إلى حد كبير !

المرأة عندما تخجل تحمر شفتاها !

إننا إذن هؤلاء السذج ، وأنت أيضا هؤلاء الأشرار . .



من الأرض إلى القمر

المرأة عندما تخجل تحمر شفتاها !

***

الزفاف هو «الجنازة الوحيدة» التى تشم فيها رائحة الورد بنفسك !

***

الزواج كالطعام المسلوق : صحى ولا طعم له !

***

من زواج بلا حب ، يولد حب بلا زواج !

.. الخ .. الخ

هذه العبارات التى جاءت فى كتابى «قالوا» .. ليست إلا نوعاً من الترتر الشائك حاولت أن أزين به جسم المرأة .. أو أنها خيوط من الحرير حاولت أن أشبكها بدبابيس لامعة على جلد المرأة .. وحاولت أيضاً أن أجعلها فستاناً ملتصقاً .. فستاناً محزقاً ..

وحاولت أن أقلد المرأة فى حرصها على أن يكون فستانها جلداً ثانياً ..

ونسيت أن (تحزيق) الفستان يوجعها ويؤلمها .. وفى اللحظة التى تصرخ فيها المرأة من هذه العبارات الملتصقة بجسمها وقلبها وعقلها وطبيعتها تتردد ضحكات الكثير من الرجال ..

ومن الدموع والضحكات ومن الصرخات واللعنات نسجت هذا الثوب الشفاف الذى يلسع ولكنه لايحرق ، وهذه العبارات تدل على رأى ..

ولا أدعى أن هذا الرأى صواب . فلا يوجد رأى صواب كله . . ولا يوجد رأى خطأ كله . .

ففيها الكثير من الصدق وفيها الكثير من السخرية . .

فهى ككل الثمار فيها حلاوة وفيها بذور وقشور . .

هذه العبارات لا ترضى المرأة كلها . . ولا تغضبها أيضاً . فليس من السهل إرضاء المرأة . وإن كان من السهل جداً إغضابها . . ويكفى أن تقدم لها فستاناً بمائة جنيه . وفى الفستان ثقب صغير . . أو فتلة واحدة قد نقلت من مكانها . .

فهذه الفتلة وحدها تفسد لون الفستان . . وتجعل ثمنه فى نظرها ، بالملاليم . . وتحول ذوقك إلى جليطة . . ولا تساوى لا أنت ولا الفستان شيئاً عند المرأة . .

والحصول على فلوس لشراء فستان يحتاج إلى مجهود . .

ولكن تشويه الفستان لا يحتاج إلى أى مجهود . .

وإغضاب المرأة لا يحتاج إلى مجهود . . وإرضاؤها يحتاج إلى أكبر مجهود . .

وهذه العبارات التى جاءت فى كتابى هذا صور كاريكاتورية . .

فيها مبالغة . . ولكن لها معنى . .

والمبالغة فى ملامح المرأة . .

وفى طبيعة العلاقة التى بينها وبين الرجل . .

فأنا أحيانا أرى المرأة بعين المرأة . .

وأحياناً أراها بيعن الرجل . .

وأحياناً أغمض عينى كأنما لا أريد أن أراها . .

أو كأننى أريد أن أراها بخيالى . .

لأنها فى خيالى أجمل . .

ولأنها فى واقعها أقل جمالا وأقل صدقاً . .

ولأننا نعرف المرأة فى ظروف - عادة - غير طبيعية . .

فهذه الظروف الغير طبيعية هى التى تجعل فهمنا للمرأة غير منطقى وغير سليم . . وربما كانت الظروف الوحيدة التى تجعلنا نرى المرأة على حقيقتها هى عندما نكون نحن على حقيقتنا .

ومن النادر أن يكون الإنسان على حقيقته . .

ولذلك من النادر أن نفهم المرأة . .

ومن النادر أن نكون على حق معها . .

ربما كانت حقيقتنا فقط عندما نموت . .

وعندما لا تكون لنا أجسام . . وعندما لا تكون لأجسامنا رغبات أو شهوات أو مخاوف أو مطالب . . أى عندما لا تحتاج إلى المرأة . .

وفى هذه الحالة فقط نقول كما قال تولستوى ، أعظم الكتاب ، وأكثرهم عذاباً وشقاء بزوجته : أنت لاتعرف أية امرأة ، إلا بعد أن نتأكد من أنهم أقفلوا عليك باب قبرك بإحكام شديد . .

والمرأة تحب الصراحة - هذا رأيها . .

ولكن إذا نظرت إلى فساتينها . . تجد أن هذه الفساتين تدلك على أنها لا تحب الصراحة . .

فالفستان قد خنق وسطها . .

والفستان هو الذى أبرز صدرها . .

وحذاؤها رفع رأسها . .

وكعب الحذاء قد أشاع الرقص فى جسمها . .

والقلم الأسود خلق لها حواجب لا وجود لها . .

وقلمها الأحمر ملأ بالورد خديها وشفتيها . .

فأين هى الصراحة؟ . . بل أين المرأة نفسها وراء هذا العمل الفنى . .

أنها تخفى حقيقتها بصور واضحة . . بصورة صريحة . .

أنها تخفى صراحتها بصراحة . .

ونحن نطلب اليها أن تكذب فى سنها وفى وزنها وفى عواطفها . .

وهى تطلب منا أن نكذب عليها أيضاً . . أن نجاملها . . أن نداللها . . أن نقول دائماً إنها الوحيدة فى حياتنا . . إنها أجمل وأرق امرأة فى العالم . .

هى تكذب . . ونحن نكذب . .

ونحن صادقون فى كذبنا وكاذبون فى صدقنا . .

وهذه هى حقيقة المرأة . .

أو الحقيقة التى تريدها المرأة . .

أو هذه هى (اللاحقيقة) التى تريدها المرأة . .

فلا أحد يعرف بالضبط ماذا تريد المرأة ومتى تريد وكيف تريد . . والمرأة مشكلة . . عقدة . . ولا حل إلا بعد أن تتأكد من أن الباب قد أقفل علينا بإحكام شديد . .

ووراء هذا الباب ستعرف حقيقتها . . وستعرف حقيقتنا . .

ولكن أمام الباب لا حقيقة لنا . . ولا حقيقة لها . . وانما كل ماهناك كذب جميل وحقيقة متلونة . . والحقيقة عندما ترتدى ثياباً أنيقة . . تكون أجمل قواماً وأروع ألواناً ، وأمتع عطراً ، وأعمق أثراً وتكون أبعد عن الحقيقة . .

كأن الحقيقة امرأة . .

والبحث عن الحقيقة هو الرجل . .

الحقيقة كالغابة الهائلة . .

والرجل هو الصياد فى هذه الغابة . .

والغابة قد تهذبت الآن . .

والرجل أصبح مهذباً أيضاً . .

ولكن المرأة ما تزال تفضل الرجل الصياد . .

ولذلك تحاول أن تكون مظلمة كالغابة ، متوحشة كحيوانات الغابة . .

والمرأة عندما تحس أنها متوحشة تحلم بالهرب من الكهف إلى البيت . . لكى تكون مستأنسة . .

وإذا أصبحت مستأنسة فإنها تحاول بالهرب من البيت إلى الكهف . . إلى الغابة لتكون - متوحشة من جديد . .

والرجل يعلم ذلك . . ولكنه فقط لا يعلم متى تقرر المرأة أن تكون إنساناً . . ومتى تقرر أن تكون وحشاً جميلا . .

وهذه مشكلة الرجل . .

وليست مشكلة المرأة . فقد تعودت المرأة أن تنتظر . . مئات الألوف من السنين أمضتها المرأة فى الانتظار . وهى قادرة على الانتظار . وقادرة على الصبر الطويل . .

ولذلك فالرجل هو الذى يعالج هذه المشكلة . . أو يعالج هذا الإنسان الذى اسمه المرأة . .

والرجل ينشغل بالمرأة ثم يتركها للكفاح فى حياته . . من أجل تطوير أساليب الحياة أساليب الأكل والشرب والنوم والعلاج والانتقال . . والأزياء . .

وسوف يذهب إلى الكواكب الأخرى . .

وسوف تكون مشاكل الرجل الكبرى فى القمر هو أن يبحث عن كهف يعيش فيه تحت سطح القمر . . لأن سطح القمر ملتهب نهاراً . . وبارد ليلاً . .

أى أن الرجل سيعاود الحياة فى الكهوف تحت سطح القمر . . أى حياة الكهوف المكيفة الهواء والضغط والضوء . .

أى أنه (آدم الجديد) سيصعد من الأرض إلى السماء . .

ولابد له من حواء . .

ولابد لحواء أن تحب وأن يكون لها أطفال . . ويكون لها بيت . . ولا بد أن تغار على الزوج حتى من ذكرياته على الأرض . . إذا لم تكن هناك نساء أخريات على سطح القمر . .

وأول ما تحتاج اليه المرأة فى الكهف الجديد هو المرآة . . لترى نفسها . . لترى كيف تبدو فى عين زوجها . .

وعلى الرغم من أن حواء الجديدة ستكتشف أن القمر مثل الأرض . . بل أسوأ من الأرض . . فإنها ستطلب إلى آدم أن يقول لها : أنت كالقمر . .

أى كالقمر من بعيد . . أى كالقمر كما نراه من سطح الأرض . . المهم أن يقول لها إنها مثل القمر . .

فالمرأة لا تشبع من المدح . .

مهما كانت حقيقة هذا المدح . .

وسوف يحل الرجل على سطح القمر مشاكل كثيرة كنا نجهلها على سطح الأرض . .

ولكن من المؤكد أن مشكلة المرأة لن يجد لها حلا . . لأنها أصعب من أى حل . .

فالمرأة إنسان شديد التعقيد وشديد الحساسية . .

وقد خلقها الله لسببين :

ليزداد عدد سكان الأرض . .

وليزداد عذاب الرجل . . ذلك الكائن الضعيف الذى امتلأ رأسه بأفكار أعظم منه ، وأبقى منه . .

والرجل (الفانى) . . يفكر فى الأبدية . .

والرجل (الضعيف) يعمل على تطوير أشكال القوة . .

والرجل الذى يقهر جاذبية الأرض ، تقهره جاذبية المرأة . .

والرجل الذى يربط الكواكب والنجوم فى قانون رياضى واحد دقيق . . يفقد عقله ومنطقه وينسى جدول الضرب أمام المرأة . .

أن آلهة الأغريق عندما خلقوا أول حواء أطلقوا عليها اسم (بندورا) - أى حاملة كل الصفات- وأعطوا لبندورا صندوقا به كل الفضائل والرذائل الإنسانية . .

وعندما انفتح منها هذا الصندوق خرجت منه كل الشرور :

المرض والجهل والفقر والظلم والكراهية والموت . .

وفى آخر لحظة أقفلت (بندورا) صندوقها . . على شىء واحد هو : الأمل . . أى الأمل فى التخلص من المرض والجهل والفقر والظلم والكراهية والموت . .

ولكن لا أمل فى التخلص من المرأة . .

وعلى الرغم من أن الرجل يعلم هذه الحقيقة إلا إنه يحاول . .

ومن ضمن محاولات الرجل فى أن يتخلص من المرأة وعذاب المرأة وقيود المرأة : أن يكتب عنها وأن يضربها بالألفاظ الجارحة وأن يشنقها فى المواقف الصعبة فى مسرحياته وقصصه . .

ولكن المرأة تقتلها الكلمات . .

فهذه الكلمات قد عاش بها الرجل . . لأنها هى جوهر الفن .

حتى عندما يموت الرجل ، فإن الفن يعيش بعده . . فالفن أطول عمراً من الفنان . . ومحاولة الخلاص من المرأة أطول عمراً من المرأة؟

وعلى الرغم من أن هذه المحاولات تضايق المرأة . . فإن المرأة لاتدين بحياتها وتطورها للذين أحبوها وإنما تدين بتطورها للذين لم يحبوها . . وللذين كرهوها أكثر .

فالمرأة لم تنل حريتها واستقلالها لأنها كافحت وتعذبت . . وإنما بسبب إيمان الرجل بالمساواة بين كل الأجناس كل الألوان . . المساواة بين الأبيض والأسود والأصفر . . بين الغنى والفقير . . وبين الرجل والمرأة .

فليس حباً فى المرأة أن أعطاها الرجل حريتها .

ولكنه تقديس الحرية وتقديس المساواة . . وتقديس العدالة . . هى التى أعطت للمرأة حريتها فى أن تتعلم وأن تعمل وفى أن تختار أسلوب حياتها وفى أن تختار شريك حياتها ، وفى أن تختار الأب المناسب لطفلها .

والرجل لا يدين للمرأة بشىء . . الا بالنتائج العظيمة التى ترتبت على مقاومته لها وتحرره منها : أى بأعماله الفنية .

ولكن الرجل يعلم ما هو أقسى من هذا . يعلم أنه لاخلاص من المرأة .

أو على الأصح يعلم أنه لاخلاص له من رغبته فى أن تكون له أمرأة . . أى لا خلاص له من طبيعته . . أن الرجل يشبه البطل (سيزيف) الذى حكمت عليه الآلهة بأن يرفع حجراً إلى أعلى الجبل فإذا بلغ أعلى الجبل تدحرج الحجر إلى السفح فيرفعه من جديد . . وإلى الأبد .

فهو يعلم أن هذا هو مصيره . .

ويعلم أنه لا نهاية لرفع الحجر ولا نهاية لسقوطه .

ومع ذلك يرفعه ولا يتوقف .

إن التاريخ لم يسجل لنا مالذى قاله سيزيف وهو يصعد ويهبط . .

ولا كلمة من كلماته . .

ولكن من المؤكد أنه كان يلعن الحجر ويلعن القدر . . ويلعن طبيعته هو التى تعاند القدر وفى نفس الوقت تستسلم له .

ولا أستبعد أن تكون كلمات (سيزيف) مثل هذه الكلمات التى جاءت فى كتابى «قالوا» . . إننى لم أسمعها منه . . ولا سمعها أحد . .

ولكننى أحسست . . وعانيت . . وعبرت . . وشكراً لصخرة سيزيف . . للمرأة . . فأننى أدين لها «أحياناً» بكراهيتى لهذه الحياة على الأرض !



يدى على خدى

الفن

نوع من العدوى . .

هذه نظرية لكاتب روسيا تولستوى . .

فهو يقول : لو أن طفلاً صغيراً رأى ثوراً مقبلا عليه ، وهرب الطفل ثم راح يروى لأهله كيف هجم عليه الثور وكيف أن عينى الثور كانتا مخيفتين وكيف أن قرنى الثور كادا يقتلانه . ثم كيف استطاع أن يصعد إحدى الأشجار هربا وأعرب هذا الطفل عن سعادته التى انتقلت إلى والديه . لو نجح هذا الطفل فى أن ينقل هذه المشاعر إلى والديه لدرجة أنهما تأثرا به وتأثرا له فهذا الطفل قد قام بعمل فنى . . لأنه استطاع أن ينقل مشاعره إلى والديه وأن يؤثر فيهما لدرجة الإشفاق عليه والفرحة بنجاته . .

ولو أن طفلاً آخر أو نفس الطفل تخيل أن ثوراً أو ذئباً أو كلباً هاجمه وكاد يقتله . ثم راح يصرخ ويبكى لدرجة التأثير على والديه فلا شك أن هذا عمل فنى .

لأن الفن هو القدرة على نقل المشاعر إلى الآخرين . . بصورة معدية كأنها مرض . .

وقد جرب كل الأطفال هذه المغامرات والحوادث التى يعنون بها ويبالغون فيها أو يخترعونها . .

وبعض الآباء والأمهات يجدون متعة فى أن يستمعوا إلى مغامرات أبنائهم الصغار . وبعض الآباء لا صبر لهم على ذلك . .

وبعض الأمهات يسارعن بضرب الطفل ليكف عن هذا الكذب . .

أما أنا فقد ضربتنى أمى كثيراً . .

أذكر أننى رويت لها قصة حريق فى أحد المحلات التجارية بكل تفاصيلها وكيف أنها أشعلت صفائح الجاز وكيف تكسرت صفائح الجبن واحترقت علب الشاى وكيف اختلط الصابون بالبيض . . ولا أتذكر الآن إن كان هذا كله قد حدث بالضبط كما رويته لأمى وأنا صغير . ولكن الذى أتذكره بوضوح الآن أننى استشهدت على أقوالى بفلان وعلان من زملائى فى المدرسة . . وكيف أن أمى استدعتهم ليعلنوا جميعاً أننى كاذب وأن شيئاً من ذلك لم يحدث . .

ولا أذكر إلا أننى ضربت فى تلك الليلة ونمت ودموعى على خدى وبين الحين والحين أصحو من نومى وأعلن أنهم جميعاً كاذبون وأن الحريقة قد وقعت . وتشاء الصدفة البحتة أن يحترق هذا المحل بعد ذلك بأسبوع .

ولم أستطع طبعاً فى ذلك الوقت أن أقول أننى كنت صادقاً وأن زملائى كانوا كاذبين . . أو بعبارة أخرى أن أمى لم يكن لها الحق فى أن تضربنى بهذه الصورة الموجعة . .

ولدهشتى لاحظت أن أبى يروى هذه القصة كدليل على أننى «مكشوف عنى الحجاب» وأننى تنبأت بحريقة هذا المحل قبل أن يحدث ذلك بأسبوع . .

ومن المؤكد أن القصة التى رويتها كانت نوعا من الفن ، فى رأى تولستوى . وكل طفل قد تعرض لهذه التجربة عشرات المرات . وتعرض لسخرية الأم والأب . وكثيرا ما أفلح الضرب فى قطع هذا الخيال والقضاء على الاكاذيب البيضاء . . أو الأكاذيب الفنية .

وكثيراً ما ضبطتنى أمى بعد ذلك أقف على المقاعد وأتظاهر بأننى أخطب وأننى أدافع عن قضايا وهمية أو أروى قصصاً لا وجود لها . . وكثيراً ما تلقيت نصيبى من الضرب على هذا الجنون .

بعد ذلك حاولت أن أجد تعويضاً محترماً عن هذه الإهانات المتكررة فى البيت ، فتسللت إلى فريق المدرسة للتمثيل . فقد حدث أن تألفت جمعية للتمثيل فى المدرسة ولم أكن عضوا فى هذا الفريق . وحرصت على أن أتسلل إلى هذا الفريق لأكون ضمن الممثلين . ولم أجد مقاومة من أحد . وكنت أتصور أن هناك مقاومة عنيفة تنتهى آخر الأمر «بعلقة» من المدرسين أو من الناظر . . فأنا أرى العصا التى تمسكها أمى فى يد كل إنسان !

وكانت المسرحية عن شخصية عربية اسمها «معن بن زائدة» وهو رجل مشهور بطيبة القلب والحلم وبهدوء الأعصاب . وموضوع المسرحية أن رجلاً من البادية قد اتفق مع آخرين على أغضاب هذا الرجل الحليم مقابل دفع مبلغ من المال - إذا نجح فى أغضابه طبعاً .

ولم يكن دورى فى هذه المسرحية مهما . . فلم أكن الرجل الحليم ولم أكن الذى يثير أعصابه . وإنما كنت أحد الحراس على باب معن بن زائدة . وكان دورى تافهاً جدا . ولم أناقش دورى . ولكن كل الذى يهمنى هو فقط أن أمثل . . أن أظهر . . ان أقف على مسرح أفتح فمى وأقول كلاماً كما كنت أفعل وحدى فى البيت . . وكان أملى ، لا أعرف أن كان هذا أملى ، إلا أتلقى ضربات من أحد . . أو بعبارة أخرى كنت أحاول أن أجعل من وقوفى على المقاعد وتحريك شفتى عملاً مشروعاً . . محترماً . . أو هكذا توهمت .

والآن دعنى أصف لك كيف ظهرت هذه المسرحية فى إحدى حفلات مدرسة أبى حمص الابتدائية . . الصالة طويلة نظيفة . وقد كانت مخصصة لمناضد البنج بونج . . وفى هذا اليوم رفعت المناضد ووضعت بدلاً منها المقاعد . . وأضيئت الأنوار العادية جداً . .

وانبعثت من الصالة رائحة الفنيك . وواضح جداً من الرطوبة الشديدة الموجودة أن أرضية الصالة قد غسلت بالماء عدة مرات ، وأن الأرض لاتزال مبللة وترامت المقاعد فى مواجهة المسرح . . أو الشىء المفروض أن يكون مسرحاً . أما هذا المسرح ، ولا أظن أن تسميته كانت كذلك فى ذلك الوقت ، ولو كانوا يسمونه كذلك فمن المستحيل أن أفهم معناه . أو يفهمه أحد من أبناء هذه المدينة الصغيرة . . لم يكن المسرح مرتفعا عن الأرض . وإنما كانت نفس الأرض . وكانت تفصلها عن المقاعد قصارى الورد . . صف من قصارى الورد . . وبعدها توجد دكة خشبية مغطاة بأحد المفارش . . وعلى هذه الدكة جلس معن بن زائدة . بقميص وبنطلون . فقد كان معن هذا زميلاً لى فى السنة الثانية الابتدائية . . ولم يكن معن هذا إلا إنساناً هزيلاً منخفض الصوت . أما الطالب الذى سيثير أعصاب معن بن زائدة فقد كان فى السنة الثالثة الابتدائية ، أما أنا فقد وقفت بالقميص والبنطلون أيضاً وعلى كتفى سيف من الخشب .

ومن المفروض أن أمنع هذا الرجل وأوقفه فى مكانه وأتركه لاستأذن من معن ابن زائدة . إن كان يسمح له بالدخول . وطبعا سيسمح له ، وفى هذه الحالة أتوجه إلى الرجل وأدعوه لمقابلة الأمير وأتركه وأظل واقفاً فى مواجهة الجمهور طول هذه المسرحية . أما الجمهور فقد كان من أولياء أمور الطلبة . ولم تكن هناك سيدات .

وفى نهاية المسرحية شعرت بشىء من الارتياح . .

ولكن هذا الشعور لم استطع أن أنقله إلى أحد . . لم أستطع أن أغيظ به أحدا . . لا والدى ولا والدتى . ولكن شعرت بشىء من الانتقام ، فقد مثلث ووقفت وقلت كلاماً لأول مرة ولآخر مرة .

* * *

ولا أعرف بالضبط ما الذى دفعنى إلى أن اتجه إلى الغناء . لقد كنت مفتوناً بكل صوت جميل . وكنت اتتبع الفلاحين فى الحقول . وكانت وظيفة والدى فى ذلك الوقت تمكننى من استدعاء أى عامل فى الحقل وأطلب اليه أن يغنى . لا أعرف ما الذى يقوله بوضوح ولا أعرف كيف أردده ولكنى كنت أجد سعادة لاحد لها . وحفظت عدداً من المواويل الريفية وأغانى الأفراح فى محافظات البحيرة والدقهلية والغربية وقد أمضيت فيها جميعاً كل سنوات طفولتى .

وبدأت أغنى بصوت مرتفع . وشجعنى أبى على أن أغنى أمامه . وغنيت أمامه وغنيت معه . وكان صوت أبى جميلا ، وكان شاعراً . وقد حفظت كل قصائده وأنا طفل . وكان أبى لا يثق كثيراً فى قيمة الشعر الذى ينظمه وكان يرى أن الشعر ونظمه ليس إلا نوعاً من (اللعب) . . وكان يتصور أن هذه شتيمة . ولم يكن يعرف أن وصف الفنون كلها بأنها لعب ليس إلا حقيقة أو جانباً من الحقيقة .

وكان لى خال يحب الغناء ، وكان هو أيضاً يغنى . . كان صوته جميلاً وكنت أحب الاستماع اليه . وكان خالى هذا يستريح الى صحبتى . كان زوجاً وأباً لأطفال وكنت لا أزل طفلاً . وكنت أذهب مع خالى هذا إلى بيت فيه سيدة جميلة . ولا أعرف لماذا كان يحرص على أن تكون هذه الزيارات ليلاً . لا أعرف . ولماذا يبعث بى فأدق الباب وأدخل أنا أولا ، وبعد لحظات يجىء هو . ونجلس نحن الثلاثة فى غرفة واحدة ويظل خالى هذا يغنى : يا جاره الوادى . . ومريت على بيت الحبايب حتى أنام .

وزاد تعلقى بالغناء لدرجة أننى انشغلت عن دروسى واضطررت فى كثير من الأحيان إلى إخفاء الخبز والأرز والسكر فى ملابسى لكى أعطيها لرجل شحاذ كان يغنى وكان هذا الشحاذ مشوها . . كان أقرع وكان يغطى رأسه بصورة تخفى أذنيه . ولكنى كنت لا أراه ، وإنما فقط أسمع صوته الجميل ، وهو يغنى يا جارة الوادى طربت . . وخايف أقول اللى فى قلبى لمحمد عبد الوهاب . .

وكان لابد أن ينكشف أمرى . . وانكشف وتلقيت ما يستحقه طفل يسرق الخبز والسكر ويعطيهما لرجل مريض من الممكن أن تنتقل إليه عدواه . ولم أكن أعرف كلمة العدوى هذه . ولم أعرف معنى العدوى التى تحدث عنها تولستوى . وإلا تمنيت أن تنتقل عدوى حنجرة هذا الشحاذ لأظل أردد ليلاً ونهاراً هذه الأغنيات الساحرة .

ولم تكن لى دراية تامة فى تلك السن ولا أعرف معنى النزوة الخاصة . ولم يكن لى أى شىء خاص . . الا هذا الحب الجنونى للغناء .

ولا أعرف إن كانت هذه الرغبة الشديدة هى التى «اشحذت» سمعى . . فأنا استمتع بحاسة سمع مرهفة جدا . . وكنت أتبارى مع زملائى فى الاستماع إلى الأصوات البعيدة وتفسيرها . ولا أعرف إن كان حبى للغناء هو الذى جعل لأذنى هذه الحساسية الشديدة أو كان هو الخوف . فكل الحيوانات الخائفة الضعيفة قوية السمع . .

على كل حال لقد عرفت الخوف فى تلك السن . الخوف من الليل ومن الناس ومن الزمن ومن الموت ومن المرض ومن الفقر . . وعرفت هذه المخاوف بدرجات عنيفة . .

وحدث فى إحدى المرات أن كنت أركب «النورج» وكان يجلس إلى جوارى هذا الشحاذ . . وظل يغنى ويغنى وأنا مبهور به حتى سقطت أنا تحت عجلات النورج ، صرخت فتوقفت الأبقار الرهقة عن الحركة . وهرب الشحاذ خوفاً من والدى ومن أهل القرية . وتمزقت ملابسى وسألت الدماء من رقبتى . .

وفى استطاعتك أن تتصور ما الذى يصيب طفلاً أهمل أو «تشاقى» . . لقد كان نصيبى الضرب الشديد من أمى . أما السبب فهو أننى أستحق العقاب عن

الشقاوة . ولم يشفع عند أبى وأمى أننى سقطت تحت عجلات النورج وأننى أيضاً جرحت وتمزقت ملابسى وبشرتى . . ولكن العقاب الذى تلقيته من والدى هو بسبب خوفهما على وبسبب أننى أزعجتهما طبعا . . وبسبب هذا الشحاذ الذى دفعنى إلى السرقة من أجل صوته «القبيح» وهذا رأيهما فى صوت الشحاذ . . وكان اسمه حسن .

واتجهت لا شعورياً إلى القرآن . .

وحفظت القرآن وأنا طفل صغير . . قبل أن أدخل أية مدرسة واتجهت إلى ترتيل القرآن . كنت أرتل القرآن بصوت مرتفع . وكنت اختار أوقاتاً غير مناسبة لترتيل القرآن . وكنت أحتمى فى عظمة القرآن فلا أحد يستطيع أن يطلب إلى أن أسكت ، ولا أحد يستطيع أن يتهمنى بأننى أحدث ضوضاء غير مستحبة . ولا بأننى أضيع وقتى .

وفى حماية القرآن بدأت أتردد على المآتم استمع إلى هؤلاء القارئين الذين يجلسون فى الصدارة . ويتمايلون فى كبرياء والناس من حولهم يصرخون وينسى الناس بهؤلاء القارئين ، كل ما أصابهم . وكنت أجلس إلى جوار القراء . ولا أتعب من التطلع إليهم ، ولا أتعب من الهمس بما يقولون . فقد كنت أضع يدى على خدى أقلدهم وأحياناً «أندمج» وأرتل القرآن بصوت مرتفع يبعث على الضحك فى هذا الموقف الجليل .

وتشجعنى ابتسامات الناس على التمادى فى هذا الموقف ولكن أبى منعنى برفق . ولأول مرة ارتكبت خطأ فيكون العقاب مجرد السحب من اليد مع ابتسامة وعبارة رقيقة كنت انتظرها دائماً : الله يفتح عليك يا ابنى . .

ولم أكن قد عرفت الراديو بعد . . ولا سمعته ولا حتى سمعت به ولكن عندما نسافر إلى المنصورة كنت أستمع إليه . . الصوت قوى جميل . . وكنت أشعر بنشوة لا حد لها . وكنت أمتنع عن الطعام نهائيا . وكان يتصور أبى أننى مريض وبعد ذلك كان يرفض أن أذهب معه إلى المدينة بحجة أننى ضعيف وأن السفر يرهقنى وتوسلت إليه . وكنت آكل وأشرب وأسرف فى ذلك . الحقيقة أننى كنت أتعمد ذلك رغم قرفى من الأكل والشرب لكى استمع إلى هذه الأصوات الباهرة التى لا

أعرفها ولا أجرؤ أن أتساءل عنها . يكفى أن أسمعها فقط . يكفى أن أعطى لها اذنى المفتوحتين اللتين لا تشبعان ، ولا ترتويان . وعندما كنت اعود إلى البيت أحس كأننى فى حالة تنويم مغناطيسى فأظل طول الليل بين اليقظة والنوم . ويحار أبى وتحتار أمى . . وأحاول أن أغمض عينى بالقوة حتى لا أشرب كل هذه الكميات من الحلبة والنعناع والقرفة التى هى علاج لهذا الأرق والدوخة التى أصابتنى . ولم أتحدث إلى أحد عن هذا الذى أصابنى !

وإن كنت لا أعرف ما هو هذا «الهذا» وما الذى أقصده بهذا .

وبدأ عنصر الخوف يتلاشى من حياتى ، لقد دخلت المدرسة الابتدائية وكنت طالباً متفوقاً . وكبرت . ولا أذكر أن يداً امتدت إلى وجهى أو عصا نزلت على ظهرى . اختفى الضرب . اختفى الخوف من حياتى وصارحتنى أمى برغبتها فى أن أكون شيئاً مهماً . أن أكون رجلاً ذا شأن اكسب المال وانفق على أبى وأمى وأخوتى ولم أكن أدرى طبعاً أى معنى واضح لما تقوله أمى . ولكن الذى أحسست به هو هذا التغيير فى لهجتها معى . لقد كبرت فى عينيها وفى استطاعتى الآن ، مادمت أنجح أن ألعب وأن أغنى وأن استمع إلى الغناء .

وبدأت أغنى بصورة علنية .

وبدأت أدافع عن صوتى . . وأقارن بين صوتى وأصوات الآخرين ولم أجد من أمى أو أبى أى اعتراض على أقول . .

وفى هذه الأثناء تعرفت على صديق فى المدرسة الثانوية . كان صوته جميلاً حقاً . وتوقفت عن الغناء لنفسى أو لغيرى وانصرفت الى الاستماع اليه . ولقد كنت أرافقه ليلاً ونهاراً . وأنا مأخوذ بصورة مضحكة وتشجعت أكثر فاتفقت مع أصدقاء لى على الغناء فى الأفراح والليالى الملاح وشجعنا الناس أحياناً وسدوا نفوسنا أحياناً أخرى وتعلقت بصوت محمد عبد الوهاب . كما تعلق كثيرون غيرى .

ولم اكتشف إلا فيما بعد أن حبى لعبد الوهاب . كان اعجاباً «بأسلوبه» فى التعبير . ومقدرته على البلاغة فى الأداء . كان عبد الوهاب يصور أملاً من آمالى فى أن يجىء يوم أكون فيه صاحب أسلوب بسيط واضح مفهوم مسموع – أو هكذا تصورت . . أو هكذا تصورت . .

وحفظت معظم أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم . .

وعرفت الموسيقى الكلاسيكية . واستمعت وأطلت الاستماع . . «وتدروشت» فى الموسيقى الغربية . . وفكرت فى أن أتعلم العزف . . وبدأت أعزف على البيانو وعلى الكمان وعلى العود وتغيرت الآلات الموسيقية فى يدى وتحيرت . . وانتقلت «عدوى» قلقى إلى أدوات التعبير فى يدى . . فهى مرة قلم ، ومرة فرشاة وتارة بيانو وتارة مضرب التنس .

وجاءت الجامعة فابتلعتنى تماماً .

لم أعد أفكر فى شىء . . لا الراديو ولا الغناء ولا الموسيقى .

وفى كلية الآداب كنت ضمن أعضاء جمعية «الجرامفون» التى يشرف عليها دكتور لويس عوض مدرس الأدب الإنجليزى . . وكان من أعضائها فى ذلك الوقت الأدباء محمود أمين العالم وعباس أحمد ويوسف الشارونى وبهيج نصار ومصطفى سويف وبدر الديب وكلنا زملاء فى قسم الفلسفة .

ولكن لم يكن الاستماع الى الموسيقى الا ساعات كل أسبوع . . وبعد ذلك أعود إلى النسيان . . إلى نسيان كل شىء حولى والإغراق تماماً فى الكتب الفلسفية .

ولا أزال أعتبر الصوت الجميل كالعضو الجميل ، كالعين والشفتين والساقين .

ويمكن فى اللغة العامية أن تقول عن الصوت أنه «الحس» فتقول فلان «حسه» جميل – أى صوته جميل .

وفعلا الصوت هو الحس ، هو كل الإحساسات ، بل إنه يثير ويمتع كل الإحساسات .

وقد ألصقت أذنى طويلاً جداً بالأسطوانات والأشرطة التى ينبعث منها الصوت الجميل .

بل إننى أحتفظ بأسطوانة ليس فيها غناء ولا موسيقى . . وإنما فقط صوت سيدة فى مجلة «ريدزر دايجست» الأمريكية تعلن عن إحدى المقالات .

ولو عرفت لماذا أحتفظ بهذه الأسطوانة لاندهشت . إنها عن هذه المحررة واسمها «هيزل ماركل» تضحك . . فقط تضحك . أن ضحكتها أعجبتنى وأمتعتنى فى كل مرة أسمع هذه الضحكة .

ومازلت أحب الصوت الجميل ، فى الكلام والسلام والغناء والأداء والتمثيل .

فمعظم حواسى فى أذنى !

ولم أدخل سينما قبل أن أتخرج فى الجامعة . ولم أر فيلماً واحداً . ولم أعرف باب سينما . ولا فكرت فيما يجرى داخلها .

وفى يوم قررت بصفة سرية - أى بينى وبين نفسى - أن أتسلل إلى إحدى دور السينما دون أن أخبر أحداً بذلك حتى لا ينكشف أمرى . . ويعرف الناس أننى ذاهب إلى السينما لأول مرة فى حياتى . وفى ذلك الوقت كنت محرراً فى جريدة «الأساس» وذهبت إلى سينما ستراند الصيفى وكان الفيلم هو «غراميات كارمن» بطولة ريتاهيوارث وجلين فورد .

ومهما وصفت لك دهشتى وفرحتى ونشوتى فأنا عاجز عن الإحاطة بما أصابنى فى تلك الليلة . يكفى أن أقول لك أننى ظللت أكتب عن هذا الفيلم بحماس شديد . وكيف أستخلصت منه معانى فلسفية لا أول لها ولا آخر . حتى مل الناس كلامى . ولكن لم أجد فيما أقوله مللا! فقد كان كل شىء جديد «رائعاً» كل شىء . . الأضواء والأصوات والناس وريتا هيوارث . . تلك الغجرية التى جعلتنى أقرر بعد ذلك بخمس سنوات أن أزور كهوف الغجر فى أسبانيا فقط لأرى كيف كانوا يعيشون .

ومن السينما تسللت إلى صناديق الليل فى القاهرة . . كل ليلة أذهب إلى مكان . . ويعلم الله أننى كنت مبهوراً وكنت خائفاً أن يرانى أحد . وكنت خائفاً من الذين يروننى . وكنت أجلس فى الكباريهات فى المقاعد الأمامية . لا أشرب ولا أكل . ولا أتصور أبدا أن الناس يذهبون إلى هذه الأماكن لشىء آخر غير الفرجة . . وكم كتبت من القصص وكم نظمت من القصائد . وكم تخيلت من المواقف المسرحية . وكم تأثرت وبكيت أيضا على أشياء لا يبكى عليها أحد .

وكلما أنظر إلى راقصة ، وأرى الأضواء تتلوى على جسمها وأنظر إلى عينيها أجد شيئاً آخر غير الذى يراه الناس . . ربما كان جسمها مثيراً ، ولكن من المؤكد أن فى عينيها دموعاً . . أنها تؤدى دوراً فقط . . انها لا تجد متعة فى هذا العمل الآن الذى تقوم به كل ليلة . وحتى لو كان هذا المعنى نابعاً من إحساسى أنا ، فقد كنت

أؤكـده لنفـسى كل ليلة . . كل ليلة أقـول لنفـسى : هذا كـذب . . هؤلاء الناس يكذبون ليعـيشوا . . هؤلاء الناس يتعرون ويتعـذبون بالثـمن . . هذه اللحوم الملونة ستصبح صفراء باهتة آخر الليل . . وستأكلها أفواه مخمورة ، ولأنها مخمورة فهى لا تعرف طعم اللحم ولا لونه وهى لا ترى هذه العيون الباكية المتسولة .

لم تسـعـدنى هذه الكبـاريهـات . . وإنما مـلأت نفـسى بالحـزن والأسـى والمرارة وشعرت أن هذه أسواق علنية للرقيق الأبيض .

وتوقفت عن التـردد عليـهـا بسـبب هذا القـرف . . ولا أعـرف إن كـان هذا الذى شـعـرت به هو نوع من القـرف ، أو هو نوع من الشـعـور بالذنب أو الشـعـور بالخطيئة الدفين ، فـقـد تحـول الى شـىء مـر على لـسـانى . . لا أعـرف بالضـبط . . فـقـد كنت طفلاً مخنوقاً «مكبوتاً» خائفاً «دائماً» ولابد أن هذا الخوف نفسه هو الذى منعنى من أن أشعر بمتعة فيما أتفرج عليه ، كنت أحاول أن أبرر لنفسى ولغيرى أننى على الرغم من وجـودى فى الكبـاريه ، نادم على ذلـك . . إلا أننى قرفـان مما أرى ومشـفـق على كل فتاة أراها .

وترددت على المسـارح وأدمنت مـسـرح الأوبرا وعـرفت هناك سليـمـان نجـيب وصـلاح ذهنى . . والصـديق عـبـد الرحـمن صـدقى فـتح لى الأبواب والبناوير لكى أشاهد كل المسرحيات والأوبرات سنوات طويلة . وعـرفت الصـديق شكرى راغب وجلسـت مـعــه فى الكواليس سـاعـات وسنوات ورأيت وراء الكواليس مـا لـم يره المتفرجون . . رأيت الممثلين الكبار وهم فى حالة من الخوف من مواجهة الجمهور . رأيت الـدمـوع فى عـيـونهـم ورأيتـهـم وهـم يرتجـفـون من الخـوف . رأيت أجـسـامـهـم الضعيفة ، رغم أنهم على المسرح يقومون بأدوار العمالقة .

وأحـسـست أنهـم قـريبون من نفـسى . . وأحـسـست أننى أنا أيضـاً عندمـا أكـون وحـدى فـإننى ألهث وأخـاف وأتعـذب وأرتجف ولا يرانى الناس وأنا أحتـرق وألعن القلم الذى أمسكه . وأحس أننى عاجز عن الكلام . وعن التعبير . . وعن الكتابة .

ولكن القارىء - كالمتفرج- لا يهمه كثيراً كيف ومتى وكم ساعة تعذب الكاتب أو الممثل . وإنما يهمه أن يقرأ أو يتفرج ويستمتع . والكاتب يستمد متعته من متعة القارئ والممثل يجد لذته من تصفيق المتفرجين .

الكاتب يجد لذته من لمحة فى عين القارىء . والممثل يجد متعته من أصوات الأيدى وهى تصفق .

وسافرت الى أوربا ورأيت مسارح الأغريق فى أثينا . . ورأيت مسارح الرومان فى روما . ووقفت ساعات فى مسرح كراكالا . . ورأيت مسرح الأوبرا فى باريس . . وقاعة البرت فى لندن . . وتفرجت على مهرجانات الموسيقى فى سالزبورج بالنمسا وتفرجت على مهرجانات الموسيقى فى ميونخ وهمبورج وبرلين فى ألمانيا .

وأمضيت أياماً فى كهوف وخيام الغجر فى أشبيليه وطليطلة ومدريد بأسبانيا . . ورأيت المسرح الصينى فى كاجرتا . . ورأيت مسرح الكوكو ساى فى طوكيو . . ورأيت مسرح السوق الدولية فى هونولولو ورأيت هوليود مدينة السينما .

وأصبحت المسارح جزءاً من حياتى الفكرية .

لابد أن أقرأها وأن أترجم بعضها ، وأن أتفرج عليها .

وانتقلت من الفرجة إلى الكتابة عن المسرح وللمسرح وعن الأفلام والموسيقى والغناء .

وأصبح من أصدقائى معظم نجوم الفن فى مصر ، وفى العالم العربى . وكثيرون من أوربا وأمريكا . وتعودت أن أدخل المسارح وفى يدى ورقة وقلم . وفى الظلام أخفى رأسى فى الورق لأكتب شيئاً .

واعتدت بعد ذلك أن أخفى القلم ، والورقة فى رأسى . وأن أعود إلى البيت بعد ذلك فأسجل ملاحظاتى عما رأيت .

وكنت أول الأمر أسجل انطباعى بالمسرحية والفيلم . ولم أكن أهتم كثيرا بواقع المسرحية . . أى بظروفها ، ومجهودات الممثلين والمخرج والمؤلف . كأن الذى يرضينى هو الذى يجب أن يتجه إليه المخرج . وعرفت أن هذه وجهة نظر خاصة . وهى لذلك ناقصة جداً . وتعلمت بعد ذلك أن أقيم وزناً كبيراً للآخرين . . وأن يكون انطباعى هو واحد من الانطباعات . ووجهة نظرى هى أحدى وجهات النظر .

وأهم من ذلك تعودت أن أبحث عن عذر لكل إنسان . لابد أن يكون له عذر . لابد أن يكون هناك سبب ما أدى إلى خطأ فى الأداء أو فى الحوار لابد أن يكون هناك عذر لكل إنسان . ومادام إنساناً فهو معرض لأن يتأثر وأن ينكسر وأن يخطىء . وقد عرفت الكثير من الأعذار والمبررات وراء الكواليس .

وأصبحت أرى وأنا جالس على مقعدى فى الصالة مالايراه أحد غيرى ومالا يدرى به أحد سواى . فأنا أعرف «أعذار» الممثلين . . وأعرف ظروفهم .

أذكر أننى عندما رأيت فيلم «أعظم استعراض فى العالم» من إخراج سيسيل دى ميل بكيت كثيراً . لم تظهر دموعى على خدى ، وهى غالباً لا تظهر . وإنما كانت دموعى فى قلبى : فقد رأيت هؤلاء الذين يظهرون أمام الناس وهم فى غاية الشجاعة ، هم فى الحقيقة فى غاية الضعف . ولكن «الصنعة» تحتم عليهم أن يبدوا فى منتهى القوة . . وفى غاية المرح والسعادة . . وهم فى الحقيقة مرضى وتعساء وفاشلون . . فى الحب وفى الحياة وفى العمل .

وعرفت أعذار هؤلاء الأبطال ، أو المفروض أنهم أبطال .

رأيت وراء الكواليس أناساً يبكون بدموع حقيقية وأدوارهم مضحكة . ورأيت ممثلين وممثلات بينهم دماء جارية ، ويظهرون بالأحضان والقبلات أمام الناس .

وأصبحت أجد متعة لاحد لها فى رؤية البروفات – أى المسرحية بلا جمهور – رأيت الممثلين بملابسهم العادية . . ومتاعبهم العادية . والمخرج يشخط وينظر فيهم . ويظهر عليهم التأثر . ويروى كل واحد كيف أنه لم ينم . ولم يأكل . وكيف أن زوجته مريضة . . وكيف . . وكيف . . كل ذلك بلا جمهور .

واعتدت أن ارتبط نفسياً بهؤلاء الفنانين . . وأن أدافع عنهم . . فأنا مثلهم ، وكل فنان مثل أى فنان . فهو مطالب بأن يكون فى أحسن حالاته النفسية أمام الناس . ولكن عندما يخلو إلى نفسه ، فإنه وحده يشكو متاعبه ، وهو وحده يمسح عرقه . . بل إنه يضرب كفه الأيمن بيده اليمنى ويواسى خده الأيسر بيده اليسرى وحده . . والفنان يعيش وحده ويتعذب وحده . . ويتلوى وحده ، وعندما يتعذب فعذابه فردى شخصى . . عذابه لا يتجاوز هذه المسافة الصغيرة بينه وبين الورق . بينه وبين القلم . وأحسست بأن الفنان «غلبان» . . الفنان الذى يكتب والذى يرسم والذى يؤلف . إنه مطالب دائماً بأن يكون جديداً . وألا ينسى بأن يكون مسلياً أيضاً . فلا يكفى أن يفهمه القارىء أو المتفرج ، وإنما يجب أن نضحكه أن نسعده . . لا يهم أن كان الفنان سعيداً أو ليس كذلك !

وكتبت الكثير من المقالات فى النقد الأدبى والفنى والمسرحى بصفة خاصة . . مئات المقالات . . أو ألوف المقالات . . فقد استغرقت حياتى الأدبية والفنية والعلمية ، اشتغلت فيها فى كل الصحف والمجلات التى صدرت فى مصر ، فيها جميعاً بلا استثناء !

ولا أنسى كيف استمتعت بمشاهدة مسرحية «الأيدى الناعمة» لتوفيق الحكيم ، وكنت جالساً إلى جوار طه حسين واستمتعت بملاحظات طه حسين . والحقيقة أننى انشغلت بملاحظاته عن المسرحية نفسها .

ولا أنسى كيف تفرجت مع توفيق الحكيم على مسرحية «يا طالع الشجرة» لتوفيق الحكيم وانشغلت مرة أخرى بالمؤلف عن المسرحية .

ومررت بتجربة أن أكون مؤلفاً يتفرج على إحدى مسرحياته . . على البروفات . . ثم على المسرحية نفسها بين الجمهور . إنه شعور غريب . مثير ولذيذ . ولكنه مؤلم أيضاً .

فالمؤلف عندما يقرأ أحد أعماله أو يتفرج عليه فأنه يشعر بشىء من القرف . وهذا القرف هو مزيج من الخجل والملل . فهو يخجل من أنه معروض هكذا أمام الناس وأن الناس لابد أنهم قالوا عنه كذا وكذا . ويشعر بأن الذى كتبه ليس جميلاً ، فقد كان فى استطاعته أن يكتبه أحسن وأفضل . . فهو فى حالة خجل مما فعل . وفى حالة خجل من كلام الناس ورأى الناس . . ثم هو فى حالة ملل ، لأنه قد تعب فى هذا العمل الفنى . وشبع منه وزهق . ولا يريد أن يمر فى هذه التجربة من جديد . . ومشاهدته للمسرحية معاناة جديدة للتجربة الأولى . . وهى تجربة التأليف !

ورغم هذا القرف ، فإنه عندما يرى أثر هذا العمل الفنى أو الأدبى فى الناس يستمد من هذا الأثر الجماهيرى حياة جديدة . . ومتعة جديدة . . هذه المتعة تجعله ينسى القرف . . ينسى الخجل وينسى الملل . . ويتجه نحو شىء جديد . .

وأخذت التفت إلى النقاد الآخرين ، وباهتمام شديد . . النقاد المصريين والأجانب .

وأصبح من أصدقائى نقاد القمم مثل أدموند ويلسون فى أمريكا . . وكينيت تاينان فى انجلترا وأندريه بيلى فى فرنسا . . وجعلت أتابع كل ما يكتبون وباهتمام شديد .

وبصراحة أحسست كأننى أحد الأقمار الصناعية الضالة . فأنا قد انطلقت وابتعدت عن الأرض وكل ماينقصنى هو أن أجد لى مداراً محدداً واضحاً . وهؤلاء النقاد وغيرهم وتجاربى قد وضعتنى جميعا فى المدار السليم .

ولم تنته متعتى مع المسرح والمسرحيات ، بل أننى رأيتها قد اتجهت إلى ناحية عملية أكثر . . إلى ناحية القراءة والممارسة . . إلى ناحية الاطلاع على التجارب الجديدة للشبان من الأدباء . . وناحية أن أكون أيضاً صاحب تجربة وممارسة .

ما المانع؟ . . إنهم يحاولون . وأنا أيضاً أحاول . وحياة أى إنسان هى محاولة مستمرة لأن يحقق الصورة التى فى رأسه ، أو الصور الكثيرة التى فى رأسه .

وما أكثر الصور فى رأسى ، وما أكثر الصور التى أراها فى رءوس الآخرين . . وما أسهل الصور وهى فى رأسى ، وما أصعبها عندما أحاول أن أنقلها إلى رءوس الآخرين . ولكن ما أمتعها أيضاً عندما تتشابه الصور أو تتطابق الصور التى فى رأسى والتى استقرت فى رءوس الآخرين .

وعندما أصبحت عضواً فى اللجنة الفنية للمسرح الكوميدى قرأت عشرات من المسرحيات التي قدمها الأدباء الناشئون . وعرفت الصعوبات التى يعانيها الأديب الناشىء فى إضحاك الناس .

ولاحظت أن فن الاضحاك ليس سهلا . . . فمن الممكن الإضحاك بالحركة . والإضحاك بالكلمة . . ومن الصعب الإضحاك بالموقف . والإضحاك عندنا صعب ، وليس أسهل من أسالة دموع أى إنسان . يكفى أن تشكه بدبوس .

وجربت المسرح .

لقد قرأت مسرحيات كثيرة لكل المدارس الأدبية فى كل العصور .

وظهرت لى مسرحيات مؤلفة ومترجمة :

مسرحية : الأحياء المجاورة وقد قام ببطولتها اثنان فقط من أعلام المسرح العربى : سناء جميل وحمدى غيث وأخرجها جلال الشرقاوى وكانت تجربة مثيرة ناجحة .

ومسرحية : حلمك ياشيخ علام . . وقد قام ببطولتها أمين الهنيدى وعقيلة راتب ، وأخرجها عبد المنعم مدبولى .

ومسرحية «مين قتل مين» قام ببطولتها أمين الهنيدى . .

وترجمت مسرحية «الرعشة» عن تنيسى وليامز .

وترجمت مسرحية «بعد السقوط» لآرثر ميللر .

وترجمت مسرحية «رومولوس العظيم» لفريدريش ديرنمات .

وترجمت مسرحية «الملاك فى بابل» لديرنمات أيضا .

وترجمت مسرحية «الشهاب» لديرنمات .

وترجمت مسرحية «أمير الأراضى البور» لماكس فريش .

وترجمت مسرحية «الاستاذ تاران» لأداموف .

ومسرحيات : ياسيدى ازيك ، والعربة الشقراء وعريس لابنتى «ليونسكو» .

ومسرحية «دعاء» لارابال .

وكانت أول مسرحية ترجمتها هى «الإمبراطور جونز» ليوجين أونيل .

وأذاع الراديو مسلسلة علمية بوليسية أسمها : « ش٣ » . . بطولة محمد رضا وسعد أردش وعبد السلام محمد وصبرى عبد العزيز ورجاء حسين . واخراج مصطفى صادق .

وهذه المسلسلة تحولت إلى مسلسلة تليفزيونية ناجحة جدا ، بعنوان «العبقرى» بطولة يوسف وهبى ومحمد رضا ومحمود المليجى .

ولدى مسرحيات أخرى من تأليفى ومن ترجمتى وأرجو أن تظهر عندما أشعر بالارتياح لها .

وكتبى التى تضاعفت ، لايخلو أحدها من كلام عن المسرح والمسرحيات .

وفى كل حياتى الأدبية أذهب إلى المسارح وإلى دور السينما بانتظام تام . . أختار لى مقعداً على الشمال . وأجلس تلميذاً فى مدرسة لها عشرات الأساتذة من المؤلفين وكاتبى السناريو والمخرجين والممثلين والمصورين ومهندسى الصوت . . وانفعالات الجماهير أمامى وخلفى وحولى .

إنها متعة متجددة لا تنتهى : فن وصناعة .

ولكن الكرسى الذى اختاره على الشمال فى المسرح . . هو الذى يسعدنى فأنا أرى أناساً حقيقيين على المسرح . . وأرى قطرات عرق صادقة . . وأرى خوفاً وفزعاً وأرى وجوهاً تتوارى وراء الكواليس أعرفها . . أعرف مخاوفها أعرف عذابها . . أشفق عليها من الناس . . أشفق عليها من الخشونة والنعومة فى خشبة المسرح . . أعرف أن هذه الوجوه التى تبدو مرحة لكى تسعد الناس ، ليست كذلك بعيداً عن عيون الناس . . إننى أضحك مع الناس ولكن طعم المرارة لا يفارق فمى . . مرارة التعب والعرق والخوف والحرص على الاستمرار . . إنه لشىء رهيب أن يظهر الممثل على المسرح ولا يجد أحداً يتفرج عليه . . وشىء رهيب أن يظهر ويجد الألوف تتفرج عليه فالنجاح مخيف والفشل أيضاً .

إننى لا أنسى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه إلى مدينة الملاهى فشاهدت شيئاً نادراً : لقد سقط حصان فى الحوض فمات !

حادث عادى جداً من الممكن أن يقع . ولكن لا أعرف إن كان هناك أحد قد رأى هذا الحادث أكثر من مرة فى حياته .

فى تلك الليلة ، فى أول ليلة أشاهد فيها مدينة الملاهى فى حياتى وكان ذلك بعد أن تخرجت فى الجامعة وأصبحت ناقداً أدبياً لجريدة «الأساس» ومحرراً فى «روز اليوسف» رأيت هذا الحصان الفخم يصعد سلماً عالياً وكان هادئ الخطوات شامخا وكان الناس ينظرون إليه فى خوف واضح . وكنت أشد الناس خوفاً . وجاءت البطلة الإنجليزية وامتطت الحصان ووقفت بالحصان فى نهاية السلم . ثم هبطت وهى فوق الحصان فى الحوض المائى الكبير . . وقفزت السيدة وفى يدها الكرباج إلى خارج الحوض أما الحصان فلم ينهض . لقد ظل نائماً فى الحوض يئن ويتوجع وأنا أبكى . مع أننى لم أكن أعرف أن الحصان قد مات . ولم أكن أعرف أن هذه «النومة» غير طبيعية . ولكن بإحساس مباشر غريب بكيت عليه . على شبابه على فخامته على بطولة هذا الممثل الذى يصعد السلالم كل يوم ويقفز فى الهواء . ليصفق الناس للبطلة التى ركبته ويعود هو إلى الاصطبل مبللا مرهقاً .

كأى ممثل ، كأى كاتب . . كأى إنسان يراه الناس فى موقف بطولى . . هذه الدموع على الحصان قد اختفت من عينى .

ولكنها انتقلت إلى أعماقى . . بين الحين والحين أنقلها إلى قلمى لأذرفها على أحد . . وعلى نفسى كثيراً جداً . . فأنا كل يوم أصعد هذه السلالم وأغمض عينى ، وأسد أذنى . . حتى لا أرى حوض الماء وحتى لا أسمع مايقوله الناس . . وأجعل المرارة بعد ذلك صمغاً لشفتى !

ولا أزال أجلس فى نفس الكرسى الذى على الشمال . . أو فى كرسى قريب منه . . أحياناً أحس أننى أتمدد على كرسى من الفراء الناعم المريح . . وأحياناً أحس كأننى الفقير الهندى أتقلب على المسامير . . وأحياناً يغلبنى النوم .

وكثيراً ما تمنيت أن تطول جلستى ، وكثيراً ما تمنيت أن تبلعنى الأرض أنا ومقعدى وكل الكراسى التى على الشمال والتى على اليمين .

ولا أزال - وبمتعة - أحرص على أن أذهب لأتفرج على المسرح والسينما . . ففيها مجموعة من الفنون . . أرقى الفنون التى ابتدعها الإنسان . . الكلام والأداء والإخراج والصوت والموسيقى ، وفن الاستماع والنقد الذى يضىء ، والنقد الذى يضلل .

وفى كل ما أكتبه أحاول أن أحتفظ بمقعدى ، أحاول ألا أبرحه ، وأن أنقل مشاعرى إلى الذين مثلوا وكتبوا وأضاءوا وعبروا ، وإلى الذين تفرجوا ، وإلى الذين سيتفرجون .

ولا أقول إننى لم أتثاءب . . ولا أقول أننى لم أشعر بالملل . . لقد قاومت الملل . . مللى أنا ، وأحاول ألا يشغلك عن متابعة هذه السطور . . وهذه الصفحات . . وعن قراءة الصفحة الواحدة أكثر من مرة . . فأنا كثيراً ماعدت إلى مطالعة ومشاهدة المسرحية الواحدة عدة مرات . . والتفكير فيها من جوانب عديدة . . إننى أحمد الله على ذلك . . فهذا دليل على أننى لم أعرف الملل من البحث عن الحقيقة . . من بحثى عن الحقيقة !

وربما كان هذا التكرار هى عادة «المطرب» الذى فى داخلى . . فأنا أردد اللحن الذى يعجبنى كأننى أسمع من يقول لى : الله . . أعد . . أعد . .

مع أننى لا أسمع أحداً يقولها . . وإنما فقط أريد أن أطمئن على حبالى الصوتية !

حوائط بين الناس



أما أن ترى أو تموت !

بهذه العبارة لخص الأب بيير دى شاردان فلسفته فى الحياة . لأن حياة الانسان هى أن يرى ، أكثر وأوضح . وقد ظل الإنسان ألوف السنين يرى ويحاول أن يرى ، وأن يوسع مجاله البصرى ، وأن يجد له أبعاداً تحت الأرض أو تحت الماء أو فى الفضاء . .

وأهم من ذلك حاول أن يرى أبعاده هو وأعماقه هو . . وقد طالت نظرات الإنسان إلى نفسه حتى لم يعد يرى غيره فى الدنيا . لقد تحول العالم حوله إلى مرايا . . يرى فيها الإنسان نفسه . أو تحول العالم كله إلى صور وتماثيل للإنسان . فهو لا يرى إلى صورته وإلا همومه هو . وإلا طموحه هو .

فالإنسان هو الجهاز الوحيد لرصد حركات الإنسان . . ولرصد حركات الحيوانات والحشرات والكواكب والنجوم .

فالإنسان هو الذى يرى غيره ويرى نفسه . .

ولا توجد عندنا – حتى الآن – وسيلة أخرى لمعرفة العالم حولنا ، أو العالم فى داخلنا ، إلا عن عن طريق الإنسان .

وكل محاولة لخلق مجتمع إنسانى أكثر تماسكاً ، هى محاولة لزيادة المعرفة الإنسانية ، وتعميق العلاقات الإنسانية .

والمعرفة معناها أن ترى . . وتعميق المعرفة معناها أن ترى أعمق .

فالمعرفة هى الرؤية ، والعلم هو المعرفة المنتظمة ، أى الرؤية ذات الأبعاد المتماسكة الأطراف .

ولكى ترى أوضح يجب أن تضبط العدسة . . يجب أن تتأكد من سلامة بؤرة العين التى ترى بها . .

والعلم الحديث ليس إلا تطويراً فى صناعة العيون .

فالعدسات عيون . . العدسات المقربة والعدسات المكبرة . .

وقد انشغل الإنسان بالنظر إلى الخارج عن النظر إلى نفسه . . لأنه تعب من النظر إلى نفسه . .

ومعرفة الإنسان بالعالم البعيد الذى حوله ، جعله يشعر بأنه ضئيل بالقياس إلى العوالم الأخرى . . عوالم النجوم والكواكب وعوالم الحشرات والنبات . .

وجعله أيضاً يشعر بأنه رغم ضآلته فهو قادر على أن يعرف . . على أن يرى أبعد بملايين السنين الضوئية . . وأن يرى أصغر أجسام تقاس بجزء على عشرات الملايين من المليمتر . !

واتجه الإنسان إلى أن يرى العالم كأن الإنسان غير موجود . .

أى العالم فى غياب الإنسان نفسه .

أى العالم دون تدخل من عين انسانية ، كان كل شىء فى مكانه ، هادىء هدوء الجبال مضطرب كالبحر ، ملتهب كالنجوم . . سواء أكان هناك إنسان أم لم يكن !

وهذا هو العالم كما يراه الإنسان بالعين «المجردة» عن إنسانيته . . عن مخاوفه ومطامعه وغروره . .

وعندما أصبحت للإنسان هذه العين المجردة ، تقدم فى العلوم . .

ولكن بعينه غير المجردة ، أى بعينه المرتبطة بهواه ، ارتاد مجالات الفن والدين . .

والفارق بين الإنسان والحيوان هو : أن الحيوان ينظر ، ولكن الإنسان يرى . .

وعن طريق الرؤية يعرف الألوان والأشكال .

والإنسان عن طريق الرؤية أصبح يتحكم فى الحيوان وفى الإنسان أيضاً .

وعن طريق الرؤية إلى داخلة أصبح فناناً . .

وعن طريق الرؤية إلى خارجه أصبح عالماً . .

أن تماثيل الإغريق كانت بها عيون من زجاج . . عيون بلا حدقات . كأنها عيون مقلوبة تنظر إلى داخل النفس الإنسانية . .

مقلوبة . . سوادها فى الداخل وبياضها فى الخارج . ولذلك كانت عيون فلاسفة وشعراء . .

وتماثيل الرومان كانت لها عيون بلا حدقات . وفى داخل الحدقة يوجد ثقب . . كأنه عين أخرى . .

هذا الثقب هو «إنسان» العين . . هو «النني» . .

لقد كانت عيون الرومان مفتوحة على العالم الخارجى . . مرتين . . لأنها عين فى داخلها عين !

وقد انتقل هذا الثقب الصغير فى العين إلى كل شىء حول الإنسان . . لقد أصبح كل شىء مثقوبا . . كل شىء له عمق . . له أبعاد . .

وكانت هذه المحاولات لثقب العالم الخارجى ، هى بداية الحضارة الإنسانية بداية العلوم الوضعية . . أى العلوم التى تهتم بالأشياء الموضوعة هناك . . أى الموضوعة بعيدا عن الإنسان . . كأن الإنسان لا يراها . . أو كأنه يراها ولا يستطيع أن يغيرها أو التدخل فى حركتها ونموها . . وإنما هو «يصفها» فقط . . يصفها كما هى «موضوعة» أمام عينيه . .

والعين هى وسيلة الإنسان لأن يفكر وأن يعيش ، فهى المصباح وهى الضوء .

وفى اللغة - وكل لغة - تقول : رأى . . رؤية . . رؤيا . . وتراءى . . وارتأى . .

وتقول أيضا : نظر . . نظرية . . وانتظر . . واستنظر . . ومناظره . . ونظارة . . ونظير . .

وتقول : عين . وأعيان . . وعاين . وتعيين . وتعين عليه .

وكلمات أخرى كثيرة كلها مأخوذة من العين والرؤية والنظرة . .

والفيلسوف اشبنجلر يرى أن الإنسان تطور على بقية الحيوانات الأخرى بيديه . أو بحاسة اللمس . لأن أصابعه تختلف عن مناقير الطيور ومخالب الحيوانات

وزعانف السمك . . وتختلف عن أصابع يدى وقدمى القرد فأصابع الإنسان من الممكن أن تنثنى وأن تتقارب .

وعن طريق هذه الأصابع «تناول» الإنسان كل شىء حوله . . تناوله وتداوله . .

وإذا كانت العين - كما يقول اشبنجلر - هى التى كشفت لنا العالم المنظور . . أو العالم النظرى . .

فإن اليد ، وأصابع اليد ، وقدرة اليد على اللمس والملامسة ، قد كشفت لنا العالم اليدوى . . أو العالم العملى . .

وبالعين واليد معاً ، تكتمل الصورة النظرية واليدوية للإنسان . .

والإنسان لأنه قادر على أن يحرك أصابعه ، استطاع أن يصنع أدوات حياته . . فالإنسان هو الحيوان القادر على أن يصنع أدوات الحياة .

ليس لأنه قادر على تحريك أصابعه . .

ولكن لأنه قادر على أن يحرك أصابعه فى نور عينيه . .

وبغير العين تصبح حركاته فى الظلام . .

فإذا كانت اليد تصنع السفينة ، فإن صناعة السفينة شىء وعلم الملاحة شىء آخر . .

وصناعة أدوات الموسيقى شىء ، والعزف والتأليف الموسيقى شىء آخر . .

وصناعة الأدوات عمل يدوى . .

والملاحة والموسيقى علم نظرى . .

ولا علم بغير معرفة ولا معرفة بغير رؤية . . ولا رؤية بغير عين !

وأحسن نموذج لتصوير العين المجردة هى قصة «أخوات ليبيا» التى تحدثت عنها الأساطير الإغريقية ، فهى أسطورة ولكنها مليئة بالحقائق .

أخوات ليبيا لهن اسم آخر هو : أخوات الجورجون . . ثلاث أخوات لهن منظر قبيح جدا . الوجوه مستديرة والشعر على شكل حيات والأسنان بارزة . . واللسان يتدلى إلى الأمام .

ويقال أن لهن عينا واحدة يتداولنها ويرين بها . .

ويقال أيضا أن لهن عيونا عادية وأنيابا عادية ..

ويقال أيضاً أن إحدى بنات ليبيا واسمها ميدوزا قد ضبطتها الآلهة مينرفا فى حضن رجل فى أحد معابدها . وثارت مينرفا على هذه الإهانة . فحكمت على ميدوزا بالموت . بينما أختاها خالدتان . وجعلت كل من تنظر إليه ميدوزا هذه يتحول إلى حجر .

كل ما تقع عليه عينها يتحول إلى حجر ..

وبذلك تصبح حياة ميدوزا صخرية جافة جامدة .

فكل ما يقع عليه عينها هو تماثيل من بشر . أو حيوانات من حجر .. وبذلك تصبح وحيدة . فى مقبرة حجرية ليس فيها إنسان ولا حيوان .

ولم تكتف مينرفا بهذا بل قدرت أن تقضى على ميدوزا فأرسلت لها أحد الأبطال ليقتلها . وحذرته من أن تقع عينا ميدوزا عليه ..

وسلحته بمرآة أو بدرع شديد اللمعان . فإذا اتجهت إليه ميدوزا رأت نفسها فى المرآة فسوف تتحول إلى حجر !

وذهب صاحب المرآة ليقتل ميدوزا فوجدها نائمة وحولها جثث حجرية لكل من وقعت عيناها عليه ، وقطع عنق ميدوزا . وحمل هذا العنق إلى الآلهة ..

وحتى بعد أن ماتت ميدوزا فإن كل من ينظر إلى عينها يتحول إلى حجر .

وعندما تساقطت دماء ميدوزا تحولت هذه الدماء إلى ثعابين امتلأت بها صحراء ليبيا وكل أفريقيا .. تعابين تعيش فى الرمال وبين الصخور .. حيوانات تزحف على الحجر .

ميدوزا هذه هى نموذج للعين المجردة ..

للعين التى لم يعد لصاحبها قلب ولا عاطفة .. ككل عين فى رأس إنسان ليس فناناً ..

إنسان مجرد من العواطف الإنسانية ..

إنسان عالم ..

فالعلماء ينظرون إلى كل ما حولهم على أنها أشياء جامدة . . الحيوانات أشياء . . والناس أشياء . .

إن نظرة العلماء هى نظرة ميدوزا التى تحول كل شىء إلى حجر . . إلى جثث . .

إنها نظرة بقصد «تشيئ» العالم الخارجى . .

وبعد ذلك وزنه وقياس طوله وعرضه ودرجة حرارته ، ومعرفة ذبذبته ونوع الذرة التى يتكون منها ، وحساب طاقته . . إنه مجرد شىء !

وإذا كانت الأساطير تصف الجرجون بأنها ليست ثلاث أخوات فقط ، وإنما هى جنس آخر من النساء ، فإن كل العلماء ينتسبون إلى هذا الجنس !

ولا يمكن أيضا أن تكتمل صورة الإنسان إذا كان يرى بعين واحدة .

أو إذا كان الناس جميعاً يرون بعين واحدة هى عين العلماء . .

أو بعين واحدة هى عين الفنانين . .

ولكن بالاثنين معاً . . بالفن والعلم . .

وقد صور الأديب الألمانى هوفمان فى «أقاصيصه» أن ساحراً إيطاليا كان يضع منظاراً سحرياً على عين شاب . . فلا يكاد يلتفت الشاب حوله حتى يجد كل شىء جميلاً رائعاً . . لقد استطاع الساحر الإيطالى أن يجعله يراقص دمية من قماش وخشب على أنها أجمل فتاة فى الدنيا . .

أما السبب فهو المنظار الذى يضعه على عينيه . وعندما خلع المنظار بدت الدمية على حقيقتها . .

وهذا المنظار هو الفن والخيال . .

أما العين المجردة عن المنظار ، فهى عين العلم . . عين الجرجون . .

والصورة الكاملة ، هى عين من فن وعين من علم !

والعدالة عندما تضع عصابة على عينيها ، فإنها ترمز إلى أن القاضى يجب أن يكون مثل الجرجون . . كل ما يراه يتحول إلى شىء . . إلى حجر . . أى كأنه لم يعد إنسانا . . لا هو إنسان ، ولا الذى يحاكمه إنسان . .

فالعدالة لا ترى أحدا من الناس . . أى لا تفرق بين أحد من الناس .

والحقيقة أن العصابة الموضوعة فوق عينى العدالة ليست إلا حبلاً شنقت به إنسانية القاضى ، وإنسانية المتهمين أيضاً . .

فليست هذه العصابة فوق العين ، وإنما هى رمز لعصابة أخرى شنقت القلب وصلبت العواطف . . وأعدمت الإنسانية . .

ولم يكن غريباً من الرئيس لنكولن أن يقول فى خطابه الافتتاحى للبرلمان : أننى لا أرى أحداً . . إننى أرى بعيون الدستور . . أى إننى لا أرى أحدا !

فهو قد وضع العصابة حول عينيه هو ، وترك العدالة هى التى ترى والعدالة لا ترى ولا تفرق بين أحد من الناس !

إنه الجرجون أيضا يرتدى ملابس رجال القضاء ورجال العلم !

ومع ذلك فمن الصعب على القاضى أن يكون جرجونا إلى الأبد .

فالجرجون شكل للوظيفة الاجتماعية التى يقوم بها . .

وشكل لوظيفة العلماء أيضاً . .

وكثيراً ما ترك القاضى نصوص القانون وحكم بعين غير مجردة . . بعين إنسانية . .

وكثيراً ما أدرك العلماء أن علمهم ضد الإنسانية ، فنزعوا عيون الجورجون ونظروا إلى أنفسهم وإلى الإنسانية بعيون غير مجردة . . بعيون إنسانية . .

وإذا كانت النزاهة العلمية معناها أن يتنزه الإنسان عن الغرض . . فليس من النزاهة أن يتنزه الإنسان عن إنسانيته . .

وبذلك يصبح حجراً يتحكم فى الإنسان . . ويصبح حيواناً متوحشاً ، لا يحاكم الإنسان وأنما يقضى عليه !

* * *

لقد كان سارتر أروع من شرح «النظرة» . .

فأنا عندما أمشى فى حديقة ، أشعر بحرية لا نهائية . . كل شىء حولى أراه بوضوح : الأزهار والأشجار ، والرمل والظلط ، ولون الخشب والعصافير وهى حائرة

بين الأغصان . . وأحياناً أغمض عينى ثم أعاود فتحهما من جديد كأننى أريد أن أطمئن على العالم الذى حولى وعلى إن كان كل شىء فى مكانه . .

إننى أرى الألوان والأبعاد وأعرف القريب والبعيد . . والقصير والطويل والأوراق الذابلة والأوراق النضرة . وأميز بين العصافير والغربان والحمام . . عالم هائل الصفات والأشكال والأحجام والأبعاد . .

عالم كل ما يربطنى به أننى أنظر إليه . . أننى أراه . . أن كل شىء منظور . . كل شىء مرئى . .

أنا أنظر إذن فأنا موجود . .

فوجودى هو حريتى فى النظر إلى ما حولى . .

ولكن عندما يظهر إنسان فى هذه الحديقة . مجرد ظهور إنسان معناه تحديد لحريتى . لم أعد حرا . لم أعد أنا الحر الوحيد . لم أعد أنا الحرية . . فهناك إنسان آخر يستطيع أن ينظر ناحيتى . . أن ينظر إلى . . وأن أتحول أمام ناظريه إلى شىء . . إلى شجرة إلى حجرة . . إنه ينظر ناحيتى . . ينظر إلى ملابسى . . إلى وجهى . . إلى شعرى . . إلى جلستى . . ويحكم على بما يشاء . . وأنا لا أعرف ما الذى يقوله ، ولا أعرف أن كان يحكم لى أو يحكم على . . ولكن أحساسى بأننى لا أعرف ماذا يدور فى رأسه يقلقنى . يصيبنى بالحرج . . إنه قد سرق منى عالمى . . سرق منى حريتى .

لقد تحولت أنا أيضاً إلى شىء . .

وأصبحت كأية شجرة عاجزاً عن الدفاع عن نفسى . .

وفى قصة «وقف التنفيذ» لسارتر يقول دانيل :

ماذا يقول عن . . جبان . . يائس . . كأن الليل هو الآخر ينظر لى . . كأن النجوم عيون الليل . . أننى لم أعد أنظر إلى شىء . . إننى منظور . . كل شىء ينظر لى . . إننى شفاف . . إننى مشفوف . . ما الذى شفنى ، ما الذى جعلنى شفافاً ، لأننى لم أعد وحدى . . لم أعد وحدى» .

ويقول أيضا : أريد أن أطفىء العين التى فى داخلى ، لا أريد أن أرى نفسى أن عينى توجعنى . . تلهبنى . .»

وفى مسرحية «الذباب» لسارتر يقول الملك اجيست :

منذ توليت العرش وكل ما قلت وما فعلت كان بقصد أن أجعل لنفسى صورة . وأن يضع كل رعاياى هذه الصورة فى رءوسهم تحت جلودهم ، وأن يشعروا دائماً أننى أنظر إليهم . أراقبهم . أحاكمهم . وألا يشعر أى واحد منهم أنه بمفرده . بل أننى معه دائماً . أحاكمه على كل أفكاره على أكثر أفكاره خصوصية وسرية ، ولكنى وقعت فى المصيدة التى نصبتها للشعب . لقد أصبحت أرى نفسى تماماً كما يرانى الشعب ، إننى عندما أنظر فى أعماقهم القاتمة ، لا أجد إلا صورتى التى رسمتها بنفسى ، إننى ارتجف ، ولكنى لا أستطيع أن أرفع عينى عن هذه الصورة . . يا إلهى من أنا ؟ إننى لم أعد سوى خوف الناس منى !»

ويقول سارتر أيضاً فى كتابة عن الشاعر «بودلير» إنه كان يجد العيون تنظر إليه . كل العيون فى كل مكان . كل هذه العيون تحاكمه . ولكنه لا يعرف على أى أساس يحاكمونه . بمقتضى أى قانون . كل هذه العيون أدانته دون محاكمة وحاكمته دون قانون ولعنته ولم يعرف ما الذى قالوه . إنه كان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه!»

وعيون الآخرين . . ونظرات الآخرين هى أقسى درجات العذاب . .

إن مسرحية سارتر «جلسة سرية» ليست إلا جحيماً من نوع خاص . . فأشخاصها أناس فتحوا عيونهم ، بعضهم على بعض . . أصبحوا فى غاية الشفافية . . عراة الجسم والنفس . . فهم جميعا سجناء . كل واحد منهم سجن الآخر بين رموش عينيه . سجنه فى عينيه . لقد تناولوا النظرات . وتبادلوا السجن . وتحولوا جميعاً إلى أحجار بلا حياة . بلا إنسانية . . بلا حرية . .

كل واحد منهم أصبح مثل الجرجون . . النظرة الواحدة هى سلب للحرية أى سلب للوجود . .

ويقول سارتر أيضاً : مجرد النظرة معناه أن ثقباً كبيراً فى هذا العالم قد انفتح وأن هذا العالم بدأ يتسرب من هذا الثقب . .

والسبب هو أن الآخرين ينظرون لنا . .

والنظرة تنطوى على الخوف . . أى أن نظرات الآخرين تهددنا . تخيفنا وفى نفس الوقت تجعلنا نشعر بالخجل كأن الآخرين ضبطونا متلبسين بفعل شىء . . فالذى يرانى أنظر من ثقب الباب ، يصيبنى بالخجل . فقد ضبطنى أفعل شيئاً ، ضبطنى متلبساً . نظر إلى . وحكم على . وقال كلاماً كثيراً لم أسمعه .

فلا أملك إلا أن أجرى . . أتوارى . .

ولكى أدافع عن نفسى من عيون الآخرين . . ونظرات الآخرين يجب أن أنظر اليهم . أن أقاوم النظرة بنظرة أخرى . أن أقاوم تهديد حريتى بتهديد لحريات الآخرين .

إن الجورجون عندما كانوا يسلطون عليها المرايا ، كانوا يحاولون أن يبطلوا مفعولها . . فهم ينظرون إليها قبل أن تنظر إليهم . . يحجرونها قبل أن تحجرهم ينزعون منها حريتها ، قبل أن تقضى على حريتهم . .

وحواء عندما تغطت بورقة التوت . كانت تضع درعاً لوقايتها من عينى آدم . .

فقد أحست حواء فجأة أن رجلاً ينظر إليها . .

فتغطت . . وأحس آدم أن حواء تنظر إليه فتغطى هو الآخر . .

لقد شعرت بالعار من ارتكاب خطيئة . .

وشعر هو أيضاً بالعار نفسه . .

ولكن عار الاثنين أبدى بالنسبة إلى الله . فهما لا يستطيعان أن ينظرا إلى الله ، كما نظر إليهما . لا يستطيعان أن يتغلبا على شعورهما بالعار والخزى أمامه .

لقد ارتكبا حماقة فى الجنة . . وكان لابد من العقاب . وجاء العقاب هو شعورهما بالعار كل أمام الآخر . . ثم شعورهما بالعار الأبدى أمام الله . .

تماماً كما حدث لميدوزا بعد ذلك ، عندما ارتكبت حماقتها المعروفة فى المعبد فكان لابد أن تلقى أقسى درجات العقاب وكان عقابها هو النفى . . أى أن تصبح وحيدة فى العالم . . وأن تتأكد وحدتها نظرة بعد نظرة . فكلما رآها أحد من الناس مات فوراً . . أن تعيش وحدها وسط مقابر لا نهاية لها . . تقوم فيها بدور القاتل . . والحانوطى معاً ! بل أنها حانوطى العالم كله !

ونحن عندما تنظر إلى ما حولنا ، فإن هذه النظرة تتلون باهتمامنا نفسه . فأنت عندما تكون على موعد مع صديق . ويتأخر هذا الصديق فأنك تتطلع إلى وجوه الناس ، إلى الوجوه الشبيهة به . ولا يلفت نظرك إلا الملامح القريبة من ملامح الصديق . فكأنك قد طبعت صورته على عينيك . ولم تعد ترى سواها . . وتصبح كل هذه الوجوه بلا معنى بلا دلالة . . فقط يصبح لها معنى خاص عندما تقترب من ملامح هذا الصديق . . فكأنك بهذه النظرة «تجمد» كل الوجوه فى وجه واحد ، وكأنك أنت أيضاً تجعل العالم كله بلا معنى من أجل معنى واحد . وكأنك تريد أن تضع صورة الصديق على العالم كله فلا ترى سواه . . أو تراه فى كل مكان . .

والعلماء ينظرون إلى الدنيا نظرة خاصة . .

والفنان ورجل الدين والجندى والجاسوس والسياسى والتاجر والمومس والزنجى واليهودى . .

كل واحد يضع على عينه إطاراً واحداً . يرى الدنيا من خلاله . أو يرى الدنيا فيه . أو يراه هو الدنيا . بعض الوقت أو كل الوقت !

أن الكاتب الأمريكى لويس ممفورد فى كتابه «عن نشأة المدينة الحديثة ، يتحدث عن قصص «الديكاميرون» لبو كاتشيو . وهى عبارة عن مائة قصة قصيرة ترويها سبع نساء وثلاثة رجال فى عشرة أيام أمضوها فى ضواحى نابلى هربا من الطاعون . وكان ذلك فى منتصف القرن الرابع عشر .

وهذه القصص تعتبر من أروع الأعمال الأدبية فى العالم وتعتبر البدايات الحقيقية للقصة القصيرة المثيرة .

وكل ما لفت نظر الكاتب ممفورد هو أن الناس فى القرن الرابع عشر كانوا عندما يشعرون بالتعب ، فإنهم يهربون إلى الضواحى . ومن هنا ظهرت ضرورة الضاحية بالنسبة لسكان المدن !

هذا هو الذى استنتجه الكاتب من مائة قصة قصيرة . ولم يدرك أهمية هذه القصص وخطورة هذا العمل الفنى العظيم . ولكن انشغاله بالبحث عن نشأة الضواحى ، هذا الانشغال هو الذى جعله يرى فقط هذه العبارة ضمن عشرات

الألوف من العبارات! فقط هذه الجملة ، وكأن يوكاتشيو لم يكتب حرفاً واحداً ، وكأنه لم يكتب شعراً ولا نثراً ولا أحب ولا فشل فى حب ، ولا عاش ولا مات . . فقط هذه العبارة !

وجاء فى كتاب «الطب المصرى القديم» للدكتور حسن كمال أن هومير فى «الإلياذة» وصف ١٤٧ جرحاً من بينها ١٠٦ جرحاً من الحراب كانت نسبة الوفيات فيها ٨٠٪ و ١٧ جرحاً بالسيف انتهت كلها بالوفاة و ١٢ جرحاً من المنجنيق بلغت نسبة وفياتها ٦٦,٧٪ ولهذا أصبحت نسبة الوفيات من كل الإصابات ٧٧,٦٪ .

ومن المؤكد أن أحداً من الذين قرأوا الإلياذة أو الأوديسه لم يخطر على باله أن هناك أمراضاً أو جروحاً أو حتى يفكر فى أنواع الإصابات أو نسبتها المئوية !

ولكن هذه الأمراض هى التى تلفت عين الطبيب . وهى التى تجعله يمسك الورقة والقلم ويحسبها .

والنكتة التى تقال عن رجل رأى سفينة الفضاء التى ركبها جاجارين أول رائد فضاء فى التاريخ ، فقال : يا بختك . . أنت تعيش فى غرفة بمفردك !

مثل هذا الرجل لم يدرك بوضوح الانتصار العلمى العظيم الذى حققه العلماء . ولم يدرك الشجاعة النادرة التى يتصف بها جاجارين . . وانما كل الذى أثار اهتمامه هو أن إنساناً يعيش بمفرده فى سفينة . . أو فى غرفة! مثل هذا الرجل لا بد أنه مشغول بالبحث عن مسكن! وهو يرى الدنيا كلها من خلال هذا الاهتمام !

فالدنيا كلها عنده نوعان : أناس يجدون مسكناً وأناس لا يجدونه . .

وجاجارين هو أحد السعداء الذين حصلوا على مسكن خاص !

إنها النظرة الخاصة . . وهى أيضاً تجمد العالم كله . . فلا تجعلنا ندرك منه إلا ما يثير اهتمامنا . .

فكل إنسان له جانب خاص من العالم ينظر منه . . وينظر إليه . . وهو فى نفس الوقت يجعلنا ننظر إليه من زاويته هو . .

فالذى يهتم بالفلك لا ينظر إلا إلى النجوم والكواكب . . ولا يهتم إلا بها وهو فى نفس الوقت يجعلنا ننظر إليه فى هذا الجانب أو من هذا الجانب . .

وكلما حرص الإنسان على أن يرى الناس ، حرص فى نفس الوقت على أن يراه الناس . .

وكلما حرص الإنسان على أن ينظر أبعد وأعمق ، حرص أيضاً على أن ينظر إليه الناس أبعد وأعمق . .

* * *

والكاتب الفرنسى هنرى باربيس فى قصة «الجحيم» يصور لنا شخصاً لا نعرف اسمه من أول القصة إلى آخرها . نزل فى أحد الفنادق . وهذا الشخص لا هو سعيد ولا هو حزين . لا أحد يسعد به ولا أحد يحزن عليه . انه فى حاله . وحاله هذا ليس إلا وجوده فى غرفة . وإلى جوار هذه الغرفة غرفة أخرى كل يوم تستقبل نزيلاً جديداً . . وقد ذهبت به رغبته فى الاستطلاع إلى درجة أن يقف فوق سريره وينظر من ثقب فى أعلى الحائط إلى ما يجرى فى داخل الغرفة المجاورة . إنه ينظر دون أن يراه أحد . إنه يمارس حريته دون أن يتهدده أحد بالنظر إليه . وفى إحدى المرات رأى خادمة تسوى الفراش وتقلب فى خطاب وتقرأ الخطاب . وتقبله . لا بد أن يكون هذا الخطاب من صديق . ويستحيل أن يكون هذا الخطاب من أحد أقاربها ، فالأقارب لا يبعثون عادة بخطابات تستحق القبلات . . وبعد ذلك يرى النساء والرجال من فوق السرير . . وأحياناً يتخيل كأنه يراهم ويعانقهم . . أى أنه يتخيل أن يراهم . . كأن واحداً آخر ينظر إليه . . وتنتهى قصة عذاب هذا الشخص الوحيد الحزين الذى يغمره الندم والوحدة فى كل مكان بأن يلتقى بأديب معروف مشغول بقصة طويلة . ويسأله الناس عن هذه القصة . وتكون المفاجأة أن هذا الأديب يقرأ على الحاضرين قصة رجل كان ينظر من فوق سرير إلى الغرفة المجاورة عن طريق فتحة فى الحائط !

ليس بطل قصة «الجحيم» فقط هو الذى ينظر من خلال فتحة فى الحائط فكل إنسان له حائط . أمامه . وحائط وراءه . وكل إنسان يحرص على أن يجعل فتحة للحائط . ضيقة أو واسعة . قريبة أو بعيدة . كل الوقت أو بعض الوقت . . أو يحاول أن يتسلق الحائط . . أو يهدم الحائط . . أو يبنى حائطاً آخر . . أو يتفرج من فتحة فى حائط على شخص آخر يتفرج على فتحة من حائط آخر . . !

* * *

وفى الجزء السادس من كتاب سارتر «مواقف» يتحدث عن الصين . ويسخر من فهم الفرنسيين للصين . فهم لا يعرفون الصين إلا عن طريق المعلومات التى يرويها التجار والبحارة ثم السياح . . والبومات الصور المشهورة . فماذا يقول هؤلاء الناس عن أهل الصين . . إنهم يتحدثون عن ألوانهم الصفراء وعيونهم المنحرفة وأطعمتهم وعن البيض الفاسد الذى يأكلونه وعن طريقة حلاقة الشعر عندهم . .

ومعلومات أخرى عن الصين . . لا علاقة لها بالصين . وإنما هى «صورة» عن الصين . وليست هى الصين ولا الشعب الصينى . فالفرنسيون يختلفون عن أبناء الصين . ولكن هل اختلاف أربعين مليون فرنسى عن ٧٠٠ مليون صينى . تعنى أن الحق إلى جانب الفرنسيين . هل يعنى هذا أن أسلوب الفرنسيين فى حياتهم وفى أفكارهم هو الأسلوب السوى ، وأن الصينيين منحرفون كعيونهم !

إن الفرنسيين لا يعرفون الصين وإنما فقط يعرفون «صورة» عن الصين . . صورة عابرة مهزوزة . وهم يتصرفون مع أبناء الصين ، لا وفقاً للحقيقة ولكن وفقاً لهذه الصورة . ثم هم يطلبون من أبناء الصين أن يقربوا من الصورة . أن يطابقوا الصورة بدلاً من أن يتعب الفرنسيون - وغيرهم - ولو قليلاً فى الاقتراب من أصل الصورة . . من الصينى ومن الصين !

فالناس لا يرون ، وإذا رأوا فهم يرون من خلال اهتمامات . . من خلال عيون الآخرين . .

إنها مرة أخرى عيون الجورجون . .

ثلاث أخوات يرين بعين واحدة . . تبادلن العين . . تماماً كما يتبادل الفرنسيون عيناً واحدة لرجل سافر إلى الصين وينظرون بعينه . .

* * *

ولقد حاول الكاتب السويسرى ماكس فريش فى قصته الأخيرة التى عنوانها «ليكن اسمى جانتبين» أن يصور هذا المعنى فجعل بطل قصته وهو جانتبين رجلاً يدعى بأنه أعمى ويعيش فى عالم كله يراه ويفهمه ، ولكنه مصر على أن يكون أعمى لكى يرى بحرية . وتزوج هذا الرجل من ممثلة حسناء على علاقة بعدد كبير من الرجال ، وأنجبت له طفلاً وهذا الطفل مشكوك فيه طبعاً . وتردد مع زوجته فى

كل الأماكن التى تذهب إليها السيدات . . محلات التجميل وصالونات الحلاقة . . ورأى نساء عاريات . . ولم يشعر أحد بحرج أمامه لأ نه أعمى . . ورأى الرجال وهم يعاكسون زوجته . . رأى عالماً آخر لأنه أعمى !

فلأنه أعمى يفتح له المجتمع كل الأبواب . . فالأبواب مفتوحة للعميان . . ولكن هذا الأعمى استطاع أن يرى ما لا يراه غيره من المبصرين . .

لأن المبصرين يرون من خلال صور . . من خلال صور جاهزة . . ومن ضمن هذه الصور : أن الأعمى لا يرى أى شىء . . وأنه لا ضرر من أن يكون الأعمى فى كل مكان . . وأن المبصرين يرون كل شىء . .

وقد استطاع شخص واحد أن يخدع عشرات الأشخاص . . أن يجعلهم جميعاً من العميان ، وأن يكون هو وحده المبصر . .

وقبل ذلك حاول ماكس فريش أن يناقش «الصور» الجاهزة التى يتداولها المجتمع . أو النظرات الثابتة التى تتجمد عندها عيون الناس . فتناول فى مسرحية له اسمها «أندورا» – وهو اسم استعارة من أمارة صغيرة على حدود أسبانيا وفرنسا . ولكن لا علاقة لها بالمسرحية .

وفى هذه المسرحية رأينا شخصاً اسمه اندرى . وهذا الشخص يقال أنه لقيط ويهودى وأن أحد المدرسين قد تبناه . ويعامله المجتمع على أنه لقيط – مثلاً – أى أنه إنسان لا خير فيه . إنسان يحب الفلوس . . إنسان بلا قيم . . إنسان خائن بطبعه . . انتهازى . . وكل هذه صفات جاهزة موجودة فى المجتمع وفى انتظار أى لقيط ، فلا يكاد يظهر حتى تلتصق به هذه الصفات . ويحب هذا الشاب ابنة المدرس الذى تبناه ويتفقان على الزواج . ويحدث عدوان على دولة أندروا وتجرى محاكمات لأمثال هذا الشاب . وفى هذه الأثناء تجىء أم هذا الشاب وتؤكد للناس أنه ابنها . أى أنه ابن المدرس وأخو الفتاة التى يحبها ويجىء القسيس ويؤكد له أنه ابن شرعى وأنه مسيحى . . ولكن هذا الشاب يرفض إلا أن يكون كما يراه الناس : لقد رأوه لقيطاً . وقد حرموه من دخول الكنيسة فسيكون كما يراه الناس . لن يكون جباناً كوالده الذى لم يعترف به أول الأمر والذى لم يستطيع أن يصارح الناس بأنه ابنه . .

وتنتهى المسرحية بإصرار هذا الشاب على أن يكون تماماً كما أراده الناس أى تنطبق عليه كل الصفات الجامدة . كل القوالب الجامدة . . كل الصور التى تعلقت على جدران المجتمع . ورغم أن الناس قد اعتذروا له الواحد بعد الآخر على سوء فهمهم له . إلا أنه أصر على أن يظل دليلاً قاطعاً على سخافة الناس . . وعلى ضيق آفاق الناس . . وعلى أن الناس لا يرون بوضوح . . وإنما يرون من خلال فتحات ضيقة . . هذه الفتحات قد توارثوها . . وظلوا ملتصقين بها . ولم يحاولوا أن يسدوها أو يوسعوها أو يغيروها أو يناقشوها . . لم يحاولوا . . وإنما ظل الناس ضحايا نظراتهم الجامدة نظراتهم الجرجونية . .

* * *

إن الكاتب الأمريكى «فانس باكار» فى كتابه «الأقناع الخفى» وهو من أجمل الكتب التى تكشف عقلية المواطن العادى فى أمريكا ، يصور لنا كيف يفكر المواطن الأمريكى . . أو بعبارة أصح كيف يفكر «المستهلك» الأمريكى وهو يهتم بالمواطن الأمريكى باعتباره مستهلكاً . ان المستهلك الأمريكى خاضع لحملات من الدعاية القوية الذكية والشريرة أيضا . .

أن الشركات فى أمريكا تستخدم كل الوسائل للتأثير على المستهلك بالسينما والتليفزيون والإذاعة والصحف . . إن هذه الشركات تختار له كل الوسائل التى تؤثر عليه . . والتى تجعله فى نفس الوقت عاجزاً عن الاختيار . . إن كل الشركات تستخدم علماء النفس وعلماء النفس الجنائى ، والخبراء فى الألوان والأذواق ، وعلماء فى دراسة الشعوب ، وعلماء فى الاجتماع . . كل هؤلاء العلماء لهم مهمة واحدة هى أن يمسحوا السوق ، وأن يتصلوا بالمستهلكين وأن يعرفوا أذواقهم وأن يعرفوا رغباتهم . وبعد ذلك يفكرون فى أحسن الوسائل للتسلل إلى المستهلكين . .

وكل سلعة لها شعار خاص . . وهذا الشعار على شكل حكمة . أو على شكل نكتة . ومكتوب بشكل خاص .

والإعلانات فى التليفزيون وفى السينما وفى الصحف وفى الشوارع وفى صناديق البريد وفى كل ورقة يلمسها أى مستهلك ، وعلى سيارته وعلى القلم الذى يمسكه كلها لا تترك له فرصة لكى يفكر . . بل تجعله عاجزاً عن التفكير . . فلا يملك إلا أن

يترك غيره يفكر له . . غيره يرى له - أى أن مهمة هذه الشركات هى أن تصنع العيون التى تريدها . وتثبتها فى مكانها من رأس المستهلكين . .

إنها نفس لعبة أخوات الجورجون . . تبادل العين الواحدة . . واحدة فقط ترى والباقيات ينتظرن ليجىء دورهن فى الرؤية . . فإذا جاء الدور كانت العين صناعية . . عيناً من نوع خاص . . لا ترى إلا ما يعجب الشركات . .

تماماً كما حدث عندما كنا نشاهد الأفلام البارزة . كان لا بد أن يوزعوا علينا نظارات من نوع خاص على باب السينما . وتضع هذه النظارات على العين . وبها وحدها نستطيع أن نرى الشاشة ذات أبعاد . . نرى الكرة على الشاشة وهى تكاد تسقط فى صالة السينما . .

فإذا نزعنا المنظار الذى وزعوه علينا . . أصبحت المناظر المعروضة أمامنا عادية جدا . .

ويقول «فانس باكار» فى كتابة عن الإعلانات والشعارات التى تستخدمها شركات السيارات مثلاً : لا تنس أن كل هذه الصفات الخاصة بالسيارات ، هى فى نفس الوقت صفات خاصة بمن يشتريها قبل أن يشتريها وبعد أن يشتريها وهذه الصفات قد اختارها الخبراء . . خبراء العيون الصناعية التى يضعونها فى رءوس المستهلكين دون أن يشعر مستهلك واحد بذلك . فإذا شعر فلا وقت عنده للتفكير!

مثلا . . مثلا . .

كاديلاك : متكبرة . . باهرة . . . لرجل الأعمال الذى فى منتصف العمر . . أبهة . . وتدل على أنه من ذوى الدخل الكبير . . تدل على المسئولية .

فورد : سرعة شيطانية . . لذوى الدخل الممتاز . . للشباب وهى واثقة من نفسها . . لكل الطبقات . . عملية .

دى سوتو : محافظة . . مسئولية . . تدل على السيادة . . الطبقة المتوسطة . . معتدة بنفسها . . وتدل على صاحب الدخل الممتاز . .

ستودبيكر : نظيفة . . مدللة . . مثقفة . . رشيقة . . للمحترفين . . والشباب . .

بونتياك : تدل على الاستقرار النفسى . . فى منتصف الطريق . . للمتزوجة . . والأم والوفاء . . ومحافظة . . ومشغولة . .

مر كورى : تاجر . . واثق من نفسه . . مودرن . . أب . . سريع . . متفائل . . وكل إنسان يلمس فى نفسه أية رغبة فى أن يكون مسئولاً . . أو هو بالفعل . مسئول فإنه يختار السيارة التى تناسبه . . والشاب يختار السيارة التى تناسبه والمرأة والأم كذلك . .

إن هذه الشركات قد اختارت الصفات التى تعجب الناس . . ثم أطلقت هذه الصفات على السيارة نفسها . . فالسيارة هى التى تختار الزبون . .

والسيارة هى التى تختار طبقته ومركزه وحالته النفسية . .

وشركات السيارات وغيرها هى التى اختارت النظرة . . هى التى اختارت الزاوية . . واختارت العين التى ينظر بها المستهلك الى العالم الخارجى . . واقنعت هؤلاء المستهلكين بأنه لا شىء يدل على شخصيتهم قدر اختيارهم لهذه السيارات وغيرها من السلع الموجودة فى الأسواق :

ويقول المؤلف الأمريكى أيضاً : أن الخبراء لاحظوا أن أكثر الناس تعصباً لنوع معين من السجائر لا يستطيع أن يفرق بين سيجارته هذه وبين أية سيجارة من أى صنف آخر . . لو أعطيت له سيجارة فى الظلام . . أو أعطيت له مادة سجائر أخرى غير التى يدخنها . .

ومع ذلك يتمسك بسيجارته رغم أنه لا يفرق بينها وبين أى نوع آخر !

أنها النافذة التى وضعته أمامه شركات السجائر والسيارات . . إنها العين التى ركبت له دون أن يدرى . . إنها القوالب التى انحشرت فيها أفكاره سراً . !

وعندما يشعر المستهلك بعجزه أمام هذه الإعلانات الكثيرة ، وأمام هذا السيل الهائل من الكلام والصور والإدعاءات والصرخات ، فإنه يتوقف عن التفكير . . يستسلم ويبحث عن الشىء الذى يريحه . . يختار أسهل شىء . . أو يختار أكثر الأشياء إقناعاً له . .

ولما كان عاجزاً عن المناقشة ، فإنه يتعكز على أية عبارة . . فإنه يختار أية نظارة . . أية عين ينظر بها ومنها .

فالإنسان مهما يكن عاجزاً فإنه لابد أن يرى . . لابد أن يرى بنفسه أو بغيره . . بعينه أو بعيون الآخرين . . !

* * *



وشىء غريب حدث فى المسرح أيضاً . .

ثقوب عديدة واسعة حدثت فى الحائط الرابع للمسرح . .فمن المفروض أن الممثلين يظهرون أمامنا وكأنهم لا يشعرون بوجودنا . . مفروض أن هناك حائطاً فاصلاً . هذا الحائط من تصورنا ومن افتراض الممثلين . نحن اتفقنا قبل أن ندخل المسرح ، وعندما جلسنا فيه ، على أن هناك حائطا فاصلاً بيننا وبين الممثلين . . كأننا نتفرج على أناس سراً . . وكأنهم منعزلون عنا لا يدرون بنا . .

حائط من البلاستيك . . حائط فاصل وفى نفس الوقت ليس فاصلاً . . حائط نايلون . . يفصل ولا يفصل . .

ومضى على المسرح ألوف السنين والحائط فى مكانه . . بين الممثلين والمتفرجين . . نحن نراهم . ومفروض أنهم لا يروننا . . نحن لنا عيون . . وهم بلا عيون . . تماماً كالتماثيل الإغريقية ذات العيون الزجاجية . . فقط عيون ولكن بلا حدقات .

ولكن مع الرؤية الحديثة . . ومع توسيع مجالات الرؤية فى العلوم والآداب والفنون . . ومع إشاعة البلاستيك فى البناء والنايلون فى الأزياء كان لابد أن نضع للممثلين عيوناً يرون بها . . يرون بها ألوف الناس الذين يتفرجون عليهم . .

لم يعد الممثلون يتلصصون على المتفرجين . .

لم يعد المتفرجون فى مأمن من نظرات الممثلين . .

فمن الممكن أن ينظر الممثل إلى المتفرجين وهم جالسون . . ويتابع دخولهم وجلوسهم . ثم يتخذ موقفه التقليدى «ويمثل» . . أى وينعزل ويقف مستنداً على الحائط الشفاف بيننا وبينه ، إنه فى أول الأمر يقف أمام الحائط أو يخترقه . . ويحرص على ذلك ، ثم يعود إلى الاختفاء وراءه . .

لقد انتقلت العيون إلى الممثلين . .

أن مسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» لبيراندللو قد مزقت الحائط الفاصل بين الممثلين والمتفرجين . لقد دخل الممثلون من الصالة وكأنهم ليسوا ممثلين . . وإنما كأنهم أناس أخطأوا طريقهم إلى مكان آخر غير المسرح . . ولكن ظهورهم على المسرح واندماجهم فى الدور ، وتحريكهم فى الإطار الذى وضعه

المؤلف يجعلنا ندرك فورا أنهم عادوا من جديد إلى الوقوف وراء الحائط الفاصل بين الممثلين والمتفرجين .

إن مسرحية «بلدتنا» لثورنتون وايلدر التى ظهرت من أربعين عاماً يتحدث فيها الممثل للجمهور . بل إنه يقف أمام المسرح ينتظر المتفرجين حتى يجلس آخر واحد منهم . وينظر إليه ويتابعه . كأنه ليس ممثلا . وكأن الحائط لا وجود له . .

أن الممثل يرى . .

هذا شىء جديد . . فى حين أن الممثل عادة يرى داخل المسرح فقط . ولكنه لا يرى الصالة .

ثم يعاود الحديث إلى الجمهور . . أى يعاود النظر إليهم . .

ومسرحية «اللعب الزجاجية» لتنسى وليامز يقف فيها الممثل يتحدث أيضا إلى الجمهور . . ثم يدخل ضمن الممثلين . . أى أنه يرى . . يرانا . . ثم يغمض عينه عن المتفرجين . .

وفى مسرحية «الزنوج» للكاتب الفرنسى جان جنيه يؤكد أن هذه المسرحية ليست إلا محاكمة للرجل الأبيض . ويجب أن يشعر المتفرج الأبيض بأنه فى محكمة . فالمسرحية كتبها رجل أبيض للبيض . فإذا فرضنا أن المتفرجين لم يكن من بينهم رجل أبيض واحد . . يجب أن يأتى المخرج برجل أبيض وأن يستقبله بحفاوة خاصة . وأن يسلط الضوء عليه أثناء فرض المسرحية . . لأن الممثلين جميعاً يمثلون له وأمامه وضده . فإذا رفض أى إنسان أبيض أن يقوم بهذا الدور ، فعلى المخرج أن يأتى برجل أسود وأن يضع على وجهه قناعاً أبيض وأن يتلقاه بالحفاوة وأن تركز عليه الأضواء . فإذا رفض رجل أسود أن يقوم بهذا الدور ، فعلى المخرج أن يأتى بدمية بيضاء وأن يحتفى بها وأن يسلط عليها الأضواء . .

ومعنى ذلك أن الحائط الرابع لم يسقط فقط وانما انتقل الممثلون إلى الصالة . . أو أن الحائط الرابع قد إلتف حول المسرح كله . .

فالممثلون ليست لهم عيون فقط يرون بها المتفرجين . . بل إن الممثل له عين يرى بها الممثلين أيضاً ويرى بها المتفرجين وهم يتفرجون على الممثلين ويرى الممثلين وهم يتفرجون على المتفرجين . . وفى استطاعة هذا الأبيض الجالس فى الصالة أن

يدخن هو وحده . . وأن يقلب فى صحيفة . . وأن يشرب القهوة . . وأن يظهر كل أنواع عدم الاكتراث للمحاكمة التى تجرى أمامه . . وتجرى عليه . .

ومسرحية «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» . . بلا ستارة . . لا ستارة ترتفع ولا ستارة تهبط . . وإنما الجمهور يدخل فيجد نفسه أمام مسرح مفتوح . . أو يجد نفسه مباشرة وقد اهتم بالمسرح . . وقد رأى . . أو وهو «منظور» من الممثلين فليس هو الناظر الوحيد . . وإنما الممثلون هم المتفرجون . .

ومسرحية «بلدتنا» بلا ستارة . .

ومسرحية «بعد السقوط» لآرثر ميللر بلا ستارة . .

لقد سقط الحائط الرابع . . بين الممثل والمتفرج . . أو بين المؤلف وبين المتفرج . . إنه المؤلف يقترب من القارىء والمتفرج . .

فالمؤلف يكتب للناس عن الناس . . يكتب للناس عن أنفسهم . . وهو ليس فى حاجة إلى أن يكون أبعد ليكون أوضح . . وإنما هو فى حاجة لأن يكون أقرب . . فهو قريب إلى نفسه . . وهو قريب إليهم . . فهو صادق مع نفسه ، ولذلك فهو صادق مع الناس . .

* * *

وكل محاولة للاقتراب من إنسان ، هى محاولة للتسلل وراء «حائطه الرابع» محاولة لرؤيته بلا تمثيل . . لرؤيته على حقيقته .

وكل لقاء مع كاتب . . مع فنان عن طريق الحياة معه أو فى أعماله الفنية ، هى محاولة لتوسيع فتحة فى الحائط الرابع . . وهى تحويل للحائط الرابع إلى جدار شفاف . .

والفن ليس إلا نوعاً من الاعتراف . . أى نوعاً من إزالة الحائط الرابع بين الفنان وبين الناس ، فيحدثهم عن نفسه . . بلا تحفظ . . بلا حواجز . . سواء نشر الفنان اعترافاته وهو حى . . أو نشرها بعد وفاته . .

فإذا نشر الفنان اعترافاته وهو حى ، كان معنى ذلك أنه لا يخشى أن يصارح الناس . .

فإذا نظر إليه الناس ، نظر إليهم أيضاً . .

وإذا رآه الناس عارياً ، واجههم . . فهو قد استعد لهذه اللحظة ولهذه المواجهة . .

وإذا نشر اعترافاته بعد وفاته ، فمعنى ذلك أنه لم يقو على مواجهة الناس . . لم يقو على نظرات الناس ، إنه فضل أن يفقأ عينه حتى لايراهم أن يموت . . ومعنى موت الفنان قبل أن ينشر اعترافاته ، أنه قرر أن يحرم الناس من متعة إلصاق العار به . . إنه فوت على الناس لذة تعذيبه . .

فنشر اعترافاته بعد موته . .

وأنا قد نشرت اعترافات في عدة كتب : البقية فى حياتي . . شارع التنهدات . . عذاب هذا الكاتب . . إلا قليلاً . . وفى عشرات الكتب أيضاً .

والفيلسوف سارتر نشر كتابه «كلمات» وهى اعترافات . . أو ترجمة حياته . .

ونشرت «سيمون دى بوفوار» اعترافاتها في «مذكرات فتاة متزنة» وفى «قوة الأشياء» وفى «قوة العمر» وفى «وفاة هادئة جداً» . .

ونشر أندريه مالرو الجزء الأول من ذكرياته بعنوان «لاذكريات» . . أما الأجزاء الثلاثة الباقية فسوف تنشر بعد وفاته! .

نشر العقاد (فى بيتى) .

وطه حسين (الأيام) . .

ونشر توفيق الحكيم «سجن العمر» . .

ونشر زكى نجيب محمود «قصة نفس» . .

وقبل ذلك نشر أندريه جيد «يومياته» . .

ونشرت ماريا بشكرتشيف «مذاكراتها» . .

وروسو نشر «اعترافات» . .

والقديس أغسطين نشر «اعترافات»

وأنا قد نشرت اعترافاتى فى عدة كتب هى : البقية فى حياتى . . وشارع التنهدات . . وإلا قليلاً وأحزان هذا الكتاب وفى عشرات الكتب غيرها .

ولكنها محاولات لرفع الحائط الرابع بين الكاتب والقارىء . . وبين الكاتب ونفسه . .

ولا يزال أمل الفنان أن يرفع الحائط الفاصل بينه وبين الناس . . وبينه وبين الأشياء . . ليرى أوضح وأعمق وأبعد . . وليحاول أن يربط بين مفردات الكون كله . .

وأهم من ذلك كله وأصعب هو أن يحاول الإنسان أن يرى نفسه أوضح . . فلا يزال هو مركز الرؤية . ومصدر الرؤية ، ووسيلة الرؤية . والغاية من الرؤية . .

أن يرى الإنسان غيره وأن يرى نفسه . . هذا هو كل العلم وكل الفن . . والغاية من كل علم ومن كل فن . .

والإنسان يحاول أن يمسح العدسة التى يرى بها وأن يضبطها . . وأن يغيرها . .

فليس العلم الحديث أو العلم فى كل عصر إلا تطويراً لصناعة العدسات أو لصناعات العيون التى ننظر بها إلى غيرنا . . وإلى أنفسنا . .

* * *

ولا تزال أعز آمال الإنسان أن تسقط كل الحوائط . .

بين الناس . .

وبين الأشياء . .

لا حائط رابع ولا ثالث ولا أى حائط ولا أى عائق . .

انه أمل يتراءى للإنسان . .

ويحاول أن يراه أوضح وأصدق وأعمق . .

هنا . . فى هذه الصفحات ، أو فى أية صفحات أخرى ظهرت أو سوف تظهر !



ليس وداعًا ياملل

ما معنى

أن يولد العفن فى تفاحه ؟

معناه أن يولد الموت فى أحلى كفن ، وفى أجمل نعشا . . ومعناه أننا نحـمل الموت مـعنا فى كل خـلايانا . . فكل خليـة هى نقط انطلاق العزرائيل . . فما أكثر ملايين النقط التى يختفى فيها الموت فى أجسامنا ، وفى حياتنا كلها !

ولكـن فى حـيـاتنا شىء آخـر ، ليس هو الموت ، ولكنه نوع من عـدم الشـعـور بالموت . . ولا بالحياة أيضاً !

شىء ناعم الملمس . . يسرى فى أجسامنا كأنه خدر . . كأنه ملايين النمل .

إنه يحول أيدينا وأرجلنا إلى أكـيـاس من النايلون مـحـشـوة بملايين الملايين من ذرات الرمل . . أو النمل .

وهذا الشعور «بالتنميل» أو «بالترمل» . . أى الذى يجعلنا كالنمل أو كالرمل ، هو الذى نسميه بالملل . .

والذى يشعر بالملل ليس هو الذى لايرغب فى الحياة . .

وليس هو الذى لايرغب فى الموت .

لأن الذى لا يرغب فى الحـيـاة ، يرغب فى الموت . . والذى لايرغب فى الموت يرغب فى الحياة . . فكلاهما يرغب فى شىء . . ولكن الذى يمل أو الذى يتـململ هو انسان لايرغب حتى فى الرغبة .

فالذى عنده ملل يشعر أنه ليس على صلة بالواقع . . إنه منعزل . . إنه معزول . . إنه منقطع . . إنه مقطوع . . وإنه لاتوجد لديه وسيلة للاتصال بالعالم الخارجى .

كأن هذا الإنسان المملول - إذا صح التعبير - بلا يدين ولا رجلين .. لا توجد عنده أطراف للاتصال بالدنيا حوله .

أو بعبارة أخرى : إنه يشعر بأن الواقع نفسه بعيد عنه .. كأنه ينظر إليه من العدسة الصغيرة فى النظارة المعظمة .. فكل شىء على مسافة منه .. والمسافة بعيدة ووسيلة المواصلات صعبة .. أو لا توجد وسيلة للمواصلات .

فالإنسان إنسان فى حالة عجز عن الاتصال بالغير أو أنه إنسان عنده إحساس بأن الآخرين عاجزون عن الاتصال به ، ومعنى ذلك أن هناك نقصاً فيه هو ، أو نقصاً فى الواقع . وأن هذا النقص جعله «قعيداً» جعله جامداً فى مكانه ، ربطه بمقعده ومسمر مقعده فى الأرض ، كلما اقتربنا من الواقع ابتعد عنا ، وكلما اقترب الواقع منا ابتعدنا عنه ، أو شعرنا بأننا بعيدون عنه .

أن تنتالوس البطل اليونانى هو أحسن نموذج لحالة العجز . فقد حكمت عليه آلهة اليونان بأن يتعذب إلى الأبد .. فقد وضعوه فى بحيرة من الماء العذب .. وكلما ارتفع الماء إلى شفتيه ، وحاول الانحناء وهو تحت أشعة الشمس انحسر الماء إلى قدميه ، فإذا اعتدل فى وقفته ارتفع الماء مرة أخرى ، فإذا حاول أن يبلل شفتيه انحسر الماء .. وهكذا إلى الأبد .

وحكمت عليه الآلهية أيضاً أن يتعلق بشجرة تفاح ، وكلما مد يده إلى تفاحة ابتعدت التفاحة .. فإذا عادت ذراعة اقتربت التفاحة ، وإذا حاول أن يختطف التفاحة تباعدت عنه .. وهكذا إلى الأبد ..

وحكمت عليه الآلهة بأن يجلس عند مدخل أحد الكهوف .. وفى لحظة ينهار حجر فوقه ويمس شعره دون أن يصيبه فإذا وقف ارتفع الحجر فإذا جلس هبط الحجر .. وهكذا ، يبقى تنتالوس فى حالة خوف أبدى .

ولكن تنتالوس لم يمل ، إنه كان يعلم أن هذا الحكم أبدى ، ولكنه لم يستسلم لهذا الحكم ، فقد ظل يعلو ويهبط ، ويمد شفتيه ويمد يديه ويرفع عنقه .. كأن هناك أدنى أمل أن يذوق الماء أو يتذوق التفاح أو يزول الخوف .

إن عيب تنتالوس إنه لا يعرف الملل . لقد كان عاجزاً ولكنه لم يكن عاجزاً تماماً .. فالتكرار لم يحطم إرادته ولم يحول أعصابه إلى عضلات ، لم يحول

عضلاته إلى ملايين النمل ، إلى ذرات رمل ، لم يكن هو كيسا من النايلون ملقى على الأرض .

إن تنتالوس بطل لأن جسمه لم يعرف العجز ، ولأن نفسه لم تعرف الملل .

إن الشاعر الإنجليزى مارلو قد كتب لنا فى مسرحية «الدكتور فاوستوس» هذا الحوار بين الطبيب فاوست وبين الشيطان مفيستو فليس :

فاوستوس : قل لى من هو إبليس ؟

مفيستوفليس : إنه قائد الأرواح .

- لم يكن ملاكاً قبل ذلك ؟

- بل كان أحب الملائكة إلى الله .

- إذن كيف أصبح بعد ذلك أميراً للأشرار ؟

- بالغرور والوقاحة .

- وأنتم تعيشون معه ؟

- نحن الأرواح الشقية التى سقطت معه وتآمرنا على الله معه . فلعننا إلى الأبد .

- وأين تعيشون ؟

- فى جهنم .

- ولكنك لست فى جهنم ؟!

- هل الذى أحس برحمة الله وعرف السعادة الأبدية فى السماء ، ثم هو الآن محروم منها . . ألا ترى أن هذا أسوأ من جهنم ألف مرة !

إن هذا الشيطان على حق ، فهو يعانى عذابا أقسى من عذاب جهنم ولكن هذا الشيطان لم يفقد الأمل . إنه لايزال يدرك الفارق بين النعيم والجحيم إنه لايزال يتحسر على هذا الذى راح ، إنه لايزال يشعر بأنه أخطأ وأنه نادم على مافعل .

ولذلك رأينا الكاتب الإيطالى بابينى فى كتابه عن «الشيطان» يعتقد أن إبليس والشياطين جميعاً سيدخلون الجنة يوم القيامة ، لأنهم ندموا بما فيه الكفاية ، ولأنهم

تعذبوا بما فيه الكفاية . . ولأن لديهم أملا فى رحمة الله ، فلا يمكن أن تقف رحمة الله دون الشياطين فرحمة الله لاحدود لها ، وهى لذلك للإنسان وللشيطان .

فهو يرى أن الشياطين ، لم تفقد الأمل ، وهى لم تفقد الأمل ، لأنها لم تعرف الملل . . لأنها لم تمل من اليأس . لم تمل الجحيم لأن الجحيم المستمر لم يفقدها الشعور به ، والشعور بغيره . . أى الشعور بالنار وبالجنة !

فالإنسان «المملول» هو الإنسان الذى مل الأمل ومل اليأس . . وهو قد مل كل شىء ، لأن كل شىء لايصل إليه ، لأن كل شىء أقصر من أن يناله وهو أقصر من أن ينال أى شىء . . وكل شىء أقصر من أن يتطاول إليه !

تماماً كما نضع على أجسامنا لحافا قصيرا . . إذا سحبناه على أقدامنا تعرت رءوسنا ، وإذا غطينا به رءوسنا تعرت أقدامنا .

فالواقع لايعطينا . . لايكفينا . . ولذلك فنحن نمله . . نحس بمرارته على شفاهنا ، أو نحس به كالصمغ على أجسامنا . . إنه يقرفنا لذلك لانمد أيدينا إليه . أو نحن الذين نقرفه ، فهو لايمتد إلينا !

والفيلسوف الوجودى ياسبرز يقول : إن العلاقة التى تربطنى بمن حولى هى أننى على صلة ما بالذين حولى . ولابد أن تكون هناك صلة والإنسان لايستطيع أن يعيش بمفرده .

ولذلك فالذى يعيش بمفرده . أى بغير أن تكون له صلة بالآخرين هو : إما إله . . أو حيوان . .

فالله ليس فى حاجة إلى أحد . ولذلك ليس على صلة بأحد لأنه قائم بنفسه .

والحيوان يستطيع أن يعيش بمفرده . لأنه عاجز عن الإحساس بغيره أو حتى الإحساس بنفسه . . ولكن الإنسان يستطيع أن يعيش أيضاً بمفرده عندما يكون فى حالة ملل .

فهو يصبح معزولاً عن غيره ، كأنه ليس فى حاجة إلى أحد . . . كأنه إله . . أو كأنه لايشعر لا بغيره ولا بنفسه كأنه حيوان !

والملل يشبه إلى حد كبير انقطاع التيار الكهربى . . فانقطاع النور الكهربى يجعلنا نرى الدنيا التى حولنا فى حالتين متناقضتين . . فعندما يضئ الغرفة مثلا ، نرى كل شئ بوضوح . . المكتب والمصباح والمقاعد . . وفى الظلام تغرق هذه الموجودات فى حالة من العدم المؤقت . . كل شىء فى مكانه وبلونه وبحجمه . . وعندما ينطفئ المصباح يختفى . . فالملل يشبه حالتنا عندما ينطفئ النور . . إن الملل ليس هو الظلام الذى يبتلع كل ما فى الغرفة ، ولكنه الشعور باختفاء كل ما فى الغرفة . . الملل ليس هو الاختفاء نفسه ، ولكنه شعورنا باختفاء شىء .

والملل يشبه أيضاً انقطاع الماء الساخن ونحن نستحم . . فقبل انقطاع الماء نشعر بالدفء والانتعاش ونحس كان الماء يقوم بتدليك عضلاتنا وأعصابنا ، يغسل متاعبنا . ويلقى بها مع الصابون فى البالوعة فلا يكون لهذا كله ألا صوت غريب . . صوت الماء وهو يتمشى فى البالوعة .

وعندما ينقطع الماء نشعر بضياع الدفء ، ونشعر بالبرودة . .

فانقطاع الماء ليس هو الملل لكن شعورنا بأن الدفء قد انقطع . . بأن بالوعة أخرى قد انفتحت وابتلعت شيئاً حاراً مريحاً كان يغمرنا ، هذا هو الملل .

***

وهذا الملل أيضاً الذى يصيبنا يجعلنا أقل تذوقا للدنيا . . يجعل طعمها على اللسان غريباً . . ويجعل ألوانها فى العين غريبة ، ورنينها فى الأذن غريباً ، وملمسها فى اليد غريبة أيضاً .

فالملل هو الذى يجعل ما حولنا غريباً . . أو يجعلنا نحن غرباء فى هذا العالم . .

فالشعور بالغرابة ، والشعور بالغربة ، الشعور بالاغتراب هو بداية الملل .

فالملل يجعل العين تأنف من الرؤية ، ويجعل الأذن تعاف الاستماع ويجعل أيدينا فى حالة غثيان من لمس كل ماحولنا .

ويحس الإنسان كأن مرضاً أصاب الدنيا . . إنها بدأت تذوى وتجف وتتساقط . .

أن الملل هو إعلان خطير ببداية الخريف والشتاء فى عز الربيع .

هذا المرض الذى أصابنى وانتقلت عدواه إلى كل ماحولى هو الملل .

فأنا فى حالة الملل ، لا أعرف بالضبط إن كنت أنا المرض أو أنا المريض . ولا أعرف إن كنت المريض الذى انتقلت عدواه إلى غيره أو أنا الضحية لمرض الآخرين!

والملل كالمرض ، من الممكن أن يصيبنى دون أن أشعر به . . وليس معنى عدم شعورى بالملل ، إننى لست فى حالة ملل . فمن الممكن أن يشكو الإنسان من أوجاع فى ركبته دون أن يعرف أن سبب هذه الشكوى هو تسويس فى أسنانه . . أو يشكو من الصداع دون أن يعرف أن سبب الصداع هو ضغط الدم . أو إلتهاب فى المصران الغليظ .

إن الكثيرين من متاعب الأطفال والمراهقين سببها أنهم يشكون من السأم أو الزهق . . فالذى يشكو منه الطفل الصغير عندما يحطم أدوات البيت ولا يقنع بالتوجيه من أمه أو أبيه ليس مللاً ، ولكنه نوع من الملل . إنه الزهق . . فهو ليس أكثر من رغبة فى تغيير شىء . . ليس أكثر من رغبة فى أن يجدد صلاته البسيطة بالعالم الذى حوله .

أما الذى يصيب الكبار ، الذين تعددت صلاتهم بالعالم ، وتعبوا من حياتهم ، واتعبوا حياتهم أيضاً ، فليس زهقا ، ولكنه شىء أعمق : إنه الملل .

هذا الإحساس الذى يجعلنا نجد صعوبة فى أن نتصل بغيرنا . . وأن تصل إلى غيرنا أنظارنا ، لأن وسيلة المواصلات أو الاتصال بالغير هى اللغة ، هذا الإحساس هو الملل فى أعلى درجاته . فاللغة عاجزة واللغة مربوطة بسلاسل اسمها المنطق ، أو قواعد العقل . . حتى هذه السلاسل لا تربط اللغة ، إنها تخنقها . إذن فالعقل هو خانق اللغة . . وعلى ذلك فأية لغة عقلية هى لغة مخنوقة وأى معنى تنقله هو جثة معنى .

ولذلك فوسائل الاتصال بالغير ميتة . . فالإنسان حى ، ولكن مواصلاته ميتة . . إنها جثث ألفاظ ، وقبور معان ، وعفن فكرى .

ومن هنا ظهرت كل الاتجاهات الأدبية والفنية التى تقول : إن كل شىء ممل . . كل شىء سخيف لا معنى له . وإذا كان له معنى فالمعنى تافه . . فلا معنى لشىء ، ولا طعم ولافائدة من الكلام عن شىء .

ولم يقل أدباء اللامعقول أو أدباء العبث غير أن الحياة مملة ، وإنها عبث أى بلا عقل ، أى أنها موجودة بلا مبرر . فلا مبرر لوجودى أو لوجودك . . أو للوجود كله !

وعندما صدرت قصة «الملل» لأديب إيطاليا البرتو مورافيا استقبلها الناس بشىء من الفتور . واعتبر المؤلف أن هذا الاستقبال هو أعظم تحية له ولقصته الطويلة .

فكأن الناس قد قابلوا الملل بالملل .

كأنهم وضعوا على وجوههم الأقنعة المملة ، التى تناسب رواية تتحدث بمتعة عن حياة لامتعة فيها .

وبعد هذه الرواية ظهرت فى إيطاليا أفلام تتحدث عن الملل . . عن مدينة روما - وكل عاصمة أخرى - التى تتثاءب وتتلوى فى كسل . . إنها تتثاءب فيفتح الناس بيوتهم ، ويخرجون كأنهم مغص تتلوى به شوارع روما . . إنها تلفظ ساكنيها فى قرف يومى مستمر .

وكل العواصم تتثاءب . وكل سكان العواصم فى قرف . . ومعظم المدن أصبحت تقلد العواصم . ولذلك فالعالم يعيش فى عصر الملل .

وقد حاول مورافيا فى قصته «الملل» أن يفسر لنا فلسفة الملل . . وكيف أن هذه الفكرة قد ملأت حياته . وكيف أنه حاول التخلص منها بالتفكير فيها . . أى بالنظر إليها من بعيد . . أى بالتسامى عليها .

ومورافيا يؤكد لنا أن هذه مجرد فكرة خطرت له ، وإن وقته لم يتسع لدراستها . . أو أن وقته يتسع ولكنه مل التفكير فى الملل .

فهو يقول لنا أن أول آية فى الكتاب المقدس تنص على : أنه فى البدء خلق الله السماوات والأرض . .

وأنه شعر بالملل .

وبعد ذلك خلق آدم وحواء .

وآدم وحواء شعرا بالملل فى الجنة فارتكبا أول خطيئة . . ثم أنهما قد ملأ الحياة على الأرض ، فارتكب أحد أبنائهما أول جريمة . فقتل قابيل أخاه هابيل .

ونوح عندما نزل إلى الأرض مل الحياة عليها فاخترع النبيذ . . . وجاءت الإمبراطوريات القديمة الواحدة بعد الأخرى . . إمبراطورية مصر ، وبابل ، والإغريق ، والرومان .

ومن الوثنية خرجت المسيحية . . ومن الكاثوليكية خرجت البروتستانتية .

ومن الملل من أوربا ظهرت أمريكا .

ومن الملل من الكرة الأرضية ظهرت الأقمار الصناعية .

ومن الملل من الإقطاع اشتعلت الثورة الفرنسية . .

والملل من الرأسمالية أدى إلى قيام الثورة الروسية . .

ومن الملل من المثالية ظهرت الشيوعية . .

ومن الملل من الشيوعية ظهرت الوجودية .

ومن الملل من المثالية والمادية والوجودية ظهر اتجاهات اللامعقول فى المسرح وفى الشعر وفى الرسم . . فى أوربا وفى أمريكا وأخيرا فى العالم العربى .

ولا بد أن تنتهى موجة اللامعقول بشىء جديد معقول جداً . . أو أكثر تطرفاً فى العقل والمنطق . أى لابد أن يظهر شىء معقول جدا بشكل غير معقول . أى لا بد أن يعقل - أى يربط - العقل نفسه .

وليست جرائم الأفراد إلا بسبب الملل الذى أصاب المجتمع . . .

وليست الحروب إلا بسبب الملل الذى أصاب الشعوب .

فكما أن المجتمع يريد أن يتسلى . . يريد أن يفيق من ملله فهو يستدرج أفراده إلى إطلاق النار ، واسالة الدماء . فالمجتمع يلطم نفسه بيده لكى يصحو .

لقد كان الشاعر الألمانى شيلر عندما يغلبه النوم من التعب ، يضع مصباحاً قريباً من وجهه . فكلما غلبه النوم قرب رأسه من النار فيصحو . . فهو يوقظ نفسه بالنار .

وكذلك الشعوب توقظ نفسها بالنار . . توقظ نفسها بأن تحرق أفرادها ، مئات الألوف من أفرادها ، حتى لايروح الباقون ضحية الملل . . ضحية شعور يأكل كل شعور آخر . . ضحية سوس يتسلل إلينا ويأكلنا من داخلنا . . ضحية شىء غريب يدخلنا فيحولنا إلى قبور له . .

فكل ميكروب يتسلل إلى جسمى ، إلى دمى ، يصيبنى بمرض . . وهو فى الوقت نفسه يعمل على تحويلى من كائن حى إلى مقبرة لكائن حى . . إلى مقبرة لى . . إلى إنسان لايحمل ملابسه وانما يحمل كفنه . . إلى إنسان يمشى فى جنازة نفسه . . إلى إنسان هو الميت وهو النعش وهو المشيعون وهو المقبرة أيضاً . .

هذا الحيوان الغريب ، الذى يتسلل إلى داخلى هو الملل . . فالشعوب بدلاً من أن تقتل الملل تقتل الألوف من أبنائها . . تقطع رجلها بيدها ، تقطع رقابها بعقلها . . تحرق الملل بالنار . . وتغرقه فى الدم .

وقد كان الرومان يطلقون الوحوش على المساجين . . . ويتفرجون عليهم بنفس الحماس الذى يتفرج به الأسبان على مصارعة الثيران . . ويتفرج به أبناء أندونيسيا على مصارعة الديوك . . ويتفرج به اليابانيون على المصارعة اليابانية . . لقد كان الرومان يعانون من الملل .

فلابد أن يقتلوا الملل . . ولابد أن تكون هناك دماء حية . . دماء حيوانات أو دماء بشر .

والملك شهريار فى «ألف ليلة وليلة» كانت تروى له شهرزاد قصة كل يوم . . وكانت قصصها مسلية .

فقط مائة وعشرون قصة على مدى ألف ليلة وليلة . . ولكنها لاتستطيع أن تروى كل يوم قصة . . وحتى لو استطاعت فكيف يستطيع إنسان واحد أن يسمع من امرأة واحدة ألف قصة . . إن القصة قد تكون مثيرة . . ولكن كيف تكون امرأة واحدة مثيرة دائماً .

وإذا كانت المرأة مثيرة ، فكيف يكون الرجل هو نفسه مستمتعاً طول الوقت؟ . كيف لايملها ؟ كيف لا تمله ! .

ولذلك أنا لا أعتقد أن ألف ليلة وليلة بدأت عندما قتل الملك شهريار زوجته لأنه وجدها فى حضن أحد عبيده .

أنا أعتقد أن شهريار كان يجب أن يقتل شهر زاد . . بعد أن أكملت القصة الأولى بعد الألف .

فمقتل شهر زاد . . بعد أن أكملت القصة الأولى بعد الألف هو البداية الحقيقية لقصة ألف ليلة وليلة . . فليس من المعقول أن يقبل رجل واحد قصة واحدة مسلسلة من امرأة واحدة .

وإذا كان الملك شهريار لم يقتل شهر زاد فى النهاية . . أو لم تقتله شهر زاد فى النهاية . . فسبب ذلك إنهما لم يعرفا الملل .

بل إن مؤلفى ألف ليلة وليلة لم يعرفوا الملل . . ولو عرف المؤلفون الملل ، لقتلوا شهريار أو شهر زاد .

أما نحن الذين نعانى الملل ، فلابد من أن نبدأ قصة شهر زاد بأن يقتلها الملك فى النهاية .

وأنا أعتقد أن شهر زاد عندما كانت تتثاءب فى نهاية كل ليلة ، لم يكن هذا التثاؤب نفسياً . . أو فلسفياً . . إنه تثاؤب جسدى . . إنها متعبة فقط . . هى متعبة أو المؤلف هو الذى تعب . .

ولابد من إنهاء هذه الحلقة واستئنافها فى اليوم التالى .

فالتثاؤب فى الف ليلة مضبوط مع صياح الديك .

حتى الديك لم يعرف الملل !

ولكن ألا توجد وسيلة للخلاص من الملل ؟

هل الملل قد أصبح كلون البشرة ، لايمكن أن يزول إلا بزول صاحب البشرة ! .

هل الملل أصبح كالبقع الموجودة فى جلد النمر . . لا أمل فى غسلها ؟

أيوجد هناك أمل ؟

هذا الملل يدل على أننا لم نمل بما فيه الكفاية . . أو على أن هناك نوعاً من المسام . . من الفتحات الصغيرة فى الكيس النايلون الذى اسمه الملل .

***

حتى البرتومورافيا عندما ضاق بالملل ، راح يفكر . . تماماً كما فعل نوح قبل أن تغرق الدنيا . . لقد صنع سفينة من الخشب ، والسفينة عبارة عن ألواح خشبية هذه الألواح موضوعة بعضها إلى جوار بعض . أن هناك فكرة فى رأس نوح ، وهذه الفكرة تجسدت على شكل سفينة .

وهذه السفينة ، أو هذه الفكرة الخشبية ، هى التى أنقذت نوح من الطوفان .

والطوفان الحديث اسمه الملل . .

ونوح الجديد اسمه الحب . .

فالحب هو الذى يصنع السفينة . .

هو الذى يضم غصناً جافاً إلى جوار غصن جاف ويبنى فوقها بيتاً . . هذا البيت العائم هو السفينة .

وقد كانت سفينة نوح تضم كل أنواع الحيوانات والبذور . . لقد كانت السفينة دنيا صغيرة .

ففى مواجهة الطوفان والضياع ، يجب أن نصنع دنيا صغيرة . . هذه الدنيا يجب أن نحيطها بأنفسنا . . أو نجعل هذه الدنيا هى أنفسنا . . فنحن الدنيا . . نحن دنيا أنفسنا . . نحن غاية لأنفسنا . . نحن الوسيلة الوحيدة لأسعاد أنفسنا وإنعاش أنفسنا أيضاً .

فكما نبنى السفينة ، تكون رحلتنا عبر الطوفان .

إن الطريقة الوحيدة للهرب من الملل ، أن نتخلص من مللنا هى أن نحب . . هى أن نجدد صلاتنا بالعالم الخارجى . . هى أن نحس أن هناك صلة . . وأن كل شىء فى متناولنا . . وأن كل ما فى الدنيا هو عبارة عن يد ممدودة لتصافحنا . . إن كل ما فى الدنيا شفاه فى انتظار تقبيلنا لها . . فالفرار من الملل هو أن نفكر فى الملل .

والتفكير فى الملل هو محاولة للتسلل فى داخل جدرانه الناعمة . . وإذا تسللنا فى داخل جدرانه الناعمة . . وإذا تسللنا إلى أعماق الملل ووسعنا هذه الفتحة . . وأصبحت هذه الفتحة هى البالوعة التى يتسرب منها الرمل والنمل . من داخل الكيس النايلون الذى هو أجسامنا ونفوسنا .

إن أروع ماقاله إنسان فى علاج الملل ، هو ما أنشده الشاعر الألمانى ريلكه فهو يتغنى بقوله :

- قل لى ياشاعر ما الذى تفعله فى هذه الدنيا ؟

- إننى أحبها !

- وهذه الأشياء الكريهة الشريرة ، كيف تحتملها ، وكيف تقبلها ؟

- إننى أحبها ؟

- وهذه الأشياء التى لا اسم لها ولا معنى لها ، كيف تختار أسماءها ومدلولاتها ؟

- إننى أحبها !

- وهذه النجوم البعيدة الهائلة وهذه القوى الصامتة المخيفة فى هذا الكون كيف تعرف طريقها إليك ؟

- إننى أحبها ! . .

***

لأنه يحبها . .

لأنه يجدد الصلة بها . .

لأنه يجعل الصلة تتحول إلى وشائج حارة خفاقة . .

لأنه جعل للدنيا قلبين يخفقان فى وقت واحد . . لأنهما يؤديان لحناً واحداً . . ورغم أنه متكرر . . إلا أنه تكرار لا يولد الملل .

إنه كلمعان النجوم . . متكرر . . كدقات القلب متكررة . . ولكن عن طريق هذه الدقات المتكررة تنبع أكثر العواطف اختلافاً . . وأكثر العواطف التهاباً وقدرة على إنتاج أجمل وأعمق وأبقى ما صنع الإنسان ! .

فأنا أحب . . وأنت تحب . . وشهريار الملك يحب . إذن : لا أنا ولا أنت ولا هو سنعرف الملل ! .

ولكن هل الحب وحده يكفى ؟

ربما . . .



توفيق الحكيم شاعراً

مـن أربعين سنة كـان توفـيق الحكيم فى باريس . يمشى فى الشوارع ولا أحد يعرف إن كان ذاهلاً مذهولاً . كما يفعل الآن . طبعاً لم تكن له عصا . ولا فى فى رقبته كرافتة من جلد الثعبان . ولا فى جيبه قلم لصديق مات . ولايعتمد على سيارة أحد لايصاله إلى البيت . . ولم يكن معروفاً عند أحد . أو لأحد . كان يدخل المتاحف فى باريس . يرى اللوفر . ويخرج بلا مـعنى واضح من مـشـاهدة لوحـات بيكاسـو وبراك . ولم تكن لموسـيـقى استرافنسكى أى معنى عنده . وكان عندما يعود إلى بيته يكتب كلمات متقاربة ثم يمزق الورق نصفين . . ويجعل من كل نصف شطرة بيتاً . . ومن هذه الأنصاف قصيدة . ولا يستطيع أن يعرضها على أحد . ولا يستطيع أن يبعث بها إلى القاهرة . فقد كانت القاهرة مشغولة بمعركة الشعر المعروفة بين شوقى والعقاد . أو الشعر التقليدى والشعر الرومانسى . والكلام المنظوم أو النثر الموزون الذى كان يكتبه توفيق الحكيم لنفسه . لا يمكن أن يسميه شعراً . . ولا يستطيع . . فى حين كانت أوروبا تسميه شعراً وتنشره وتقوم المظاهرات من أجله . .

لقد قامت مظاهرات فى الشوارع من أجل الشاعر أندريه بريتون . . وفى المظاهرات استخدم الأدباء البيض والطماطم . وفى إحدى الندوات ضربوا الشعراء بلحم الأبقار . وكـان من حكمة توفيق الحكيم أن أحتفظ بالقصائد التى نظمها فيما بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٢٧ سراً . ولم ينشرها إلا هذه الأيام . ثم عثر توفيق الحكيم على حكمة

لنشرها . فقد رأى فيها البذور الأولى للمسرحيات اللامعقولة التى نشرها بعد ذلك : ياطالع الشجرة . . ورحلة صيد . . ورحلة قطار . . والطعام لكل فم .

ومعنى ذلك أن هذه البذور التى أسقطتها فى أعماقه الاتجاهات السريالية فى الآداب والفن والموسيقى ، ظلت فى مكانها . . ولم تنبت هذه البذور وتثمر إلا بعد أربعين عاماً . .

فهى بذور فى ربيع العمر ، ولم تزهر وتثمر إلا فى خريف العمر . .

وقد وضع توفيق الحكيم هذه القصائد - وهو يرفض أن يسمى نفسه شاعراً - مع مسرحيتى : رحلة صيد ورحلة قطار فى كتاب واحد بعنوان : رحلة الربيع والخريف .

وقد أثار توفيق الحكيم الأدب الحديث بمسرحياته اللا معقولة . . وهو حريص على أن يحتفظ لها باسم «اللامعقول» وإن كان بعد مشاهدته لها على المسرح وفى التليفزيون يؤكد أنها معقولة . ويخشى الحكيم أن يسميها مسرحيات «عبثية» . . لأن مسرحيات العبث أساسها أن الوجود لا معنى له . وأن الحياة بلا قيمة . فكل شيء عبث . لا معنى ولاهدف . وإنما ضياع فى ضياع . . والحكيم يرى أن فى مسرحياته معانى عميقة . . وإنه ليس من الضرورى أبداً أن نفهم هذه المعانى . أو أن يفهمها هو . فهو يعبر تلقائياً عن مشاعر فى أعماقه . وهى كما تخرج من نفسه يضعها فى الإطار المسرحى . . ولابد من الإطار التقليدى . مهما كانت هذه المسرحيات لاتقليدية !

وبهذه القصائد التى استلهم شكلها من القرآن حيث الآيات منظومة ومنثورة . يكتمل كل شيء لتوفيق الحكيم فهو قد كتب القصة القصيرة . والرواية والمسرحية التقليدية . والمسرحيات اللا معقولة . والشعر السريالى . . أو هذه البقع الشعورية واللاشعورية .

وتوفيق الحكيم يربط بين مغامراته وهو شاب ومغامراته وهو شيخ . فهو فى شبابه مغامر شجاع يريد أن يعرف . وهو شيخ يريد أن يتحرك . . يخشى أن يجمد . . إنه لايريد أن يكتب فى إطار واحد لايخرج منه . إنه يخشى أن يعتاد على شكل واحد . فهو هارب من هذا الجمود . ولذلك يجدد نفسه . . يطور فنه .

والذى يتصور توفيق الحكيم وقد ارتدى قمصان رعاة البقر . وعلى القميص بقرة وشجرة . والبقرة فوق الشجرة . وفى فم البقرة ملعقة . ثم يجد فى عنق البقرة ورقة مكتوباً عليها : ولدت فى مكان كذا وهدية إلى حديقة الحيوان من فلان . ثم يجد للشجرة رقماً . كما يفعلون فى الهند . . ثم يندهش لهذه الشجرة وهذه الألوان لقمصان رعاة البقر التى اختارها توفيق الحكيم لنفسه - إنه إذن لايعرف توفيق الحكيم !

فتوفيق الحكيم يتجدد ويسبق كل من حوله من شبان الفن وشيوخه . . وبسرعة يرتبط بالإطارات الفنية الجديدة . .

والحقيقة أن توفيق الحكيم مشغول بفنه . . يريد أن يطوره أن يجدده . . وتوفيق الحكيم أكثر الأدباء تطوراً وتجدداً . وهو يجدد نفسه . . ويغامر ويعرف . وهو يفتح الطريق أمام غيره من الأدباء . . ويوسع الآفاق . ولكنه فى الوقت نفسه يخشى عليهم من الفتنة ومن الضياع ومن أن يكون ارتداء القمصان الملونة هو كل هدفهم . كما حدث عندما ظهرت أعمال فنية لبعض الشبان . . أما توفيق الحكيم فيرفض أن يسمى المسرحيات أو الأعمال الأدبية التى جرفها التيار .

فتوفيق الحكيم لم يلبس القميص ذا الأبقار حباً فى التقاليع . فعنده عشرات البدل والقمصان المحترمة والوقورة أيضاً : فأعماله الأدبية جادة وعميقة . وهى أعمال فنية . فالمسرح اللامعقول هو تجديد فى مسرحه التقليدى الذى عرفناه . فهو فنان وقادر . وهو يجدد نفسه بعقل . ولذلك فعقله يمسكه الآن . ويعيده إلى الخط القديم الذى سار به وسار عليه . . فلن يكتب توفيق الحكيم مسرحيات لا معقولة . ويرى من واجبه أن يحول التيار الأدبى الذى جرف الشبان إلى مهاوى اللامعقول وغياهب العبث !

وتوفيق الحكيم مندفع بعقل . وضال بهدف . ولا معقول بحساب . . ولذلك ففى درج مكتبه دراسة واضحة لخطواته . وبيان دقيق لتاريخ حياته . ومبررات ومسوغات وحيثيات الحكم لصالح توفيق الحكيم . .

***

وأنا أنقل لك هذه البقع الشعورية . واللاشعورية وأنت حر فى تسميتها شعراً أو نثراً وأن تختار لها المعنى والعنوان الذى يعجبك :

«عملة صفراء من ذهب ذهبت . .

فى مثل برقة العين هوت

وعلى رخام الأرض الأحمر تدحرجت بصوت حلو الرنين

وفى ثقب اختفت

قالت الخادمة الوقحة بابتسامة صفراء : لا أمل . . دعنى أمسح الرخام ثم جعلت تطلى بالأحمر شفتيها»

وأنا لا أتعجل المقصود من هذه القصيدة . إن توفيق الحكيم قد نظمها أو نثرها وتركها كما هى أربعين عاماً . . لقد نثرها أو نظمها يوم نشرت الصحف الفرنسية قصيدة للشاعر اليوار يقول فيها :

امرأة عشت معها . . امرأة أعيش معها ، امرأة سأعيش معها نفس الحياة . . لابد أن تجعل رداءك من اجلها أحمر . وقفازك أحمر . وقناعك أحمر ، وجواربك سوداء . . ان صدرها هو قلبى !

ويوم نشر الشاعر بريتون قصيدة أخرى يقول فيها :

«ديك الصخور تحول إلى كريستال . . الرمال الفوسفورية هى ساعة متأخرة فى نصف الليل بين أحضان امرأة منسية . . والشمس قلب ممزق على اليتامى وعلى المجد المبلل بالندى والعار والجوع تحت قدمى بقرة مسروقة .»

ولكى أساعدك على فهم قصيدة توفيق الحكيم أطلب إليك أن تلاحظ الألوان . والبقع اللونية فى الذهب والابتسامة والرخام ثم عليك أن تختار المعنى الذى تحس به . فهى مجموعة من الانطباعات اللاشعورية سجلها الفنان . لحظة احساسه بها .

أنا لا أعرف أى عنوان اختاره لها ولا توفيق الحكيم اختار لها عنواناً . وعندما سألته عن معناها وعن عنوانها . فكر طويلا . واسترجع مادار فى عقله أو فى أعماق لاشعوره . وراح يقلب بذورها فى صمته . ثم جعل عنوانها : قبلة .

القاف مضمومة طبعاً . وعلى ذلك فالرخام الأحمر هو الشفاه . . والباقى ليس من الصعب عليك أن تهتدى إلى معناه . وإن كان توفيق الحكيم لايرى ان الاهتداء إلى معنى واحد ليس شيئاً مهماً !

ومنظومة أو منثورة أخرى لتوفيق الحكيم تقول :

تنفس صبح من أنوف خيول

تركض لاهثة فى وهاد نفسى

أسمع فى أعماقى الصهيل

امنعوها من لحاق بنفسى

والمعنى الذى يقصده توفيق الحكيم لايمكن أن تهتدى إليه بسهولة ولكن فهمت من توفيق الحكيم أن هذه القصيدة يمكن أن يكون عنوانها .

ومعناها أيضاً هو محاولة للنسيان . . أو «محاولة لدفن الماضى» . . وقصائد أخرى أوضح وربما أجمل . .

وفى مسرحيتى «رحلة صيد» و «رحلة قطار» يؤكد توفيق الحكيم أن الألوان والبقع اللونية التى قد طفت على المسرحيتين لدرجة أنه يمكن أن نقول عن الدرجات اللونية ، إنها هى البلبلة الحقيقية لكل من المسرحيتين .

وفى ختام مقدمة «رحلة الربيع والخريف» يقول : فمهما يكن من أمر ، فإن المهم هنا الآن ، إنما هو مجرد أن حقبتين تفصل بينهما أعوام طوال ، لتعرف إلى أى حد تختبئ البذرة فينا وتنام . ثم تصحو وتظهر فى أعمال وأشكال مختلفة على مدى العمر ومراحل الفكر» .

والحقيقة أن البذرة لا تصحو ولا تنام . وإنما الذى ينام ويصحو وينهض فى سرية وشباب ومغارمة هو توفيق الحكيم نفسه . . أكثر الأدباء تجدداً وأكثرهم تطلعاً وانطلاقاً وأثبتهم قدماً على كل طريق جديد .

أن القميص الأحمر المطبوع بلون البقر ليس شيئاً يرتديه الحكيم على جلده . . إنه هو بشرته . . إنه هو الذى ينمو ويتطور وهو الذى يسحب التيار الأدبى ويحوله . .

وبعد أن حول مجرى الأدب الحديث ، يريد الحكيم أن يعود به إلى مجراه القديم .

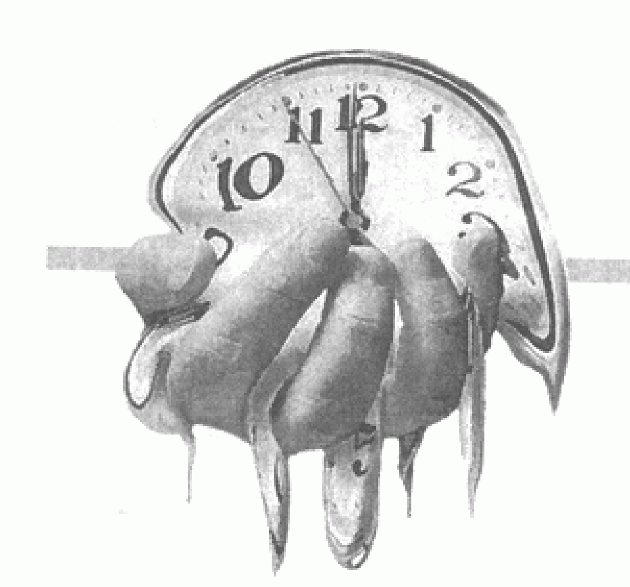
إن توفيق الحكيم قد مل الغرفة الضيقة المظلمة التى يعتقل فيها كل إنسان قدراته وخياله . . لقد مل الحكيم نفسه . . مل توفيق الحكيم . . فهو فتح طاقة فى نفسه . . وأطل برأسه وانبهر ورأى وفهم وفكر وكتب . . والذى رآه مثير ، والذى كتبه مثير . . وبعد ذلك ، وبعد أن بلغ خريف العمر ، يعود الحكيم إلى غرفته القديمة المليئة بلوحاته وأدواته الفنية وينتظر . . لعله يكتب أى شىء جديد . .

وتجربة جديدة لتوفيق الحكيم نشرها فى كتابه «قالبنا الجديد» . وفى الكتاب يعيد حكاية المسرحيات العالمية على ألسنة ثلاث شخصيات قديمة : الحكاواتى والمقلداتى والمداح . .

إنه شكل «السامر» القديم . . أى المسرح اللامسرحى . .

وهى فعلاً خطوة جديدة وجريئة . .

إن توفيق الحكيم أكثر شباباً من الأدباء الشبان ، وأكثر مغامرة وأكثر جرأة . . وأقدر منهم سعياً لحل شىء خطر : هو إحساسه بالملل . والتخلص من الملل بالعمل . . وبالعمل الجديد !



مسرحية طعم العسل

كما يحمل عصفور بذرة فى منقاره، ثم يقليها على الأرض ويختفى.. كما تسقط سحابة قطرات من الماء فوق بحيرة، ثم تتلاشى هذه السحابة.

كما ترمى موجة عاتية بجثة إلى الشاطئ، وتعود الموجة تغتسل فى البحر..

بهذه المعانى تبدأ مسرحية «طعم العسل» لأديبة إنجلترا الشابة شايلا ديلانى. فالمسرحية تبدأ بأن نرى أما وابنتها وقد حملت كل منهما ملابسها وذهبت إلى شقة جديدة. وكلمة «جديدة» معناها شقة أخرى، شقة ثانية، مختلفة عن الشقة الأولى فقط. فلا شىء جديد. لا الأم جديدة عن المجتمع ولا العذاب الذى تعانيه الابنة جديد.. والشقة نفسها باردة مظلمة ومصباحها الوحيد يتدلى من السقف كأنه قطعة من النار تلسع العين وتكوى الظلام وتوجع ابنتها..

والأم إحدى بنات الليل..

وهى اتخذت هذه الشقة مسكنا ومخبأ.

ومن اللحظة الأولى نجد الابنة كارهة لهذه الشقة. وكارهة للأم أكثر. الأم مزكومة.. والابنة تكره أن تبيت معها فى مكان واحد. وفى سرير واحد.. وكل شىء يدل على أن المعركة بين الأم وبين الابنة قديمة. وأن الابنة تقاوم هذه العدوى. ولكن الذى تراه ابنتها مرضا، تراه الأم حياة. وأن الإثم - إذا صح أن هذا مرض - هو مصدر حياة الابنة.. وهو المسئول عن ذهابها إلى المدرسة.. فالأم لا تريد أن تكون ابنتها غانية. وأن تعيش على أهواء الرجال. وأن تظل طول عمرها

معروضة للبيع والمساومة كل ليلة . إنها تستنكر هذا الوضع المهين للأم . . ولكن الابنة لا تعرف إذا توقفت أمها عن تجارتها فما الذى يمكن أن تفعله بعد ذلك . إن أمها لا تعرف أية صناعة . إن أمها تحترف أقدم تجارة فى التاريخ . تجارة أن يبيع الإنسان نفسه . وهى فى نفس الوقت آخر قيد تحرر منه الإنسان .

أن الابنة ساخطة فقط . وليس عندها حل . ليس عندها بديل ولا برنامج .

والابنة فى حيرتها تتفلسف . .

ربما لم تكن هذه فلسفة وإنما هى تساؤلات المراهقة . . فتسألها من يكون أبوها . والأم لا تعرف ولكن ما قيمة هذا الأب . إنه واحد . ككل واحد . رجل له نظرات غريبة . هذه النظرات هى التى أخرجتها عن وفائها كزوجة لرجل متدين . وفى لحظة حدث كل شىء . . وبعد هذه اللحظة كان لابد أن تكون أما بعد تسعة شهور .

وتسأل الابنة كيف كان هذا الاب . كيف كان لونه . شكله . . عقله . والأم طبعاً لا تعرف . وإنما تؤكد لها فقط أن ابنتها لها نفس عينى الأب .

وتسأل الابنة : وأين هو هذا الأب؟ والسؤال لا جواب له أيضاً . . وإنه لا قيمة له . لا السؤال له قيمة . ولا الجواب له قيمة . فالأب حى أو ميت لا يهم . فلم يكن أباً ولاصديقاً ولا حبيباً . . أنه عصفور ألقى بذرة واختفى . .

ومن السقف تتساقط قطرات ماء . . فالبيت قديم . والرطوبة قاسية والضوء خافت والفرن خامد والأم مزكومه . والفتاة لا تريد أن تتحرك فى هذه الشقة أو هذه المقبرة . ولاتريد أن تؤدى لامها أى عمل . . فهى لا تكن لها أدنى احترام . ولكن ليس لديها طريق آخر تسلكه . .

وتفاجأ الأم برجل يدخل الشقة . .

إنه صديق قديم . اهتدى إليها . ثم جاء يعيد ما كان بينهما . وهو الآخر لايطيق البقاء لحظة فى هذه الشقة الباردة . . ولايجد ما يدفىء جسمه . فلا توجد زجاجة خمر أو قدح شاى أو قهوة . ولايوجد فرن ولا مدفأة . وليس أمامه غير الأم . ويعاتبها ويطلب إليها أن تنهض من الفراش وأن يذهبا إلى أى مكان . . أن يتزوجا مثلاً . . ما المانع ؟ وفكرة الزواج لا تزال تسعد أية امرأة . . وبسرعة ترتدى ملابسها وتخرج مع هذا الرجل لكى يتزوجا فوراً . فالأم لاتزال تخشى ابنتها . وتخشى من

غيرة ابنتها . وتحاول الابنة أن تعرف ما إذا كان هذا الرجل جاداً فى زواجه من أمها . . وتفتش فى حافظة نقوده فتجد فيها صوراً لأطفال ولزوجة ولأم . . وتحاول أن تنبه أمها إلى أن هذا الرجل متزوج بالفعل وأنه يسخر منها . . ولكن الأم تنسب هذا إلى غيرة ابنتها .

وتسارع الأم إلى الرجل الذى سينقلها إلى عالم آخر . . إلى الرجل الذى سيطفو بها فوق المجتمع ، الذى سيرفعها من الحضيض البارد إلى الرصيف إلى بيت له أدوار وفيه أكثر من غرفة ، وفيه مسافات . وحول البيت حديقة وفيه مدفأة وفيه سرير واسع . وهذا السرير سيلد سريرا لطفل يلهو . . ويلعب ، ويحب الام ، ولا يكرهها ولايحقد عليها ولا يسألها عن أبيه ، لأنه يعرف من هو أبوه . . إلى آخر أحلام بنت من بنات الليل . .

وتختفى الأم شهوراً وتترك ابنتها التلميذة فى مدرسة الفنون لتعمل فى أحد المطاعم وتكسب قوتها بنفسها . وفى غياب الأم تعرف الفتاة بحاراً ملوناً . . أسود . . إنه يعمل ممرضاً فى إحدى البواخر . ويصارحها بالحب وتعترف له بأنها تحبه . . وبسرعة يتحابان . أو هكذا يبدو لكل منهما أنه يحب الآخر . .

أهى الرغبة فى الهرب من الأم ؟

أهى الرغبة فى الانتقام من الأم ؟

أهو حرص الفتاة أن ترتبط بأحد ، أن تنتمى إلى رجل فيرفعها من تحت إلى فوق ؟

وذهب الشاب الأسود وأتى لها بخاتم . وجاء الخاتم أكبر من أصبعها . وبدلاً من أن تضعه فى أصبعها ، وضعت الخاتم فى منديل ، ولفت المنديل حول عنقها – لقد ارتبطت به على أى حال . . أحبته . . وأحبها . .

واختفى البحار فى رحلة طويلة . .

وظهر فى الشقة القديمة صديق محايد . . محايد بين الجنسين . . فلا هو فتاة ولا هو رجل . . ولذلك شعرت الفتاة بالسعادة لأن تكون فى شقة واحدة مع رجل – مفروض أنه رجل – لايطلب منها شيئاً . . لايطلب منها أى مقابل لكل ما يؤديه من خدمات لفتاة حامل فى الشهر الثامن . .

وحتى عندما حاول أن يكون رقيقاً معها ، طلبت إليه أن يتمرن على العلاقات العاطفية فى مكان آخر . . وعندما طلب إليها أن تتزوجه رفضت أن يكون لها أية صلة بأى رجل بعد ذلك . كرهت الرجال كلهم . . كرهت الرجل الأسود الذى هو أب لطفلها . . فهى لم تكن تحبه . . كرهت الرجل الذى لا تعرفه وكان أباها . كرهت الرجال الذين يعرفون أمها ، كرهت المسافة التى بينها وبين أمها على السرير . . فهذه المسافة تفوح منها رائحة السجاير . . رائحة الرجال . .

وعندما تعود الأم فجأة تلتقى بهذا الشاب المحايد وتعرف منه ما أصاب ابنتها . .

وتعود الأم بأمتعة جديدة ولهجة جديدة . لقد تحولت الأم إلى إنسان آخر أكثر رقة وحناناً . .

وبغريزة المرأة تعرف الابنة أن أمها لم تتزوج وأن الرجل قد غرر بها . . فلا بيوت ولا حدائق ولا كنيسة ولا قسيس ولا احترام ولاحب . . ولا فوق وإنما تحت تحت . .

وتحاول الأم أن تنكر ، ولكنها فى النهاية تعترف لابنتها التى أصبحت فى وضع مماثل لها . فكل منهما يعرف معنى الأمومة . ويعرف كيف يمكن أن تصبح المرأة أما من غير أن تحتفظ للرجل بأى احترام . إنما الأمومة فقط هى التى تستدرج المرأة إلى أن تحب الرجل لحظة وتكرهه طول عمرها بعد ذلك . .

وتعرف الأم أن ابنتها لم تتزوج وأن الخاتم الذى فى أصبعها واسع عليها . . والأم تعرف هذه الحيل . . وتعرف أن الرجل ينتقل من امرأة إلى امرأة بنفس السرعة التى ينتقل بها الخاتم من إصبع إلى إصبع . . وتعرف بتجربتها أن الخواتم التى يحملها هذا النوع من الرجال واسعة عادة . فالرجل يثبت حسن نيته بأن يحمل خاتما . ويضعه فى إصبع أية فتاة . . ثم يسترده بعد ذلك لأنه واسع . . فليس هذا خاتماً إنما هو طوق نجاة لكل رجل . . وحبل مشنقة لأية امرأة !

ولكن الابنة ترى إنها قد بلغت السن التى لا تقبل فيها نصائح أمها . . فهى تعمل وهى تكسب . . وهى ليست فى حاجة إلى أمها أو فلوس أمها . .

وتؤكد لها الأم أنها اعتادت أن تعطيها ما تحتاج إليه . .

غير أن الابنة ليست فى حاجة إلى المال ، أنها فى حاجة إلى مستشفى . . أو إلى (حكيمة) . .

وتحس الأم بعذاب ابنتها . . فهى الأخرى قد عانت هذه الأمومة . والابنة قد تجاوزت المرحلة التى يمكن التخلص فيها من الجنين . وكل تصرفات الأم تدل على أنها قررت أن تبحث لها عن عمل آخر . فهى لن تغفر لنفسها أبداً أن يحدث لابنتها ماحدث لها . . والأم فى سخريتها المريرة لا تعرف ماهو هذا القانون الذى ينطبق عليها وعلى ابنتها . . والذى لم يرحمها عندما أنجبت هذه الابنة . ولم يرحم هذه الابنة عندما حملت . .

ويدور حوار بين الابنة وأمها :

الابنة : ماما

الأم : نعم .

الابنة : ابنى سيكون أسود

الأم : ماذا تقولين ياحبيبتى ؟

الابنة : ابنى سيكون أسود

الأم : لا داعى لهذا الهزار السخيف كفانا أحلاماً مزعجة ،

الابنة : ولكن هذه هى الحقيقة . لقد كان أسود .

الأم : من ؟

الابنة : هو

الأم : قصدك . . أن . . البحار . . كان أسود ؟ ياساتر يارب . . لايمكن أن يكون هناك ماهو أسوأ من هذا . تصورى إننى أدفع أمامى عربة صغيرة وبها طفل أسود . . لابد ان أخرج . . لابد أن أشرب كأسا من الخمر . .

الابنة : ماذا ستعملين ؟

الأم : لا أعرف . يجب أن نغرقه فى النهر . لن يعرف ذلك أحد . .

الابنة : ولكن صديقنا هذا سيعرف

الأم : والدادة ماذا ستقول ؟ إن هذه صدمة عنيفة لها ، ولاشك!

الابنة : ولكنها هى الأخرى سوداء !

الأم : إذن من الأفضل أن تتبنى هى هذا الطفل . يارب رحمتك !

الابنة : إذا لم يكن هذا يعجبك فاخرجى من هنا . إننى لم أطلب إليك المجئ . اخرجى !

الأم : أين قبعتى ؟

الابنة : فوق رأسك . .

الأم : صحيح إنها فوق رأسى . . أنا لا أعرف ما الذى يجب أن أفعله معك . . حقيقة لا أعرف . ثم تتجه إلى الجمهور . . أننى أسألكم جميعاً لو كنتم مكانى ، فما الذى يجب أن تفعلوه .

الابنة : هل ستخرجين ؟

الأم : نعم .

الابنة : فقط لكى تشربى كأساً من الخمر ؟

الأم : نعم .

الابنة : ماذا ستفعلين بعد ذلك ؟

الأم : لاشىء سأضع الطفل على المسرح وأطلق عليه اسم البلبل . . وأنتم ماذا تفعلون لو كنتم مكانى ؟!

وتنطلق إلى الشارع .

وتنظر إليها الابنة ثم تطلع إلى جوانب الغرفة وتبتسم وتتذكر أغنية . . وتروح ترددها عندما ينزل الستار .

والسؤال الذى وجهته الأم إلى الجمهور سؤال لا يحتاج إلى جواب . فهذه الأم مهما كان وضعها الاجتماعى ، فهى أم . سواء كان أبو الطفل أبيض أو أسود . . فلون الأب لايهم . . ولكن الذى يهم هو أن ابنتها حامل ، وأنها ستكون أمّاً . وأن هذا الطفل ليس مسئولاً عن خطأ أمه . . فهو كائن حقيقى . وميلاده حقيقة . وقبل أن يولد تغيرت أوضاع اجتماعية استعداداً لظهوره . . فأمه ستتوقف عن الدراسة نهائياً لكى تعمل من أجله وجدته ستتولى العناية به ، ولابد أنها ستبحث عن عمل آخر يمكنها من تربية طفل جاء هو الآخر كما جاءت ابنتها ، وكما جاءت هى . .

وهذا الطفل يشبه الدبوس الذى ربط بين امراتين . . وإذا كان هذا الطفل بذرة ألقاها عصفور وهرب . فيجب أن تنمو البذرة فى حنان امرأة نادمة ، وامرأة مصرة على ألا تندم . .

لقد ذاقت الأم طعم العسل . . عندما تزوجت لأول مرة رجلاً متديناً عفيفاً ، فقد عرفت الزواج ولم تعرف العسل . . وعندما خانته مع رجل آخر عرفت العسل لأول مرة . ولم يعد لهذا العسل طعم بعد ذلك . . فالعسل إنما يذاق مرة واحدة ، وبعد ذلك فلا عسل ولاطعم له أو لأى شىء آخر . وهذه هى نصيحة الأم لابنتها . .

وعندما أحبت ابنتها . وعاشت على أمل الزواج ، ذاقت طعم العسل ، ولم تعرف الزواج . . وكان العسل أسود . . وكان أكذوبة . وكان حلماً . ولكن الذى ليس أكذوبة وليس حلماً هو إنهاحامل ، وإنها ستكون أماً . . وأن هذه الأمومة ليست بسبب العدوى التى انتقلت إليها من أمها . وإنما هذه العدوى سببها أنها لاتريد أن تكون كأمها . ولكن بالرغم منها سقطت . ولكن لاتوجد «سقطه» لايمكن النهوض منها . . لاتوجد بقعة فى قماش لايمكن إخفاؤها . . وحتى إذا لم يكن من السهل غسلها . فإن تمزيقها هو نوع من إخفائها . .

ولذلك فهذه الفتاة تحاول أن تجعل العمل هو الوسيلة الوحيدة لرفعها من تحت إلى فوق . . إلى أن تتحمل مسئولية الوجود عن ميلاد طفل لايعرف ما الذى جرى بين أبيه وبين أمه فى لحظه . . لحظة عسل !

وفى المسرحية عبارات ساخرة مريرة ولكنها صورة جميلة للحضيض الإنجليزى . . أو للحضيض فى العواصم الكبرى المنحله . . صورة فنية «لطرح البحر» الاجتماعى . . صوره شفافه «لأعقاب» السجائر التى تتساقط فى الليل فتبقى مشتعلة بجوار الأرصفه . .

وعندما تحدثت الأديبة شايلا ديلانى عن اللون الأسود عرضت موقفاً اجتماعياً دقيقاً . فالبيض يكرهون السود . . حتى هذه البيضاء التى يعاملها البيض أحقر أنواع المعاملة . يعاملونها كأنها سوداء . . كأنها زنجية بيضاء . . لا كرامة ولا حقوق ولا إنسانية . . حتى هذه البيضاء تكره الرجل الأسود .

ولكن عندما يكون هناك حب ، عندما يكون هناك رباط إنسانى ، عندما يوضع الرجل الأسود فى إطار عالمى ، عندما يصبح أباً - مثلاً - فإنه سيصبح كائناً آخر ، يصبح رجلاً أبيض أو كالأبيض . . فالإطار الذى يوضع فيه هو الذى يجعله عالمياً ، يجعله ككل الناس . . ككل الناس البيض . .

فنحن ننسى لون كل المطربين الزنوج والأدباء الزنوج والرياضيين الزنوج . . لأنهم اتخذوا إطاراً عاماً هو الفن والبراعة الفنية . .

فهذه الأم حتى لو كرهت الأب الأسود . وأحبت طفلها ، فإنها ستكون قد أحبت الأب ضمناً . .

أى أنها إذا كرهت الزوج الأسود ، فإنها لن تكره الأب الأسود . .

وإذا كانت الأم فى نهاية المسرحية قد سألت المتفرجين ما الذى يمكن أن يفعلوه لو أنهم فى مكانها ، فهى فعلا حائرة . ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً . .

فالذى تستنكره الأم اليوم باسم اللون ستقبله هى غداً باسم بقاء النوع . . والذى يرفضه جيلها . . ستقبله الأجيال القادمة . . فالإنسان هو الإنسان . . والعسل هو العسل ولا يهم لون العسل . . أبيض أو أسود . . !



النار فى كل بيت

إذا كانت الحرب جريمة ، فهى عقاب أيضاً ! . . وهى جريمة جماعية ، وليس المسئول عنها فرداً واحداً فى أى بلد وإنما كل أفراد هذا البلد فلا يستطيع فرد أن يشعل حرباً ، وبعد الذى أصاب الإنسانية بسبب الحرب الثانية لايوجد إنسان برئ . فنحن جميعاً ضحايا حرب ومجرمو حرب أيضاً . لأن المسئولية تقع على رءوس الجميع .

وهذا المعنى يجب أن يرسب فى أعماقنا وبذلك نحمل وزر كل دمار يصيب الإنسانية بسبب حرب باردة أو حرب ساخنة !

والخوف من الحرب هو العنصر المشترك بين الناس . . فالناس نوعان : أناس يخيفون بالحرب وأناس يخافون من الحرب . .

ولكن عندما تشتعل الحرب فكل الناس خائفون . القاتل والقتيل . .

والضحية : هى الإنسانية دائماً . .

أما كيف تشتعل حرب ؟ .

فلا يحتاج هذا إلى معجزة . أن رجلاً مجنوناً من الممكن أن يلتف حوله ملايين المجانين التى ارتبطت مصالحهم بجنونه . .

أمريكا مثلاً !

أو بحسن النية واستسلام الناس الطيبين لما يقوله أناس يتسلحون بالقنابل وينادون بالسلام . . ويملأون المخازن بالرءوس النووية ويؤكدون أنهم لا يريدون إلا حماية الإنسانية . .

ويبدو أن هذا ما اقتنع به الكاتب السويسرى العظيم ماكس فريش فى مسرحيته التى اسمها «بيدرمان ومشعلو الحرائق» .

وهى المسرحية التى ظهرت فى إذاعة برلين على شكل قصة قصيرة ثم على شكل مسرحية . وهى من أروع ما ظهر فى الأدب الأوروبى الحديث . وقد أعاد الكاتب الكبير الكورس الإغريقى على المسرح ليقوم بالدور الرئيسى ويملأ المسرح بأناشيده وتحذيراته الهادئة والصارخة . . ويعترض سير الممثلين ويناقشهم ويقاطعهم ويخيفهم . . . والمسرحية كوميديا سوداء أو كوميديا حزينة . فهى ساخرة ومبكية فى نفس الوقت . ولكن الجو الذى يسودها شاعرى رقيق حاد ، ناعم قاطع . وتحس فيها أثر برنارد شو وكل أدباء العبث . .

والمسرحية بمناظرها السبعة تصور الرعب الذى تعيش فيه إحدى المدن . فكل يوم تصدر الصحف وفيها خبر عن حريق اشتعل فى أحد البيوت أو المطاعم أو الفنادق . وكل الحرائق تتم بأسلوب واحد . . فهناك دائماً شخص يدق الباب ويطلب المأوى . فإذا انفتح له الباب دخل . وتوسل إلى أصحاب البيت أن يقدموا له طعاماً وأن يتركوه ينام حتى الصباح . وفى الصباح يحترق البيت بمن فيه وما فيه . وعلى الرغم من أن هذه الحوادث تقع بأسلوب واحد فإنها تتكرر . فكان الناس لايتعلمون من هذه التجربة . أو كأن الناس يتأثرون لحال هؤلاء الغرباء الذين يطلبون الأكل والنوم حتى الصباح . وينسون أنهم جميعاً يقومون بإشعال النار فى كل بيت يأويهم ويقدم لهم الطعام ! .

وتبدأ المسرحية بأن ينشد الكورس على المسرح قائلاً : يا أهل بلدنا الطيبين . . نحن ساهرون . . منتظرون . . سامعون . . حريصون على نومكم السعيد . . حتى لا يحترق بيت أو يموت طفل أو يجف نبات . . يا أهل البلد . . يا أهل البلد . . نحن عليكم ساهرون . .

ويدق الباب فى بيت السيد بيدرمان . . وهو رجل مليونير . . وبيدرمان كلمة ألمانية معناها الرجل الطيب الشريف . . وتذهب الخادمة لتفتح الباب فتجد رجلا كان مصارعاً قديماً يريد الدخول . وتذهب إلى سيدها وتقول له :

- رجل يريد أن يدخل .

- ماذا يريد ؟

- لا أعرف .

- هل يريد دواء لتقوية الشعر ؟

- لا . . . .

- ماذا يريد ؟

- الإنسانية . .

وهذا المليونير يتاجر فى زيوت لتقوية الشعر . ويأذن لهذا الغريب الذى يبحث عن المأوى أن يدخل ، . إنه يريد الطعام . ويريد المأوى . إنها نفس القصة تتكرر . وهو رجل كان يعمل مصارعاً . وكان يتيماً وعاش طول عمره فى الملاجئ فهو لايعرف أصول التعامل مع الناس . ولا كيف يأكل ولا كيف يجلس .

ولكنه يبدى إعجابه بسمعة المليونير وبأخلاقه . ويسأله المليونير إن كان ممن يعملون على إشعال الحرائق فى البيوت . ويؤكد له الرجل الغريب أنه لا يفعل شيئاً من هذا .

وهنا يغنى الكورس ويحذره . .

ويذهب به المليونير إلى غرفة فى أعلى البيت . . وهناك يتركه حتى الصباح . .

وفى الصباح يدق الباب . وتجئ الخادمة تخبر سيدها أن شخصاً غريباً يقول إنه موظف فى إحدى شركات التأمين يريد معاينة البيت ليتأكد بنفسه من ان احتمال اشتغاله شيء بعيد . .

ولكن هذا الرجل يتسلل إلى الغرفة فى أعلى البيت . ويصبح فى الغرفة رجلان . إنهما زميلان . فهذا الرجل الثانى كان يعمل جرسوناً فى أحد المطاعم ثم إتهموه بأنه أشعل النار فى المطعم وأدخلوه السجن .

والكورس يردد أن هناك رجلين . . المصارع والجرسون . .

وهذا الجرسون قد دخل إلى غرفة السطح ومعه صفائح بنزين . . ويجئ البوليس ويفتش البيت ويجد صفائح البنزين ويعترف المليونير بأنها صفائح مليئة بزيت الشعر . .

وعلى الرغم من وجود البنزين فى البيت فإن المليونير متأكد من أن هذين الرجلين ليسا من الذين يشعلون الحرائق . وهو يكتفى بأنهما أقسما له على ذلك . .

والكورس يعترض طريقة على المسرح وينبهه . ولكن المليونير الشريف يؤكد أنه مواطن حر . وأنه حر فى اختيار ما يعجبه من الآراء والأفكار وأن بيته إذا احترق فهو حر فى بيته . وهو صاحب البيت . والكورس يعترض . ولكنه يفسح له الطريق فى النهاية . .

والجرسون يؤكد للميلونير أن الناس يلجأون إلى أكاذيب ثلاث : الضحك وهو أكذوبة . والعواطف وهى أكذوبة . أما الأكذوبة الكبرى فهى أن يقولوا الحقيقة العارية . ولأن الحقيقة العارية شىء نادر فإن أحدا لا يصدقها .

ويحتار المليونير بين هذه الأكاذيب الثلاث . . ولكنه فى النهاية يختار تصديق هؤلاء الناس عملاً بالمثل الذى يقول : إذا اطعمت الفم استحت العين . . وقد ذبح أوزة ضخمة . وقدم نبيذاً وسجائر فاخرة لعل العين أن تستحى والأيدى تتوارى فى الجيوب ولا تلعب بالنار .

وقد اختفت الأوزة والنبيذ . ولكن الأيدى ظهرت وفيها أعواد الكبريت وفيها مفجرات للديناميت والقنابل . والمليونير لايشك فى أن هذين الرجلين من المشعلين للحرائق . .

ومن بين صفائح البنزين يخرج أستاذ فى الفلسفة . إنه رجل جاد . له منظار غليظ . يخرج من بين الصفائح ليمسح منظاره ويعاود الوقوف والاحتجاج الصامت . إنه لم ينطق بكلمة واحدة . ويسخر منه المصارع والجرسون ولايفهمان لماذا هو موجود بين الصفائح ولا يفعل شيئاً . ويطلبان إليه أن يتولى الحراسة . فإذا اقترب أحد من الغرفة ، يجب عليه أن ينبههما إلى ذلك . .

وتسمع الخادمة دقاً على الباب الخارجى . . ويعترض المليونير على دخول أى إنسان آخر . .

ولكن أستاذ الفلسفة مصر على مقابلة المليونير ليعلن له أنه غير مشترك مع الاثنين فى هذه المؤامرة . .

وتعود الخادمة تؤكد لأستاذ الفلسفة أن سيدها يرفض المقابلة . ولكن الفيلسوف ينذرها وينذر سيدها ويؤكد ضرورة المقابلة فوراً . .

ويدخل أستاذ الفلسفة ويخرج من جيبه ورقة مكتوبة ويقرأ الورقة أمام المليونير . ولا يفهم المليونير من هذه الورقة شيئاً . ويحس أستاذ الفيلسوف أنه قد أراح ضميره وأنذر المليونير . وعلى المليونير أن يفكر فى الامر . .

وتنتهى المناظر الستة الأولى من هذه المسرحية بانفجار البيت واحتراقه نهائياً . .!

أما المنظر السابع فهو فى جهنم . .

فالمليونير وزوجته وخادمته فى جهنم وهم لايعرفون إن كانت هذه جهنم . ولا يعرفون لماذا هم فى جهنم . . ولا يعرفون من الذى يمكن أن يتحدثوا إليه ويشرحوا له حالتهم . . فالمليونير يرى أنه إنسان طيب وأنه ضحية حسن نيته . وترى الزوجة أن الخادمة موجودة فى جهنم لأنها كثيراً ما سرقت طعام البيت . .

ويفاجأ الجميع بأن الشيطان نفسه هو الجرسون الذى كان فى البيت . . وأن المصارع هو أحد الشياطين ويفهم المليونير أن الحرائق المشتعلة على سطح الارض . وأن الشياطين مشغولة طول الوقت باستقبال وفود من الشبان والسياسيين فى جهنم . .

وفى نهاية هذا الفصل تتساءل الزوجة : هل تظن أننا سننجو من نار جهنم . .

ويرد الزوج : يبدو ذلك !

فهذا المليونير لا يستحق جهنم لأن المدينة التى كان يعيش فيها بعد أن احترقت ، قد أعيد بناؤها وأصبحت أروع وأجمل مما كانت . . وهو لذلك يستحق الشكر على أنه كان سبباً فى إعادة بنائها . .

وليس مهما أن هذا المليونير قد سكت عن وجود البنزين فى بيته . . وليس مهما أنه دفع أحد موظفيه إلى الإنتحار . رغم أن هذا الموظف كان مخلصاً وأميناً . وإنما المهم فقط إنه كان أحد أسباب عودة الحياة والحضارة إلى هذه المدينة التى احترقت ببنزين أقوى من الذى امتلأت به الصفائح . . هذا البنزين اسمه : حسن النية وتصديق هؤلاء المجرمين مشعلى الحرائق !

أما الكورس فينهى المنظر الخاص بالجحيم منشداً : مدينتنا أصبحت أجمل ، أغنى . . اختفت أنقاضها . وظهرت عماراتها . . الخرائب نسيناها لقد احترق كل شىء وتلاشى . . تلاشت أصوات الضحايا . .

ويرد المليونير : الحياة تستمر .

ويعود الكورس ينشد : لقد أصبحوا تاريخاً . . المدينة الآن أجمل . . أروع . . أغنى . . تلمع بالزجاج والفضة ، ولكن قلوب الناس كما هى . . ولكن المدينة ارتفعت . . أجمل . . وأعلى !

***

أما الذى يريد أن يقوله الكاتب العظيم ماكس فريش بأسلوبه الساخر المر فهو أنه لايقصد شيئاً مما جاء على بالك . . فهذه المسرحية غير هادفة . . أو مسرحية لا معنى لها فلا معنى لشىء . ولا هدف لشىء . وإنما هذه الإنسانية مجنونة تقتل نفسها بحسن نية !

ولكن الذين يعرفون ماكس فريش يؤكدون أن المعنى وراء هذه المسرحية هو ما حدث فى تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٤٥ عندما استعان الرئيس ادورد بنيش بأعضاء الحزب الشيوعى فى حكومته . . وإنهم غرروا به . . وإنهم خدعوه حتى مات فى ظروف مريبة سنة ١٩٤٨ . .

ولكن ماكس فريش سئل عن هذا المعنى فأكد أن القارئ من الممكن أن يفهم ما يعجبه . ولكن هذا المعنى غريب عن خياله . ثم أن الرئيس ينبش لم يكن أقل خداعاً من الذين اتهموا بخداعه !

ويقال أن المعنى وراء هذه المسرحية هو أن المثقفين فى ألمانيا صدقوا ما أعلنه هتلر من أنه لن يدخل فى حرب ضد روسيا ليسحق موسكو والمدن الأخرى ثم يدوس أوروبا من أولها لآخرها . . فلم يكتشف المثقفون أن هتلر كذاب . . وإنه يستعد للحرب فى النهار وفى الظلام . . ثم اشتعلت الحرب . وندم المثقفون على بلاهتهم وسذاجتهم .

ولم ينكر ماكس فريش أن يكون هذا المعنى قد راوده وهو يكتب هذه المسرحية وإن كان ماكس فريش يميل إلى أنه قد يئس من هذه الإنسانية وأنه يفضل ألف مرة أن تفنى كلها وتظهر على الأرض حضارة إنسانية أخرى . . أنظف وأحسن وأجمل وأعلى وأغنى . . وأن النار هى الوسيلة الوحيدة لتطهير الجسم الإنسانى . . فالماء لايغسله . ولكن النار هى وحدها التى تطهره تماماً . وتقضى عليه أيضاً وبذلك تموت الإنسانية أطهر موته .

وهذه ولاشك نكتة سخيفة . .

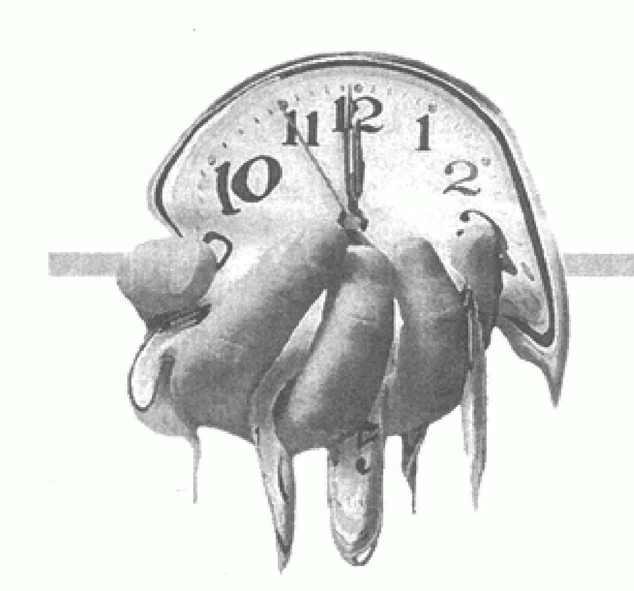
ولعل ماكس فريش فى هذه المسرحية عندما جعل أستاذ الفلسفة يقول كلمته على المسرح ، وهى كلمة غير مفهومة ، ثم يجلس فى الصالة بين المتفرجين إنما أراد بذلك أن يثير المتفرجين . . أن يثير الناس وأن يدفعهم إلى أن يقولوا رأيهم . . إلى أن يحملوا رسالة هذا الرجل المخلص الذى لايعرف ماذا يقول ولاكيف يقول . . ولكن يكفى أنه معترض على التآمر على حرق البيوت والمدن والحضارة الإنسانية . .

يكفى أنه يحتج على أنه ليس من أنصار المذهب الحرائقى . . فهو ليس حرائقياً . .

ويطلب ذلك من الناس جميعاً . أن ينظروا باهتمام شديد إلى أعواد الكبريت وصفائح البنزين ، وإلى الناس المجانين الأذكياء الذين يستطيعون أن يشعلوا الحرائق بأيدى الآخرين . . وضد الآخرين . .

فنحن الآخرون الذين نحرق والذين نحترق . ولذلك كانت النزعات الحرائقية مشكلة لنا جميعاً ومسئولية علينا جميعاً . .

ولذلك فأنا أعتقد أن هذا مايريد أن يقوله كاتب عظيم مثل ماكس فريش تدفعه سخريته فيقول إن مسرحيته : عمل أخلاقى بلا معنى أخلاقى . . أو طلقة طائشة بلا هدف ! .



تلميذة وجودية

ما معنى أن تكون هناك صعوبة فى الكتابة عن أديب مايزال حياً .

معناها أن هذا الأديب لم يفرغ من كلامه بعد . فهو مايزال يقول . وما يزال بغير من أقواله بالتوضيح أو بالتبديل فالكتابة عن حياته نوع من المقاطعة له أثناء الكلام . ونوع من اعتراض طريقه والتشويش عليه .

وإحساسنا بأن الأديب حى يجعلنا نجامله ، أو يجعلنا من خوفنا من الاتهام بالمجاملة ، نقسو عليه . ولا يوجد وسط فى الكتابة عن الأدباء الأحياء .

وكثيراً ما فضل الكاتب الذى نكتب عن حياته ، أن يسكت . ولا يناقش . راضيا بأن أحداً من الناس يكتب عنه . فالكلام عنه أفضل من السكوت عليه . .

وفى كل هذه الأحوال نبعد عن الحقيقة ولا نعرفها .

ومعنى ذلك أن هناك طريقين للكذب عندما نؤلف كتاباً عن حياة أديب : أن نكتب عنه بعد موته . وأن نكتب عنه وهو حى .

وفى الحالتين تضيع الحقيقة ، ويصبح التاريخ عملاً فنياً وليس تسجيلاً واقعياً .

وهذه إحدى مآسى التاريخ الأدبى . .

***

وهذا الكتاب الذى ألفه فرانسيس جانسون عن الأديبة الوجودية الشهيرة «سيمون دى بوافوار» قد لجأ إلى أسلوب آخر فى الكتابة عن هذه الأديبة . فهو قرأ كل كتبها : الدراسات والروايات والمقالات والتراجم الذاتية . وبعد أن قرأ هذه

الكتب وفهمها ذهب إلى الأديبة نفسها وراح يناقشها . وهو فى هذه المناقشة يعرض رأيه أكثر من انتظاره لرأيها . فهو يناقش نفسه على مسمع من الأديبة نفسها .

وكتابه عن سيمون دى بوفوار ، هو دراسة لها من أعماقها . . أى دراسة لها من الداخل . كأنه يريد أن يقول لنا : هذه هى الدوافع الحقيقية التى جعلت سيمون دى بوفوار الفتاة الوقور ، هذه الأديبة الصارخة . . وبعبارة أخرى : انه يريد أن يقول لنا أنه يعرفها أكثر مما تعرف هى نفسها .

وبهذا الأسلوب أفلت المؤلف الفرنسى المتحمس من أكذوبة التاريخ ، وانتقل إلى مجالات الدراسة النفسية ، والتحليلات الأدبية . ولذلك فهذا الكتاب هو «فهم خاص» لقارئ واع متحمس لأديبة كبيرة . ولأن هذا فهمه الخاص ، فيجب أن ننظر إليه على هذا الأساس . وكثيرا ما إشار المؤلف إلى أن هذا هو رأيه الخاص ، أى أنه ليس رأى أحد آخر ، ولا حتى رأى الأديبة نفسها !

وعلى سبيل المثال يقول المؤلف : أن سيمون قد نشأت فى بيئة متدينة بورجوازية قد أحاطها الأب والأم والأقارب بالاعجاب والحنان . وعندما تلفتت إلى من حولها ، أحست أنها زهرة فى حديقة عالية الأسوار ، وأنها قطة فى قلعة شامخة . . إلخ .

أما هى فتقول عن نفسها فى كتابها «مذكرات فتاة رصينة» :

ولدت فى الساعة الرابعة من صباح يوم ٩ يناير سنة ١٩٠٨ فى غرفة أثاثها أبيض فى أبيض . . تطل على شارع أسباى فى باريس . وفى الصورة الفوتوغرافية التى تحتفظ بها الأسرة يمكن رؤية سيدات فى فساتين طويلة ، ولهن قبعات بها ريش نعام ، ويمكن رؤية عدد من الرجال لهم قبعات عالية ، والكل يبتسم للطفل . وهم جميعاً : والداى وأجدادى وأعمامى وعماتى . وهذا الطفل هو أنا . وأبى فى الثلاثين من عمره . وأمى عمرها إحدى وعشرين سنة . وأنا أول أطفالهم . ولنقلب صفحة أخرى . هناك صورة لماما تمسك فى ذراعيها طفلاً صغيراً . هذا الطفل ليس أنا . إنها أختى التى ولدت أخيراً . أما أنا فعمرى سنتان ونصف سنة . . إلخ .

وواضح جداً الفرق بين ما كتبه المؤلف ، وبين ما تقوله الأديبة سيمون دى بوفوار عن طفولتها وأسرتها وبأسلوبها السهل الرشيق . . وكذلك عن شبابها ، وعن سنوات كفاحها الفلسفى والسياسى .

❊❊❊

وسيمون دى بوفوار كانت حياتها عادية جداً . . أسرة محافظة . . غنية . . الدين هو كل شىء . والله فى السماء يحكم بالعدل بين الناس . والشر والخير لا يلتقيان وإنما يفصل بينهما سيف من النار . وكانت فى طفولتها شديدة المرح و«الشقاوة» أيضاً . ورغم هذه القيود والحدود التى حولها فإنها كانت تجد دائماً ثقباً تنظر منه بعين واعية جداً وناقدة جداً . وبداية الاستقرار فى حياتها كانت مربيتها . فمربيتها هى وحدها التى نظمت لها الكون كله . . طعامها وشرابها وملابسها . وعلى يدى هذه المربية عرفت الممنوع والمسموح به . وعرفت العيب . وكانت تنظر إلى مربيتها على أنها شخص نادر الوجود .

وتعب كل الذين حولها من أسئلتها الكثيرة . وأقتنعت هى بأن الأطفال يشتريهم الآباء من الدكاكين . وأن هناك دكاكين كثيرة فى كل مكان . وبعد ذلك عرفت أن الله هو الذى يخلق الأطفال الصغار . وهذا طبيعى . فإذا كان الله قد خلق الكون كله من العدم ، ثم خلق الإنسان من التراب . فليس من الصعب عليه أن يخلق الطفل من سرير صغير إلى جوار سرير أمها . .

وهى تتمتع بصحة جيدة طول عمرها . وتصف نفسها بأنها فى صحة الحصان . وأنها تحب الحياة . وأن حبها للحياة بدأ من النباتات والحيوانات والصداقات وأنها تجد المتعة والبهجة فى كل شىء جديد . وأن كريات دمها الحمراء والبيضاء هى تركيبة كيماوية فريدة من المرح والسعادة . سعيدة . ولم تعرف فى سنها الصغيرة أسباب هذه السعادة . ولما كبرت عرفت أن السعادة هى مزيج : من الاستقرار العائلى والطمأنينة والذكاء والحيوية !

ولمست بيدها أشياء كثيرة وعرفتها بلا تفسير . ورأت بعينيها أشياء كثيرة وفهمتها بلا تفسير . وعندما كبرت تغيرت مفهوماتها . فهى لاتفهم لماذا يتوقف أبوها وأمها عن الكلام عندما تقترب منهما . أو لماذا يسكتان فجأة . ولماذا تجد الأم نفسها مضطرة إلى أن تمسح خدى والدها كلما اقتربت الابنة الصغيرة .

وفى يوم ذهبت مع مربيتها إلى الحديقة . وكانت أول صدمة فى حياتها . فقد تشاجرت أمها مع مربيتها . لأنها تأخرت خارج البيت . ولما عادت هى ومربيتها إلى البيت . سمعت المربية تقول للخادمة : أن السيد والسيدة يتشاجران .

أما السيد والسيدة فهما أبوها وأمها . وهى لا تتصور أبداً أن يتحول أبوها إلى عدو لأمها . ولا تتصور أبداً أن تتحول المربية إلى عدوة للاثنين . ولا تتصور أن هذا الحادث الأليم يدخل السعادة على الخادمة أيضاً . كل هذا تجده فى نفس البيت ، وبين أناس يتناولون طعاماً واحدًا ، وتعلو البسمات وجوههم طول الوقت !

صدمة . . إذن لقد دخل الشر البيت .

دخلت العداوة البيت . نزلت المربية من السماء إلى الأرض . وأنزلت معها كل الناس . لقد كان الشر والكذب والنفاق والشماتة كلمات بعيدة . . ولم تكن تتصور إنها ستصادف الشر يوماً ما . فهجم الشر على خيالها واستقر !

وعندما سافرت الأسرة لزيارة بعض الأقارب فى الريف . حذرها أبوها من أبناء عمها . وقال لها : إنهم لايؤمنون بالله . ولم تتصور هى قط كيف يكون الإنسان كافراً . ولابد أن يكون للكافر ملامح أخرى مخيفة . ورأت أولاد عمها ولم تلاحظ هذه الفوارق . وعندما صلت أمامهم كانوا يسخرون منها . يسخرون من كل ماهو مقدس عندها . ومع ذلك لم يسقط سقف البيت . . ولم تشتعل الحرائق فى كل مكان . . وهذه كارثة نفسية أصابت الفتاة الصغيرة !

وفى العشرين من عمرها ذهبت لتعمل مدرسة للفلسفة فى مدينة مارسيليا وحدها لأول مرة . وكان عليها أن تعتمد على نفسها . . . وأن ترتب الدنيا كلها من جديد : مسكنها وملبسها وعلاقاتها بالعالم الخارجى .

وأول ما أحست به سيمون دى بوفوار هو أنه فى مدينة مارسيليا اختفت مدينة باريس . . فلا باريس . . ولا شوارع باريس . . ولا المقهى ولا المطعم . . ولا التليفون . . ولا رائحة الشوارع والدخان . . ولا كلمة : متشكرة التى كانت تسمعها من الخادمة ولا المشى على اطراف الأصابع عندما تعود فى الليل . . ولاتسويتها لشعرها كلما دخلت على أمها . . ولا أية ضرورة لتفسير كل ما تفعله عندما تصحو مبكرة . . وعندما تعود متأخرة . .

وأحست سيمون دى بوفوار أنها أصبحت «منبوذة» من عالم الطفولة . لم تعد طفلة . ولايمكن أن تكون . لقد طردتها الطفولة إلى الأبد . والآن تقدم أوراق

اعتمادها إلى دنيا الشباب والأنوثة . فقد دخلت هذه الدنيا بخطى غير ثابتة ولكن بعقلية متفتحة وعين نافذة . .

إنها لأول مرة تعيش لنفسها . . وليس للآخرين ، ولا من أجل الأخرين . . ولا حساب للآخرين . إنها فى مارسيليا . . فى دنيا جديدة . هى تنظمها وترتبها وتناقشها . إنها أمام قضية لم تكتب حيثياتها كلها . . قضية سيمون دى بوفوار الشابة . قضية ليس من الضرورى أن يصدر فيها حكم . فالقاضى والمحامى والنيابة والمتهم والجمهور والقانون والدستور ومبنى المحكمة والعدالة والظلم هى : سيمون دى بوفوار !

أما سارتر فكان لايزال فى باريس .

وسارتر زميل الدراسة وصديقها . وهو يكبرها بعامين فقط . ولم تكن سيمون دى بوفوار تعرفه جيداً . ولكن حدث فى إحدى المرات أن رأته يتحدث إلى فتاة دميمة ولكنه لم يلبث أن تشاجر معها وتركها !

ثم عرفت سارتر . أنه قصير القامة . شديد الحيوية . وكل شىء فى تفكيره مختلف عن كل الزملاء . . واسع الاطلاع . . ولأول مرة تشعر سيمون دى بوفوار ان معلوماتها فى الأدب والفن والفلسفة شىء تافه جدا . . وسارتر كان يقال عنه فى ذلك الوقت : أنه لايتوقف عن التفكير إلا عند النوم ، وحتى عندما ينهض من النوم يبدو مثل كلب البحر الذى ابتلع كمية ضخمة من السمك ، فهو عاجز عن الحركة ويبدأ فى الحركة فى اللحظة التى يتكلم فيها . . ويشرح ويبين الأسباب الحقيقية وراء كل شىء فى الدنيا ، الأكل والنوم والمشى والجنس والدمار والسياسة وصناعة الورق والحشرات والنظرات !

وعندما ألقى سارتر إحدى المحاضرات فى موضوع اسمه «تعريفات جديدة» فقط بعد هذه المحاضرة أحس كل الحاضرين أن هذا الشاب القصير هو فيلسوف جديد ، وأنه محتاج إلى بعض الوقت ليقدم للناس مذهباً مثيراً فى الوجود والأخلاق والحياة والفن !

وسارتر يعيش ليكتب فقط . وحاول أن يقنع سيمون دى بوفوار أن الكتابة هى الهدف الحقيقى للكاتب . وأن الكتابة هى الحقيقة المطلقة . وكان من عادة سارتر أن

يعرض عليها أفكاره منظمة مرتبة . ويعرض عليها كل مشروعات كتبه . فهى كلها حاضرة فى رأسه قبل كتابتها ونشرها ! .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت به سيمون دى بوفوار . .

ولاحظت أن سارتر لا يستطيع أن يخضع لأى قانون أو ارتباط أو التزام أو كادر ، وأنه يرفض أن يكون موظفاً مربوطاً على درجة طامعاً فى درجة أخرى . ويرفض أن يعامله الناس بصفة خاصة . . وإنما ينغمر وينغمس وسط الناس دون أن يدرى به أحد .

وفى ذلك الوقت أحست سيمون دى بوفوار أنها تكره اليمين فى السياسة . وأنها تميل إلى الماركسية . وأنها ليست شيوعية ولكنها ليست ضد الشيوعية . وترى أنه من الطبيعى أن يكون الإنسان يسارياً . .

وكان من المفروض أن تتزوج سيمون دى بوفوار أحد أقاربها . وكل شىء فى بيتها وأسرتها يدل على ذلك . ولكن تحدثت باريس عن علاقتها بالفيلسوف الشاب جان بول سارتر وحذرها أبوها . وحذرتها أمها برفق ثم بقسوة . ولكن سارتر كان قد ارتبط بها نهائياً .

وفى يوم بينما كانت تجلس فى إحدى الحدائق أمام تماثيل صامتة تنعكس على سطح الماء . وكانت تفكر هى فى هذه الصورة : صورة التماثيل . . والتماثيل وعيونها الجميلة التى لاترى . عندما رأت على سطح الماء ظلاً لرجل قصير القامة يرتدى قميصاً أحمر . وإلتفتت إلى القميص الأحمر فكان : جان بول سارتر . ولم تكد تبتسم حتى قال لها : اكتشفت نظرية جديدة !

وجلس يرتعش من الحماس عندما اقترب منهما رجل وامرأة فى غاية الغيظ . أما الرجل فقال لسارتر : أسمع ياجدع أنت أبعد عن ابنتى لأنها ستتزوج أحد أقاربها !

وكان المتحدث أباها طبعاً . ولكن سارتر لم يبتعد . وإنما وقف يناقش الأب . ووقفت سيمون دى بوفوار تقول لأبيها : إننا نشترك معاً فى تأليف كتاب عن كارل ماركس !

وكان الأب يكره كارل ماركس . فضايقه هذا . ولكنه فى نفس الوقت لا يتدخل فى حرية تفكير ابنته !

واعتاد الاثنان بعد ذلك أن يلتقيا سراً . وكانت هى تعلم بصفة مؤكدة أن سارتر لايصلح أن يكون زوجاً فهو لايطيق هذه العلاقات .

بل أنه كان على علاقة فى نفس الوقت مع فتاة غجرية جميلة . وكانت هى تعلم ذلك . وكان يحدثها عن هذه الغجرية . وفى يوم دعاها لزيارتها . ورأتها سيمون دى بوافوار . . إنها فعلاً جميلة أنيقة جداً . وتغطى صدرها بكثير من العقود ذوات الحبات الكبيرة . أما عطرها فصارخ ولكنها مع ذلك أنيقة ورشيقة وسارتر يحب الجلوس إلى النساء .

واتفق سارتر وسيمون على عدم الزواج . .

وقد اختار الاثنان لعلاقتهما الزوجية اسم : الزواج «المورجانى» أى الزواج بعقد . . أو زواج المتعة . .

فهو قد أطلق على نفسه اسم المليونير مورجان . . وهى طبعاً السيدة مورجان . وزواجهما «مورجانى» . زواج اثنين من أصحاب الملايين الوهمية . إنه زواج بلا عقد . وسيمون دى بوفوار لم تفكر قط فى أن يكون لها أولاد . فهى لا تحب الاطفال الصغار ، وانما تحب الأطفال فى مرحلة فقط من مراحل العمر . وهى مثل سارتر ليس لديها أى إحساس بالأسرة . فهى منعزلة تماماً عن أسرتها . وسارتر لايعرف أباه فقد مات قبل ولادته . ولم ير أمه إلا قليلاً . لأن جدته هى التى تولت تربيته . فليس لديه أدنى إحساس بأن يكون أخاً أو أباً أو زوجاً . ودنياه هى فقط أن يقرأ ويتكلم ويكتب . وأن الحقيقة الوحيدة المؤكدة فى كل حياته هى : ان يكتب ويكتب !

وتحركت سيمون دى بوفوار كثيراً . تنقلت فى فرنسا . وفى أوربا . وبعد ذلك سافرت إلى أمريكا .

وفى أمريكا أصدرت كتاباً عن يومياتها الذكية . . فهى تقول عن نيويورك : فجأة وجدت نفسى غريبة . لا شىء أعرفه . لا أحد يعرفنى . الدنيا التى كنت أخلقها كل يوم اختفت . . إننى الآن أمام دنيا جديدة . ألوان الأشجار والزهور التى كنت أخلقها بمجرد النظر إليها ، لم تعد موجودة . فقد كانت دنياى فى باريس كلها من صنعى افتح عليها عينى فى الصباح ، فأفتح عليها كل ينابيع الوجود والحياة . أما الآن . فأنا موجودة بعيدة عن باريس . أنا موجودة فى غياب مدينة باريس . وباريس فى غيابى . .

وتقول أيضاً سيمون دى بوفوار وهى فى أمريكا سنة ١٩٤٧ : أن العالم يأخذ طريقه إلى الوجود عن طريقى أنا . . عن طريق حواسى ومنطقى وذوقى . فأنا الطريق إلى العالم . . أنا الطريق إلى كل طريق فى العالم .

وتقول فى رواية «المدعوة» : عندما وقفت وحدى فى المسرح . . ظهرت المقاعد والستائر ورائحة السجائر وعطر النساء . كلها ظهرت عندما ظهرت . . فعيناى أعطتا الألوان وأذناى سمحتا بالأصوات . وأنفى هو الذى صرح بوجود العطور . أن وجودى فى المسرح هو أمر واجب النفاذ لأن يكون هناك شىء فى المسرح وفى أرض المسرح وفى جو المسرح .

وتقول عن السينما فى أمريكا : أن الصورة التى أراها على الشاشة تشبه المثل العليا التى حدثنا عنها أفلاطون . فأفلاطون يرى أن كل شىء جميل فى الدنيا له مثل أعلى فى السماء . . وهذه المثل العليا بعيدة عنا نقترب منها ولكن لا نلمسها . . والسينما الأمريكية تعكس صورة مثالية للعالم الأمريكى . . صورة تراها بعيدة ولا وجود لها فى واقع الحياة الأمريكية !

***

وسيمون دى بوفوار تشعر بالارتياح عندما تكتب . وقد بدأت الكتابة فى سن صغيرة . كتبت مذكرات ويوميات وكانت تعرض بعض أعمالها على سارتر . أما سارتر نفسه فكان بكتب كل شئ : القصة والرواية والمسرحية والقصيدة والزجل والفوازير وكان يؤلف الكثير من الأزجال فى سيمون دى بوافوار . وكثيرا ما كان يكتب الزجل الواحد فى مائة بيت فى جلسة واحدة ومناسبة عابرة . وكان فى استطاعته أن يكمل أية قصيدة ارتجالا !

وقد ساعدها سارتر كثيراً فى تعديل مسارها الفلسفى . وإن كانت هى ترى أن الفلسفة لم تفدها شيئا . فالفلسفة لم تفتح لها أبواب السماء ، ولم تكشف لها كنوز الأرض . . وإنما علقتها فى الهواء . وسارتر نفسه كان يضيق بالأفكار الفلسفية المجردة . ولكن متعته الكبرى هى : الناس والعلاقات الإنسانية والمجتمع والسياسة . وشئ آخر غريب وعجيب : هو الفراسة ، فهو يهتم كثيراً جداً بقراءة ملامح الناس . وكثيراً ما أخذ ألبومات الصور وقارن بين جميع أفراد الأسرة !

والأديبة سيمون دى بوافوار لا تتردد فى أن تقول أن كتابها «الجنس الثانى» هو أحسن كتبها . . ففى هذا الكتاب درست تاريخ المرأة وناقشت قضاياها فى كل التاريخ دون أن تشعر بالرثاء لها . وإنما درستها بكثير من العطف والمنطق ولم تشعر فى نفس الوقت بالعداء للرجل .

وترى أن روايتها «المثقفون» هى أحسن ما كتبت من الروايات .

أما ترجمة حياتها فهى ترى أنها لم تكمل بعد . .

فقد صدرت منها ثلاثة أجزاء : مذكرات فتاة متزنة . . وقوة الأشياء . . وقوة العمر . وربما كان الكتاب الصغير الذى كتبته عن أمها بعد أن ماتت من أرق وأجمل الكتب التى صدرت فى الأدب الحديث . فهو كتاب صغير بعنوان «موتة هادئة جداً» . ويمكن اعتباره الجزء الرابع لتاريخ حياتها . . .

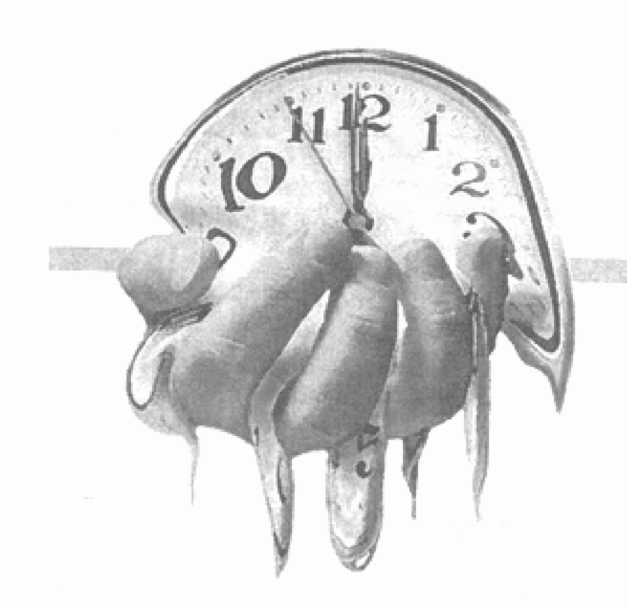
***

وهناك مشكلة فى حياة سيمون دى بوفوار . .

وهى لاترى أنها «مشكلة» . ولكن الناقد أو المؤرخ لابد أن يراها كذلك . فهى أدبية ممتازة ولكنها وقعت فى المجال المغناطيسى لفيلسوف وجودى عظيم هو سارتر وتأثرت به جداً . وارتبطت به وعاشت معه أكثر من ثلاثين عاماً من عمرها ، لايفترقان . فلابد أن يكون الفيلسوف قد ألقى ظلاله وضياءه عليها . ولابد أنها تشعر برغبتها فى أن تبدو مستقلة عنه . ولابد أن تختلف عنه فى كثير من قضاياها . حتى لايظهر أثره واضحاً . . وهى لذلك تؤكد اختلاف وجهات النظر وتؤكد أن سارتر ذكى بارع المنطق . ولكن هذه البراعة فى المنطق تستند أحياناً إلى مغالطات عميقة .

وهى فى نفس الوقت مطالبة دائماً بأن تتحدث عن سارتر . ولكن أحداً لم يطالب سارتر بأن يتحدث عنها .

ولكن من المؤكد أن سيمون دى بوافوار كاتبة ممتازة . بل هى أبرع كاتبة معاصرة . وهى واحدة من السلسلة الرائعة التى بدأت بجورج صاند وكوليت . ولكن الفارق الواضح بين أديبات فرنسا وسيمون دى بوافوار أنها أكثرهن عمقاً وأكثرهن جدية . . ولكن لن ينصفها المؤرخون . . لأن من الصعب على أى أحد الآن - وغداً ، أن يفرق بين رأيها ورأى أستاذها وصديقها : سارتر !



ديناميت السلام

الكاتب

الأمريكى أرفنج والاس ، قابل أحد السويديين مصادفة . . وجلس إليه طويلاً . وكان الحديث بينهما سخيفاً مملاً ، وكان السويدى هو الذى يتكلم عادة ، وتوقف الكلام لحظة .

وجاء الدور على أرفنج ولاس ليتكلم فسأله : وما الذى تعمله فى هذه البلاد ؟

وكان رد الرجل السويدى : لا أعرف إن كان هذا الذى أقوم به يعتبر عملاً . . على كل حال أنا أحد أعضاء لجنة التحكيم فى جائزة نوبل ! .

ويقول أرفنج والاس ، وكان فى ذلك الوقت فى السويد سنة ١٩٤٦ : وقررت أن أكتب قصة عن جائزة نوبل التى يتحكم فيها أناس فى مثل غباوة وبلاهة هذا الرجل .

ومنذ ذلك الوقت وهو مشغول بالقراءة عن تاريخ حياة الرجل السويدى (الفرد نوبل) ، الذى أوصى بهذه الجائزة . والناس الذين يتربعون فى الأكاديمية السويدية للعلوم ، والأكاديمية السويدية للآداب ، ثم الناس الذين يختارهم البرلمان النرويجى ليختاروا جائزة السلام . وظل الكاتب مشغولاً بهذه الجائزة ١٥ عاماً . حتى تجمعت له مواد ووثائق غريبة ومعلومات شاذة .

وكانت روايته الطويلة المعرونة باسم «الجائزة» . . . .

وهذه الجائزة تعطى كل عام فى خمسة فروع من فروع النشاط الإنسانى : فى الكيمياء وفى الطب وفى الفسيولوجيا وفى الأدب . . ثم فى السلام .

وقد أعطيت هذه الجائزة منذ ١٩٠١ ، ولم تتوقف إلا فى أوقات الحروب . . ولا تزال جائزة نوبل هى أعظم الجوائز فى العالم ولا تزال الحلم الذى يداعب كل عالم وكل مخترع وكل أديب وكل داعية للسلام .

ونوبل صاحب هذه الجائزة مخترع سويدى من أسرة فيها عدد كبير من الناس الممتازين . فأبوه الذى لم يدخل مدرسة ، ولا جامعة كان مخترعاً ، رغم أنه لايكتب إلا بصعوبة شديدة ، ولكن كان هذا الأب على جانب كبير جداً من الذكاء والفهم ، وكان لايتعب من العمل ، وكان من أمنياته أن يخترع الإنسان نوعاً من الحبوب تجعل الإنسان يستغنى عن النوم نهائياً ، وكان يخاف من أن يموت قبل أن يصل إلى هذا الاختراع . فإذا كان المصباح الكهربائى قد أطال النهار ، وجعل الليل استمراراً للنهار . . فإن هذه الحبوب ستطيل ساعات اليقظة أيضاً ، وتجعل الليل استمراراً نفسياً وعقلياً للنشاط الذى يقوم به الإنسان فى النهار .

وكان رأس الأب مليئاً بالاختراعات ، وكان يشكو من الطنين المستمر فى رأسه ، وضاقت به السويد ، ولم يعرف بالضبط ما الذى كان يجب أن يعمله ، ولا ما الذى يجب أن يبدأ به ، وسافر إلى روسيا ، وهناك طالبته الحكومة بأن يستمر فى تزويد الجيش الروسى بالأسلحة وخصوصاً الألغام التى يضعها تحت الماء بالقرب من السواحل . وكانت روسيا فى ذلك الوقت مشغولة بحرب القرم ، وبعد نهاية الحرب اشتغل الرجل بصناعة الأسلحة ، ثم انفجر البيت والمصنع الذى كان يسكن فيه ، وعاد إلى السويد ، ولكنه لم يتعب . وبعد سنوات انفجر البيت الذى كان يعمل فيه . . وانفجر معه المصنع الصغير الذى أقامه لصناعة نوع من المواد المتفجرة .

ومات الأب تاركاً وراءه ثلاثة من الأبناء : روبرت وكان أحد المخترعين أيضاً ، والذى قام بكثير من التطوير والتنظيم لاستخراج البترول من آبار باكو .

ولورينج الذى أقام مصنعاً للأسلحة فى روسيا . .

ثم الفرد نوبل الذى ولد فى أكتوبر عام ١٨٣٣ . .

والفرد هذا لم يدخل مدرسة . . ولم يدخل جامعة . . وإنما كان أكثر حساسية من أخويه ، وأضعفهما جسماً وأقصر منهما ، وكان عصبياً ، بل أن عصبيته تبدو

واضحة على ملامح وجهه ، وعلى حركاته . . فهو لايثبت على وضع واحد إذا جلس . . ولا يثبت على ساق واحدة إذا وقف ، ذهنه شارد ، وهو فى الغالب يقول كلاماً يدهشك ويصدمك ، ولايدرى أحد إن كان جاداً أو هازلاً ، وأن كان يتحدث إليك أو يتحدث إلى نفسه .

وكان ألفرد أكبر من سنة . . وأوسع أفقاً من كل الأطفال والشبان فى وقته . . فقد استطاع أن يتقن الروسية والألمانية والفرنسية والإنجليزية ، ويكتب بها ويتكلمها بطلاقة تامة .

والذين يسمعون عن جائزة نوبل ، يعرفون فقط أن هذا الرجل الذى اسمه ألفرد نوبل مخترع سويدى وأنه اخترع الديناميت . وأنه أراد أن يكفر عن هذا الاختراع الجهنمى بأن ترك وصية بإنشاء عدة جوائز لتشجيع الذين يقومون بأعمال فى خدمة الإنسانية والعمل من أجل السلام .

ولكن الحقيقة أن هذا الرجل غير ذلك . . إنه شىء آخر غير هذه السطور القليلة ، وإنه إنسان من نوع غريب ، وليس من السهل أن تصادف مثله إناساً كثيرين حتى بين العباقرة ، فهو صورة باهرة مرتجفة متناقضة .

وربما كانت حياة الفرد نوبل ترتبط بالأبحاث التى قامت على مادة النتروجلسرين التى اكتشفها من قبله عالم إيطالى سنة ١٨٤٧ . وسجل نوبل رخصة هذا الاختراع الجديد فى أكتوبر عام ١٨٦٣ ، فقد أفلح نوبل فى تفجير النتروجلسرين ، ثم اخترع مفجراً جديداً ، وأطلق على هذا المفجر اسم «ولاعة نوبل» .

وفى ذلك الوقت سجل أبوه اختراعه للبارود . . ولكن الأب وقف أمام معضلة كيميائية ، فاستدعى ابنه من باريس ليعاونه فى حل هذه المعضلة ، وحضر الابن واكتشف أن البارود الذى اخترعه أبوه لاقيمة له ، أو على الأصح ليس شديد الانفجار ، وقام نوبل باجراء تجارب جديدة على هذا البارود ، ونجح ألفرد نوبل ، ثم أنشأ بالاشتراك مع الأب مصنعا للنتروجلسرين فى ضواحى استوكهلم ، وانفجر

المصنع وراح ضحيته الأخ الأصغر لألفرد نوبل . . وكانت صدمة عنيفة لم يتحملها الأب ، فمات بعدها بأسابيع .

وتوقف الفرد نوبل ، وأصيب هو الآخر بحالة نفسية سيئة جداً ، ولكنه عاد ، كأنه جهاز دقيق توقف بعض الوقت ، واستأنف نشاطه ، واخترع الديناميت وسجل هذا الاختراع سنة ١٨٦٧ .

والذى يلتفت إلى حياة هذا المخترع المشهور فى ذلك الوقت يجد أنه كان دائماً على سفر . . من السويد إلى القارة الأوربية لينشىء مصانع جديدة ومعامل جديدة ، ويتعاقد على اتفاقات مالية ، ويشترك فى إدارة هذه المعامل ولكنه كان يقضى معظم وقته فى باريس ، ومعظم وقته يقضيه فى المعامل ، فلم تكن له حياة اجتماعية . ولا حياة بالمعنى المفهوم .

وكان حينما يكتب يفضل الكتابة بالإنجليزية ، وحينما يختار خدمه فى البيت ، كان يفضل الفرنسيين ، وحينما يبعث برسائله ، كان يكتبها بالألمانية ، ومن النادر جداً أن يكتب باللغة السويدية !

وهكذا عاش نوبل ، بلا بيت حقيقى . . ولا وطن محدود ، ولا لغة واحدة .

ولما سافر إلى فيينا وكان قد تجاوز الأربعين ، نشر إعلاناً متواضعاً فى الصحف يطلب سكرتيرة له ، وكان الإعلان يقول : «غنى عجوز يريد سكرتيرة عندها ثقافة واسعة . . وجاءت السكرتيرة وكانت فتاة من أسرة نبيلة فقيرة . وعملت فى بيت ألفرد نوبل ، وكانت نقطة تحول فى حياته .

ويبدو أنه أحبها ، وحينما سألها فى أحد الأيام إن كانت خالية القلب ، أجابت بأن قلبها مشغول بحب أحد الأغنياء ، وأن أهله رفضوا زواجه منها . . لأنها أولاً فقيرة . . وثانياً لأنها تكبره ببضع سنوات .

وبعد ذلك انفصلت هذه السكرتيرة عن نوبل وتزوجت الشاب الذى تحبه . ثم التقت بنوبل فى سويسرا ، وكانت فى ذلك الوقت تدعو للسلام والمحبة بين الناس ، وربما كانت هذه السكرتيرة هى التى جعلت نوبل يوصى بجائزة للسلام بعد ذلك .

وقد حدث بعد وفاة نوبل أن ثار الرأى العام فى السويد على هذه الجوائز التى سجلها نوبل فى وصيته ، واتهموه بعدم الوطنية ، لأن قيمة هذه الجوائز ستعطى لعلماء وأدباء أجانب . . ثم لأن جائزة السلام سيقررها البرلمان النرويجى وليس البرلمان السويدى . . وحدث أيضاً أن ملك السويد استدعى أحد ورثة ألفرد نوبل وطلب إليه أن يغير فى الوصية ، وخصوصاً ما جاء بشأن جائزة السلام التى تقررها دولة أجنبية . . فرفض هذا الوريث . . وعاد الملك يقول له أن ألفرد نوبل كان تحت تأثير امرأة خيالية مجنونة ، وكان يعنى هذه السكرتيرة النمساوية ، ورفض الوريث أيضاً .

وكان فى نية الملك أوسكار ، ملك السويد فى ذلك الوقت ، أن يقول أيضاً : أن ألفرد نوبل كان فى أواخر أيامه مختل القوى العقلية . ولكنه لم يقل ذلك طبعاً .

والحقيقة أن نوبل كان مختلاً منذ البداية ، وكان متزناً جداً منذ البداية ، ولا أحد يعرف بالضبط أى نوع من الناس ، كان هذا الرجل .

فهو كان يشكو من الوحدة ومن المرارة . . مع أن الناس الذين حوله كثيرون ، وكان يقول : إننى أفضل الحياة مع أصدقائى الصامتين : مع الأشجار والغابات . . وأهرب من المدن الكبرى ومن الصحارى .

وكان يقول : لايوجد فى الدنيا أصدقاء . . إننى أستطيع أن أعثر على الأصدقاء بين الكلاب التى تعيش على لحوم البشر ، وبين الديدان التى تعيش على لحوم الكلاب .

وكان يقول أيضاً : أن المعدة التى عندها شعور بالجميل ، والقلب الذى لديه شعور بالجميل : توأمان . .

ويقول أيضاً : إننى أخاف من الوحدة . . إننى أخاف أن أموت ولا أجد الصديق الذى يهمس فى أذنى بكلمة . والذى يلمس يدى فى رفق ، والذى يطبق جفنى حينما أموت .

وقد تحققت مخاوف ألفرد نوبل ، فقد مات فى فيلا يملكها فى سان ريمو بإيطاليا .

ولم يكن حوله أحد يهمس فى أذنية بكلمة ولا يلمس يده برفق ، ولا يطبق جفنه . . ومات فى إيطاليا يوم ١٠ من ديسمبر سنة ١٨٩٦ ، وأطبق جفناه فى السويد ، وكان ألفرد نوبل قد أوصى بأن يكشف الغطاء عنه ، حتى يتحقق الأطباء من أنه سيدفن ميتاً ، فقد كان يخشى أن يدفنوه حياً . . كما مات أبوه من قبل ، فقد دفنوه ، مع أن الحياة لم تفارقه إلا وهو فى قبره !

ثم أحرقوه بعد ذلك ، بناء على وصيته !

لقد عاش مخترع الديناميت ، كشظية ملتهبة حائرة بين العواصم . . وفى كل عاصمة كانت تحول هذه الشظية إلى عشرات من الشظايا تجمعت بعد ذلك فى كفن واحد وانفجر مرة واحدة ، وتحول إلى رماد .

ولم يكن الفرد نوبل قد كتب فى وصيته الاولى ، أن يكون الأدب ضمن النشاط الإنسانى الذى يستحق الجائزة ، ثم عاد فغير هذه الوصية وألغاها ، ونص فى الوصية الجديدة على أن تعطى جوائز للأدباء من غير تفرقة بين الأوطان والأديان ، وربما كان سبب ذلك التغيير هو الصعوبات التى وجدها هو نفسه فى التأليف الأدبى ، فهو قد حاول نظم الشعر ، ونظم قصائد باللغة الإنجليزية وعرضها على أحد القساوسة ، وأعلن هذا القسيس أن هذا الشعر يعتبر من الأدب الرفيع ، وأنه يشك فى قدرة أى إنجليزى على أن ينظم بهذه العظمة .

ثم ألف نوبل أيضاً مسرحية شعرية بعنوان «اللغز» وأهداها إلى سيدة إنجليزية وسألها رأيها فى ذلك ، وكتب إليها يقول : إنها من الشعر المتحرر من القافية ومن المعنى أيضاً . . فأمامك الآن صورة سخيفة لمعنى أسخف فى عقل رجل مثلى !

وله مشروع كتاب بعنوان «الأخوات» تناول فيه السياسة والإصلاح الاجتماعى .

ومشروع كتاب بعنوان : «فى أفريقيا» .

وأغرب من هذا كله أنه كتب مشروع مسرحية مليئة بالرعب والأشباح . . وقد أخذ عنوانها من مسرحية أخرى لشاعر إنجليزى كان يحبه . . فقد كان يحب الشاعر

شيلى ، وكان يعتقد أن شيلى هو أعظم شاعر فى الدنيا . . وخصوصاً «بروميثيوس طليقاً» فقد كانت لمحات شيلى الشاعرية نوعاً من التنبؤ بالاختراعات العلمية الحديثة ، وقد تحققت كل نبوءات شيلى . . كالقطار والتلغراف والأجهزة المغناطيسية .

ولا أحد يعرف بالضبط ما الذى كان يراود المخترع الكبير من أفكار غريبة . فمن أفكاره الغريبة أن يبنى قصراً على الريفيرا ويضع فى القصر كل مؤلفات الشاعر شيلى ، ثم يضع فرقاً موسيقية فى كل جوانب القصر وحدائقه . بشرط أن يخصص هذا القصر للذين يفكرون فى الانتحار ، بدلاً من أن يلقوا بأنفسهم فى مياه نهر السين القذرة !

وكان ألفرد نوبل يشك فى كل شىء . . فى الله . . وفى الناس . . وفى القيم الخلقية . . وكان يعتقد أن الناس كلهم شظايا فى قنبلة واحدة . وأن الذى يفجر الناس ويمزقهم هى مصالحهم فقط . . وأن الذى يعيش مع الناس وبالناس وللناس ، إنما يعيش فى قنبلة زمنية ، تتفجر فى أى وقت !

عاش نوبل فى ضجة كبرى . . شهرته كانت صدى للانفجارات التى أطلقها فى كل العالم . . وبعد مماته كانت وصيته هى أكبر قنبلة انفجرت فى أوربا ، فقد أوصى باستثمار الملايين التى كسبها من الديناميت ، ومن فوائد هذه الملايين أوصى بإنشاء مؤسسة تمنح الجوائز للأعلام والعباقرة من الدنيا كلها دون تمييز . .

ويوم ١٠ من ديسمبر من كل عام تتلألأ السويد فى عيد من أعيادها القومية والعالمية أيضاً ، حينما يقيم الملك حفلة استقبال كبرى لتوزيع هذه الجوائز الخمس ، فى اليوم نفسه الذى مات فيه ألفرد نوبل فى بيته الأنيق فى إيطاليا .

***

ومن هذا الجو الغريب فى السويد ، ومن الضجة التى تحدثها هذه الجوائز ، إذا منحت ، وإذا لم تمنح ، ومن الحياة الشخصية للفائزين ، وأعضاء لجان التحكيم ، ومن المحاضر الخاصة بالجلسات التى تناقش فيها قيمة المرشحين للجوائز ، ومما حدث بالفعل ، من هذه الخيوط الملتهبة ، والعقد السحرية السرية ، نسج الكاتب الأمريكى أرفنج والاس هذه التحفة الرائعة التى ترجمت إلى ٢٥ لغة عالمية . .

يقول المؤلف إنه كان فى السويد فى سبتمبر سنة ١٩٣٦ يعيش فى ذلك الخريف الجميل ، حينما استمع إلى الموسيقى الملكية فى القصر الملكى وهى تعزف أجمل الألحان استعداداً لأسبوع جوائز نوبل . . وفى ذلك العام نفسه بدأ يرسم شخصيات قصته هذه ومايجرى وراء الكواليس حتى يظهر الفائز ويهز الدنيا وتنشر كتبه . . ويعود ملئ الجيب بالنقود ، وتتغير نظرته إلى الدنيا ، ونظرة الدنيا إليه ، إنه فاز بجائزة نوبل ، وهذا يكفى ، بل أن هذا فوق الكفاية .

وفى أحد فنادق باريس فى يوليو سنة ١٩٦٠ بدأ يكتب هذه القصة ، وأنهاها فى أكتوبر سنة ١٩٦١ بأحد فنادق لوس أنجيلس بأمريكا .

ويعترف المؤلف ، وينبه القارئ ، إلى أن هذه القصة من أولها لآخرها من اختراع خياله ، كل ما فيها من حوادث قد اخترعها وكل الأسماء التى جاءت فى القصة لا وجود لها ، وأى تشابه بينها وبين أشخاص حقيقيين ، هى مجرد مصادفة ، ثم إن البرقيات التى أرسلت للفائزين من اختراع المؤلف أيضاً . ولكن المواقع التى يصفها فى ستوكهلم موجودة حقيقة ، وقد زارها المؤلف ، وكل إجراءات الحفلات ومنح الجوائز صحيحة أيضاً .

وكل المعلومات والأوصاف والأحداث التى وقعت للفائزين الحقيقيين بجوائز نوبل فى الخمسين سنة الماضية صحيحة مائة فى المائة ، وقد رجع المؤلف إلى عشرات الكتب ، ومئات الوثائق وتحقق منها بنفسه ، وقد قابل المؤلف عدداً كبيراً من الفائزين بجوائز نوبل وسألهم عن حوادث معينة وعن تفصيلات عامة . . قابل إينشتين وميليكان وبيرل بك وأندست . . وغيرهم . . ووقف على أدق التفاصيل بنفسه .

ثم وصف كل التصرفات الصبيانية التى يقوم بها أعضاء لجان التحكيم . . ووصف التيارات السياسية والعنصرية وراء هذا كله ، وانتهى إلى أن جائزة نوبل هذه فضيحة عالمية . . هل تتصور أن دول اسكندناوة التى هى السويد والنرويج والدانمارك تفوز بإحدى وثلاثين جائزة ، مع أننا لا نعرف أحداً من كل هؤلاء الفائزين !

هل تتصور أن سكرتيرة ألفرد نوبل النمساوية تفوز بجائزة نوبل للسلام ؟

هل تتصور أن الرجل الذى صلى على جثة نوبل يفوز بجائزة نوبل للسلام ؟

هل تتصور أنهم منحوا هذه الجائزة لرجل مات ، لأن أرملته كانت فى حاجة إلى نقود !

هل تتصور أن هتلر هدد النرويج إذا هى منحت جائزة نوبل لرجل إلمانى شتم هتلر ؟

هل تتصور أن جائزة نوبل لا يعطونها للروس . . لا تولستوى ولا جوركى ولا تشيخوف حتى العالم الكبير بافلوف قد ترددوا فى إعطائها له إلا بعد أربع سنوات . .

وأخيراً جداً أعطوها لشولوخوف !!

وقبله أعطوها لباسترناك الذى رفضها !

والرجل الروسى الذى اخترع اللاسلكى قبل ماركونى لم يمنحوه هذه الجائزة . وتولستوى لم يفز بالجائزة مع أن اسمه ظل معروضاً سنوات طويلة ، وربما كان السبب هو أنه مشهور أكثر من اللازم . . ومع أنهم حاولوا إعطاء جائزة للأدب مرتين للكاتب الألمانى توماس مان ؟!

ولم يفز بهذه الجائزة العالم الكبير فرويد !

ومع أن الكثيرين جداً رشحوا اسمه ، حتى عندما بلغ الثمانين ، على أن يأخذها فى الأدب . . لا فى الطب ، ولا فى علم النفس . مع أنهم أعطوا تشرشل جائزة الأدب ؟!

ولم يفز بها الكاتب النرويجى أبسن !

ولا فاز بها الفيلسوف الإيطالى كروتشه . .

ومنحت هذه الجائزة لأناس لا وزن لهم . . بل أن أحداً لا يعرفهم . . من هو كرافلت ؟ إنه كاتب معروف فى السويد فقط ! من هى جبرييله مسترال ؟ شاعرة من شيلى . . من هى الشاعرة جراتسيا داليدا ؟ إنها شاعرة إيطالية تافهة . . ومثلها الشاعر الإيطالى كوازيمودو ، والشاعر اليونانى سفيرس والشاعر الفرنسى سان جون برس . . والأديب اليوغوسلافى أندريتش . .

فى هذه الرواية المثيرة جداً التى كتبها أرفنج والاس ، تجد الدراما ، والحبكة البوليسية والحقائق العلمية والفلسفية كلها فى كوكتيل جميل .

ففى القصة ست شخصيات عالمية وفتاتان . . .

الشخصية الأولى هى شخصية الأديب الأمريكى كريج ، وهذا اسم وهمى طبعاً . . وهو رجل متهور باستمرار ، خصوصاً بعد مقتل زوجته فى حادث سيارة ، ويعتقد أنه هو إلى حد ما مسئول عن هذه الجريمة ، يسافر إلى ستوكهلم ومعه أخت زوجته التى ترى نفسها مسئولة عنه وعن حياته . وتطمع فى الزواج منه .

ولكن الكاتب الأمريكى كريج تتعثر مشاعره حينما يصادف أميلى ابنة أخ العالم الأمريكى ستراتمان ، وهو يهودى ألمانى الأصل وحينما يشعر نحوها بأنها ستكون نقطة تحول فى حياته ، ولكن أميلى تروى ما لاقته من فظائع فى معسكرات الاعتقال ، وتنتظر ماذا يُحدث ذلك من أثر . . وفى هذه الأثناء تلتقى بكريج ممثلة سويدية عجوز تريد أن تستعيد مجدها بقصة من قصصه . . وتظهر أيضاً فتاة سويدية عضو فى إحدى مستعمرات العراة . . هذه الفتاة تصدمه بفلسفتها فى الحياة ، وبحياتها الاجتماعية الغربية . . وعلى لسان هذه الفتاة يعرض المؤلف الحياة الاجتماعية والجنسية فى السويد بصورة دقيقة جداً ومفصلة ومثيرة أيضاً .

وفى ستوكهلم يحاول الشيوعيون خطف عم الفتاة أميلى ، وينقذه كريج ، وفى هذا الوقت تظهر مهزلة الصراع بين اثنين من أطباء واحد منهم أمريكى اسمه جاريت ، وواحد إيطالى اسمه فاريللى ، والاثنان يشتركان فى جائزة واحدة عن تزريع القلب . ويحاول واحد منهما أن يسرق الجائزة من الآخر ، وهنا يدخل الجواسيس ويستحضرون وثائق تدين الطبيب الإيطالى بأنه كان ضمن الذين اشتركوا فى تعذيب المساجين فى المعتقلات الألمانية .

ويظهر أيضاً عالم فرنسى وزوجته هما الدكتور كلود مارسو وزوجته دنيس مارسو . . والاثنان فازا بجائزة نوبل فى الطب لأبحاثهما عن الحيوانات المنوية ، والاثنان يصلان إلى السويد ، ولهما حساب قديم لم تتم تسويته بعد . . فالدكتور كلود يحب عارضة أزياء اسمها جيزيل ، وحينما وصلت برقية من ستوكهلم تخبره بأنه فاز بالجائزة كان فى أحضان جيزيل ، وكانت زوجته تطلبه بالتليفون وهى تعرف أين هو ، وتحضر جيزيل إلى السويد فى نفس الوقت الذى تقرر الزوجة أن تخون زوجها لعلها تثير غيرته أو تنتقم منه مع شاب يشتغل لحساب أحد الجواسيس ،

ومهمة هذا الشاب أن يعرف من الدكتورة دنيس مرسو سر الأطعمة الصناعية التى اهتدت إليها مع زوجها .

وفى هذه القصة صفحات عارية مثيرة . .

فقد شاء المؤلف أن يكون فاضحاً لما يجرى أمام ووراء الأبواب النحاسية لهذه الأكاديمية التى لها كل صفات المعابد . . ولكل هيئة التحكيم فيها صفات الكهنوت . .

فوراء هذه الأبواب العالمية روائح البخور ، وطقوس الزار ، وصليل السلاسل ، ودوى الأجراس ، ومسوح الكرادلة . .

والحقيقة شئ آخر . .

فلا أيديهم ثابتة . ولا مقاييسهم متزنة ، ولا عيونهم ستة على ستة ، ولا الفائزون من أعظم الأدباء وأعمق المفكرين . .

فهذا غارق فى الخمر . .

وهذا غارق فى الخيانة الزوجية . .

وهذا يتجسس على ذاك . .

والذين يحكمون على الأديب الفلانى بأنه أعظم المفكرين ، لا يعرفون شيئاً من الفكر العالمى . . ولا يعرفون لماذا لم يفز تولستوى ، ولماذا لم يفز فرويد ؟ !

فهم لا يعرفون ولا يعنيهم أن يعرفوا . .

فلا هى جائزة مابعدها جائزة . . ولا هو شرف مابعده ولا قبله شرف . .

فالذين لم يفوزوا بها يجب أن يهنئوا أنفسهم ، والذين فازوا بها كثيراً ما اعتذروا أمام لجنة التحكيم وأمام ملك السويد عن أنهم فازوا . . وكثيراً ما قالوا وهم صادقون - إنهم لا يستحقونها . وإنما يستحقها أناس آخرون غيرهم . ولم يكن ذلك تواضعاً منهم . وإنما بعض هذا تواضع . وأكثره صدق وفهم حقيقى للتيارات الملفوفة أو الملتوية التى تحرك لجان التحكيم . .

فهى جائزة «جائرة» .

كانت فى بادئ الأمر ، من أجل هدف نبيل .

ولكنها أصبحت الآن هدفاً وغاية لشىء آخر . .

أما هذا الشيء الآخر ، أو الأشياء الأخرى ، فقد فضحه المؤلف . . وعراه وضحك منه ، وهو يطلب إليك ، وإلى الرأى العام العالمى ، أن يضحك ، وأن يطمئن على مقاييسه فى الأدب وأوزانه فى النقد ، وأعماقه فى كشف الحقيقة . .

***

وأنا أبادر فأعترف بأننى عندما ترجمتها قد حذفت عشرات الصفحات وقد غطيت الكثير جداً من الصفحات بأوراق التوت . .

وهذا يفسر بعض البقع السوداء بين السطور . . وبعض القفزات بين المقدمات والنتائج . . فقد شاء المؤلف الأمريكى أن يجعل كل شىء عارياً تماماً . . كما ولدته أمه . . أى كما ولدته قريحته ، وقد تسللت من قلمه إلى الورق . .

فقط غطيتها ببعض أوراق التوت . .

حتى هذه الأوراق جعلتها صناعية . . أى شفافة إلى حد ما . . حتى لا أحجب الجو الفنى الضرورى لهذه القصة ، عن العين التى ترى ، وعن العقل الذى يتابع ويفكر . .

فالمؤلف قدم أفكاره على شكل عارضات أزياء يعرضن ملابس الصيف . . من قطعة ومن قطعتين . .

ودون أن أستأذن المؤلف ، راعيت فروق التوقيت . .

وفروق التوقيت تقول أنه من المناسب أن تظهر عارضات الأزياء وهن يرتدين أزياء الربيع ، ولا أقول الشتاء . .

فليس الجو بارداً إلى هذه الدرجة . . ولا هو متزمت إلى هذا الحد . .

فى هذا الجو المشحون بالأسرار والجنون والسياسية والتعصب والغموض ، يروى لنا أرفنج والاس أجمل قصة مدروسة يمكن أن تقرأها فى الأدب الأمريكى .

وأرفنج والاس يتناول شخصياته الواحدة وراء الأخرى . . ثم يخفيها الواحدة وراء الأخرى ، ويعود فيظهرها من جديد كأنه أحد الحواة . . وهو فى الحقيقة ليس حاوياً ، ولكنه ساحر متمكن من فنه . . فعنده المادة ، وعنده الذكاء والصناعة ، ومن هذه العناصر كلها قدم لنا أجمل رواية ، عن أشهر مؤامرة أدبية وعلمية فى العالم . . قدم لنا رأياً – رأيه هو – فى جائزة نوبل . . التى بدأت جائزة عالمية . وصارت مؤامرة عالمية !



فتاة تسرق عصا شيكسبير

الإغريق

كانوا أقدر شعوب العالم على اختراع أنواع عجيبة من العذاب مثلاً : ماهى عقوبة الرجل الذى قتل ابنه ؟ عقوبة هذا الرجل أن يذهب إلى جهنم . ولكنها عقوبة عادية . ولذلك يخترعون أنواعاً أخرى من العذاب فى داخل النار يجعلون هذا الرجل يجلس فى بحيرة من الماء والشمس فوق دماغه . والماء يرتفع إلى شفتيه ، فإذا أغمى عليه ، نزل الماء إلى قدمه . . كل لحظة وإلى الأبد ولكن هذه عقوبة عادية ، ولذلك يجعلون غصناً لشجرة تفاح ينزل فوق دماغه حتى شفتيه فإذا مد لسانه تراجع عصن التفاح . كل لحظة وإلى الأبد . . وهذه العقوبة لا تكفى .

ولذلك يجعلون حجراً هائلاً يهوى إلى ما قبل رأسه بمسافة قصيرة - ويتوقف . ويصاب الرجل بالرعب . ثم يرتفع الحجر ليسقط مرة أخرى . كل لحظة وإلى الأبد . . . وكان اسم هذا الرجل المعذب : تنتالوس . .

ولم تكن نعرف ونقرأ هذا الإبداع فى العذاب إلا أنها صورة أدبية جميلة مخيفة . . . ولكن لم يخطر على بال أحد أن ينفرد الرئيس جونسون بهذه الأنواع من العذاب كلها . وكل لحظة وكل ليلة .

فبعد أن اتهمته أرملة كنيدى بأنه رجل قليل الذوق .

وأن زوجته لم تخف فرحتها . ولم تترك لحظة واحدة دون أن تعلن بوضوح بعد اغتيال كنيدى بدقائق ، أنها سيدة البيت الأبيض . وأرملة كنيدى أشارت من بعيد إلى أن جونسون من الممكن أن يكون أحد المسئولين عن اغتيال كنيدى ، وتركت

هذه التهمة معلقة . منشورة ومطبوعة فى عشرات الملايين من المجلات والصحف ومئات الألوف من كتاب (موت رئيس) الذى أملت صفحاته على المؤلف مانشستر . ولم يشأ جونسون أن يرد . وهذا الامتناع عن الرد معناه : أن أرملة كنيدى سيدة حزينة . وأن الحزن قد أخرجها من عقلها . وأنها معذورة وأنه لايريد أن يدخل فى معركة . وعدم دخوله فى المعركة معناه أنه ليس طرفا . وأن مقتل كنيدى فى بلدة جونسون مجرد صدفة . وأنه شخصياً لم يحاول أن يمنع كتاب (موت رئيس) من الصدور . وإنما الذين حاولوا هم أفراد أسرة كنيدى . فهم الذين أحسوا بالحرج وهم الذين شعروا بالندم ، وهم الذين حرصوا على ألا تكون هناك معركة . وبذلك يكون جونسون قد كسب موقعة فى هذه المعركة الدامية الغامضة .

ولكن العذاب الإغريقى الرائع هو الذى يعانيه جونسون من نوع آخر . .

ففى نيويورك تظهر كل ليلة مسرحية اسمها (ماكبرد) – على وزن وعلى نمط ماكبث لشكسبير – هذه المسرحية من تأليف السيدة / بربارة جارسون (٢٩ سنة) . وهى سيدة ثورية تخصصت فى دراسة التاريخ اليونانى . . وزوجها كان زميلاً لها فى الدراسة وتخصص فى تاريخ أمريكا . وهذا الزوج الثورى فوضوى وقد طردته الجامعة لأنه أقام محاكمة للمسيح . ثم انتهت هذه المحاكمة بأن المسيح يستحق الصلب .

ومسرحية (ماكبرد) هذه من أربعة فصول والمؤلفة قد اختارت (ماكبرد) لأن زوجة جونسون اسمها : ليديبرد . . والمسرحية قد اختارت خطوط مسرحية شيكسبير الخالدة (. . و ماكبرد) أو ماكبث هو جونسون الذى تنبأت له الساحرات بأنه سوف يكون ملكاً . ولم يكد جونسون يقول لزوجته ذلك . حتى تحركت كل عناصر الشر والطموح فيها . . وعندما زارهما الملك فى قصرهما ، وعند منتصف الليلة . صحت مطامع المرأة ، ومع عواء الذئاب ومع أشباح الموت قالت لزوجها : الليلة . . وإلا فلن تكون ملكاً . الليلة . . إنك تستطيع أن تقضى عليه فى ثانية . وبعد هذه الثانية تغسل يديك لتضع التاج على رأسك .

ويتردد جونسون فالملك لم يسئ إليه . بل أنه أعطاه أعلى النياشين . وجعله فارساً وبطلاً . ولكن اتهمته زوجته بالجبن والتردد . وأمام اتهامات الزوجة أمسك

الخنجر وذهب إلى كنيدى وقتله ، ولكن فى هذه المسرحية يتم اغتيال وراء الستار . ويعود جونسون إلى فراشه خائفاً ، ولكن زوجته تنظر إلى الخنجر فى يده . . وتطلب إليه أن يغسله فوراً . كأى طبق أو فنجان قهوة . ولأن جونسون متهم دائماً - ككل زوج - بأنه لايغسل لنفسه كوب ماء ، يذهب ويغسل يديه . . من جريمة كنيدى . .

وفى الصباح عندما يتعالى الصراخ فتندهش جداً زوجة جونسون ، وفى براءة الورود وفى نعومة الثعبان ، وفى برودة السيوف ، كيف تقع مثل هذه الجريمة فى بيتها .

وتقول آه . . وأسفاه . . وفى بيتى ؟

فيرد عليها أحد القواد : إنها بشعة ياسيدتى فى أى مكان ؟؟

نفس هذه العبارة جاءت على لسان زوجة ماكبث . وعلى لسان زوجة جونسون . نفس الكلمات والحروف وعلامات التعجب . فدهشة زوجة القاتل ليس سببها أن الجريمة حدثت ، وإنما سببها إنها حدثت هنا فى البيت ، أو فى ولاية تكساس موطن جونسون .

إنها نفس الظروف . . نفس الأحداث . . نفس الجريمة . . كل ليلة يحاكم الرئيس جونسون . . ويتهم . . ويدان .

أن الأدبية الامريكية قد استعارت أسلوب شيكسبير فى مسرحية (ماكبث) وفى مسرحية (عطيل) ومسرحية (هاملت) . واختارت مضموناً حديثاً هو اغتيال كنيدى ومن المؤكد أن هذه المسرحية سوف نبقى طويلا لأن المؤلفة قد سرقت شيكسبير فكأنها سرقت التاج البريطانى . . فالشىء المسروق هو الذى سوف يعطيها البقاء . فكأن الأديبة الأمريكية قد سرقت عصا شيكسبير لتضرب بها جونسون قاتل كنيدى كل ليلة . . وهؤلاء الثلاثة قد ضمنوا لهذه المسرحية أن تعيش طويلاً . .

فالعذاب الذى يعانيه جونسون يتكرر كل ليلة . فالناس يجلسون إلى المسرح ليروا متهما قاتلاً كل ليلة . أن المسرحية قد هونت على الناس ، لا جريمة كنيدى ولكن اغتيال جونسون ، وهو لايستطيع أن يتكلم . . وإلا كان كلامه دفاعاً عن

نفسه . ودفاعه عن نفسه معناه أنه قد وافق على أن يكون هو المتهم فى جريمة اغتيال كنيدى . ولكن من المؤكد أنه يتعذب عندما يرتفع الستار دون أن يتحرك .

ويبدو أن هذا هو العذاب النموذجى الذى اخترناه فى القرن العشرين لقد جربنا محاكمات نورمبرج ، فلم تكن محاكمات مضيئة مفيدة . وإنما كانت محاكمات فيها دم . . وفيها . . انتقام ، فكأن هذه المحاكمة قد ارتكبت نفس الغلطة التى تحاسب المجرمين عليها : القتل ؟

ولذلك فمحاكمات القرن العشرين تقضى بإعدام المجرم دون أن تنزل منه قطرة دم . وفى العصور الوسطى كانوا ينفذون هذا الحكم بأن يحرقوا المجرم أو يغرقوه أو يخنقوه أو يشنقوه . فلا ينزل دم . أما فى القرن العشرين فالمحاكمة نفسية فالعذاب النفسى أقسى وأقصى درجات العذاب .

ونحن نذكر ماذا حدث فى نهاية فيلم (الزيارة) بطولة انجريد بيرجمان ومن تأليف الأديب السويسرى ديرنمات . فبطلة الفيلم اشترت بفلوسها أهل المدينة . اشترت دكاكينهم ومدارسهم وكنائسهم ومصانعهم . اشترتهم وبفلوسها طلبت اعدام بقال كان قد اعتدى عليها وهى شابة . ووافقت المدينة على ضرورة إعدام هذا الرجل . . وإلا مات الناس جوعاً .

وإذا هرب الرجل فهو مجرم فى حق المدينة . ولذلك يجب أن يمسكوه حتى لايهرب . . ويجب أن يقتلوه حتى يعيشوا جميعاً . وكان قرار المدينة قاسياً على الرجل . . وأقسى من ذلك أن الرجل كان يرى رجال الكنيسة يحفرون له قبره ويعدون له كفنه وأقسى من ذلك أن المدينة كلها اجتمعت لتصدر حكما بإعدامه بالإجماع ، وفى اللحظة التى اجمعت المدينة على إعدامه . . قررت البطلة أن تعفو عنه . . وهذا هو أقسى أنواع العذاب والتعذيب ، لا للمدينة كلها ، ولكن للرجل أيضاً . فالإجماع كان ينقذ الناس من أن تقع عليهم عينا المحكوم عليه . لأنهم سوف يرفعون أيديهم مرة واحدة وبعد ذلك يختفى الرجل . فلا يرونه ولا يراهم . ولكن العفو عنه معناه أن الرجل سيواجه كل يوم هؤلاء الذين قرروا إعدامه . لن يهرب منهم واحد . كلهم يواجهونه وفى عيونهم إصرار على ذلك ، وكل يوم يصافحهم وفى أيديهم إصرار على خنقه . . أنه يتلقى الحكم بإعدامه مع كل وجه ومع كل

مصافحة ومع كل نظرة وكل لحظة . . هذا هو أقصى العذاب أن يحاكم الإنسان كل يوم وأن يدان كل يوم .

ولا شك أن محاكمة جونسون معناها أن الشعوب قد أرسلت إليه حيثيات الحكم . وإنها أخطرته بمكان المحاكمة وأسبابها . . وأنه ليس فى حاجة إلى شهود نفى أو إثبات فالتهمة ثابتة والمجرم محترف وضحاياه فى فيتنام لم تجف دماؤهم . وليس من الضرورى أن تعقد هذه المحكمة الأدبية لأنها عقدت بالفعل ولأن القاتل أدين . . وأنه محترف ولا يبقى إلا شىء واحد : هو أن يؤكد الناس كل يوم أن جونسون قاتل . وأنهم لذلك يجب أن يرى عيونهم وهى تدينه وأيديهم وهى تخنق يديه . . وأن تجىء تصرفات الناس جميعاً تؤكد حبها للحياة والسلام وكراهيتها للحرب والدماء . . فى فيتنام . لماذا يفعل ذلك كل الناس ؟

السبب قاله لنا آرثر ميللر فى مسرحية (بعد السقوط) التى يقف فيها البطل فى مقدمة المسرح يؤكد أنه جاء يعترف . . وأنه بعد هذا الاعتراف قد ألقى همومه كلها على أكتاف المتفرجين . فلا أحد يرى الدم ثم يسكت بعد ذلك . لا أحد يرى مذابح الحروب ويغمض عينيه . . لا أحد يفتح عينيه ثم يغمض ضميره . . فنحن جميعاً شهود على جريمة وتصبح شهادتنا جريمة أخرى إذا نحن سكتنا . يجب أن نقول شيئاً . . يجب أن ننطق . يجب أن ندين المجرم والقاتل والمخرب والمضلل . .

إن آرثر ميللر نفسه قد صارح البطلة زوجته مارلين مونرو . . قال لها : إنك تشتركين فى جريمة قتل لفتاة جميلة طيبة ساذجة اسمها : مارلين مونرو . لماذا ؟ لأنها تترك نفسها لمنتجى السينما يأكلونها ويشربونها ويبيعونها لحماً ودماً وردياً على كل شاشة . وأنها يجب أن تثور فليس كل الناس أصحاب حق عليها . . وهى بلا حقوق . . إن من حق المنتجين . . تجار الرقيق الأبيض أن يعيشوا . . ولكن ليس من حقهم أن تمتص حياتهم حياتها . . وليس من حق الدول الرأسمالية أن تكون حياتها إعداماً لحياتنا . . أو حياة أى شعب . .

ولذلك يجب ألا نكتفى بمشاهدة الجريمة . . يجب أن نشهد ضدها . . وأن نرفع أيدينا ونقول : لا . .

وكلما زاد عدد رواد هذه المسرحية (ماكبرد) فى أمريكا وفى لندن زاد عدد الذين يقولون : لا . . للحرب وللذين اغتالوا كنيدى .

وعذاب آخر للرئيس جونسون لقد صدر منذ أيام كتاب لرجل عبقرى مات سنة ١٩٣٩ وفى هذا الكتاب محاكمة عنيفة جداً لرجل مات سنة ١٩٢٤ . أما المؤلف فهو فرويد . فقد صدر هذا الكتاب منذ أيام بعد أن ظل مودعاً فى أحد البنوك منذ ربع قرن . والكتاب يحاكم الرئيس الأمريكى ويلسون . فقد لاحظ فرويد أنه والرئيس الأمريكى قد ولداً فى سنة واحدة هى سنة ١٨٥٦ ولاحظ أيضاً أن هذا الرجل ويلسون قد عبر المحيط ليتدخل فى مصير القارة الأوروبية . . وقد سمع من رجل آخر كان يعمل مساعدا لويلسون أن هذا الرئيس الأمريكى رجل شاذ مجنون . . ولا شىء يستولى على كل مواهبه أكثر من أن يجد نفسه أمام حاكم شاذ مجنون . . فهو يعرف أن الإنسانية قد عانت كثيراً من الحكام المجانين الشواذ . . وأمسك فرويد بتفاصيل حياة الرئيس ويلسون . . فلاحظ أنه كان طفلاً مدللاً . . وأنه أحب أباه حباً جنونياً . . وأن أباه القسيس كان مثله الأعلى . . وأنه رأى فى أبيه صورة لله ولذلك حرص الرئيس ويلسون على أن يحقق رغبات أبيه طول حياته . . وبعد وفاة أبيه أحس أنه هو شخصياً ظل الله على الأرض . . ومن عبارات ويلسون أثناء معركته الانتخابية : سوف أنجح لأن هذه هى إرادة الله ومهما حاول أعدائى وأصدقائى فإننى سوف أنجح .

ويندهش فرويد لهذه العبارة ويقول : إذا كان هذا رأى رجل فى إرادة الله وأنها إرادته أيضاً فكيف يكون موقفه من إرادة الناس ؟

إن هذا الرجل الذى عبر المحيط يرى أن الخير فى الدنيا هو الحقيقى وأن الشر لا وجود له . وعلى ذلك فليست هناك شرور . وإنما هناك نيات طيبة خيرة . . وهو لهذا السبب حاسب الناس على نياتهم فقط .

ولايمكن أن يكون هناك إنسان أسوأ من هذا الرجل . . إنه ضد الطبيعة الإنسانية : طبيعته هو . ففى داخل كل إنسان قوى شريرة متناقضة وليس مظهر الناس الخارجى إلا زياً أنيقاً لرغبات متوحشة . فإذا جاء رجل ليعلن للناس أنه لايوجد شر فهذا الذى أعلنه هو ألعن أنواع الشر . لأنه رجل متعصب دينى . . ولأنه رجل أعمى . . وأنه يشبه طبيباً للعيون جاء يعالج عيون الناس وهو لا يؤمن بوجود رمد . . ولا يعرف تكوين العين ولا يفهم فى الطب .

أن الرئيس ويلسون بشذوذه العقلى وحرصه على أن يظل طفلاً يجلس على ركبتى والده القسيس . . هو الذى أدى إلى نكبة العالم بعد الحرب العالمية الأولى .

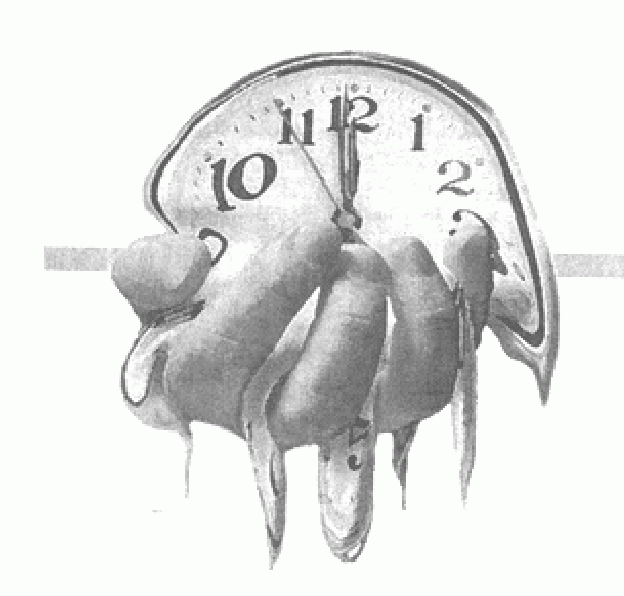
فقد استطاع هذا الرئيس الأمريكى أن يفرض على الناس بالقوة . أنه لا شر فى الدنيا . . أنها كلها خير فى خير . فليس صحيحاً أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان . . حتى جاء هتلر وطرد فرويد من النمسا ليعيش فى فرنسا وانجلترا ويموت هناك . .

إن أحدا لم يقل لويلسون أنه مجنون . إن أحداً لم يقل له إنه قاتل . . ليس قاتلاً لشخص ولكنه قاتل لقارة . وأن أخطاءه الشخصية جرائم إنسانية . وأن هوسه العقلى جنون عالمى . .

* * *

وبهذا الكتاب يجد القارئ الأمريكى والقارئ فى العالم والحاكم الأمريكى أيضاً . أنه أمام جريمة جديدة . . وأن حساب الجريمة القديمة قد صفى أخيراً بصدور كتاب فرويد . أن هذا الكتاب هو حيثيات جديدة تفضح رجلاً مات وتخيف رجلاً لا يزال حياً : جونسون .

وبذلك تكتمل المحاكمات (الأدبية) وهى أحدث وأعنف أنواع العذاب . .



اخلعها وتوكل

قـــرأ

اثنان من الأدباء الروس خطاباً بعث به تولستوى لأحد أصدقائه وفكر الاثنان فى أن يزورا هذا الكاتب العظيم . الاثنان هما : جوركى ، وتشيخوف .

والخطاب يقول :

«يجب أن تنتج ويجب أن تعبر عن كل ماهو ناضج فى نفسك ، فلا أحد يستطيع أن يعبر عنه سواك . لايهم أبداً ما يقوله الناس عنك . لايهم ما يقيمونه من حفلات لك . لكن الذى يهم جداً . وفى الدرجة الأولى . هو أن تحس أنك تقول شيئاً جديداً وشيئاً عاماً يحتاج إليه الناس . وعندما تحس بذلك ، وتعمل من أجله . فما أعظم سعادتك فى هذه اللحظة» .

وفى نفس الوقت أحس هذان الأديبان أنهما يجب أن يحاسبا صاحب هذا الخطاب . أن يسألاه إن كان لدية شىء جديد . ان كانت أفكاره الناضجة تنفع الناس . إن كان النضج وحدة يكفى . فمن الممكن أن تنضج ثمرة على شجرة وتتعفن . وإذا سقطت إلى الأرض إلى الناس ، كانت جثة هامدة . وإن كان هذا الفنان العظيم لايزال متمسكاً بهذه النصيحة وإن كان لديه شىء يقوله لهما معاً أو واحداً واحداً . .

وفى سنة ١٩٠١ وفى «يالتا» التقى الثلاثة فى لحظة باهرة نادرة . . وكان تولستوى فى الرابعة والسبعين . .

وكان تشيخوف فى الثانية والأربعين . .

وجوركى فى الثالثة والثلاثين . .

وكل واحد منهم يمثل طبقة . وأسلوباً فى التفكير وفى الحياة . . تولستوى يمثل الارستقراطى الإقطاعى الفردى فى تفكيره وفى قضاياه ، وهو فى نفس الوقت نموذج متكامل لأبناء القرن التاسع عشر . .

وتشيخوف يمثل المثقف من أبناء الطبقة الوسطى ويحتفظ فى نفس الوقت بطبيعة العلماء الذين يقدسون التجربة . . ويرون أن الحقيقة الوحيدة هى التجربة وأنها الوسيلة الوحيدة لمعرفة شىء . أو لتغيير شىء من الواقع . . وهو أيضاً لاصبر له على الأفكار الفلسفية المجردة . . وإن كان فى نفس الوقت عاجزاً عن ربط أفكاره فى إطار واحد متكامل . .

وجوركى يمثل الطبقة العاملة . والجماهير الثورية . ولكنه واثق من هدفه متأكد من معلوماته . وهو يأخذ الفن مأخذاً جاداً صابراً . .

أما النتيجة التى خرج بها هذان الاثنان من لقاء عملاق الأدب الروسى فهى : أنه فنان عظيم وأنه ساحر ولكن فى غير زمنه . وأنه وصل إلى المحطة بعد قيام القطار . . وأنه الآن يعيش فى عصر النمو الصناعى والإرهاب الرسمى . والظلم الاجتماعى . وأنه جبل منعزل عن الوديان الشعبية . وأن هناك معابد جديدة تقام فى كل مكان . أما المناسبة فهى ظهور ألهة جديدة . . وشروق شمس جديدة . .

يقول تشيخوف : هذا الرجل كان يملأ نفسى . . والآن لم تعد له مكانة فيها . . لقد ترك نفسى وتركها خالية . . وترك بيتى وحياتى أيضاً . .

ويقول جوركى : أنه انعزالى وهو من أنصار المقاومة السلبية ومقابلة الإساءة بالإحسان . والعنف بالرفق . والمأساه بالإخلاص الفردى . . وكان شعورى فى كلمتين : القرف والفزع !

وبعد هذه اللقاء اتجه كل واحد إلى طريقه . .

وازداد اطمئنان كل واحد منهما على سلاحه وعلى قدراته . . وعلى أنه فى استطاعته أن يمسك الراية التى سقطت من يدى تولستوى .

كأنهما اثنان من الشبان جمعاً مبلغاً من المال وذهبا به إلى البنك وبدلاً من أن يشعر كل واحد منهما بتفاهة ماعنده من أموال وضآلة المجهود الذى بذله كل منهما فى جمعه ، أحس بتفاهة الأموال الموجودة فى البنك . وكل ما أعجبهما فى البنك

هو البناء فقط . . ولكن الأوراق المالية التى امتلأ بها البنك زائفة . . . قديمة . . ألغيت من وقت طويل!

إن الشكل فقط هو الذى أعجبهما . . أما المضمون فهو كالطعام البايت أو كالثمرة المتعفنة . . أو كالقرن التاسع عشر . عندما يتطلع إليه أبناء القرن العشرين !

***

وهذا اللقاء تاريخى نادر وباهر . . .

فليس يحدث كثيراً أن يصادف الإنسان فى حياته الطويلة كتاباً يهزه . . ويفتح عينيه على شىء جديد . . ولا حادثة تضعه على الطريق السليم . . ولا شخصاً يحول تفكيره من اليمين إلى اليسار . .

فهذا لايحدث كثيراً . وإذا حدث وبقوه وبصورة إيجابية فهذا شىء نادر . .

ومن الممكن أن يظل الإنسان طول عمره عبارة عن قفل متين لايصادف مفتاحاً . .

أو لغماً عائماً لايصادفه جسم يجعله يتفجر . .

أو قمقماً مغموراً فى خضم النسيان لاتمتد له يد تنزع غطاءه وتكشف طاقته الهائلة . .

أو يظل وجهاً هائماً يبحث عن مرآة . .

فيبقى مجهولاً للناس . . ومجهولاً لنفسه أيضاً . . فهو لايعرف قدرته . . ولايعرف ما الذى يستطيع أن يعمله . ولا أين يعمله . ولا كيف يعمله . ومن الممكن أن يمشى فى طريق طويل . يغريه المشى بالاستمرار ويغريه الاستمرار بالاطمئنان إلى قدرته . .

ولكن عندما تتاح له فرصة نادرة . . ولو مرة واحدة فى حياته . . فينفتح القفل ويتفجر اللغم ويرى لأول مرة ملامح وجهه . . ويرى ما تحت الوجه من استعداد وقدرة على أن يعمل وينتج ويغير نفسه . بل يغير ما حوله أيضاً .

هناك فقط يشعر الإنسان شعوراً متناقضاً . .

فهو يشعر بخيبة الأمل . لأن أفكاره القديمة كلها قد سقطت عنه كثوب قديم . . ويشعر فى نفس الوقت بأن فرصة جديدة قد أعطيت له لكى يغير من نفسه ويستدرك ما فات . .

ويشعر بشىء أعمق من هذا . وأكثر قسوة . .

وهو أنه كان يعلل لأسباب فشله بأنه لم يعرف طريقه بعد . . بأنه لم يكتشف نفسه بعد . .

بأنه ليس هو الذى يعمل كل شىء . . الإنسان بقدراته واتجاهاته يصبح فى هذه الحالة مسئولاً عما يفعل . ومطالباً بأن يغير من نفسه ومن الآخرين أيضاً . .

ولذلك رأى تشيخوف وجوركى أن تولستوى العظيم قد تباعدت المسافة بينه وبين نفسه . . وبينه وبين الناس . . وأنه لذلك نسى ما كان يقوله . . وأن الذى يذكره هو شىء لم يعد له سعر . . وأن تولستوى يطبع عملات ورقية ليس لها غطاء ذهبى . . والغطاء الذهبى هو الناس . أو هو الواقع . . هو التجربة الحية . . أى التجربة التى يعيشها هو أيضاً . . فتولستوى كان حياً . . ولكن بلا تجارب . . بلا صلة بالناس . .

وما أكثر الأحياء بلا تجارب . .

وما أندر اللحظات التى يحس فيها الإنسان أنه حى وأن حياته قوقعة . . ضيقة محدودة خانقة . .

وما أندر وما أبهر اللحظات التى يخلع فيها الإنسان قوقعته ويقدمها قرباناً للواقع الجديد !

فإذا عرفت نفسك ، فاخلع قوقعتك واتركها وتوكل على الله وعلى نفسك وعلى الناس !



كان للسلطان حريم

لم يتفق الرجال على الصورة التى يحبون أن يروا عليها المرأة . . هل هى حواء العارية ؟ هل هى إيزيس الأم ؟ هل هى مدام كورى الباحثة؟ هل هى مارلين مونرو الممثلة الجميلة؟ هل هى حتشبسوت المسترجلة ؟

وموقف الرجل من المرأة يدلنا على أى نوع من الناس هو . . ومن فهم الرجل لدور المرأة فى حياته ومن الحياة العامة نعرف ما معنى الحرية عنده .

والرجال فى مواجهة المرأة :

اما أعداؤها .

أو خصومها .

أو أنصارها .

أو عشاقها .

وأعداء المرأة هم الذين لايرون فى المرأة أية ميزة . ويرون أنها إنسان مختلف . . . أو أنها (رجل) هزيل ضعيف العقل . أو أنها ليست من أصل إنسانى . ويرون أيضاً أنها بتاريخها الذليل وتركيبها المعقد قد أدت إلى تشويش حياة الرجل وإلى تعويقه عن التطور . وأنها ليست إلا جنساً فقط وإلا حيوانية تماماً .

والفيلسوف اليونانى سقراط هو الذى استطاع أن يترك ظله العميق العنيف على كل الحضارة الغربية . فقد كان سقراط (رجلاً) دميماً . . ولم يكن رجلاً بالمعنى الحقيقى . .

وقد استولى الشذوذ الجنسى على الحضارة الإغريقية كلها مئات السنين ، ولم يكن يستنكره أحد . . واستطاع سقراط بذكاء وخبث عميق أن يفرض احتقار الجسد الإنسانى . . سواء جسد الرجل أو جسد المرأة واحتقار كل ماهو حسى . . ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هى حس فقط وجنس فقط فقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية . ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان .

ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل سارت الفلسفة والأدب والمسيحية أيضاً حتى يومنا هذا . .

أما خصوم المرأة فهم الذين يرون أن المرأة انسان كالرجل . لاشك فى هذا . ولكنها مختلفة عنه فى تكوينها الجسمى والنفسى والتاريخى أيضاً . وتاريخها القريب هو المسئول عن ضيق كتفيها وضخامة ردفيها وقصر ساقيها . وأن أعظم عمل تقوم به المرأة هو أن تكون أمّاً . والأمومة هى العمل الإبداعى الوحيد الذى تنفرد به المرأة . أو الأنثى عموما .

والمرأة بطبعها لاتحب أن تستقل بنفسها وإنما هى تعتمد على الرجل فى كل شىء . وليست لديها أية قدرة على الإبداع والمغامرة . بل إن الأعمال التى تهم المرأة لم تتفوق فيها فلا توجد طبيبة مولدة ممتازة ولا توجد حلاقة ممتازة ولا مصممة أزياء عبقرية . . وعلى الرغم من أن المرأة تبكى بمناسبة ومن غير مناسبة فلم تخترع المرأة علاجاً للبكاء . . ولم تؤلف مأساة واحدة خالدة ولأن تجربة المرأة العملية قصيرة فهى لذلك لاتصلح للأعمال خارج البيت . ومكانها الطبيعى الخطير جداً هو البيت هو الأسرة . هو أن تكون زوجة وأمّاً .

أما أنصار المرأة فيرون أن المرأة لا تختلف كثيراً عن الرجل . بل إنها أقوى من الرجل جسمياً وأقدر على احتمال الألم والمرض . وهى أطول عمراً من الرجل . ولايوجد أى فارق فى تكوين جسم المرأة ولا فى وظائفها العضوية . وبقاء المرأة فى البيت تعطيل لقوة هائلة يمكن أن ينتفع بها الإنسان ولقد جربت الإنسانية طوال عشرات ألوف من السنين كيف تكون حياتها الاجتماعية والخاصة فى ظل سيادة الرجل وسيطرته فلماذا لا نجرب اشتراك المرأة مع الرجل فى الحياة الخاصة والعامة .

لماذا لا نجرب دخول العنصر اللطيف فى حياتنا العامة والخاصة؟ ولماذا لايكون اشتغال المرأة بنفس الشروط والظروف التى يعمل فيها الرجل .

والمجتمع الآن قد علم المرأة وفتح لها كل الأبواب . ولا يمكن أن يكون المجتمع قد خسر شيئاً بهذا العدد الهائل من الأيدى العاملة . . وقد دخلت المرأة فى كل المجالات : العلم والعمل والفن والأدب والسياسة والإدارة .

وإذا كانت هناك شرور فى المجتمع فليس سببها أن المرأة تركت البيت وذهبت إلى المكتب أو إلى المصنع . وإنما السبب هو أن الرجال لا يزالون مسيطرين على كل شىء . . وأن كوارث الدنيا تولد وتنمو وتنفجر فى عقول الرجال وأيديهم .

وعشاق المرأة هم الذين يرون فيها ينبوعاً رائعاً للجمال والمتعة . وأن الحياة بغير المرأة مستحيلة . وأن السماء قد أهدت البشرية حواء وبناتها لكى يكون هناك أبناء وأحفاد . ويكون حب .

بل إن النفس الإنسانية بها كنوز لايمكن أن تنفتح إلا بأصابع المرأة وإلا باهتمامها . فالله قد خلق المرأة لكى نحبها : أما وزوجة وابنة . وإذا أقبلت المرأة فالحياة هى الجنة وإذا ابتعدت فالحياة قطعة من العذاب وإذا كان لابد للإنسان أن يختار الراحة بغير امرأة والعذاب معها . . فإنه يفضل العذاب معها على الراحة مع عشرات الملايين من الرجال . وإذا نحن جردنا الأدب والفن من المرأة ، لم يبق بين أيدينا شىء . والأدباء والفنانون هم أكثر المخلوقات حساسية وأكثرهم إدراكاً للجمال وأقدرهم على التعبير وأبرعهم فى التسامى بالحرمان والشوق والحنين .

❊❊❊

وأعداء المرأة هم في نفس الوقت أعداء الإنسانية كلها . وأعداء الحياة وهم عادة أناس مشوهون جسمياً وعقلياً أيضاً .

وخصوم المرأة هم أكثر الناس حياداً مع المرأة وهم ينظرون إليها بعقل ، والمرأة لاتحب أن ينظر إليها الإنسان بعقل . لأنها لاتعرف إلا أن يكون الإنسان : عدوا أو حبيباً . ولكنها لا تفهم أن يكون الإنسان عدواً حبيباً أو حبيباً عدوا . أو عاشقاً يتحفظ أو كارها بحساب . ومع ذلك فقد استفادت المرأة كثيراً من خصومها . لقد أناروا لها الطريق . وأطلقوا حريتها بحساب . ومن بين خصوم المرأة عندنا : العقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وآخرون وكاتب هذه السطور .

وأنصار المرأة هم الذين يدفعونها إلى الحرية وإلى العمل وإلى تحمل الأخطاء فى تجاربها الجديدة . فالذى يعمل هو الذى يخطئ والذى يعمل هو الحر . والحر هو

الذى يتحمل مسئولية العمل ومادامت المرأة حرة فلا خوف عليها إذا عملت . ويجب أن نحاسب الرجل إذا أخطأ دون أن نكتفى بحساب المرأة وحدها .

ومن أنصار المرأة كل المفكرين العلميين والاشتراكيين وفى مقدمة المفكرين الرواد طه حسين وسلامة موسى وإسماعيل مظهر . ومعظم الأديبات طبعاً : مى زيادة وسهير القلماوى ولطيفة الزيات .

أما عشاق المرأة فهم كثيرون جداً . منذ أول إنسان قارن بين وجه المرأة والقمر حتى الرجل الذى قال على لسان عبد الوهاب : تعذبنى برضه أحبك . . أو الذى قال وغنت أم كلثوم : وتجيب خضوعى منين ولوعتى بين إيديك . . أى حتى أحمد رامى ومعظم الشعراء الغنائيين . وهم الذين يحرصون على أن تظل المرأة كتلة من اللحم الحى عروقها تجرى بالبنزين وأنفاسها من نار . . والطريق إليها بالدموع والشوك . . وهى التى يجب أن تتعذب وأن تحب العذاب والهوان . . وأن تظل ألعوبة فى يد الرجل وتلعنه .

ولا فرق كبير بين أعداء المرأة وعشاقها فأعداء المرأة يرونها (شيئاً) كريها . . وعشاقها يرونها (شيئاً) لذيذاً .

ولا فرق بين أحمد رامى وبين مصطفى صادق الرافعى والفيلسوف سقراط والذين عشقوا المرأة والذين عادوها لم يقدموا لها شيئاً ينفعها فى تحررها من قيود الرجل .

بل إنهم جعلوا هذه القيود والصبر عليها وحب الذل والهوان ضرورة حيوية .

بل إننا لم نجد فى (ألف ليلة وليلة) دعوة واحدة إلى تحرير المرأة أو الإشفاق عليها . لأن المرأة متاع لذيذ . وهذا يكفى .

والملك سليمان عندما حبس فى قصره مئات النساء لم تسمع منه كلمة واحدة عن حرية المرأة . ربما كانت الفتاة (شالوميت) هى أول امرأة تمردت على استعباد وإذلال الملك سليمان . . .

وأوضح صورة لالتقاء العشق والعداء للمرأة هى فى صورة (الحريم) - أى فى جمع أكبر عدد ممكن من العشيقات فى مكان واحد وتربيتهن وترويضهن للقاء السيد صاحب الحريم . سواء كان السيد شيخ قبيلة أو سلطاناً من السلاطين . . .

فالسلطان يرى أن المرأة ضرورية . متعة ضرورية لايستطيع أن يستغنى عنها .

ولكنه فى نفس الوقت لايحترمها ولا يرى لها أى حق . فهى (شىء) مودع أو ملقى هناك . . وفى حالة انتظار مستمر لإرادة السلطان الذى يريد أن يغرق فى الجنس ثم يضربه بقدمية بعد ذلك .

والذين يرون أن المرأة يجب أن تكون حريماً هم أيضاً الذين يرون أن المرأة يجب أن تكون (هانم) أى أنثى أنيقة فى انتظار الجائع دائماً : زوجها .

والذين يرون أن المرأة لاحقوق لها . وإنها يجب أن تظل مربوطة فى ذراع زوجها يبيعها ويشتريها ويشترط عليها أن تعمل أو لا تعمل . . أن تبقى أو لا تبقى . وأن يعاقبها كما يريد وأن يرميها فى الشارع كما يريد كل هؤلاء ينظرون إلى المرأة على أنها حريم . . . على أنها جزء من ممتلكات الرجل . وأن الزواج ليس إلا عقد للانتفاع المشترك بين ذكر وأنثى . . وأن الذكر هو الأقوى وهو صاحب الحق وأن الأنثى هى الأضعف ويجب أن تبقى كذلك . ويجب ألا تقوى الأنثى . لأنها إذا قويت لم يصبح الرجل قوياً . ومن المفروض أن يبقى الرجل قويا بحق ومن غير حق . .

ولكن أكثر الناس عدواة للمرأة هم لاشك عشاقها لأنهم ينافقون المرأة ولأن المرأة ضعيفة أمام النفاق ولأن المرأة ضعيفة أمام الإطراء وأمام الكلمة الحلوة والنظرة الحلوة ولا تزال المرأة تفضل الرجل الذى يكذب عليها على الرجل الذى يصارحها . وإذا استعان الرجال المنافقون بالشعر والموسيقى فإن هذا الكذب يذوب فى أعماق المرأة فتحب العذاب والهوان وتنسى أن الذى تحبه هو الأداء والغناء والكلام واللحن والموسيقى .

أما أعداء المرأة من رجال القانون والفلاسفة فأمرهم سهل لأنه يمكن مناقشتهم بالعقل فلا موسيقى ولا غناء ولانفاق ولا كذب . . . . ولأنها معركة حامية بين رجال . فهى معركة بالسلاح الأبيض . . . وأساس المعركة : هل نحن كرجال نحترم إنسانياتنا أو نحتقرها ؟ هل نحن كرجال نرى أن الحرية من حقنا وليست من حق المرأة ؟ هل نحن كرجال نرى أن الكرامة حق للرجل والهوان حق للمرأة ؟

إن الذين يرون ربط المرأة بالرجل وتعليقها من كلمة فى فم الرجل وتحويل المرأة إلى سلعة أو إحدى مستعمرات الرجل هم سلاطين عثمانيون يرون أن الرجل سلطان وأن المرأة حريم وأن الحريم ذبيحة تأكل وتشرب وتتعطر وتتجمل وتزف كل ليلة إلى فراش السلطان .

وإذا كانت كلمة (حريم) قد انقرضت من معظم دول العالم - فإن المعنى نفسه لايزال باقياً فى عقول كثير من الناس فى بلاد أخرى . . .

***

وأمامى الآن كتاب ضخم صدر هذا العام بعنوان (الحريم) للكاتب الإنجليزى ب . بنزر وهو يستعرض كيف نشأ الحريم فى الدولة العثمانية أو على الأصح كيف اشتد سلطان الحريم فى الدول العثمانية ، حتى كانت النساء هن اللاتى يحكمن أما السلاطين فكانوا غارقين فى الخطيئة . ونظام الحريم قديم جداً . . كان فى إيران وفى العراق القديم وفى الصين . ولكن كلمة (الحريم) ومعناها فى اللغة العربية الشىء (الحرام) أو الشىء المحرم - أصبحت خاصة بالدول العثمانية وحدها لأنه لم يحدث فى التاريخ أن أصبح مثل هذا العدد الهائل من النساء السجينات فى قصر السلطان يعشن فى الظلام والرطوبة والعطور وسجينات إرادة السلطان وأغوات السلطان .

وآخر السلاطين العثمانين هو السلطان عبد الحميد الذى طرد سنة ١٩٠٩ كان يحتفظ بأربعمائة جارية عشيقة وبمائتين من الخدم الأغوات السود والبيض . ولم يعرف العالم الغربى حقيقة نظام الحريم إلا فى أوائل هذا القرن مع أن نظام الحريم السلطانى كان موجوداً ابتداءً من القرن الخامس عشر فى العاصمة التركية ، فمن أوائل القرن الخامس عشر لم يعد للسلطان زوجة شرعية وإنما السلطان كان لايقامر بالزواج من فتاة قد تنجب له بنتاً . ولذلك فهو لايتزوج إلا الجارية التى تنجب له الولد . فإذا أنجبت الولد اتخذت لها لقباً جديداً هو (السلطانة الوالدة) وابن السلطانة الوالدة سوف تكون له مئات الجاريات والأم هى التى تختار لابنها العشيقات . . . مئات العشيقات فإذا أنجبت العشيقة ولداً تحولت إلى (سلطانة والدة) فكل السلاطين العثمانين هم أبناء جاريات .

أما حياة الحريم فهى انتظار لمشيئة السلطان .

ولكن هناك طريقاً طويلاً قبل أن تحظى الجارية بنظرة واحدة من عين السلطان فالجارية تدخل السراى - والسراى كلمة إيطالية معناها قفص الوحوش أو كلمة فارسية أيضاً معناها المكان والسراى بمعناها الإيطالى أقرب إلى طبيعة القصر أو السراى التى تعيش فيها الحريم - وبعد أن تدخل السراى تتدرب على أن تكون تلميذة مجتهدة لإحدى العشيقات . وتتعلم الغسل والطبخ . وبعد ذلك تصبح عشيقة . وتنتظر إرادة السلطان . . . . ولنفرض أن إحدى العشيقات كانت محظوظة لدرجة أن السلطان رآها وليس من الضرورى أن يكون قد ملأ عينيه منها . وإنما يكفى أن يرمش أمامها وهذا (الترميش) معناه أن هذه الفتاة تتحول فجأة إلى كائن آخر . . تدخل الحمامات وترتدى الملابس وتغرق فى العطور وبعد يوم أو يومين يحملها الأغوات على كرسى . ويدخلون بها غرفة السلطان . ويضعونها أمام سريره .

ويكون السلطان عادة قد تغطى وتجىء العشيقة الجديدة وتقترب من الفراش وتأتى من الأصوات والحركات ما يجعل السلطان يصحو . . وهنا يختفى الأغوات . وفى الصباح المبكر يحملون العشيقة إلى جناحها وتكون كل الأبواب والنوافذ مغلقة على الجانبين ثم يكتبون فى أحد السجلات تاريخ اللقاء السلطانى وينتظرون المولود السعيد فإذا كان ولدا فهى سلطانة . وإذا كان هذا هو أول أولاد السلطان فهى الجالسة على العرش إلى جواره . أما إذا غير السلطان رأيه . وكان (الترميش) ليس دليلاً على إعجابه بها وإنما كان سببه أن ذبابة اقتربت من وجه السلطان فيهجم الأغوات على العشيقة الجديدة ويمزقون ملابسها ويلقون بالماء القذر فوقها . ثم يعيدونها إلى بداية السلم . . أى إلى كنس البلاط ومن المؤكد أن هذه المسكينة لن تكون لها فرصة أخرى لكى ترى السلطان إلا ميتاً .

ولم يكن أمام الحريم إلا الانتظار . . وإلا التآمر والتزاحم على الطريق إلى السلطان . كن يستخدمن كل الأساليب : الاغتيال والسم والفلوس والهدايا . .

ومن أشهر الجاريات واحدة روسية اسمها روكسيلانا استطاعت أن تكون سلطانة وزوجة للسلطان سليمان القانونى . واستطاعت أن تتآمر على أخوة السلطان فقتلتهم جميعاً . . وكان عددهم ١٩ أميراً ويقال أنها قتلت السلطان نفسه لكى يبقى ابنها سلطاناً بعد ذلك . وروكسيلانا هذه هى التى بدأت عصر دولة الحريم .

ولقد بدأت الدولة العثمانية فى القرن الخامس عشر بأن كان للسلطان حريم هائل ولكن ابتداء من هذه السلطان الجريئة أصبح للحريم نفسه سلطان وسيطرة مخيفة . .

وعندما يكتشف أحد السلاطين - وهذا يحدث نادراً - إن هناك مؤامرة ضده فإنه يفتك بالحريم . وقد حدث أن أمر أحد السلاطين بإغراق كل الحريم فى البسفور . فوضعت النساء فى شوالات وألقين فى قاع البسفور وكان عددهن ٣٠٠ فتاة بين العشرين والخامسة والثلاثين .

وقد أغرق السلطان سليم ٢٥٠ امرأة فى ليلة واحدة لا لشىء إلا لأنه يريد تغييراً فى الحريم .

أما دور زوجة السلطان فهو لايزيد على متابعة العشيقات الأخريات . والتآمر عليهن أو التآمر على السلطان نفسه أما إذا رضيت بنصيبها فإنها تشغل وقتها فى الأعمال الخيرية مثل بناء المساجد والمستشفيات .

وهذا الكتاب يلفت إلى أن نظام الحريم لم يكن هو سبب الانحلال العثمانى . وإنما كان من مظاهر الانحلال فقد انشغل الرجال بالنساء عن كل القضايا وعن الشعب والدولة . فالسلاطين قد ولدوا من أمهات جاريات وعشن فى سجن الحريم ولما كبر السلاطين عاشوا مرة أخرى فى الحريم :

فالسلاطين لم يكن لهم حريم فى الحقيقة وإنما نظام الحريم هو الذى أنتج السلاطين . هو الذى أنتج أناساً يكرهون الحرية . لأنهم لم يعرفوا كيف يتحررون من عقلية الحريم وحياة الحريم . وهم لا يفهمون حرية الآخرين ولا الآخريات . فهم رجال من صنع النساء . . من صنع سجينات النساء .

وقد اختفى الحريم فى أوائل هذا القرن واختفى السلاطين ولم يبق فى السراى القديم والسراى الجديد إلا القصر المعروف الآن على البسفور (توب كابى)

ولكن لاتزال هناك عقلية الحريم عند بعض الرجال . أنهم لا يستطيعون أن يعيدوا عصر الحريم ولكنهم يستطيعون فقط أن يذكرونا به وقد نسيناه . ولم تبق إلا بقع قليلة على الأرض هى التى تخفى وراء قصورها العالية سجوناً للنساء غارقة فى الخمر والعطر . ولكن هذه السجون وهذه القصور سوف تتلاشى فالحرية أقوى من الشمس . بل الحرية هى الشمس التى لاتغرب أبداً .

***

ومن المؤكد أن عقلية السلاطين هى التى يتعانق فى داخلها : عشق المرأة واحتقارها . . عشق جسدها واحتقار عقلها . . والمرأة حيوان عاقل كالرجل - واحتقار العقلية الإنسانية هو احتقار لأعز ما يملك الإنسان لأخطر ما يتميز به الإنسان عن الحيوان وما يتميز به المواطن الحر عن أبناء الجاريات فى عصر السلاطين . .

وإذا كان حريم السلطان قد اختفى فإن سلطان الحريم على عقول وغرائز الناس سوف يختفى أيضا قريباً عندما تظهر صيغة جديدة لقانون (الأحوال الشخصية) فى مصر وغيرها من البلاد العربية والإفريقية .

لقد انتهى الحريم وانتهى السلطان . . فلا سلطان إلا لكرامة الإنسان .



شارلى شابلن يحكى

ش . ش .

أو شارلى شابلن من أشهر الساخطين فى القرن العشرين . فهو ثائر على الظلم وعلى الفقر . ولكن ليس لديه برنامج ولا مشروع لرفع الظلم والقضاء على الجوع . . إلا سلاحاً واحداً هو السخرية من الأغنياء الأقوياء ، ولذلك كان «ش . ش» أقرب إلى الذين يريدون حل مشاكل الإنسان بغير دم . بغير نار . . بالسلام .

فعندما سافر إلى الهند سنة ١٩٣١ ورأى غاندى يعانق المنبوذين والهنود من حوله فى رعب وفزع ، آمن «ش .ش» بأنه عن طريق الحب والرحمة يمكن أن يحقق الإنسان المعجزات . وغاندى قد حقق المعجزات . ولذلك فهو ليس بشراً . . ولكنه نصف آله !

وعندما زار «ش . ش» رئيس وزراء بريطانيا ماكدونالد فى بيته الريفى لاحظ أن ماكدونالد يعامل خدمه بقسوة واحتقار واضح . يقول ش . ش : لم أذق طعامى . ولم أمكث إلا بضع دقائق ولم أظهر معه فى صورة بعد ذلك . . فليس أقسى من القسوة على إنسان ضعيف !

وعندما ظهر هتلر فى ألمانيا أعجب ش . ش باهتمام هتلر برجل الشارع بثقافته وصحته والحرص عليه . ولكن عندما عرف ش . ش أن رجل الشارع فى ألمانيا ليس ألا نوعاً من الخرطوش فى بندقية يعدها هتلر ليطلقها على العالم كله ، ثار «ش . ش» وأعلن سخطه الشديد على هذا الطاغية وعلى ظهور النازية .

و ش . ش إنجليزى المولد . . وحياته فى أمريكا قد حققت شهرة واسعة وأموالا طائلة . لقد دفع «ش . ش» فى سنة ١٩٤٣ وحدها ثلاثة ملايين دولار ضرائب عن إنتاجه السينمائى . وفى أمريكا عاش ش . ش بالضبط كما يريد . فقد اشترى بيتاً جميلاً فوق ربوة عالية . أول بيت يملكه . وتزوج ابنة الكاتب الكبير يوجين أو نيل وفتح بيته لكل الناس وبدأت المتاعب . فقد دخل بيته كل المثقفين من كل الألوان السياسية . من اليمين واليسار . وعلى الرغم من أن أمريكا كانت حليفة لروسيا فى الحرب الأخيرة ، فإن الاتصال بالشيوعيين ومصادقتهم لم يكن بالشىء الذى يمكن السكوت عليه طويلا . وسكتت أمريكا على «ش . ش» طويلاً وفجأة بدأت تناقشه : لماذا يدخل الشيوعيون بيتك؟ لماذا فلان بالذات ؟ ولماذا إعلان أكثر من ثلاث مرات كل أسبوع ؟

و «ش . ش» ليس شيوعياً . ولم يسافر إلى روسيا مرة واحدة . وليس عضواً فى الحزب الشيوعى . ولا حضر اجتماع أية خلية شيوعية . ولكنه ينادى فى مجالاته المحدودة ، بأن أمل الإنسانية كله يجب أن يتجه إلى تحقيق عالم واحد يسوده السلام . .

ولم يكن لدى «ش . ش» أى برنامج أو مخطط وإنما مجرد أمل . مجرد حلم شاعرى جميل يكرره ويردده فى كل مناسبة . .

و «ش . ش» هو المسئول وحده عن هذه البلبلة التى حدثت فى عقول الأمريكان فى ذلك الوقت . فقد كانت له هواية غريبة وهى أن يتحمس لرأى معين اليوم ثم يعود فى اليوم التالى يتحمس للرأى المضاد . ويستمر فى المناقشة بحرارة وحماسة . . فهو ممثل يندمج فى أى دور . . ويؤديه بنفس الصدق والإخلاص . . فمرة يمثل دور الشيوعى ومرة يمثل دور الأمريكى المتعصب . ومرة يمثل دور المتفرج . ومرة يقلد حركات غاندى ويسحب وراءه إحدى المناضد كأنها معزة .

وكان يتباهى بأنه قادر على أن يتحمس لأى رأى ، وقادر على أن يكون مقنعاً .

ولما سئل «ش . ش» عن ذلك قال : إن من واجبى أن أقوم بتسلية ضيوفى .

وعندما ذهب الأسقف الأحمر هولت جونسون كبير أساقفة كانتربرى إلى أمريكا ، كان «ش . ش» فى مقدمة الذين دعوه إلى بيته . . ووصفه بأنه من أذكى الناس وأقدرهم فهما لقضايا السلام . .

وعندما طرد بطل التنس العالمى بيل تيلس . بتهمة أنه شيوعى ، كان «ش . ش» أول من أعطاه ملعب التنس الملحق ببيته وتركه ليرتزق منه وطلب إلى زوجته أن تكون أول تلميذة له مقابل مبلغ معين كل شهر . .

وكان من الطبيعى جدا أن يتحققوا منه فى نيويورك ويقف أمام لجنة النشاط المعادى لأمريكا . وكانت روسيا حتى ذلك الوقت حليفة لأمريكا . . وأنكر «ش . ش» أنه شيوعى .

وفى سنة ١٩٤٥ أعلن أحد الشيوخ أنه لابد أن يتقدم بمشروع يقضى بطرد «ش . ش» من أمريكا .

وفى هذه الأثناء كان «ش .ش» لايزال يعانى من التهمة التى ألصقتها به إحدى فتيات هوليوود . فقد ادعت أنها حامل . ولكن «ش . ش» لايمكن أن يكون الرجل الوحيد فى حياتها . وأثبت الأطباء أن فصيلة دم «ش . ش» مختلفة عن فصيلة دم الطفل . .

بينما كان «ش . ش» لايزال عريساً .

ولم يكد صوت هذه الضجة يهدأ حتى وقع حادث أدبى رهيب . فقد زار هوليود ، وبدعوة من وزارة الخارجية الأمريكية ، الشاعر الروائى الروسى كونستانين سيمونوف . وكان من الطبيعى أن يحتفى به «ش . ش» .

وفوجئ «ش . ش» بدعوة من الشاعر الروسى لتناول العشاء على ظهر ناقلة البترول الروسية «باطومى» وكان ذلك فى ربيع سنة ١٩٤٦ . وذهب «ش . ش» ومعه بعض المنتجين والمخرجين .

وكانت كارثة لم يسلم منها «ش . ش» بعد ذلك .

فقد استجوبوه عشرات المرات وسئل عن السبب الذى دفعه إلى قبول دعوة شاعر ليس ضيفاً رسمياً على أمريكا ؟ وما الذى قاله ؟ وما الذى ينوى أن يفعله ؟ .

وكان رد «ش . ش» أن هذا ضيف رسمى . . وأنه ليس من المعقول رفض الدعوة إلى العشاء معه على ظهر سفينة ترسو على الشاطىء الأمريكى . فلماذا يحاسبونه على هذه الرحلة من الشاطىء الأمريكى إلى مسافة مائة متر من المياه الإقليمية ، ولا يحاسبون من يسافرون إلى روسيا ويقيمون شهوراً هناك .

والتصقت به تهمة الشيوعية . وبين الحين والحين يستدعى ش . ش وتعاد محاكمته . . وأحياناً يرفض الإجابة ، ولكنه يجد نفسه مضطراً إلى الدفاع عن نفسه وعن أصدقائه معظم الوقت .

وقد حاول ش . ش أن يقوم بإضحاك الناس بصورة فورية . . ولكن عندما دعى إلى حفلة على ظهر إحدى السفن وجلس الجنود يأكلون السندوتش ويشربون البيرة وظهر ش . ش وحاول أن يضحك الجنود . . فلم يضحك أحد واستغرقت هذه المحاولة عشر دقائق وانسحب . ، ولم يعد إلى هذا النوع من الفكاهة . فالممثل الكوميدى الذى لايضحك الناس لما يقول أو لما يعمل بعد خمس دقائق من ظهوره على المسرح لايستحق هذه الصفة .

وقيل له أن بوب هوب يتنقل بين كل جبهات القتال فلماذا لايفعل مثله ؟

وكان رد ش . ش : أن بوب هوب عبقرية من نوع آخر . . فكلانا يعيش فوق قمم مختلفة .

وهاجمته الإذاعة واتهمته بالشيوعية وبإفساد القيم الأخلاقية وإثارة السخط بين الناس . . وأنه كذاب .

وطالب الإذاعة بتعويض قدره ثلاثة ملايين دولار .

واعتقلت قوات الأمن أحد أصدقاء ش . ش بتهمة أن أخاه شيوعى ويتولى الدعاية فى المانيا الشرقية . . أما صديق ش . ش هذا فهو الموسيقار هانس أيسلر . وهنا ثار ش . ش وراح يصعد السلم ويهبط ويقفز فى فراشة ويقفز من فراشه . . وفى نوفمبر سنة ١٩٤٧ بعث برقية إلى صديقه بيكاسو وطلب إليه أن يذهب على رأس عدد من الفنانين الفرنسيين ويحتجوا لدى السفارة الأمريكية فى باريس على اتهام أيسلر بالشيوعية ومحاولة طرده من أمريكا !

وكان هذا التصرف غريباً من ش . ش ولكنه يدل على مدى انتصاره للفنانين والأصدقاء . وعلى أنه مندفع أيضاً . فهو قد طلب من فنان شيوعى هو بيكاسو أن يحتج على اتهام فنان آخر بأنه شيوعى !

فكأنما طلب إلى بيكاسوا أن يعترف بأن الشيوعية تهمة يجب أن يدفعها عن أى فنان آخر !

وفى أبريل سنة ١٩٤٩ التفت السحب مرة أخرى حول ش . ش فقد انضم إلى مجلس السلام العالمى . ولم يعد لدى الناس أى شك فى أنه قد تحدى أمريكا وانضم إلى المعسكر الذى ينادى بالسلام فى مواجهة الحروب وتجار الحروب .

وعلى أثر ذلك استدعى الكثيرون جداً من أصدقاء ش . ش ومن الذين يترددون على بيته والذين يتعاملون معه . . وشرد الكثيرون من أعمالهم وبيوتهم ووضعوا فى السجون ، وبلغت هذه الموجة أقصاها سنة ١٩٥٤ عندما ظهر على المسرح الأمريكى شخص رهيب مجنون اسمه : ماكارثى !

وهرب الناس من ش . ش . . ومن بيته . . ومن الاتصال به . وكان أصدقاؤه يتفقون على أن يلتقوا عنده ، وفى آخر لحظة يتعللون بأعذار وهمية . وأصبح معروفاً أنه أصبح شخصاً ملعوناً . . وأن هذه اللعنة مرض تنتقل عدواه من البيت إلى السجن .

وفى يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٥٢ حاول ش . ش أن يجد مناسبة يجمع فيها أصدقاءه ومحبيه فدعاهم جميعاً إلى حفلة فى بيته ليشاهدوا عرضاً خاصاً لفيلم «أضواء المسرح» . وحضر حوالى ٢٠٠ شخص . من بينهم مخرجون وممثلون والعمال الذين اشتركوا فى الفيلم . . وحضر مارلون براندو بملابس رسمية . . وكانت هذه أول وآخر مرة يرتدى فيها هذه الملابس . ولما رأى مارلون براندو أن ش . ش بالقميص والبنطلون . . نزع الجاكتة والكرافتة ووضعها على الأرض عند قدمى ش . ش ليعلن للحاضرين عن امتنانه فقال شارلى شابلن : اشكركم . .

وهنا وقفت إحدى السيدات وقالت : بل نحن الذين نشكرك . . ونهض كل الحاضرين ليقولوا له : نحن الذين نشكرك .

وتطوع أحد الموسيقيين ولحن هذه العبارة فوراً : نحن الذين نشكرك ياشارلى . .

واقترحت زوجة ش . ش أن يسافرا إلى أوربا للراحة . . وكانت زوجته لم تر أوربا من قبل . ووافق ش . ش . . وإن كان قد أعرب لأصدقائه أن لديه إحساساً غريباً بأنه إذا سافر من أمريكا ، فلن يعود !

ولم يخب ظن ش . ش . فعندما وصلت الباخرة التى تقله إلى قرب السواحل الإنجليزية صدر قانون بمنعه من دخول أمريكا لأنه شيوعى وأرسل ش . ش برقية يعلن فيها أنه حصل على إذن بالدخول إلى أمريكا قبل سفره . وأنه دفع الضرائب . وأن المحاكمات التى أجريت له قد حكمت ببراءته وأنه لايستطيع أن يدافع عن نفسه وهو على مسافة ثلاثة آلاف ميل من نيويورك !

ولكن القرار صدر . .

واستقبلته ملكة انجلترا . . واستقبله الرئيس أوريول فى فرنسا وأنعم عليه بنيشان الشرف واستقبله الرئيس الإيطالى اينودى وأنعم عليه بنيشان الشرف .

ونشرت صحيفة برافدا السوفيتية أن ش . ش وإن لم يكن يقدمها فى أفلامه ، فإنه مؤمن بالسلام ، وموقف أمريكا منه يدل على سياستها فى تسخير الفنانين للدعاية لها .

وبدأت الصحف تفتش عن ماضى ش . ش وعن وثائق زواجه وطلاقه وعن علاقاته الكثيرة . وعن ماضيه كله . .

وفى فبراير سنة ١٩٥٣ كان لابد أن يظهر فيلم (أضواء المدينة) على المسرح وامتنعت دور العرض فى أمريكا عن شراء هذا الفيلم . . حتى العمال الذين عملوا به أعلنوا أنهم أبرياء منه وأنهم فى غاية الأسف على اشتراكهم فى مثل هذه الإهانة لأمريكا .

وأعلن نقيب السينمائيين أنه برئ من هذا الفيلم . .

والنقاد وحدهم هم الذين أنصفوا الفنان الكبير وأشادوا بعبقريته وواروا أقلامهم خجلاً من هذه الفضيحة التى وقعت فيها أمريكا . فأعلن واحد منهم أنه لن يكتب حرفاً حتى تفيق أمريكا من هذا العار الذى جرته على نفسها بلا مبرر سياسى أو قانونى .

وعندما قرر ش . ش الإقامة فى سويسرا ذهب إلى السفارة الأمريكية وأعاد لها وثيقة الدخول إلى أمريكا . .

حتى الفيلم الذى ألفه وأخرجه وأنتجه وصوره بعنوان «ملك فى نيويورك» عاد وخفف عباراته العنيفة . . لقد أحس ش . ش أن السخط الشديد هو الذى أملى عليه هذا الفيلم .

وفى فبراير سنة ١٩٥٤ ذهبت زوجته إلى السفارة الأمريكية ونزلت عن جنسيتها وأصبحت بريطانية . .

وأثار ش . ش سخط الإنجليز عندما استقبل فى بيته شواين لاى . . ونشرت الصحف رأيه فى الزعيم الصينى . . فقد وصفه بأنه من أذكى الناس وأوسعهم افقا . .

وتلقى ش . ش جائزة السلام من مجلس السلام العالمى وقدرها ١٤ ألف دولار . ومن الغريب أن ش . ش قد بعث بهذا المبلغ إلى أحد رجال الدين واسمه الأب بيير لأنه من المخلصين الذين يعملون من أجل الحب والسلام بطريقة خاصة .

وسئل شارل شابلن : هل أنت شيوعى ؟

فأجاب : نحن الآن فى عصر العلم . . أما العصر الذى يحكم فيه على إنسان بأنه شيوعى لأنه يضع ساقه اليسرى على ساقه اليمن ، فقد مضى !



الحب . الحب . الحب

- ١ -

الحـــب

كالعفاريت . . كل الناس يتحدثون عنه ولكن أحداً لم يره !

ولكن هذه السيدة تؤكد أنها رأت الحب ورأت عفريت الحب أيضاً . وقد أصدرت ثلاثة كتب فى موضوع واحد : الحب والفرنسيون . . الحب والإنجليز . . الحب والأسبان .

وهى فى كل كتاب تؤكد أن لديها الأدلة القاطعة على أن الحب كان موجوداً . . وأنها رأت أسلوبه فى الفن وفى بيوت الناس . . لأن الحب هو خليط من الفن والفضيلة . . وأنها استطاعت بالممارسة الطويلة أن تقول لنا : ما هو الفن . . ماهو الحب .

اسمها نينا ابتون . وقد تخصصت فى دراسة فن الحب وتقول : لأنها فشلت فى حبها مرتين . . ولكنها هذه المرة لن تفشل !

وهى بالفعل لم تفشل . فكتابها الكبير جداً عن «الحب والفرنسيون» ابتداءً من العصور الوسطى حتى يومنا هذا ، متعة فنية وتاريخية . . فهى لم تقم بدراسة التاريخ . . وإنما وجدت متعة فى أن تنقل لنا صوره المثيرة - يمكن أن أقول العارية . فهى لم تكتف بأن فتحت أبواب التاريخ على الحب ، وإنما دخلت . . وتفرجت واشتركت فى المناقشة .

وحماسها الشديد يدل على أنها تذوقت الكثير من القبلات والصرخات التى ملأت الكتاب .

والمؤلفة تجعلك تشعر بأنها سيدة تؤرخ للأزياء فى العالم . . وذلك بأن ترتدى هذه الأزياء واحداً واحداً . . من الملاءة اللف حتى المايوه الساخن !

وقد اختارت نبينا ابتون بداية الحب الفرنسى فى العصور الوسطى .

فى هذا الوقت كانت أوروبا وفرنسا أيضاً - مشغولة بالحروب على حدودها وبالحروب الصليبية . فقد ذهب الكثيرون باسم الدين للدفاع عن الأراضى المقدسة . ذهب الرجال وبقى النساء . .

وكان هناك فراغ لا أول له ولا آخر .

والفراغ هو «الجو» الذى ينمو فيه الحب . فعندما تكون اليد خالية ، ينشغل الرأس بالأحلام .

الرأس يحلم بالطعام الذى يملأ المعدة ، والطعام الذى يملأ القلب . ثم يعود المحارب الذى سافر إلى بلاد بعيدة يحمل سيفه وصليبه .

وفى هذا الوقت لم يكن الحب معروفا بصورة صارخة . . ولم تكن هناك قصص حب معروفة . أى لم تكن هناك «نماذج» أدبية أو فنية للحب بين رجل وامرأة . .

وفجأة ظهر الحب . . وأغانى الحب .

وكان هذا الحب عربياً صميماً . . فقد عاد أحد النبلاء من معركة له فى جبال البرانس على حدود فرنسا وأسبانيا . ومع هذا النبيل عدد من الأسرى . رجال ونساء . أما النساء فقد ارتدين الفساتين السوداء . وقد غطين وجوههن بنقاب أبيض . وكن سمراوات . وكانت الدموع بارزة فى عيونهن الواسعة . لقد عاد هذا النبيل منتصراً .

وفى الليل احتفل هذا النبيل بانتصاره . وكان من بين الأسرى مطربون . ومنشدون . وهؤلاء المطربون يغنون شيئاً اسمه «الزجل» . لقد أطلق الفرنسيون فى ذلك الوقت على الأغانى العربية اسم «الزجل» . أما هذه الأزجال فكانت فى موضوع واحد هو : عذاب العاشق ، وصلابة قلب المعشوقة . والإخلاص إلى الإبد !

وفى قلعة هذا النبيل «دوق كيتان» استمعت باريس لأول مرة اغنيات عربية وموسيقى عربية . ولأول مرة يدخل الأدب الفرنسى معنى «الشهامة» و«الفروسية» . . والموت من أجل المحبوبة . والحياة من أجلها ومن أجل الاخلاص لها حتى الموت .

والفرنسيون عندهم الاستعداد الهائل للحب وسيرة الحب . والحياة به وله .

فهناك أسباب جغرافية أدت إلى انتعاش الحب فى فرنسا أكثر من غيرها من البلاد . ففرنسا جوها معتدل . دافئة . لياليها صافية . قمرها يظهر كثيراً وراء السحب وبلا سحب . وفى الليل يولد الحب وينمو . وتحت الأشجار وعلى الأعشاب يتعانق العشاق . ويلتقى التأمل والأحلام . . وتأملات أبناء الشمال وأحلام أبناء الجنوب . وفرنسا دولة لها حدود فى الشمال ، ولها حدود على الجنوب .

وإذا كان العرب والفرس يتحدثون عن البلابل فى قصائدهم ، فالفرنسيون يتحدثون كثيراً عن الزهور وألوانها وأنواعها وعطورها . . وهم يرون أن الحب هو القادر على أن يجعل لكل شىء لوناً ، ويجعل لكل لون معنى .

وتقول نينا ابتون : إن الفرنسيين يستطيعون أن يناموا فى الحقول ، فى ظل الأشجار نهاراً ، وتحت أشعة القمر ليلاً ، دون خوف . . فلا توجد فى فرنسا زواحف سامة !

وهناك سبب آخر وهو أن الفرنسيين لأنهم خليط من أبناء البحر الأبيض المتوسط وأبناء الشمال فقد أصبحت لديهم حرارة القلب ، وبرودة العقل ، فأبناء البحر الأبيض فيهم حرارة حارقة . والحب حرارة ملتهبة . وفيهم برودة العقل الشمالى . والحب أيضاً له قواعد وله أصول وله حدود . . وقد عرف الفرنسيون كيف يحترقون بعقل . . أو كيف تدق قلوبهم بحساب . فكانت الأعمال الأدبية والفنية أى كانت النار فى داخل الآنية الزجاجية الشفافة . فكل عمل فنى هو عبارة عن قطعة من النار وقد اعتقلت فى إناء شفاف جميل !

والسبب الثالث هو اللغة . . فاللغة الفرنسية غنية بكلمات الحب والهيام . . ورقيقة . . وفيها كلمة : حضرتك . وفيها كلمة : أنت . . وما أسهل أن ينتقل المحب الولهان من مخاطبة حبيبته بقوله : حضرتك . . إلى أن يقول لها : أنت !

ومن كلمة «حضرتك» إلى كلمة «أنت» ينتقل كل شىء من الرجل إلى المرأة وبالعكس . تنتقل ملكية الدنيا كلها . فيصبح الرجل مالكاً للمرأة ، وتصبح المرأة مالكة للرجل . . وملكة عليه أيضا !

وأخيراً هناك السبب التاريخى . . ففى العصور الوسطى كان هناك نموذج من الحب لابد أن يؤثر فى سلوك وأدب الفرنسيين والأسبان والإيطاليين . . والإنجليز والألمان . . وهو «الحب الشهم» . . أو «أخلاقيات الفروسية» .

فقد ظهر فى فرنسا فى القرن الثانى عشر الشعراء الفرسان . . الذين يسمون بالطروبادور - وهى كلمة مأخوذة من كلمة «طرب» العربية - هؤلاء الشعراء أغلبهم من النبلاء . . أى من الشبان الذين عندهم متسع من الوقت ، وليسوا فى حاجة إلى البحث عن عمل . وليسوا فى حاجة إلى أن يعرف الناس أصلهم وعراقة دمهم . . فهؤلاء الشبان يؤلفون أغانيهم . . ويغنونها أيضاً . وبلا مقابل . . حتى الحب نفسه بلا مقابل . . إنهم يعيشون للحب . . يريدون أن يخلصوا وأن يتعذبوا فى الحب . . فهم يطلبون المزيد من العذاب فى الحب .

وأول شاعر طروبادور فى التاريخ هو الدوق جيوم داكيتان (١٠٧١ - ١١٢٧) .

وهو ابن ذلك النبيل الذى عاد منتصراً فى الحرب ومعه المطربون والمطربات العرب . وعندما عاد أبوه من ميدان القتال كان هذا الطفل واقفاً على باب القصر . وسمعهم يقولون : الدوق عاد . . الدوق عاد .

وفى الليل تسلل هذا الشاعر الصغير إلى حيث يجلس أبوه واستمع إلى الموسيقى والأغانى ورأى الرقص الشرقى الأسبانى .

وكان الطفل فى السابعة من عمره . . ولما مات أبوه كان فى الخامسة عشرة من عمره . . ولكن رأسه قد امتلأ وقلبه بدأ يتفجر بشىء يعرفه جيداً اسمه : الحب .

وقد أعلن أبوه للحاضرين أنه أتى بهؤلاء الراقصات من بلاط الخليفة . . وأن هذه «الأزجال» التى يغنونها كانت من تأليف شاعر أعمى اسمه «مقدام» الذى تأثر كثيراً بما كتبه الفيلسوف العربى ابن سينا وهو أيضاً يتغنى بالحب والعشق !

ولقد سألته زوجته : ولكن هؤلاء الناس ما الذى يعرفونه عن الحب ؟ وكان رد الدوق داكيتان : كل شىء !

وعادت الزوجة تقول : كيف يتكلمون عن الحب وهم يحبسون زوجاتهم وراء ستائر ثقيلة؟

وقال الزوج : لأن الحب هو وحده القادر على أن يزيح هذه الستائر وهو وحده القادر على إدخال السلوى على قلوب الحريم . . فالحب يجعل كل امرأة فى الحريم ملكة على عرش لا أول له ولا آخر . . فالحب وحده هو طريق الخلاص !

وقد سمع الدوق عن قبيلة عربية اسمها (بنو عذرة) . . وهذه القبيلة مشهورة بالحب العفيف . . بل مشهورة بشيء آخر أقوى من الحب . . إنهم يحبون حتى الموت . . فالحب عندهم والموت بمعنى واحد !

وقد تأثر الطفل جيوم داكيتان أول شعراء الطربادور بكل ما سمعه من أبيه وبعد وفاة أبيه انطلقت موهبة هذا الشاعر الشاب بالأغانى المثيرة . . والأغانى العنيفة الفاجرة أيضاً . وكان هذا الشاعر يقول عن نفسه : ولا واحدة تستطيع أن تقاومنى . . ولا واحدة تكتفى بأن ترانى مرة واحدة !

ولم يكن مبالغاً فيما قال .

وفى ذلك الوقت كانت تدور المعارك من أجل المحبوبة . وكانت تسيل الدماء . . وكانت تذهب المحبوبة لانقاذ حبيبها . فهى تغسل جروحه . وأثناء تجفيف الدم ينفتح القلب . فالحب يولد فى قلب المرأة عندما تهزها الشفقة والإعجاب بالرجل الذى تعذب من أجلها .

ولكن الحديث الطويل مع الفارس الجريح لم يكن محترماً فى ذلك الوقت . . فكثيراً ما انتقلت الشائعات بأن فلانه تكلمت طويلاً مع فارس جريح . . وكانوا يعيرونها بقولهم : كلامها كثير مع أصحاب الجروح !

وكان الطروبادور ينادون بالفضيلة إذا تغنوا .

ولكنهم فى الحقيقة ليسوا كذلك .

فلم يكن حب الزوجة فى ذلك الوقت شيئاً محترماً . . أو شيئاً مطلوباً . وإنما كان الزوج - والكنيسة أيضاً - يرى أن الإنسان يجب إلا يحب زوجته . . وإنما العلاقة بين الرجل والمرأة هى علاقة تعاون من أجل زيادة سكان فرنسا .

ولذلك ظهرت فى ذلك الوقت أنواع غريبة من قمصان النوم الغليظة الجافة هذه القمصان تجعل الزوج إذا تمدد إلى جوار زوجته لايستطيع أن يفرق بين جسم الزوجة والحائط . . لأنه ليس من الضرورى أن يكون هناك حب . . وإنما يكون هناك أولاد فقط!

وكثير من هؤلاء الشعراء العشاق كانوا يختمون حياتهم بالتكفير عنها . أى بأن يذهبوا إلى الأديرة . . أو بأن يوقفوا ممتلكاتهم على الكنائس !

وقد اختلطت القيم فى ذلك الوقت .

فالعاشق يذهب إلى الكنيسة يقسم على الحب والإخلاص مدى الحياة . أما الزوج فيقسم على الزواج بلا حب مدى الحياة !

وفى هذا الوقت ينام العشاق والسيف بينهم . . فكل من تساوره نفسه أن يقترب من المعشوقة يجب أن يغمد السيف فى قلبه .

وأصبح من المألوف أن ينام العاشق إلى جوار معشوقته عارية . فلا يمسسها !

وفى هذا الوقت أبرزت الكنيسة تمثال العذراء . . أى نموذج «الحمل الطاهر» . . أى نموذج للسيدة الطاهرة التى حملت دون أن يمسسها بشر .

وقد استولى هذا المعنى على الفكر والفن فى العصور الوسطى لدرجة أن المحبين كانوا يرون أن العلاقة بين الرجل والمرأة يجب أن تكون طاهرة أو يجب ألا تكون هناك علاقة تؤدى إلى حمل!

وقد حدث أن تزوج أحد الشبان . ولكنه قرر أن تكون العلاقة طاهرة . فذهب وأخفى خاتم الزواج وراء تمثال للعذراء . وفى ليلة زفافه استغرق فى النوم . وزارته العذراء فى نومه وعاتبته على أنه يخونها مع امرأة أخرى . . فنهض من فراش الزفاف وذهب إلى الدير بقية حياته !

أما ملامح المرأة فى ذلك الوقت ، فالصور واللوحات والتماثيل تكشف عن نوع غريب من الجمال . فالمرأة قد تغطت كلها بالأزياء طبعاً . . وهى ترتدى الملابس الخضراء إذا كانت حديثة العهد بالحب . . والملابس الزرقاء إذا كانت مخلصة فى الحب .

وكانوا يفضلون الشقراوات أيضاً .

ولكن اللوحات تفضح لنا جمال المرأة فى ذلك الوقت : فهى ضيقة الكتفين نحيفة الذراعين مفعوصة النهدين . . وهى مدببة الأنف منفوخة الجبهة . . فيما عدا سيدة واحدة هى «أنييس سوريل» التى كانت عشيقة الملك شارل السابع . فقد اكتشفت فى نفسها مظاهر الأمومة . . فارتدت فستاناً عارى الصدر . . فبرز نهداها . . وبهذا الفستان أصبحت النهود العالية موضة !

وكان المثل الأعلى عندهن : النهد الذى يمكن أن يثبت عليه الشمعدان فلا يقع !

ولم يكن المجتمع فى ذلك الوقت يتسامح مع الخيانة الزوجية . فالزوجة الخائنة يحلقون شعرها ويلقون بها فى السجن حتى تموت .

أما العشيق فكانوا يسلخون جلده ، وبعد ذلك يقطعون بعض أعضاء جسمه ويتركونه حتى يموت !

وكانت الأغانى فى ذلك الوقت تطلب من العاشق الولهان أن يحترس فى اختيار من يبعث معهم برسائله إلى المعشوقة !

وانتشرت فى ذلك الوقت الأمراض الخبيثة التى انتقلت من أمريكا . . إلى إيطاليا ففرنسا . وكانوا يسمونها : أمراض نابلى . . وكان الإيطاليون يسمونها : أمراض باريس !

وفى سنة ١٢٢٣ صدر قرار بسجن سيدة لأنها شتمت جارة لها بقولها :

إلهى ربنا يبتليك بمرض نابلى !

وفى القرن الخامس عشر ظهر ماريشال اسمه جيل دى رتس . . هذا الرجل اتهموه بقتل مئات الأطفال الصغار . فقد كان شديد الشذوذ . . ولذلك صدر قرار بإعدامه حرقاً !

وكان هذا الماريشال أحد الأشرار الذين سبقوا الماركيز دى صاد الذى نسبت إليه كلمة «الصادية» . . أى لذة تعذيب الآخرين !

وفى هذا العصر كنا نلمح بعض اللفتات الغريبة من الملك روبير الطيب . . فقد كان صديقا للبغايا والغانيات . . وقد حدث أن رأى وهو فى طريقه إلى الكنيسة شابين يتعانقان فنزل من فوق حصانه وغطاهما بردائه . . وانصرف يصلى ! .

***

وتمضى المؤلفة فى رواية ميلاد الحب وسيرة الحب حتى تبلغ القرن العشرين .

وفى القرن العشرين ، وبعد الحرب العالمية الأولى تجدها تؤكد حرص الناس على الحياة . . على أن يعيشوا بعد أن مات منهم أكثر من مليونى نسمة . ولذلك نجد

الحب بعد الحرب العالمية الأولى صار حسياً جداً . . أو حسياً فقط . ونجد أدباءً كباراً يرفعون رايات العرى والتعرى . ونجد من يقول : إن الإنسان استطاع أن يجعل من الجنس الذى هو وظيفة حيوانية ينبوعاً للمعانى الجميلة .

ولكن انتشار «الحسية» الشديدة يرد هذا المعنى الجميل إلى مجرد وظيفة . . ويجعل الينبوع يفيض بالوحل . . وليس بالجمال .

وفى كل القرن العشرين نجد الكثير من المعانى الفنية والقيم الجمالية تصبح ضحية للشك والضياع .

وضاع الحب بين المعانى التى ضاعت فى زحمة الشكوك والارتياب والخوف من الموت ، والخوف على الإنسانية كلها والسفر إلى الكواكب - أى هجرة الناس من الكرة الأرضية والهرب من مصائبها وانشغال الناس بالناس وإطعام الناس وتحرير الناس ، والإبقاء على الناس من أجل المحبة العامة ، وليس الحب بين اثنين فقط من الناس .

والعاشق الولهان قريب إلى حالة الموت . . لأن العاشق لايرى أى تغيير فى الدنيا ، فهو لايراها . ويريد الدنيا أن تقف وأن تسكن . . وأن تظل السعادة أبدية . وأن يخلو له الكون هو ومحبوبته . . فالعاشق - إذن - يتصرف كأنه ميت . . كأنه لا يشعر بما حوله . . أو لايريد أن يشعر بما حوله . . فهو يريد أن يعدم الدنيا كلها ليعيش هو .

مثل هذه النزعات الفردية العنيفة تلاشت فى القرن العشرين فقد ظهر نوع آخر من الحب . . ولكنه ليس حباً سليماً . . إنه حب مريض .

وإذا كان الكبار قد انشغلوا عن الحب فسيظل المراهقون أمراء الحب . . وإذا قام الإنسان بإجراء مباريات فى كرة القدم على ظهر القمر فلن يتوقف الأطفال عن لعب الكرة فى الحوارى .

ولذلك سيبقى الحب لعبة الصغار ، ما دام هناك أطفال صغار فى أى مكان على الأرض أو على أى كوكب آخر !

- ٢ -

ننتقل إلى الحب عند الانجليز . .

ما الذى يحيط بهذه الجزيرة الإنجليزية أو ما الذى يجرى فيها ؟ لايمكن أن يكون الحب . ولا لغة الحب ولا كل ماهو مألوف فى العواطف بين الناس فى القارة الأوربية !

وهذه المعانى هى التى جعلت السيدة «نينا ابتون» تحس أن العالم كله يتحداها أن تجد إنساناً واحداً فى انجلترا يحب . وعندما فرغت من كتاب «الحب والفرنسيون» قال لها أحد أصدقائها فى باريس : أظن من المستحيل أن تؤلفى كتاباً مماثلاً عن مواطنيك من الإنجليز .

وبهذه الروح من التحدى أقبلت السيدة نينا ابتون على كتابها الثانى «الحب والانجليز» . وهو فى حجم الكتابين الآخرين معاً . ويذهب بها التحدى إلى درجة أن نقول إنها لو تركت لقلمها الحرية لأصدرت دائرة معارف عن الحب عند الإنجليز !

ولكى تخفف على نفسها روح التحدى وتجئ عبارتها هادئة تخيلت حواراً يدور بينها وبين القارئ :

القارئ : لم أملك إلا الابتسام عندما عرفت أنك تؤلفين كتاباً عن الحب عند الإنجليز .

المؤلفة : أى نوع من الابتسام ؟

القارئ : ابتسام السخرية طبعاً ؟

المؤلفة : إذن قد صدقت تلك التشنيعة التى أطلقوها علينا وهى أننا لا نعرف الحب !

القارئ : لا تستطيعين أن تنكرى أن نصيبنا نحن الإنجليز من الحب ضئيل جداً .

المؤلفة : هذه غلطتنا . فقد تركنا لأدباء القارة الأوربية حرية تصدير نظريات الحب إلى بلادنا وإغراقنا فى الغرام وفى أشياء أخرى كثيرة . . ولكننا أثبتنا بعد ذلك قدرتنا على العمل !

القارئ : وهل وجدت نماذج من المحبين فى تاريخنا ؟

المؤلفة : لا يوجد نموذج للمحبين . فالحب أسلوب فريد . وهناك عادات وموضات فى الحب . وهذه الموضات يقلدها الناس من عصر إلى عصر . . وإن كنا نجد فى كل قرن عشاقاً خالدين . ومهما تغيرت الموضات . ومهما تغير هؤلاء الخالدون فجوهر الحب واحد . والموقف فقط هو الذى يتغير .

القارئ . ألا يمكن استخلاص جوهر الحب هذا ؟

المؤلفة : هذا مالا أتمناه . . فإن البحث عن استخلاص للحب وتقطير له فى جملة أو فى وصفة سحرية . . يفسد علينا الكثير من متع الحياة . لأن الحب مزيج من عناصر لاترى . والقليل من الناس يملك هذه العناصر ويصبح قادراً على تركيب الوصفة السحرية فى أنفسهم . وسوف يكون دائماً عدد قليل من كبار العشاق . . بينما سيكون هناك عدد هائل من الملهمات !

القارئ : لا أعرف من الذى قال إن الحب وهم فى وهم . . وأنه ليس أكثر من قطعة من المعدن اللامع ملفوفة حول حقيقة بيولوجية !

المؤلفة : لايمكن أن يكون صاحب هذه العبارة رجلا قد عرف الحب !

القارئ : ولكن أين وجدت أنت هذا الوهم الذى اسمه الحب ؟ لابد أنك قد عثرت عليه بالصدفة فى كتبنا القديمة ؟ لابد أنك صادفت شبحاً مخيفاً !

المؤلفة : أبداً . بالعكس - لقد وجدت الحب فى أماكن أخرى . وجدته فى الخطابات الغرامية المصمغة منذ وقت طويل . . وعثرت عليه فى المذكرات الخاصة التى احتفظت بها سراً عائلات عريقة كثيرة . . ثم لم تشأ أن تنشرها .

القارئ : وما الذى دفعك إلى التعب وتأليف كتاب عن شىء لا نعرفه نحن الإنجليز ؟

المؤلفة : بعد أن صدر كتاب عن «الحب والفرنسيون» تلقيت تهنئة من صديق فرنسى مثقف . وجاء فى خطابه : من المستحيل أن تجدى مادة للكتاب عن الحب عند الإنجليز . وأن مقالاً واحداً يكفى لسرد كل قصة الحب عند الإنجليز . فأحسست أنه يتحدانى . ومما يؤسف له أننى قد صادفت كثيرين مثله . . لديهم شكوك . وسوف أبدد هذه الشكوك !

القارئ : إذن سيكون كتابك دفاعاً عن الإنجليز !

المؤلفة : نعم . إنه دفاع عن الحب الذى أهملناه وعن العشاق الذين نسيناهم . وقد ألفت هذه الكتاب ليستمتع به القارئ . أما أنا فقد استمتعت به . واختصرت منه الكثير . ولو قدر لى أن أتناول بالتفصيل سيرة الحب عند ألإنجليز لأصدرت ستة كتب لا كتاباً واحداً من ستة فصول . ولاستعنت بعدد من الخبراء من بينهم : مؤرخ وفيلسوف وشاعر وطبيب وباحث اجتماعى

القارئ : دائرة معارف عن الحب !

المؤلفة : بلا شك . ولأننى أعتقد أن هناك مجالاً كبيراً لتفصيل الحب عند الإنجليز أرجو أن تقبل هذه الوجبة الخفيفة الفاتحة للشهية ومعها زجاجة شمبانيا !

***

بهذه اللهجة الحارة والنبرة العالية تمضى المؤلفة فى دفاعها عن مواطنيها من الإنجليز . وتقلب فى كل صفحات التاريخ لتعثر على العشاق والمحبين والخطابات ومحاضر البوليس ودواوين الشعراء ومسرحيات شكسبير ، واعترافات الفيلسوف المثالى توماس مور .

وأول قصة حب نصادفها فى الكتاب تقول لنا أن أحد الملوك طلب إلى ابنه أن يتزوج أرملته بعد وفاته . . ولكن الابن كان يحب سيدة أخرى . وعندما قرر أن يتزوج امرأة أبيه . . جاءت حبيبته على رأس جيش وهزمته وجرته بالحبال ليقبل قدميها ويطرد أرملة أبيه . . ثم يتزوج الحبيبة المنتصرة !

وصدرت قوانين تحرم زواج الابن من أرملة الأب . ثم عادت إلى الظهور مرة أخرى . واضطر القديس أو غسطين أن يعلن خروجه من إنجلترا ومن الديانة المسيحية . ولكن رأى القديس بطرس فى نومه يعنفه ويضربه . ويطلب إليه أن يبقى إلى جوار المسيحيين . ونهض من نومه وما زالت علامات الضرب الدامى على كل جسمه !

وقصة الملك وليام الفاتح : لقد تقدم لخطبة إحدى النبيلات . ورفضت لأنها تحب رجلاً آخر وهذا الرجل لايحبها ! فذهب الملك أمام الكنيسة وانتظرها حتى خرجت وانهال عليها ضرباً حتى سقطت على الأرض . ولكن النبيلة كانت تحب الرجل

الذى يضرب المرأة . . فأحبت الملك ووافقت على الزواج منه . . ولما طلب إليها أن تختار قطعة من الأرض لتبنى عليها قصرها اختارت أرض الذى كانت تحبه ولا يحبها . واستولى الملك على الأرض . وجاء بالرجل مربوطاً بالحبال وألقى به عند قدمى الملك فأودعته السجن حتى مات !

وكان من المألوف فى القرن الثانى عشر والثالث عشر أن يتزوج الأطفال وهم صغار . أما السبب فهو أن أصحاب الأرض كانوا يستولون على الأطفال ويسخرونهم فى خدمة الأرض بلا مقابل . . ولذلك كان الناس يبادرون بتزويج أطفالهم حتى لايرغمهم أحد على العمل بالإكراه . .

وكان رجال الكنيسة يشجعون الأرامل على عدم الزواج . لأن الكنيسة من حقها أن ترث ما يتركه الزوج . مادامت الأرملة قد تحولت إلى راهبة .

وعندما تنبه الناس إلى جشع الكنيسة كانت الأرملة تتزوج بعد وفاة زوجها . وفى هذا الوقت راح رجال الدين ينشرون خرافة ظهور أرواح الأزواج يطاردون الأرامل فى كل مكان !

ومن أغرب القصص التى جاءت فى هذا الكتاب قصة الفيلسوف توماس مور صاحب «كتاب المدينة الفاضلة» فقد جاءه رجل يخطب إحدى ابنتيه .

فأخذ الرجل من يده واتجه مباشرة إلى غرف ابنتيه . . ووجدهما نائمتين تحت غطاء واحد . فنزع من فوقهما الغطاء ، وأحست الفتاتان بشىء من هذا فتقلبتا على الوجه . وهنا أعاد الأب الغطاء فوق ابنتيه العاريتين تماما . . وقال للرجل الذى يخطب واحدة منهما : الآن لقد رأيت كل شىء . . فأنا من رأيى أن الرجل يجب ألا يتزوج امرأة إلا بعد أن يراها عارية تماما !

وسواء كانت هذه القصة صحيحة أو مخترعة ، فإنه قد ذكر فى «المدينة الفاضلة» أنه يجب ألا يكون هناك كذب أو خداع بين الرجل والمرأة . . وأن التفاهم يجب أن يكون تاماً .

وقد تزوج الفيلسوف مور مرتين . وعندما مات كتب على قبره وقبر زوجته هذه العبارة : أيها الموت امنحنا جميعاً ما حرمتنا الحياة منه وهو : أن نعيش معا فى سلام !

ولم يكن كل الأدباء والفلاسفة والعشاق من أنصار الحب والزواج ، فقد ارتفعت أصوات صارخة تلعن الحب وتلعن الزواج . .

حتى قبل أن يقول بيرون : حب يؤدى إلى زواج ، مثل نبيذ يتحول إلى خل !

وقبل أن يقول «كارليل» : الحب ليس كله هذيانا ، ولكن فيه كل معانى الهذيان .

والعالم الكبير تشارلز دارون كتب فى ١٨٣٧ يقول عن مزايا الزواج : أطفال وصديق للعمر وموسيقى وثرثرة النساء .

وكتب دارون عن عيوب الزواج : ضياع رهيب للوقت وإذا كان هناك أطفال كثيرون فإنهم يرغموننا على كسب القوت ويقتلون فينا روح الكفاح !

وقال دارون أيضاً : ولكن من الصعب أن يقضى الإنسان كل عمره كالنحلة يبحث عن الطعام ثم يأوى فى النهاية إلى بيت قذر . إنه فى حاجة إلى الزوجة الجميلة وإلى الدفء والموسيقى . قارن حياتك بعد الزواج بحياتك قبل الزواج سيكون الفارق واضحا إنه لصالح الزواج . . فتزوجوا . . . تزوجوا . . تزوجوا !

وتشارلز دارون كان من أحسن الأزواج وأكثرهم إخلاصاً . . وهو الرجل الذى اكتشف نظرية أن الإنسان أصله قرد !

وكل أشكال الحب لا ترضى كاتباً كبيراً مثل هـ . ج . ولز . فهو يرى أن الناس على هذا الكوكب غير قادرين على الحب . وأنهم فى انجلترا غير قادرين على أن يكونوا أناساً . وأن الإنسان عموماً ليس إلا حيواناً مراهقاً وأنه شديد التقلب بين المحبة والكراهية والإخلاص والخيانة والغيرة والبلادة . وأن كل ما كتبه الناس عن الحب ، يشبه أصوات الآلات تحت أصابع العازفين قبل بداية الحفلة !

أما الفيلسوف رسل فهو ينظر إلى المجتمع الإنجليزى عموماً ويقول : لا أمل فى إصلاح هذا المجتمع إلا إذا مات كل الناس فوق الأربعين !

***

وعلى الرغم من الحريات الممنوحة للمرأة وعلى الرغم من أنها موجودة فى كل مكان يقف فيه الرجل . . فإن المرأة لاتزال سندريلا . . إنها الفتاة المسكينة التى تحلم

بأمير على حصان أبيض . . وتنتظره . ولا يهم أبداً أن يجئ . فالمرأة لا تشبع من الحب . والكلام عن الحب . ولو تزوجت المرأة ألف مرة وتكسرت أسنانها فإن معدتها تظل - حتى الموت - قادرة على هضم كل كلام عن الحب !

ولا شك أن هذه الأحلام عند المرأة هى نوع من الخيانة العقلية . . ولكن الرجال قادرون على التفتيش عن هذه الخيانة العقلية بمشاهدة الرقص العارى والانغماس فى كثير من اللهو والملذات التى يسمح بها المجتمع للرجال ولا يسمح بها للمرأة . .

ولايزال المعنى القديم هو شعار الحياة الزوجية والحب فى كل عصر : فزواج بلا حب ، عربة بلا حصان . . وحب بلا زواج حصان بلا عربة . . وعندما يجتمع الزواج والحب ، فمن الصعب أن تبقى العربة عربة ، وأن يبقى الحصان حصاناً !

وتقول المؤلفة نينا ابتون : اعتقد أننى قد دافعت بما فيه الكفاية عن البرود والجمود عند الإنجليز . .

والحقيقة أنها قد نجحت فى الدفاع ولكن نجاح المحامى فى الدفاع لا يعنى أنه على حق دائماً . . بل يعنى أنه محام بارع . فقط !

- ٣ -

إذا كان الفرنسيون يصنعون الحب .

فإن الإنجليز يتحدثون عنه .

والألمان يفكرون فيه .

والطليان يأكلونه .

أما الأسبان فإنهم يرقصونه !

والرقص لا تغرب عنه الشمس فى أسبانيا المتدينة جداً ، وأسبانيا المتحررة ، وأسبانيا المتحررة جداً . . وأسبانيا الموجودة فى مدريد .

وقد شاءت السيدة (نينا ابتون) فى كتابها عن (الحب والأسبان) أن تختار بداية عربية صميمة للحياة العاطفية فى أسبانيا . وقد جعلت هذه البداية فى العصور الوسطى .

وقد اختارت كتاب (طوق الحمامة) لأبى محمد على بن حزم الأندلسى دستورا للمحبين فى الأندلس . وهذا الكتاب يضم عدداً من الرسائل فى الحب والغرام والنظرة بالعين والعفة والغيرة والطاعة والكرامة . . وكيف يمكن أن يكون الإنسان محباً عفيفاً .

وابن حزم قد اختار عنوان كتابه (طوق الحمامة) لأن من عادة العشاق أن يبعثوا برسائلهم مع إنسان أمين ، أو حيوان مخلص لايذيع أسرار العشاق . ويقول ابن حزم فى سبب اختياره للحمامة رسولاً إلى محبوبته :

تخـيـرها نوح فـمـا خـاب ظنه

لديهـا وجـاءت نوحـاً بالبـشـائر

سـأودعـهـا كـتـبى إليك فـهـاكـهـا

رسـائل تهـدى فى قـوادم طائر

والشاعر ابن حزم كان رجلاً رقيقاً . وقد تعلم الرقة من عشرته الطويلة للجوارى ولكن هذه العشرة جعلته لايثق فى المرأة . . وجعلته يعتقد أنها كائن ضرورى فقط ، ولكنها ليست كائنا يستحق الاحترام والإعجاب . فقد رأى من حيل النساء وكيد النساء الشىء الكثير .

ولكنه عندما أحب جارته (نعم) تزوجها . وكان دون العشرين . ثم ماتت نعم هذه ، وظل حزيناً عليها سبعة شهور لايغير ملابسه ، وبكى . . وكان البكاء معجزة . فابن حزم قد أصابه مرض فى أحشائه أصاب عينيه بالجفاف ، فهو عاجز عن البكاء ، وهو لايقوى على النظر إلى الضوء .

ولكن الحب أذاب عينيه فبكى . .

ورغم هذه الحياة الرقيقة المضطربة ، ورغم معاركه السياسية والعاطفية فقد ألف أكثر من ٤٠٠ كتاب . ولم يصلنا من هذه الكتب إلا القليل . وابن المعتز يشبه الكثير من الشعراء الرومانسيين فى أوربا بعد ذلك فقد نظم معظم شعره وهو فى العشرينات ، مثل رامبو ، ولوتريأمون . ونوفاليس ، وبيرون ، وشيللى ، وكيتس . والمتنبى وغيرهم .

وكان ابن حزم يعتمد على ذاكرته فى رواية الشعر حتى أرهق ذاكراته . . وعلى الرغم من أنه كان يكتب كل ما يحفظه فإن الذى لم يكتبه كثير جداً . وقد أصيب بفقدان جزئى للذاكرة لمدة سنة ، ثم عاودته ذاكرته ، وخشى أن يفقدها مرة أخرى فسجل كل ما فى رأسه .

***

ويبدأ ابن حزم فى تحليل الحب فيقول : إن الله لا ينهانا عن الحب . . ولا رسوله ، وأن عدداً كبيراً من الخلفاء ورجال الدين قد أحبوا . فعبد الرحمن بن معاوية أحب دعجاء وتزوجها ، ومحمد بن عبد الرحمن أحب غزلان وتزوجها .

ويقول ابن حزم : لولا أن هناك كثيراً من الأسرار الخاصة جداً فى قصور الأمراء والولاة ورجال الدين لرويت عنهم الكثير .

ويقول ابن حزم عن علامات الحب عند الناس : إن الذى يحب هو الذى ينظر بإدمان . يدمن النظر إلى الجارية أو الفتاة التى يحبها . فالمحب يميل معها وإليها كما تميل الحرباء مع الشمس !

ومن علامات الحب : الحرص على الحديث مع المحبوبة ، ومن علامات الحب : التضحية .

ولكنه يرى أنه لا حب أقوى . ولا أبقى من حب الله . . وحب الناس فى الله ولله !

ويقول ابن حزم أيضاً :

غـزال قـد حكى بدر التـمـام ... كـشـمس قـد تجلت من غـمـام

سـبى قلبى بألحـاظ مـراض ... وقـد الغـصن فى حـسن القـوام

خضـعت خضوع حب مستكين ... له ذللت ذلة مـسـتـهـام

فـصلنى يافـديتك فى حـلال ... فـمـا أهوى وصـالا فى حـرام

وتقول السيدة نينا ابتون أن ابن حزم هو أول من كتب عن معنى (النظرة) والذى يقرأ ما كتبه ابن حزم عن نظرة المرأة إلى الرجل يجد أنه قسم جفنى المرأة إلى مربعات وكل حركة فى مربع لها معنى . . فالإشارة بمؤخر العين الواحدة معناها : لا تقترب .

وتفتير العين - تسبيلها - معناها : ماذا تريد ؟

وكسر النظر معناها : فرجت .

وأطباق العين الواحدة معناها : احترس . .

وتقليب الحدقة ثم صرفها بسرعة معناها : احترس واحذر .

والإشارة بمؤخرة العينين معناها : ماذا تريد ؟

وقلب الحدقة من وسط العين بسرعة معناها : ابتعد نهائياً .

ويقول ابن حزم : أما ترعيد الحدقتين من وسط العين فمعناه : ممنوع منعاً باتاً . . إلخ .

ويهاجم ابن حزم (الإذاعة) هجوماً عنيفاً جداً . أما الإذاعة فمعناها : أن يذيع الإنسان سر حبه وأسرار محبوبته !

***

وتلاحظ المؤلفة أن الكاثوليك المتعصبين فى أسبانيا فى أيام ابن حزم ، أى فى القرنين العاشر والحادى عشر حرموا تصوير المرأة العارية . ولذلك لانجد لها صورا فى أى مكان إلا فوق إحدى الآنية المصنوعة من الزجاج . وهناك إناء مشهور عليه أربعة من الرجال وأربع من النساء ، وسيدة تنفخ فى الناى .

***

والطقس العاطفى فى الأندلس فى ذلك الوقت كان صورة جديدة لما كان يجرى فى بغداد . لقد انتقلت كل لوحات «ألف ليلة وليلة» إلى قصور الأمراء والشعراء ، وامتلأت الشرفات بالجوارى السمراوات والشقراوات .

ولكن الخيط الذهبى الذى يربط هذه اللوحات الحية كلها هو : الصراع بين الحب والشرف . .

وكان الشرف ينتصر دائماً . .

وفى غرناطة وأشبيلية كانت النافورات تتألق فى عيون المحبين ، وكانت أشجار البرتقال تثمر من أجل العشاق ، وكانت الوسائد الحريرية والستائر الوردية ، وكانت

موائد الطعام ، وكان ضياء القمر . لقد كانوا يعيشون فى عالم آخر . . فى هروب جميل . فقد كانت دنياهم تبدأ بالمائدة وتنتقل إلى السرير وتنتهى بالحمام . وفى هذا الطريق الملتهب كانت تتردد الأغانى وتتعالى رنات الخلاخيل .

***

أن سانت تريزة نفسها اعترفت فى رسائلها : إننى لا أستطيع أن أصلى فى مدينة أشبيلية ، فللشياطين هناك آلاف الأيدى والأرجل !

وتاجر الكتب المقدسة المشهور دون ميجيل الأشبيلى كان يقول : لا أستطيع أن أبيع هنا شيئاً . . فالناس جميعاً أجسامهم فتية ، وقلوبهم ملتهبة ، والنساء عيونهن سوداء . . ولا شىء عندهن إلا الحب والحب . . آمور . . آمور .

***

وكان من عادة العشاق فى هذا الوقت أن يبعثوا برسائلهم مع أناس لايتطرق الشك إليهم . وكانت (الماشطة) وهى السيدة التى تقوم بتمشيط شعر المرأة وتجميلها . . أحسن رسول . وكذلك السيدات العواجيز والأطفال . ورجال الدين كانوا أهم وسيلة من وسائل نقل بريد العشاق . وكانوا يكتبون رسائلهم بالدموع والحبر معاً .

وكان من المألوف أن يكتب العاشق رسائله بالحبر والدم أيضاً . .

ومن عادة الأسبان ألا ينشروا رسائلهم الغرامية . . فالحب سر ، ولذلك يجب كتمانه . وكانوا أكثر كتماناً للحب . .

وقد حدث فى الحرب الأهلية سنة ١٩٣٦ أن دخل أحد الضباط بيتاً مهجوراً ، فوجد به رزمة من الخطابات الملفوفة فى أناقة تامة ، ففتحها ، وقرأ وبكى . . وبلغ من شدة تأثره أن قرر كتمان هذا الحب إلى الأبد . . فأحرق الرسائل كلها .

فالحب عاطفة محترمة ، وهى عاطفة قوية . . ولكن الشرف أقوى دائماً .

***

والفيلسوف الأسبانى أورتيجا أى جاسيت عندما كتب مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب (طوق الحمامة) قال :

«بعض الراهبات يتوهمن أن الله قد خلق العالم كله من أجلهن ، ولذلك جعل الحب حراماً . . مع أن الله قد خلق العالم فى إطار من الحب . وأن الله قد خلقنا لكى نحبه . ونحن نحب أنفسنا عندما نحب الله .

وعبد الرحمن الخامس قال مرة : لو كانت الكراهية تأشيرة المرور إلى الجنة ، لطلبت من الله أن يدخلنى جهنم .

وكما تأثر الفكر كله بالأدب العربى والفلسفة العربية ، فكذلك الحب . . فقد انتقل الناس من حب المرأة إلى حب الحب ، ومن حب الجسم إلى حب الروح أيضاً .

***

وفلسفة ابن سينا ومعنى الحب الالهى عنده ، قد أشاع التأمل والنظر إلى كل ماهو أبقى . وقد أدى هذا أيضاً إلى أن ارتفعت قيمة العواطف النبيلة ، وإلى أن المرأة لم تعد جسماً فقط . . لم تعد شيئاً يلمسه الرجل فتشتعل النار . وبعد أن تخمد النار يتجه الرجل إلى مصدر آخر للاشتعال . فكل ما يشتغل هو كل مايخمد أيضا . ولكن الذى لايشتعل ولايخمد هو الحب الروحى . . فهو يضئ دائماً .

وقرأنا بعد ذلك فى القرن الخامس عشر من يضع المرأة فى مرتبة أعلى من الرجل . . لأن الله قد أرادها كذلك . فالله خلق آدم فى الأرض ، وخلق حواء فى الجنة والله خلق آدم من تراب ، وخلق حواء من كائن حى . . والله خلق آدم بين الحيوانات ، وخلق حواء بين الملائكة ، ولأن حواء أذكى من آدم فقد أغراها الشيطان . .أول إغراء للشيطان . ولأن آدم أقل ذكاء من حواء ، فقد أغرته حواء . وحواء لم تخطئ ، فالله جعل التفاحة محرمة على آدم ، وليست على حواء .

***

وهناك تيارات أخرى تنزل بالمرأة من السماء إلى الأرض ، وتجعلها حيواناً متقلباً ، ولذلك فلا أمان لها . . والرجل يجب أن يؤكد لنفسه هذه الحقيقة ليلاً ونهار ، وبذلك يأمن شرها .

وقد كتب خوان رودر يجث فى كتاب (الوصايا العشر للحب) يقول : الفقر والحب لايعيشان فى بيت واحد . والشيخوخة والحب لايعيشان فى جسم واحد .

وهذا المعنى قريب مما قاله أحد الشعراء :

إذا شـــاب شـــعـــر المرء أو قل مـــالـه

فـلـيـس لـه فـى ودهـن نـصـــــيـب !

وهذا طبيعى جداً . فإذا كان الرجل شيخاً مفلساً ، فلماذا يطلب من امرأة أن تحبه ؟ ولماذا يندهش إذا هى لم تشعر نحوه بأية عاطفة ؟

***

وفى هذا الوقت أيضاً انتشرت المواخير فى أسبانيا . ولم يكن الماخور أو بيوت الخمر الملذات الخاصة شيئاً غير أخلاقى ، وإنما كان مألوفاً جداً أن يكون لأى إنسان بيت . . وإذا صح المثل القائل : الناس على دين ملوكهم - وهو صحيح - فإن الملوك أنفسهم كانوا يتسابقون فى الحصول على أكبر عدد ممكن من الجوارى والراقصات . . وكانت الجوارى أجمل هدية يقدمها ملك لأمير ، أو خفير لأمير !

والملك فريدريك وزوجته الملكة إيزابلا قد أصدرا قراراً بمنح أحد الضباط العائدين من القتال سبعة مواخير فى سبع مدن كبرى ، وأن يرث أولاده من بعده هذه المواخير وأن يضيفوا إليها إذا شاءوا !!

وفى نفس الوقت يجب أن يراعى الناس الآداب الاجتماعية . . يجب أن يتستروا على مبادئهم . فلا مانع من ارتكاب أى شىء ، ولكن يجب ألا يجاهروا بذلك . ففى سنة ١٤٩١ صدر قانون بعقوبة كل من يعترف علناً أو يخرج علناً ومعه عشيقته فى مكان عام . فإذا فعل وجب عليه أن يدفع غرامة : نصف دخلة !

***

وفى هذا الوقت انتشرت الكتب التى تتحدث عن إعادة الشباب ، وعن تقوية الشباب خصوصاً بعد انتشار الشذوذ الجنسى . والأندلس تعتبر مهداً للشذوذ الجنسى فى كل أسبانيا . وقد أصدر القس خوان دويث كتاباً عن فوائد العقاقير العربية فى إشعال نار الحب والغرام . . فقد وصف الشطة والقرفة وخشب الصندل والكمون والليمون والبصل والكرات ، خصوصاً الكرات ، وعجائب الكرات . . ولايزال الناس فى أمريكا يستخدمون الكرات ومشتقاته لنفس الغرض الجنسى !

***

وفى هذا الوقت ظهر عدد من الأطباء اليهود يعالجون الضعف الجنسى عند الشبان والشيوخ . . وكان أشهرهم ليون العبرى الذى هرب من أسبانيا وأصبح بعد ذلك طبيباً خاصاً لملك نابلى .

حتى الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون كان يشتغل بالطب . وعندما جاء إلى مصر كان طبيباً للناصر صلاح الدين . وقد تخصص فى الدراسات الدينية والفلسفية ، ثم اتجه تماماً إلى الطب . فكان أحسن طبيب فى علاج معظم الأمراض . . وأمراض الضعف الجنسى بصفة خاصة . . ولايزال حتى الآن معظم الأطباء الذين يعالجون الأمراض الجنسية من اليهود . .

***

وعندما ظهرت قصة (دون كيخوته) لأديب أسبانيا العظيم سرفانتث تناول الحب بكل صوره ولكنه كان ساخراً من كل صور الحب الجسمى والروحى .

وفى ذلك الوقت صدر كتاب عن (أصول الحب) لرجل جرئ جداً اسمه لويس فيفيت . وهذا الكتاب حرمته الكنيسة فور صدوره . وهذا الكتاب عبارة عن مئات الصفعات للمحبين والعشاق فى أسبانيا وفى غيرها

ويبدأ الكتاب من البداية : لاتصدقوا أن أحداً مات من الحب . . أبداً فالحب يؤلم ولكنه لايميت . والمرأة يجب أن تكون أقوى ، أن تكون على شىء من الرجولة وهى بالفعل أقوى من الرجل ، ولكنها لاتريد ، أو لكنها تريد أن تكون كما يريدها الرجل : ضعيفة رقيقة منكسرة . . مع أن المرأة أقوى جسماً وأطول عمراً .

وبقول أيضا مستنكراً الرقص : ما معنى أن تظل سيدة - كالبلهاء - تمسك رجلاً من ذراعة طول الليل ؟ كأن الرجل ليس إلا ذراعاً فقط !!

***

وفى القرن السادس عشر ثارت الدولة على المسارح لأن هذه المسارح تبعث على الكسل والخمول . . وفى ١٥٧٩ صدر قرار بمنعها .

وفى هذا الوقت أيضاً كان الأسبان يبنون أماكن اللهو بالقرب من ساحات مصارعة الثيران . فالدماء التى ينزفها الثور أو مصارع الثيران تثير الناس فى نفس الوقت فيتطلعون إلى بيوت اللهو .

وأيام الرومان كانت المواخير قريبة أيضاً من الساحات التى يتصارع فيها الوحوش والسجناء . . ولنفس السبب !

والرقص والمصارعة كانا يؤديان إلى رشاقة المرأة والرجل ، ولذلك فالمثل الأعلى للجمال هو جمال الرجل . ولذلك لم تكن الصدور العالية مما يفتن الأسبان . فالمرأة كانت حريصة على إخفاء صدرها بكل وسيلة . وكانت وسائل الإخفاء عنيفة . فالمرأة كانت (تفعص) صدرها بالأربطة القوية ، وأحياناً كانت تضع ألواحاً من المعدن تحت ملابسها ، حتى لايكون لها صدر ، واللوحة العارية التى نقلتها لنا المتاحف لامرأة عارية كانت للرسام فيلاسكويث . وكانت لآلهة الإغريق فينوس . . ولم تكن عارية تماماً .

والأسبان كالعرب والصينيين أيضاً ، كانوا يخفون أقدام المرأة ، خصوصاً أصابع قدميها !

وقد كتبت السيدة (النوى) عن رحلتها إلى أسبانيا فقالت : إن نساء أسبانيا يخفين أقدامهن بعناية . فأقدامهن أجمل عضو فى كل الجسم . والمرأة الأسبانية بعد أن تكون قد أعطت لحبيبها كل شىء ، تتوج هذا العطاء السخى بأن تكشف له عن قدميها - وهذا هو آخر ماعندها !

وحتى الملكة إيزابلا عندما كانوا يمسحون جسمها بزيت البركة ، رفضت أن تكشف عن أصابع قدميها . . فمسحوا جواربها من الخارج فقط ! .

وكان من الأخطاء التى لايمكن أن تغتفرها المرأة أن ينظر الإنسان - حتى زوجها - إلى جوربها أو حذائها .

***

واختفى من المسرح الأسبانى كل موهوم فى الحب . . وكل ساخر منه أيضاً . وظهر (دون جوان) . . ظهر عبد جديد للذة الجنسية ، وهو رجل لايبحث عن الحب وإنما عن المتعة فقط ! وهو رجل يجد لذة فى تعذيب الأخريات . وهو إنسان عنده عقدة أوديب ، فهو يحب أمه ويكره أباه . . وهو لأنه يحب أمه ، لايحب أية امرأة أخرى ويحب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة كالعلاقة بين الإنسان وأمه . . وهو

لذلك يحتقر الجنس ويحتقر المرأة ، ويرى أن المرأة تستحق أن يعاقبها الرجل لأنها تثير فيه الرغبة الجنسية ، ولأنها لاتخمد هذه الرغبة أيضاً .

والأسرة الأسبانية كانت متماسكة ولا تزال . ولذلك فعقدة أوديب هذه على أشدها ولذلك فالأسبان لايعرفون الحب الحقيقى وإنما يرقصون للحب ويغنون له .

***

ولا يزال فى أسبانيا . ومن أقدم العصور ذلك المجتمع الغريب من الغجر . أنه مجتمع مقفل على نفسه . يعيش فى كهوف وفى أسرار وعطور . والغجر يعرفون كل أنواع الحب وكل صور العشق . ولكن لا يعرفون الدم فى الحب فإذا كان الأسبان عندما يرون امرأة فى الشارع يجرحون أنفسهم بسكين ، فتنحنى الفتاة الأسبانية ترد هذه التحية الدامية فإن الغجر يرون أن أحسن دماء للحب هو النبيذ . وأحسن سكين فى الحب هو : الزواج . وعندما بعثت أسبانيا بمعرضها الضخم إلى باريس سنة ١٨٣٨ اهتزت فرنسا وأوروبا . فقد اكتشف العالم أن الأسبان فى جحيم من القبل وفى جهنم من الغرام . . وأن ألوانهم هى دخان ونيران وصرخات العذاب فى عالم مجنون بالرقص والغناء والطرب . وفى هذا الجو المكهرب بالألوان والألحان ظهرت كارمن . وكارمن هى أية فتاة عاشت فوق الحب . لقد جعلتها الكرامة فوق الحب .

وانتشرت قصة كارمن الغجرية فكتب الشاعر الرومانسى (ميريميه) «غراميات كارمن» والموسيقار بيزيه كتب أوبرا كارمن . . وكل فتاة أسبانية هى كارمن المرحة العفيفة العاشقة الشريفة . . إن كارمن هى الحب ، وكارمن وأخواتها هن كل نساء أسبانيا .

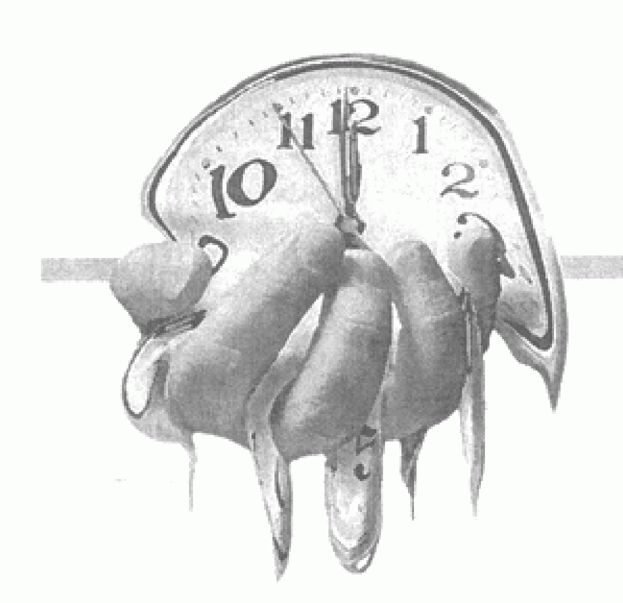
وفى سنة ١٨٣٩ هربت الأديبة «جورج صاند» ومعها عشيقها الموسيقار شوبان فى سفينة خنازير من جزيرة مايوركا ، لأنهما لم يطيقا الحياة فى الجزيرة الأسبانية . . لقد تغيرت الدنيا واختفى الحب الرومانسى . . وظهرت نساء من نوع مختلف ، يرقصن ويرقصن ويشربن ويصرخن . . وبعد ذلك ينمن كالخنازير !

وتشرح لنا المؤلفة «نينا ابتون» إن الأسبان من أكثر شعوب العالم «بصبصة» للنساء . والبصبصة عندهم نوع من اللمس بالعين . أو نوع من التدليك الإجبارى لكل أعضاء المرأة . فالرجل الأسبانى ينظر إلى المرأة بلا خجل فى الشارع وفى السيارة وفى المحلات العامة .

وقد سئلت سيدة أسبانية : ولماذا لا تعترضين على هذا الأسلوب غير المهذب ؟ فكان ردها : إن الرجل إذا لم ينظر لى هكذا ، أشعر بأننى مليئة بالعيوب . . وأشعر أننى امرأة يستطيع الرجل أن يقاومها . . وأن يتجاهلها أيضاً وهذا أقسى درجات العذاب .

أما أسبانيا التى تعيش فى مدريد فهى مجتمع آخر . . خليط من كل ما فى أسبانيا من عيوب ، ومن كل ما فى الدنيا أيضاً . وإذا كان الأسبان أنفسهم لايعرفون ملامح بلادهم إذا ذهبوا إلى مدريد ، فإن الأجنبى لايعرف من هم الأسبان .

والمرأة فى مدريد الآن تشبه إلى حد كبير ذلك النوع من النساء الذى صوره لنا الشاعر جارثيا لوركا فى مسرحية «بيت برناردا البا» : إنهن نساء مشغولات بالنساء والثرثرة وبالتجسس على النساء . . وبالزواج . أما الباحثون عن الحب فى أسبانيا ، ففى استطاعتهم أن يجدوه فى الجنوب وفى الشمال . . هناك يجدون العصور الوسطى الخرافية . . وهناك يجدون جميع المواد التفسيرية لقوانين الحب والغرام كما جاءت فى كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسى !



العريس سرق المسجد

هـــذا

« الرجل» ولد بين العسكريين ومات بين القديسين . .

وعندما أقيمت له التماثيل وضعوا السيف فى يمينه ، والكتاب المقدس فى يساره .

وتتقلب عيون المؤرخين بين السيف والكتاب . فبعضهم تشكك فى مقدرته على حمل السيف ، وبعضهم تحير فى جنونه بالدين .

ولكن (تشارلز جوردون) ظل بطلاً نموذجياً من أبطال القرن التاسع عشر فى أوربا .

وعندما هاجمه أنصار المهدى فى الخرطوم وجدوه فى خيمة بلا حراسة ، ووجدوه عاكفاً على قراءة الإنجيل . وكان من الطبيعى أن يقتلوه ولكن لماذا واجه قوات المهدى بلا حراسة ؟ هل هو الشذوذ الجنسى ؟

إن الجواب الصحيح عن هذا السؤال هو موضوع الكتاب الممتع الذى ألفه الوزير المحافظ انتونى ناتنج والذى عنوانه «جوردون شهيد فى غير محله» . والمؤلف انتونى ناتنج انتخب عضواً فى البرلمان سنة ١٩٤٦ . ثم اختبر رئيساً لوفد بلاده فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ومفاوضاً مع مصر سنة ١٩٥٤ ثم عضواً فى وزارة أيدن . ولما وقع العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ استقال مستنكراً موقف حكومته . . وقد شغل نفسه فى السنوات الأخيرة من عمره بدراسة الشرق الأوسط وقضاياه . . فأصدر كتاباً بعنوان «رأيت بعينى» . وفى هذا الكتاب يعرض ويشرح السياسة فى الشرق الأوسط . ثم أصدر كتاباً عن «لورانس الصحراء العربية – الرجل وبراعته» ، ثم كتاباً آخر عن «العرب» . . وأخيراً هذا الكتاب الذى يناقش (بطولة) جوردون وقداسة جوردون . .

وتشارلز جوردون ولد فى أسرة من العسكريين فى ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ . فأبوه وأخوه وعدد كبير جداً من أقاربه كلهم من العسكريين . . وأقارب أمه من الناس الطيبين المتمسكين بالأخلاق الكريمة ، وبلا تعصب دينى . وكان من الطبيعى أن يدخل المدرسة وفى ذهنة أن يكون جندياً ، ودخل الكلية الحربية وتخرج مهندساً واشتغل فى سلاح المهندسين . وكان من الملاحظ على سلوكه العام أنه عنيد وأنه عنيف ، وأنه شديد التمرد على رؤسائه . فقد ضرب جاويش الكلية بزجاجة حبر ، وضرب قومندان الكلية بكتاب فى وجهه وقد عاقبته الكلية كثيراً دون مراعاة لمركز أبيه . . وقد أدت ثوراته على زملائه ورؤسائه إلى تعطيله عن الطريق السليم ، وعن الترقى أيضاً .

وفى هذا الوقت أحس جوردون أنه لايريد أن يعيش فى إنجلترا ، ورسائله كلها تؤكد هذا المعنى ، وتؤكد أيضاً أنه اختار الطريق الغلط . . فما كان يجب أن يكون جندياً أو ضابطاً . فهو لايقوى على هذه الطاعة العمياء . وأنه مستعد أن يطيع بشرط ألا يكون أعمى . ولذلك كثيراً ما نفذ الأوامر ولكن على طريقته !

واشتغل فى عمليات عسكرية صغيرة فى داخل الجزيرة البريطانية . وفى هذه العمليات الصغيرة اتخذ نفس الموقف العنيد الذى يدل على تبرمه العميق بالأوامر العسكرية .

وعندما دخلت بريطانيا إلى جانب تركيا فى حرب ضد روسيا فى مارس سنة ١٨٥٤ تقدم جوردون متطوعاً . . وظل على مضض ينتظر . وفوجئ جوردون بأن طواحين الحكومة تدور ببطء . فظل أكثر من سنة . . وأخيراً وافقت الحكومة على سفره إلى شبه جزيرة القرم . .

وهناك انكشفت طبيعة تشارلز جوردون . . ورسائله إلى أخته أو جستا تقول : هنا وجدت نفسى . . هنا اكتشفت نزعاتى الحقيقية . أريد أن أموت . . جئت لكى أموت . . أموت .

ويقول أيضاً : «هذه الحياة سجن كبير . . والسجان الواقف على بابها رهيب . وجسمى هو زنزانتى . وحياتى هى نوع من الحبس الانفرادى . وأنا الآن اتطلع الى حريتى . . وحريتى هى أن أتخلص من جسمى : أن أموت!» .

وفى حرب القرم تقدم جوردون الصفوف وقاتل . وتسلل إلى الخطوط الأمامية . . وبلا حراسة . واشترك فى حصار سباستبول . . وطلب الموت ، ورفض الموت أن يجئ .

وعندما خمدت نيران القرم فى سنة ١٨٥٦ عاد وفى نفسه مرارة مركزة : لم يصب بجراح قاتلة . . لم يمت !

وأحس بأن النياشين الذهبية على صدره ليست إلا وصمات لامعة لرجل أراد أن يموت بطلا ، ورفض الموت أن يمنحه هذا الشرف . . وجاء هذا الرفض من ذهب !

وعندما طلبت إليه وزارة الخارجية أن يشترك فى تخطيط الحدود بين روسيا ورومانيا شعر بسعادة هائلة . لقد ناداه الموت . وتم تخطيط الحدود بين البلدين ولم يمت . ثم انتدب مرة أخرى ليشترك مع سلاح المهندسين فى تخطيط الحدود بين تركيا وارمينيا فذهب . . وتسلق الجبال ، وحرم نفسه من الطعام ، ومرض . . ولم يمت .

ولكن شيئاً عميقاً ترسب فى نفسه . .

لقد رأى حياة قبائل القوقاز ، وأعجبته هذه الحياة . . فهم رجال شجعان ، مسلحون من الحذاء إلى غطاء الرأس ، وحياتهم على أكفهم ، وقوانينهم من صنعهم ، ويعيشون على الحافة بين القانون والخروج عليه . . بين النظام والفوضى . . بين التقاليد والحرية . وأدرك أنه هو شخصياً شىء من هذا ، وأنه يتمنى لو كان هو الآخر يعيش خارج المجتمع ، وخارجاً عليه . .

وفى أعماقه صوت يجلجل : لاحياة فى إنجلترا ، مهما كان الثمن !

وعندما اشتعلت نيران التمرد فى الصين ، كان أول المتطوعين ، ووصل إلى الصين سنة ١٨٦٠ ، ليشترك فى معركة لايعرف أحدًا من أطرافها . لايعرف ماهى القضية . . ولكن المهم عنده هو أن يكون بعيداً عن انجلترا ، وأن يكون قائداً بمفرده ، وأن يحول مركز القيادة إلى صومعة راهب ، وفى هذه الصومعة يرسم الجسور المتينة بينه وبين الله . .

وفى الصين حارب وقتل وذبح . . وقام بتدريب قوات من الهنود والإنجليز والصينيين . . ولكنه فى ذلك الوقت لم ينس أن يغمر أقاربه بالهدايا وكانت هذه

الهدايا موصوفة بدقة فى خطاباته . وكان يقول : الهدية رقم واحد لأمى ، ورقم ٢ لأختى . . وهكذا . وكانت الهدايا كثيرة جداً ولم يحتفظ لنفسه بشىء منها . فقد كان زاهداً ، أو كان كارهاً لكل مايصلح للبيت . . لأنه كاره للبيت ولجو البيت ، وإن كان ككل أبناء عصره شديد الارتباط بأسرته وأقاربه .

وكراهيته للبيت والقصور جعلته يقوم بعملية مروعة هدم بها قصور الأمراء فى الصين . . أحرقها . . حولها إلى رماد ، ووصف ذلك بقوله : الموت هو شىء من هذا . . أن يتحطم الجسم وتبقى الروح وهذا أملى . . ولكنى ما أزال بعيداً لدرجة أننى لا أليق بأمجاد السماوية . .

ورغم هذه المعارك العنيفة فى الصين ، فإنه لم يتوقف عن كتابة مذكراته اليومية . . وعن مذكراته الخاصة بسير المعركة ساعة بساعة . .

ولما انتهت الحملة الصينية وعاد «جوردون الصين» – كما كانوا يسمونه – إلى لندن فوجئ بأن أمه قد عرضت مذكراته على كل أقاربه وعلى عدد كبير جداً من الرسميين . . واقترح أحد الرسميين طبعها . . وكانت ثورة دامية . . فقد غضب جوردون وأحرق كل هذه المذكرات العسكرية المهمة . . ولم يترك إلا رسائله الخاصة لأمه وأخته . فقد كان جوردون يكره التكريم ، ويكره الألقاب التى خلعتها الصحف عليه . . وإن كانت الصحف قد وصلتها أنباء الصين متأخرة جداً . . كما أن جوردون كان يشعر بأن هذه المذكرات ليست إلا نوعاً من الاعترافات . والاعتراف سر مقدس فى الكنيسة . وقد فضحته أمه . ولذلك ثار وأحرق هذه الوثائق السرية المقدسة !

ولم تكن وزارة الحربية البريطانية ترى فيه قائداً ملتزماً ، وإنما ترى فيه قائداً متحرراً أو متحللاً من الضبط والربط . . ولذلك لم تطلب إليه أن يشترك فى عملياتها العسكرية فى الهند وأفغانستان والحبشة . أما عيوب جوردون ، كما جاء فى وثائق وزارة الحربية ، فهى أنه أصبح لامعاً ، وأنه مشغول بإصلاح البلاد التى يعمل فيها ، وأنه قليل الإحساس بالإمبراطورية البريطانية .

وفى الكريسماس بعث لأخته يقول : «أتمنى لك ليلة سعيدة . . ولا أقول أتمنى لنفسى ليالى سعيدة . . فأنا أحس أننى قريب من نهايتى» .

والصدفة وحدها هى التى جعلته يلتقى بنوبار باشا رئيس الوزارة المصرية . . وأطلعه على أن الخديو إسماعيل يفكر فى ضابط بريطانى يتولى الحكم فى مديرية خط الاستواء خلفاً للسير صمويل بيكر .

ووافق جوردون بلا تردد . . وفى هذا الوقت ماتت أمه . . وأحس جوردون أن لديه فرصة نادرة ليعيش بعيداً عن انجلترا ، وليعيش فى وحدة تامة ، وليتأمل الموت الذى اختار أباه وأمه وأحد إخوته . . أن الموت ولا شك يدور حوله ولا بد أنه يقترب منه قليلاً قليلاً . .

وفهم جوردون من نوبار باشا أن مهمته شاقة ، وأنه مطالب بأن يوسع رقعة الدولة المصرية ، وأن يحارب تجارة الرقيق ، وأن يكتشف أعالى النيل ، وأن يعقد اتفاقات صلح مع ملوك وأمراء أواسط أفريقيا .

وفى يناير سنة ١٨٧٤ جاء إلى القاهرة . . وقابل نوبار باشا مرة أخرى وبعدها قابل الخديو إسماعيل . . وصف نوبار باشا فى مذكراته : بأنه أرمنى وضيع . .

وكانت مقابلته للخديو بعيدة الأثر فى نفسه . . فقد كان الخديو رجلاً رقيقاً مؤثراً . . ولم يخف عنه آماله التى يعلقها عليه . . ولا رغبته فى أن يكون على اتصال مستمر به . ولم يفهم جوردون معنى «الاتصال المستمر به» إلا عندما ذهب إلى الخرطوم وقابله الحاكم المصرى الذى وضع له الكثير من المصاعب .

ويبدو أن الخديو كانت لديه معلومات كافية عن جوردون فعين ضابطاً أمريكياً لمراقبته . . وقام جوردون بتعيين لجنة من المستشارين تضم ثلاثة من الإنجليز وألمانيا وإيطالياً ومصرياً . . وكانت لجنة فاشلة .

وسافر جوردون بالقطار من القاهرة إلى السويس يرافقه فردناند دى لسيبس وكان فى السبعين . واندهش عندما علم أن دى لسبس قد رزق بطفل فى هذه السن . . ومن السويس سافر فى البحر الأحمر إلى سواكن ومنها إلى الخرطوم . وعندما توقفت به السفينة فى أعالى النيل ، خلع ملابسة ونزل يساعد فى تعويم السفينة . . ولم يكن قد ركب الجمال فى حياته . . فركب جملاً ٢٥٠ كيلو متراً .

وعندما ذهب جوردون إلى الخرطوم وأحس بالوحدة المرة والظلام والخوف تنبهت فيه كل أخلاقياته المتزمتة . وقد حدث عندما أقام الحاكم المصرى حفلة استقبال أن نهض القنصل الألمانى يعانق بعض الراقصات العاريات ، فثار جوردون على القنصل وعلى الحاكم وعلى الراقصات !

وعندما قدم الحاكم المصرى الطعام فى أطباق من الصينى البافارى الأنيقة ثار جوردون . ولم يهدأ عندما قال له الحاكم المصرى : أن هذه الأطباق هى مخلفات سلفه السير صمويل بيكر !

وفى مديرية خط الاستواء حاول جوردون أن يحقق المستحيلات . ولكنه اصطدم بصعوبات هائلة : قلة الجنود وصعوبة الطرق . وكثرة تجار الرقيق وقلة المال . . بل إن الخديو نفسه قد أنقص مرتب جوردون نفسه إلى الخمس والذى ادهش الخديو هو أن جوردون نفسه لم يتململ . فبدأ الخديو يتشكك فى المهمة التى كلفه بها .

وفى عصبية متشنجة أرسل جوردون برقية إلى الخديو يقول له فيها : ابعث بغيرى !

وترك مديرية خط الاستواء إلى الخرطوم إلى سواكن إلى السويس إلى القاهرة . وقابل الخديوى . وأقنعه الخديوى بالبقاء . وأمام شخصية الخديوى وذكائه ونعومته وهداياه استسلم جوردون ووافق على العودة إلى المديرية الاستوائية ولكن بعد أن يزور أهله فى لندن .

وعندما وصل الى لندن نشرت الصحف أن جوردون سوف تبعث به الدولة لانقاذ المسيحيين من اضطهاد المسلمين لهم فى بلغاريا . وقد اعتز جوردون بهذا النبأ . وذهب على الفور ، بعد أن اعتذر للخديوى إسماعيل عن وعده السابق .

ولكن الخديوى أرسل برقية رقيقة يقول فيها : لا أستطيع أن اتصور أن جوردون يتحلل من وعده . فأنا فى انتظارك فى أى وقت . وواثق منك وفيك !

وقابل جوردون أحد زملائه المحاربين فى شبه جزيرة القرم . فاقترح هذا الصديق على جوردون أن يطلب من الخديو أن يجعله حاكماً عاماً للسودان ، بدلاً من الحاكم المصرى أيوب باشا .

واقتنع جوردون وقابل نوبار باشا . ولكن نوبار باشا أكد له أن هذا المنصب سوف يحتله أحد أبناء الخديوى . ولكنه جوردون أصر ووافق الخديوى ، على أن يجعله حاكماً عاماً للسودان ومديرية خط الاستواء وما سوف يفتحه أو يكتشفه من أراض أخرى جديدة ، ثم عينه مارشالا فى الجيش المصرى .

وعندما ذهب إلى الخرطوم وقرأ الفرمان الخديو ، أنحنى أيوب باشا . وذهب جوردون ليتسلم قصر الحاكم العام فوجد كل نوافذه قد تحطمت . لقد حطمتها أخت أيوب باشا !

وببدلة المارشالية أخذ جوردون باشا يتنقل على ظهور الجمال إلى مجاهل السودان . . كأى مجنون فى سيرك متنقل !

وقرر جوردون بعد سبع سنوات من العذاب والخوف والوحدة أن يترك السودان . وعندما وصل إلى القاهرة فى ٧ مارس سنة ١٨٧٨ استدعاه الخديو ليقف إلى جواره فى محنته المالية مع فرنسا وانجلترا . لقد أصبح الخديوى مديناً بمائة مليون جنيه للدولتين . . والدولتان أصرتا على (الحجز) على الخديوى وعلى الدولة كلها ، وفاء لديون المستحقين !

وبذل جوردون كل ما يستطيع . ولم يكن من الممكن إنقاذ الخديوى أو انقاذ مصر . .

وبعد ذلك نشبت ثورة المهدى ورجاله فى السودان . .

وفى هذه الأثناء كان جوردون فى مكان آخر من العالم . . كان فى الأراضى المقدسة فى فلسطين . كارهاً أن يعود إلى مصر . كارهاً أن يعود إلى السودان وقريباً إلى الله . . إلى الأمل الذى يحلم به منذ كان فى العشرين من عمره وهو : أن يموت ، لأن هذه الحياة لاتساوى شيئاً . فهى قنطرة إلى عالم آخر والدنيا قنطرة وعلى الإنسان أن يعبرها لا أن يعمرها !

وجاءت رسائل جوردون إلى أخته كلها غارقة فى الصلوات والابتهالات والتفسيرات لأحداث الكتاب المقدس . فهو مثلاً يقول لها : إن المسيح لابد أن يكون قد صلب أمام باب دمشق . فالباب يشبه الجمجمة - أى الجلجثة باللغة الأرامية القديمة .

وكان جوردون هارباً من شيء آخر . لقد استدان الكثير من الأموال . وفى خطاباته إلى أصدقائه وإلى أخته يؤكد أنه يعانى أزمة مالية فظيعة . وأنه لايعرف كيف يخرج منها .

ومن أغرب الحوادث التى يسجلها التاريخ بصدق مافعله جوردون فى القدس . فقد تسلل جوردون إلى مسجد الصخرة وتسلق سلماً خشبياً وراح ينزع الكثير من هذه القطع ويضعها فى صندوق . . ويعود بها إلى بيته . وفى اليوم التالى يذهب إلى نفس القبة ويواصل عمليات السرقة طول مدة إقامته التى استغرقت ١١ شهراً .

وبعد ذلك باع هذه الآثار المقدسة ، لكى يسدد ديونه . .

وهذه أول سرقة صارخة يقوم بها الماريشال تشارلز جوردون .

ويبدو أن الملك ليوبولد ملك بلجيكا بلغته أخبار جوردون فعرض عليه أن يذهب إلى الكونغو وأن يعمل لحسابه ، ووافق جوردون وذهب إلى وزارة الحربية يقدم استقالته ليلتحق بالعمل للحكومة البلجيكية . وأعلنت وزارة الحربية أنها تعارض فى اشتغال جوردون فى الكونغو . وترى أنه إذا قبل فلا حق له فى المعاش وأرسل جوردون استقالته يقول : أن الملك وعدنى بتعويض سخى عن كل ماسوف أخسره إذا تركت العمل فى جيش صاحبة الجلالة !

واقتنعت الحكومة البريطانية بضرورة سفر جوردون إلى السودان لإنقاذ الحامية المصرية . ووعدته الحكومة البريطانية بمساعدته . فقد كانت الحكومة البريطانية هى التى تحكم مصر فى أيام الخديوى توفيق .

وذهب جوردون إلى السودان . وتكاثرت قوات أنصار المهدى . وحاول جوردون كل ما يستطيع . وترددت الحكومة البريطانية فى مساعدته وإنقاذه . وأخذت الأصوات ترتفع فى البرلمان . ووافق البرلمان على مساعدة جوردون . وكان رئيس الوزراء يعارض فى إرسال أية مساعدات . وجاءت البرقيات من جوردون تؤكد أنه ليس فى حاجة إلى مساعدة . وأنه سوف يبقى وسوف يموت مع آخر جندى !

وتسللت من السودان ورقة صغيرة باللغة العربية فى مساحة طابع البريد يقول فيها جوردون أن لديه سبعة آلاف عسكرى وأنه ليس فى حاجة إلى مساعدة . وعادت الوزارة البريطانية تعيد إليه إرسال البرقيات التى كانت قد بعثت بها من قبل تسأله إن كان فى حاجة إلى مساعدة ولم يرد . واضطرت إلى أن تبعث له بالرجال والعتاد .

واشتبكت قوات المهدى مع قوات جوردون . وأرسل المهدى أحد رجاله يرتدى عباءة ومعه خطاب . والخطاب يطلب فيه إلى جوردون : الإسلام أو الاستسلام !

فثار جوردون وألقى بالعباءة على الأرض . وأعلن أنه لايقبل المساومة وأنه سوف يحارب .

وحارب حتى قتله أحد جنود المهدى !

وثارت العاصمة البريطانية على رئيس الوزراء واتهمته بأنه سفاح وأنه هو الذى قتل البطل القديس تشارلز جوردون .

وكان يوم ١١ فبراير سنة ١٨٨٥ يوما أسود فى لندن . فقد بكت العاصمة البريطانية أحد أبطالها . وأقيمت الصلوات فى كنيسة القديس بطرس وحضرها الأمراء وكل رجال البرلمان . وفى خطاب القداس الذى أقامه كبير الأساقفة اقتطف بعض ماجاء فى مذكرات جوردون حيث قال : اننى بحياتى أضحى من أجل الفقراء فى السودان . . وكيف لا أبكى عليهم . . إننى أطلب إلى الله أن يجعلنى أحمل عنهم خطاياهم . . إننى أتمنى أن أموت فداء لهم . .

وهذه العبارة المتواضعة ضاعت فى زحام تتويج جوردون بطلاً قديساً من أبطال العصر الفيكتورى . .

وأرسلت الملكة فيكتوريا إلى أخته أوجستا تعزيها فى العزيز الغالى الذى مات فى نبل من أجل الإنسانية . .

وأرسل الخديوى توفيق برقية يقول فيها : إن جوردون لم يخسر شيئاً بموته ، وإنما اكتسب ذلك المجد الشامخ الذى كان يتطلع إليه طول عمره . .

ونوبار باشا أرسل برقية يعزى فيها : ذلك البطل بالمعنى النبيل للكلمة !

وإمبراطور الصين بعث بتعزية مع أحد الوزراء ومع التعزية أرسل مائة وعشرين جنيهاً ، هى المكافأة التقليدية التى تدفعها الدولة لكل جندى صينى . .

أما البرلمان الإنجليزى فقد دفع مبلغ عشرين ألف جنيه لأسرة جوردون ، وهو المبلغ الذى كان سوف يتقاضاه جوردون من الحكومة البلجيكية لو أنه ذهب إلى الكونغو !

وأقيمت لجوردون التماثيل فى لندن وفى ابردين وفى الخرطوم .

وارتفع جوردون ببطولته إلى مصاف القديسين . . أو ارتفع بقداسته إلى درجة الأبطال !

***

إن أحد المؤرخين وهو ليبتون استراتشي قد ذكر في كتاب له بعنوان «عظماء العصر الفيكتورى» أن جوردون كان سكيراً جباناً وأنه لايستحق هالات المجد ولا تيجان الغار !

ولكن استراتشى قد استمد معلوماته من ذلك الضابط الأمريكى الذى عينه الخديو إسماعيل جاسوساً عليه . ثم فصله جوردون بعد ذلك .

والجبن الذى يريد استراتشى أن يلصقه بجوردون سببه أن جوردون قد انسحب من مواقع كثيرة فى معاركه . ولكن الانسحاب من المعركة ليس عيباً وإنما هو فى قوة الهجوم أحياناً . ونحن نقرأ لأحد أبطال القرن التاسع عشر هو الدوق ولنجتون يقول : الانسحاب ليس عيباً . ولكنه ضرورة . والبراعة هى كيف ننسحب ثم كيف نجرؤ على الانسحاب .

ولكن المؤلف ناتنج يكتشف - لأول مرة - أن رغبة الموت عند جوردون سببها أنه كان يعانى نوعاً من الشذوذ الجنسى . ولذلك تمنى كثيراً أن يموت . وأن يموت فى بطولة . فالموت يرحمه من رغباته الجسمية الشائنة . والدين كان تبريراً قوياً لزهده فى الجنس . فلم تكن لجوردون أية علاقة بإنسان . . لارجل ولا امرأة بل إنه كتب لأحد القساوسة مرة يقول : تمنيت وأنا فى الرابعة عشرة أن أكون إنساناً بلا ذكورة ولا أنوثة !

وفى الرابعة عشرة كان فى الكلية الحربية . ولابد أنه عانى الكثير من انتشار الشذوذ الجنسى . ولابد أن محاولة وقعت له جعلته يشعر بالقرف والمرارة من هذه العلاقات الشائنة . . أما البطولة فهى تشبه التابوت الذهبى لأحد الملوك .

وليست محاولات جوردون المستمرة فى أن يموت ، إلا رغبته الأكيدة فى أن يدفن شعوره بالعار فى مقبرة العظماء . .

وهو عندما قتل فى الخرطوم كان يعلم أنه سوف يموت . . ولذلك آوى إلى فراشه مبكراً . وأبعد جنوده . وأبعد سلاحه هو . والذين فتشوا خيمته لم يجدوا سلاحاً . وإنما وجدوا الفراش منظماً . ووجدوا الصليب على السرير ووجدوا رسالة تقول : اعتقد أننى سأموت . وأننى قد صفيت حسابى مع كل الناس . وأنا الآن مستعد تماما .

والرسائل التى نشرت بعد ذلك لجوردون نجد فيها هذه العبارة : أعجبتنى السيدة فلانه . . إنها جميلة ورقيقة . . ولكن لا أريد أن أشير إلى شىء . فأنا ميت والموتى لايتزوجون !

والميت فيه هو الرجل . . والذى ليس رجلاً لا يتزوج امرأة !

وكان ينصح أصدقاءه جميعاً بالزواج . لأنه كان يتمنى أن يكون زوجاً لولا أنه لايستطيع !

والمؤلف ناتنج هو الذى أصدر من قبل كتاباً عن «لورانس الصحراء» . . وهو الآخر من أشد شخصيات التاريخ الإنجليزى شذوذاً وغرابة . ويقول ناتنج أن هذا البطل الشاذ قد صدم عندما علم أنه ابن غير شرعى لوالديه . ولذلك ذهب إلى العالم العربى يعرض نفسه أبا لكل متمرد . وابنا لكل شخصية . !

ولورانس يروى قصة اعتداء الحاكم التركى عليه . . الحاكم وجنوده واحداً واحداً . . ويقول لورانس أنه لم يشعر إلا بالهوان والعذاب . . والشعور بالهوان والعذاب هو متعته الحقيقية .

ومن الغريب فى هذه المهانة للأديب ت . أ . لورانس مؤلف كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» إنه لاينفى الواقعة وإنما ينفى الشعور بها !

وكأنه بتجاهله لهذا الإحساس ينكر وقوعها !

إذن . . لقد كان جوردون يريد الموت . . لأن الموت يشبه النار التى يشعلها اللصوص بعد عمليات السطو . . فالنار تمسح بصمات أصابعهم ، وتخفى معالمهم ، وتضلل العدالة . .

فلم يكن جوردون بطلاً ولاشهيداً ، وإنما هو رجل شاذ جاء يخفى شذوذه فى سواد إفريقيا . . جاء يطلب الموت بدلاً من الحياة الفاضحة فى بلاده . . جاء ليكون بطلاً – هو ولورانس – على حساب الشعوب العربية والإفريقية . . ولابد أن كلا منهما قد استراح إلى أن سره مصون . . حتى جاء المؤرخون الإنجليز فكشفوا السر وفضحوا أبطالهم . ونقلوهم من كشف الأبطال المقدسين ، إلى سجل الشواذ المخنثين .



عددهم ١٣ شريرًا

الشر

نسبى . . والجمال نسبى أيضاً !

فبعض رجال الدين فى شمال اسكتلندا يرون أن نشر الغسيل يوم الأحد حرام . . والكاثوليك يرون أن الطلاق حرام . . واليهود والمسلمون يرون أن أكل الخنزير حرام .

ولكن لا خلاف على الجريمة . فالذى يقتل إنساناً بغير وجه حق : مجرم .

والأديان اختلفت على أشياء كثيرة ، ولكنها اتفقت على قاعدة واحدة هى : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به .

فأنت تريد أن تعيش ، إذن ، لا تقتل أحداً . فالقاتل شرير .

وأكثر الناس شراً هم أقدرهم على نشر الشر ، وأكثر الناس خيراً ، هم أقدرهم على نشر الخير .

وقد اختار الصحفى المؤرخ أندرو ايوارت ثلاثة عشر من أشرار التاريخ وعرض لحياتهم بصورة جميلة مثيرة فى كتاب بعنوان «أكثر الناس سوءاً فى العالم» .

وتبدأ سلسلة الأشرار بالإمبراطور الرومانى المجنون نيرون (٣٧ - ٦٨م) . وهو من أسرة كلها من الشواذ مصاصى الدماء . كانت أمه زوجة الإمبراطور . وكان هو ابنها من رجل آخر . وتبناه زوجها . وتآمرت الأم على الزوج فقتلته . ثم جعلت من ابنها إمبراطورا وهو مايزال طفلاً . وأمرته أن يتزوج . فتزوج فتاة عمرها ١٣ سنة أى تصغره بسنتين . وتلفت الإمبراطور الصغير إلى خادمة زوجته وكانت جميلة من أصل

سورى . فأحبها وترك الزوجة . وتآمرت الأم على أصدقاء ابنها فقتلتهم جميعاً . وكان وراء الإمبراطور نيرون فيلسوف كبير هو سنيكا . وهو الذى كتب له خطاب العرش وهو الذى كان يفصل له فى القضايا .

وضاق الإمبراطور نيرون بأمه فقتل عشاقها واحداً واحداً . ولما علم أن أمه تتآمر عليه هو . . أمر بقتلها . واستعطفته الأم . وعفا عنها . وقررت الأم أن تستولى على ابنها بأسلوب آخر . وأعلنت استعدادها أن تكون عشيقة له ، وأن تأخذ بيده فى عالم الجنس الذى لا يعرفه !

وظلت الأم عشيقة لابنها بعض الوقت ، وكانت تريد أن تقضى عليه وهو فى أحضانها ! وهرب منها الابن . وانطلق الابن فى عالم الشذوذ الجنسى هو وأصدقاؤه . وفى إحدى الليالى هجم عليه أحد أعضاء مجلس الشيوخ فضربه . ولم يكن يعرف أن الشاب الذى عاكس زوجته هو الإمبراطور . وفى اليوم التالى بعث يعتذر له . فصرخ الإمبراطور : كيف يعيش رجل ضرب الإمبراطور ؟ !

وانتحر عضو مجلس الشيوخ !

وأحب نيرون شاباً . وقرر أن يتخذه عشيقاً له . وتم زفاف الشاب للإمبراطور وتمنى له رجال البلاط كل سعادة . . وبعضهم . قال له : بالرفاء والبنين !

وفى ذلك الوقت بدأت مذابح المسيحين فى روما . فقتل الإمبراطور ألوف المسيحيين وقتل القديسين : بطرس وبولس !

وكان الإمبراطور نيرون يفرض على الناس أن يستمعوا له وهو يغنى . . وكان يصر على أن صوته جميل . واشترك فى الألعاب الأوليمبية فى أثينا . وراح يمثل ويغنى ويقوم بقيادة العربات . . وأعطته لجنة التحكيم كل الجوائز . وعندما عاد إلى روما وجدها تحترق . وكان هو الذى أحرقها . فأمسك مزمارة وراح يردد أغنيات هوميروس عن سقوط طروادة !

وكان لابد ـ أن يتخلص منه الشعب . . فقد امتلأت الأرض بالضحايا وامتلأت البيوت بالدماء .

وقرر الحرس خلعه . وجاء فى قرار الخلع أنه أولاً : يعذب الناس . وثانياً : أنه قبيح الصوت – وقد ضايقته هذه التهمة الأخيرة .

وكان لابد أن ينتحر . فأعطوه خنجراً . فطلب إلى أصدقائه أن يعاونوه على قتل نفسه . وأن يبدأوا بقتل أنفسهم ليتعلم منهم . ورفضوا . وتقدم واحد منهم وهو فى الثلاثين من عمره وقتله .

. . ومات إمبراطور مجنون شاذ وابن غير شرعى بعد أن فتك بربع مليون نسمة بلا جريمة !

***

والشرير الثانى هو جنكيزخان (١١٦٠ - ١٢٢٧) . واسمه الرقيق جداً هو تيموجن أى الرجل الصلب . وقد قتل هذا الرجل نصف سكان العالم .

أما جريمة هؤلاء الناس : فلا شىء . . إنه يقتل ويقتل . وقد استولى هذا القائد المغولى على آسيا ونصف أوربا - أى من بلاد الصين حتى بولندا . أحرق البيوت والمعابد والرجال والنساء والأطفال والحيوان والنبات . وأحس الناس أن هذا القائد هو أبليس نفسه . وقد انطلق يقضى على البشرية التى لم تستسلم له فقد آمنت بأن هناك إنسانية وخيراً وسلاماً ومحبة بين الناس .

وجنكيز خان غريب الشكل فهو أحمر الشعر أخضر العينين طويل عريض .

وقد حدث وهو طفل أن اختلف مع أحد أخوته . وكان السبب سمكة . فقتل أخاه !

ومن هذه السمكة بدأت عبقريته الدامية تتجلى فى الأسرة وفى الدولة . ولما مات أبوه كان فى الثالثة عشرة من عمره .

وأول عمل قام به هو أنه خطف فتاة عمرها ٩ سنوات من بين قبائل المغول ولم يحب فى حياته غيرها . وربما كان هذا هو الوفاء الوحيد فى حياته . وبعدها عرف مئات العشيقات . ولكن بقيت زوجته هذه الإمبراطورة الوحيدة على أكبر دولة عرفها التاريخ .

وقد حدث أن هاجمته إحدى قبائل المغول وخطفوا زوجته . وكاد يفقد عقله وجمع جيشا وهاجم هذه القبائل وخرجت له زوجته وقفزت على الحصان أمامه . فأصابه سهم فى عنقه . فسقط على الأرض . والتف حوله جنوده يمتصون دمه . وبعد أن جف جرحه جمع سبعين من شيوخ القبائل المعتدية وشواهم فى النار !

وأصبح جنكيز خان قائداً مشهوراً فى آسيا الوسطى . وشخصاً مرعباً . وكان لايهدأ إلا وسط معسكرات الجنود . ولا يستريح إلا إذا زحف على دولة جديدة . وانتشرت قواته فى الشرق حتى الصين . وفى الغرب حتى العالم الإسلامى . .

وأعلن فى كل مناسبة أن آسيا يجب أن يحكمها رجل واحد . وقال : أنا ذلك الرجل !

وكانت سياسته الحربية تعتمد على أسلوب المفاجأة والسرعة . أما المفاجأة فهى أسلوب المغول فى الحرب . أما السرعة فهى أسلوبه هو .

وكان يردد دائماً أن السعادة هى : رؤية الأسرى والدماء وصراخ النساء .

وفى طريقه إلى النصر يمر عادة بدور العبادة . وهو يدوسها بمن فيها من الناس فقد هدم المساجد على رءوس المصلين . وأرغم أئمة المساجد فى البلاد الإسلامية على أن يدعوا له ولعرشه . وكان يخطب فى المساجد فيقول أنا غضب الله جئت أنقذكم من الملوك فلا تساعدوهم !

وأحرق مدن بخارى وسمرقند وطشقند . وجعل الطريق إلى أوربا يمر بأهرامات من الجماجم . .

وعندما دخلت قواته مدينة كييف فى روسيا أحرقها تماماً كما فعل الألمان سنة ١٩٤٣ .

والتاريخ يؤكد لنا أنه قتل نصف سكان العالم . وأنه قتل فى الصين وحدها عشرين مليون نسمة . وعندما مات هذا السفاح كان هادئ البال . فقد طلب إلى حاشيته أن يلفوه فى قماش وأن يضعوه أمام المدفأة .

ولما مات دفن سراً . وعندما سار نعشه فى الشوارع أعدمت قواته كل الذين شاهدوا النعش . فقد أوصى هو بأن يدفن سراً حتى لا تنهار الإمبراطورية . . وقد انهارت بعد ذلك . وكان من الممكن أن تحتل قوات المغول أوربا كلها لولا أن ابنه الذى كان يقود القوات الزاحفة على أوربا قد مات من شدة السكر . فتراجعت قواته عاماً بعد عام ، وإمبراطورا بعد إمبراطور . ولكن جنكيز خان ظل مثلاً مخيفاً للقائد السفاح !

***

وهذا الشرير الثالث لم تكن جرائمة كثيرة . ولكن الانجليز لم ينسوا له قط أنه قتل اثنين من الأمراء بلا جريمة . إنه الملك ريتشارد الثالث (١٤٥٢ - ١٤٨٥) وعلى الرغم من أن الكثير من المؤرخين قد برءوه من هذه التهمة ، فإن الأدلة ماتزال قوية ضده . وقد اتخذ الشاعر شيكسبير من حياة هذا الملك موضوعاً لإحدى مسرحياته الدامية .

ولد هذا القاتل فى ٢ أكتوبر . وفوجئ به الناس مكتملاً حتى تخيل معاصروه أنه بقى فى بطن أمه سنتين . فلما ولد كان مكتمل الأسنان مسترسل الشعر وفى يده سيف !

وكان الابن رقم ١١ فى أسرة عددها ١٢ مات منهم خمسة فقد كانوا ضعاف البنية . وهو نفسه كان هزيلاً ضعيف البنية وإن كان شجاعاً فى المعارك .

وعندما قتل الملك هنرى الرابع ترك اثنين من أبنائه . وأوصى بأن يتولى ريتشارد الوصاية . وعندما تحدد يوم تتويج أحد الأميرين قرر حبسهما فى برج لندن وقتلهما خنقا . وأخفى جثتى الاثنين !

وفى كل مرة يحقق غرضا دنيئاً يقوم ببناء كنيسة ، أو أنشاء معهد دينى . أو يبعث بالرسائل الرقيقة إلى بابا روما .

وقد جعل شكسبير هذا الملك يتحدث عن نفسه فيقول : «ضميرى له ألف لسان ، وكل لسان له قصة مختلفة . . وكل قصة تنتهى بأننى سافل . . كذاب . . مجرم . . أحط أنواع المجرمين . . لا أحد يحمينى . وإذا مت ، فلن يترحم على أحد . وكل روح أزهقها سوف تهز مقبرتى وتطالب بالانتقام .

وفى إحدى المعارك سقط هذا الملك صريعاً . ولم يكد يراه جنود خصومه حتى ربطوه فى أحد الخيول وجروه فى الدم والوحل ليتفرج عليه الناس . . وانتهت حياة رجل قتل عدداً من النساء ومئات من الجنود وعشرات من الأمراء . . وقتل أخويه بعد أن اتهماه بأنه طفل لقيط !

***

والشرير الرابع ابن البابا وأبوه أيضاً سافل . هذا السفاح الإيطالى هو شيزاره بورجيا (١٤٧٤ - ١٥٠٤) وقد ولد فى عصر الانحلال فى إيطاليا ، عصر سفالة رجال الكنيسة ، وانحلال الأمراء والأثرياء . . وفى هذا العصر ظهرت قصة «الديكاميرون» للأديب بوكاتشيو يصف أنواع الفجور التى تعيش فيها كل القصور . وفى هذا العصر

أقيمت جنازة لفتاة عمرها ٢٦ سنة كانت تدير بيتاً للدعارة . وكانت هذه الجنازة ضخمة لدرجة أن بعض الناس تساءل : من هو البابا الذى مات ؟

وشيزاره ينحدر من أسره بورجيا التى أتخذها المؤرخون رمزاً للسفالة . وهذه الأسرة قدمت للكنيسة أحد البابوات . وهذا البابا قد تبنى هذا الفتى شيزاره . فأصبح أبوه هو البابا أسكندر السادس أسوأ من جلس على عرش القديس بطرس .

وشيزاره له ثلاثة أخوة وأخت واحدة هى لوكريتشيا . .

وأول جريمة ارتكبها شيزاره هذا هى أنه قتل أحد أخوته . فقد بعث بهما البابا للاشتراك فى تتويج ملك نابلى . وقبل حفلة التتويج وجدوا أخاه جثة . وحاول ملك نابلى أن يعرف من القاتل ولكنه لم يفلح طبعاً . أما أسباب الجريمة فهى أن شيزاره كان يحقد على أخيه ويريد أن ينفرد هو بالنفوذ . . وسبب آخر أن شيزاره كان يحب أخته لو كريتشيا وأنهما اتفقا على أن يكونا عشيقين . ولكن أصدقاءه قد أخبروه أن أخته قد اتخذت أخاه عشيقاً لها !

وفى ذلك الوقت أعلن الفيلسوف الشرير مكيافيللى أن ما فعله شيزاره هو أقصى درجات العقل .

وعندما تزوجت أخته فقد شيزاره أعصابه وقتل زوجها على باب الفاتيكان .

ولما انطلقت الشائعات بأنه هو القاتل أمسك واحداً من مروجى الشائعات وقطع لسانه وعلقه فى كنيسة القديس بطرس !

وفى سنة ١٥٠٢ جمع شيزاره كل أمراء المدن الإيطالية وطلب مساعدتهم فى صد أعداء إيطاليا . وبعد أن جمعهم قتلهم جميعاً !

ووصف مكيافيللى هذه المذبحة بأنها : سياسة جميلة ، لحاكم حكيم !

ولم يكتف شيزاره أشهر قواد إيطاليا فى ذلك الوقت بمذابحه الشخصية ، وإنما شجع جنوده على خطف النساء !

وعندما مات البابا . لم يحزن على وفاته . وعندما كانت الصلوات تتردد على روح البابا جاء الكهنة بالنعش وكان صغيراً . فحشروا البابا فيه . . وراحوا يدقون رأسه ورجليه ثم عرضوه فى الشوارع نموذجاً للهوان !

وبعد خمس سنوات جاء البابا بيوس الثالث وحكم الفاتيكان ٢٦ يوما . ثم جاء البابا الجديد الذى أدرك خطورة آل بورجيا واستدعى شيزاره ثم أرسله فى مهمة إلى أسبانيا . وسجنه الأسبان . وهرب من السجن . وانطلق سهم إلى درعه . وكانت الدرع مثقوبة . ونفذ إلى قلبه ومات فى أغسطس سنة ١٥٠٤ . وعروه وربطوه فى أحد الخيول وفى الطين والدم مسحوا به شوارع روما . وبعد قرنين من دفن جثته اعترض أحد رجال الدين على دفنها فى إحدى الكنائس فأمر برفعها وهو يقول : لا راحة لك هنا . . ابدأ عذابك من جديد !

***

والشرير الخامس رجل قتل مئات الألوف من الناس باسم الدين هو توركويمادا (١٤٢٠ - ١٤٩٨) . وهو الرجل الذى أشرف على محاكم التفتيش فى أسبانيا فى عصر الملكين فرديناند وإيزابيلا . . وكان من الممكن أن يصبح هذان الملكان من أعظم الملوك فى التاريخ . ففى أيامهما اكتشف كولمبوس العالم الجديد . ولكن جاءت محاكم التفتيش وصمة عار فى تاريخهما وتاريخ أسبانيا . .

وتولى الأخ الدومنيكى توركويمادا أمر محاكم التفتيش . وقد ولد الأخ توركو يمادا فى مدينة بلد الوليد سنة ١٤٢٠ ، وكان فقيراً لدرجة أن أخته ذهبت إلى أحد الأديرة لتجد هناك طعامها وشرابها .

وتبدا القصة الحقيقية لهذا الراهب السفاح عندما تسلل إلى قصر الملكة إيزابيللا واعترفت له بعذابها وذنوبها . وقد أخذ عليها عهداً أن تعاونه فى القضاء على الكفرة من المسيحيين الجدد . أما المسيحيون الجدد فهم الذين اعتنقوا المسيحية من اليهود . . والمسلمون الجدد وهم الذين اعتنقوا الإسلام من المسيحيين . .

واستصدرت الملكة قراراً بابا وياً بتشكيل محكمة التفتيش فى ٧ نوفمبر سنة ١٤٧٨ لإحراق الكفرة . واتخذت المحكمة أول مركز لها فى مدينة إشبيلية .

وقدم الأخ توركويمادا لائحة من ٧٣ مادة لإحراق الكفرة . فمن ضمن أسباب إحراق أى انسان أنه إذا سافر وأقامت له زوجته وأقاربه حفلة كان هذا يدل أنه ليس مسيحياً كاثوليكياً . ولذلك يجب إحراقه .

وقد كان رجال الدين يجلسون فوق أسطح المنازل ليشاهدوا المداخن فى أيام الجمعة أجازة المسلمين والسبت أجازة اليهود . . . فالذين لا تشتعل مداخنهم فى هذين اليومين ، هم من الكفرة .

وفى الخمسة شهور الأولى أحرقت المحكمة ألف شخص . وبعضهم مات من الخوف . وكانت المحكمة تنعقد وتأمر بإحراق الجثث .

وكان توركويمادا يتفنن فى تعذيب الناس . وكان حريصاً على أن يكون القتل خنقاً أو حرقاً أو غرقاً . . وكان الموت الذى يعجبه هو الموت البطئ . فقد كان يحشر الكفرة فى فتحات فى الجدران . . ثم يشعل النار فى جانب من الجسم . . ويترك الكافر حتى يتطهر ، أى حتى يحترق !

وأصبح الأخ توركويمادا يلقب بالمفتش الأعظم !

واعترض الفاتيكان على التعذيب العنيف للناس . وطلب تشكيل محكمة مستنيرة . وتشكلت المحكمة وخففت أحكامها . وأحسن الأخ توركويمادا أنه غير مرغوب فيه . . فانسحب وترك ثرواته للفقراء . فقد كان من حقه أن يستولى على أموال الكفرة ، لصالح الكنيسة . .

ولما جاءت ساعة الموت كان مستريح الضمير كأنه لم يقتل ولم يحرق . . وهو ككل المتعصبين ، يرى أنه قد أدى واجبه نحو دينه ، وأن الجنة مثواه !

ومن الغريب أن البابا الذى اعترض على محاكم التفتيش هو البابا اسكندر السادس أبو شيزاره بورجيا . . وهو أسوأ من جلس على عرش الفاتيكان !

* * *

وسادس الأشرار هو ايفان الرهيب (١٥٣٠ - ١٥٨٤) . وهو يستحق هذه التسمية عن جدارة . وقد نشأ وهو يحس فى كل لحظة أنه حاكم مطلق أو سوف يكون حاكماً مطلقاً . وقد أكد له أصدقاؤه هذه الحقيقة .

وفى إحدى المرات أراد أن يعرف مدى سلطانه فطلب من أصدقائه اعتقال أحد الأشراف فاعتقلوه . وأمعاناً منهم فى تأكيد حبهم وطاعتهم له ، قتلوا هذا الشريف !

وعندما أصبح إمبراطوراً جمع أصدقاءه وقال لهم : أريد أن أتزوج !

وبعد ساعات كانت الرسائل قد أرسلت إلى كل حكام المدن : أجمعوا أجمل الفتيات !

وفى اليوم المحدد اتجهت ١٥٠٠ فتاة جميلة إلى موسكو . وأنزلت الفتيات فى بيوت خاصة . وذهب إيفان يتفرج على الفتيات بنفسه ووراءه من يحمل المناديل الحريرية . وكان الإمبراطور يلقى بالمنديل الحرير على الصدور المرتجفة التى تعلو وتهبط من شدة الخوف !

وعادت الفتيات محملات بالهدايا وبقيت واحدة هى انستاسيا .

وفى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٥٤٧ شبت النيران فى موسكو وزحفت على الكرملين . وأصبح الإمبراطور بلا سقف فوق رأسه . . وانسحب الإمبراطور خارج العاصمة يفكر هو وأصدقاؤه فى سبب هذا الحريق ، وأخيراً اهتدى إلى الحقيقة : إنه السحر ؟

وأمر بالبحث عن المشتغلين والمشتغلات بالسحر . وقتلهم جميعاً وقتل غيرهم ممن تحوم حولهم الشبهات !

وهجم التتار على حدود روسيا فحاربهم وقتل منهم أربعين ألفاً ، وكان من الممكن أن يهلك الجيش الروسى . فقد انشغل الإمبراطور بالصلوات وقراءة المزامير . فلما نبهه أحد القادة إلى خطورة الموقف وإلى أن الجنود فى انتظار أوامره ثار الإمبراطور قائلاً : وهل هذا سبب يكفى لمقاطعتى وأنا أصلى ؟ !

وأعدم هذا القائد !

وماتت زوجته . وتقدم يطلب إحدى بنات ملك بولندا . وكلف بذلك أحد السفراء ورأى السفير إحدى بنات الملك وكانت جميلة . وفوجئ الإمبراطور بأن ملك بولندا قد وافق على زواج ابنته من أمير فنلندا . وفى يوم الزفاف زحف إيفان بقواته على بولندا ليؤدب ملك بولندا . وكان يحمل معه نعشاً . وأعلن أن هذا النعش لمن يقتل منهما الآخر . !

وطالب إيفان بابنة ملك بولندا بأى ثمن ، ولم يجد ملك السويد وسيلة لانقاذ الموقف إلا أن يعتقل أخاه أمير فنلندا وعروسه . . ثم أصيب الملك بجنون لدرجة أنه كان يقول : أنا العريس . . أنا العريس .

وانتهز العريس الحقيقى هذه الفرصة ووضع أخاه فى السجن وأعلن نفسه ملكاً . وكان ملكاً ممتازاً !

ولما جاء السفراء يطلبون إلى العروس أن تحسم الموقف بأن تسلم نفسها لإيفان الرهيب كانت تشير إلى خاتم فى أصبعها مكتوب عليه : الموت فقط . .

وأثارت بولندا السلاطين الأتراك والتتار فهاجموا موسكو وأحرقوها وقتلوا منها مليون نسمة وأحرقوا الكرملين أيضاً !

وأوقف إيفان هذه الهجمات ، ثم راح يبحث عن نصر جديد . . فهاجم ليتوانيا وكانت مستعمرة ألمانية . وسحق هذه البلاد الصغيرة ، وألقى بالأمهات والأطفال فى الأنهار . وأطلق وراءهم الجنود يتأكدون من أنهم قد أغرقوا تماماً .

ولما عاد إلى موسكو أعد لنفسه مهرجاناً ضخماً يتقدمه أراجوز يتشقلب على ظهر ثور . وأصبح هذا تقليداً بعد ذلك عند بطرس الأكبر !

وأحس إيفان الرهيب بأن هناك مؤامرة عليه ، ولكن المؤامرة صامتة . فجمع ثلاثة آلاف من خصومه ووضعهم فى الميدان الأحمر . ووضع كل آلات التعذيب وطلب إلى الشعب أن يحضر ليتفرج وكانت المفاجأة : لم يحضر أحداً .

وأمر الجنود بالبحث عن الشعب ، فأكرهوا الناس على الحضور والفرجة !

وحكم على أحد الأمراء بالإعدام ، ولكن قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام أتى بأمه وجعل الجنود يعتدون عليها ١٥ ساعة حتى ماتت أمام عينية !

ولما أحس بالوحدة والعزلة طلب إلى ملكة بريطانيا العذراء أن تتزوجه فاعتذرت فطلب إليها أن تزوجه إحدى بنات أختها فاعتذرت . وطلب إليها إن كانت تقبله لاجئاً عندها ، لأنه لايستبعد أن تجئ هى لاجئة إلى الكرملين . فرحبت به . .

وقد تزوج إيفان الرهيب ثمانى مرات وقد ماتت خمس من زوجاته بالسم . . وأحرقت بيوت أقاربهن وصودرت أملاكهن !

ولم تعجبه الثلاث الباقيات فقد كن نحيفات . وكان من عاداته أن يتبادل العشيقات مع أصدقائه ، وأن يقتل أصدقاءه بعد ذلك !

وقبل أن يموت لاحظ أن خاتم التركواز الذى فى أصبعه قد تغير لونه فراح يصرخ ويقول : إننى مسموم . . إننى مسموم !

وقبل أن يموت بساعات استدعى جودنوف أحد أبطال الشطرنج . . وعندما قال له جودنوف : كش الملك . . سقط إيفان جثة هامدة . وأصبح لاعب الشطرنج هذا إمبراطوراً بعده .

ورغم أنه سفاح وقاتل فإنه هو وبطرس الأكبر والملكة كاترينا ، من أهم ملوك روسيا قبل الثورة .

***

والشرير السابع هو الأديب الفيلسوف الفرنسى دى صاد (١٧٤٠ - ١٨١٤) وهو مؤلف له روايات ومسرحيات وله دراسات عن الشذوذ الجنسى قد سبق بها الكثيرين من علماء النفس ، ومنهم فرويد نفسه .

وهو ارستقراطى من ناحية الأم والأب . وهو يصف نفسه بأنه لم يعرف المستحيل فى حياته . فقد وجد على مائدته كل شىء !

وتبدأ فضائح دى صاد عندما التقط من الشارع سيدة عمرها ٣٦ سنة اسمها روزكيلر . وراح يضربها بالكرباج حتى سالت دماؤها . ثم أعطاها زجاجة من الكونياك لتغسل هذه الجروح . ثم تركها وخرج . وتسللت هذه السيدة إلى الشارع تروى قصتها للناس وللبوليس !

وتكررت فضائح دى صاد فى باريس وفى ضواحى باريس . وهرب . واضطر أبوه إلى أن يزوجه . وهرب مع أخت زوجته إلى إيطاليا .

وفى إحدى المرات التقط أربع فتيات . وراح يضرب الفتيات الأربع كل واحدة ٢٥٠ جلده . . وطلب إليهن أن يضربنه أيضاً . وكان قد قدم لهن حلوى بها حبوب مسهلة !

ثم دخل السجن . وفى سجن الباستيل كانت أسرته تبعث له بالكتب . وكان يؤلف المسرحيات والقصص . واستطاع أن يكتب بخط صغير جداً على ورقة طولها ١٣ متراً كتاباً بعنوان «١٢٠ يوماً فى مدينة سودوم» وهى المدينة التى تحدث عنها الكتاب المقدس وعاش فيها لوط وقومه . ثم أحرقها الله . وقد سجل فى هذا الكتاب الأوضاع الجنسية الشاذة . وقد سبق بهذا التسجيل الدقيق الغريب ما

كتبه الدكتور الأمريكى كنسى من أربعين عاماً عن السلوك الجنسى عند الرجل وعند المرأة فى أمريكا !

ولما قامت الثورة الفرنسية كان يصرخ من النوافذ . وقد ابتكر ميكروفوناً صنعه من مواسير المواقد . ونقلوه من الزنزانة إلى زنزانة أخرى ونقلوا ٦٠٠ كتاب من بينها خمسون من تأليفه !

وقد حاول كثيراً أن تظهر مسرحياته أمام الجمهور . وظهرت بالفعل ولكن فى مستشفى الأمراض العقلية حيث مات ! - وهذه الحقيقة التاريخية استوحى منها المؤلف المسرحى الألمانى بيتر فايس مادة مسرحيته المعروفة «مارا - صاد» .

وأما تشخيص مرض هذا الشرير الفرنسى فهو : جنون التعذيب . . أو لذة التعذيب . أى أنه يجد لذة فى تعذيب غيره . . ثم يجد لذة فى أن يتعذب بغيره . . فهو يجد لذة إذا ضرب فتاة ، وإذا تألمت ، وإذا ضربته فتألم . وعلى الرغم من هذا العمل الشاذ كان فناناً وكان فيلسوفاً ، إلا أن شذوذه الجنسى قد محا أفكاره الفلسفية ، وطمس العصر الذى عاش فيه !

❊❊❊

أما الثامن فهو الكذاب الساحر ، المنافق الجميل ، الذئب الوديع ، المفترس الرقيق . . إنه كازانوفا (١٧٢٥ - ١٧٩٨) وهو إيطالى ولد فى مدينة البندقية ونحن لا نعرف شيئاً إلا من مذكراته الأدبية المثيرة التى كانت بعنوان «تاريخ حياتى» . وقد كتبها فى السنوات الأخيرة من حياته . وعلى الرغم من أنه إيطالى ، فإنه كتب مذكراته بالفرنسية .

وهو ابن سكرتير ملك أسبانيا . وجده كان لقيطاً وقد هرب مع إحدى الراهبات ، وأبوه أيضاً أحب ممثلة وهرب بها أثناء التمثيل . ثم تركها وتزوج ابنة جزمجى . ومن هذه العلاقة غير الشرعية ولد العاشق الكبير : كازانوفا !

ووصف كازانوفا نفسه بأنه كان غبياً حتى الثامنة من عمره . ولكن جدته أسلمته لسيدة تعمل بالسحر . وهذه السيدة عالجته من أمراضه . ثم وعدته بأن فتاة جميلة سوف تزوره كل ليلة للعلاج بشرط أن يكتم السر . وجاءت الفتاة كل يوم وكتم السر واكتفى بنشره كاملاً فى مذكراته !

وقرر كازانوفا أن يكون قسيساً ثم عدل عن ذلك !

وتنقل فى عالم المغامرات بين زوجات الأصدقاء ومنهم إلى الجارات . . وإلى زوجات الحكام . . وانتقل من إيطاليا إلى فرنسا ومن فرنسا إلى انجلترا إلى ألمانيا ثم إلى رومانيا . . وكان كازانوفا يعتمد فى كل علاقاته على ذكائه وبراعته فى الحديث والبحث عن نقطة الضعف عند المرأة . وهو يقول : من كل تجاربى خرجت بحقيقة واحدة أن المرأة أضعف بكثير مما يتصور الرجل . وأنه ليس صحيحاً أن هناك امرأة أقوى من الرجل .

وفى باريس عرف سيدة غنية جداً وراح يوهمها بأنه قادر على أن يعيدها إلى الشباب . واستولى على مليون فرنك منها . ثم هرب إلى البندقية . وهناك أدخلوه السجن . ولم يحدث فى تاريخ هذا السجن أن دخله إنسان وخرج حياً . ولكنه استطاع أن يهرب .

واختفى طول الليل فى بيت مدير السجن الذى ظل يبحث عنه فى كل مكان . وقد اثبت البحث التاريخى أن هذه الواقعة صحيحة !

وطارده البوليس فى كل مكان لأنه يبتز أموال النساء والفتيات . وأنه قادر على خداع الصغيرات والكبيرات .

وقد استطاع كازانوفا أن يشيع الانحلال الاخلاقى بمفرده وبالشائعات الكثيرة التى تسبقه وتجئ بعده فى كل مكان . . واستطاع بمفرده أن يفسد القارة الأوربية كلها . . وأحسن دعاية له وضده كانت : المرأة !

ولما مات كازانوفا فى مدينة البندقية كان شيخاً مع أن كل المغامرين يموتون شباناً .

وقد وصف نفسه على فراش الموت يوم ٤ يونيو سنة ١٧٩٨ بقوله : عشت فيلسوفاً ومت مسيحياً !

ولم يبق من آثار كازانوفا سوى مذكراته التى جاءت فى ١٢ مجلداً وهى تعتبر من أحط ماصدر فى القرن الثامن عشر من أعمال أدبية !

***

أما التاسع فهو هتلر . وهو معروف . فهو من أبناء النمسا . وهو ابن غير شرعى لوالده . وكانت له أخت غير شقيقة . وكانت صديقته الوحيدة . وكانت لها ابنة هى الوحيدة التى أحبها هتلر . وكان يغار عليها . ومن شدة غيرته عليها قتلها بالرصاص . وماتت أمة وهو فى التاسعة . وعرف الجوع . وعرف القمل ملابسه ، وعرفت الأرصفة طوله وعرضه وضلوعه .

ولم يحدث فى التاريخ أن ارتفع رجل من الأرض إلى السماء كما حدث لهتلر . وحكم هتلر الباهر الحارق استغرق ١٢ عاما من ١٩٣٣ حتى مات منتحراً فى قصر المستشارية فى ٣٠ أبريل سنة ١٩٤٥ عندما بلغه أن موسولينى وعشيقته قد قتلا عند بحيرة كومو وأن الإيطاليين علقوهما فى أرجلهما وجروهما فى الشوراع !

وقد كان هتلر معروفاً بنشاطه السياسى وقدرته غير الطبيعية على الخطابة والتأثير فى الجماهير لا حدود لها . ومن المؤكد أن هتلر قد استطاع أن يحرك فى الألمان نزعاتهم القومية ، وإيمانهم بالبطولة ، وكراهيتهم الشديدة لليهود . واستطاع أن يقضى على خمسة ملايين يهودى . وأن يحرك فيهم إيمانهم بسيادتهم العنصرية على كل الشعوب وكراهيتهم للسلام !

والذى قيل عن قسوة هتلر وطغيانه كثير . ويكفى أن تعلم أنه عندما بلغه أن هناك رائحة تمرد فى يوغوسلافيا وكراهية للنازية بعث بجيش لتأديب يوغوسلافيا والاستيلاء عليها . كل هذا لمجرد أنه شم رائحة تمرد . وكانت عند هتلر حاسة قوية لشم رائحة الكراهية ، بين كل ضباطه !

ولايزال الإنسان مندهشاً كيف استطاع رجل جاهل أن (ينوم) شعباً مستنيراً قوياً كالشعب الألمانى ويدفعه إلى حرب يموت فيها عشرون مليون نسمة فى كل الجبهات وبعدها الدمار والخراب !

ولم يشأ هتلر أن يموت شجاعاً ، فقد قرر الانتحار . استدعى رجاله وأملى وصيته العسكرية وعين خليفته . وطلب إرسال ٢٠٠ لتر من البنزين . وعندما سمع بمصرع موسولينى وعشيقته طلب أن يتم زواجه المدنى على عشيقته الوحيدة زيفا براون فتزوجها . ثم أقفل الباب . . وانطلقت رصاصة ودخل كبار الضباط ليجدوا هتلر قد أطلق على فمه الرصاص . . ووجدوا إيفا براون جثة هامدة مسمومة . . وأحرقوا الاثنين وكان ذلك بعد عشرة أيام من الاحتفال بعيد ميلاد هتلر السادس والخمسين !

***

والشرير العاشر أحد رجال الدين . إنه راسبوتين (١٨٧٢ - ١٩١٦) . إنه فلاح من سيبيريا . فقير . أبوه شيال . وهو فى الثانية عشرة من عمره استمع إلى جماعة يتشاجرون على سرقة حمار . فإذا به ينهض من فراشه ويتجه إلى أحد البيوت ويهجم على صاحب البيت ويقول : أنت سارق الحمار !

وكان هذا الرجل هو اللص . وعرفت القرية قصة الطفل راسبوتين . وفى الصباح رسموا على بيته الصليب . أى أنه يشتغل بالسحر . أو أنه مسحور . وأثناء سيره فى إحدى القرى رأى العذراء مريم . وقال للناس : سوف يكون لى شأن !

وصدقت نبوءته .

وفى إحدى المرات كان يحمل أمتعة أحد رجال الدين . وتناقشا فى الطريق واكتشف رجل الدين أن هذا الشاب موهوب وأنه مطلع تماماً على تعاليم الدين . ونظر إليه طويلاً ، فوجده عملاقاً عريض الكتفين . ووجد عينين زرقاوين لهما لمعان ثابت غريب . . ولهما قدرة على التنويم المغناطيسى . وهذه هى معجزة راسبوتين .

واستدرجه رجل الدين إلى بيته . وفى هذا البيت كانت المباذل الجنسية على أشدها . وكان شعاره : الخلاص عن طريق الخطيئة !

أى إنه لا خلاص لمتاعب الإنسان إلا بالرذيلة . وفى حفلات رجال الدين كانت تختلط كل النساء بكل الرجال .

وقد آمن راسبوتين بهذه الفلسفة الجنسية وجعل لها شعاراً آخر هو : جرب لحمك !

وعرف الناس بالراهب الساحر راسبوتين . فقد انكشفت له قدرات جسمية وروحية . . قدرة على الملذات وقدرة على شفاء المرضى من الأطفال والنساء . وهاجمه رجال الدين . وآمن به بعضهم . وكثيرون اتخذوه خطيبهم وسلاحهم فى الحملات السياسية . وانتقل صيته إلى موسكو . وإلى الإمبراطورة . واستدعته لعلاج ابنها . واستمر يعالجه . وفى إحدى المرات عندما سافرت الإمبراطورة بعثت بخطاب إلى راسبوتين تطلب إليه أن يصلى لابنها الذى ينزف الدم بلا توقف وأرسل لها خطابا وطلب إليها أن تقرأ الخطاب على ابنها وسوف يتوقف الدم . وتوقف الدم .

وأقام راسبوتين حفلات ماجنة فى بيته للعلاج ، وفى هذه الحفلات جاءت الوف السيدات والفتيات ، وأحاط البوليس بيته ولكن أحدا لم يستطع أن يقاوم راسبوتين الذى يثق به الإمبراطور والإمبراطورة . وعلى الرغم من أن البوليس قد رأى عشرات من الفتيات يخرجن صارخات باكيات ، فانه لم يتدخل !

واستولى راسبوتين على القصر وعلى الوزراء وعلى رجال الدين وكان هو الذى يعين الوزراء ويعرف مدى إخلاصهم لعرش آل رومانوف . وضاق به الوزراء والساسة والأشراف . ولكنهم لم يفلحوا فى القضاء عليه .

وأخيراً انفرد به أحد الأمراء ودعاه إلى بيته لعلاج زوجته الجميلة جداً . وفرح راسبوتين . وذهب به الأمير إلى غرفة الزوجة . ولم تكن هناك الزوجة . وقدم له الحلوى المسمومة فأكل منها عشرين قطعة . . وقدم له اقداح النبيذ فشرب منها عشرة مسمومة . وكان من المفروض أن يموت راسبوتين بعد دقائق . ولكنه لم يمت . وإنما ظل يرقص . فذهب الأمير وأطلق عليه عشر رصاصات . وعندما تقدم رجال البوليس يسألون عن الرصاص ، والدماء الموجودة خارج البيت قال : الأمير أنه أحد ضيوفى قد لعبت الخمر برأسه فقتل أحد كلابى !

وفى الصباح وجد جثمان راسبوتين فى النهر وقد امتلأ صدره بالماء . . وكل شئ يدل على أن جسده قد حمل كل هذه السموم والرصاص ، وأنه لم يمت وإنما مات غرقاً !

***

ومواطن آخر لراسبوتين أكثر شرا منه ، بل انه مسئول عن اختفاء خمسة وعشرين مليونا من مواطنيه . . انه ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) ولم يكن أحد يعرف بالضبط أى شرير هذا الرجل الى أن أعلن خروتشيف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى ، كيف أن ستالين كان حباناً ومغامراً وخائناً . وكيف انه كان مصاباً بعقدة لوليتا - أى حب الفتيات الصغيرات - وأن الفتاة التى كانت تعترضه كانت تموت فورا وكيف ان ستالين عندما ابدت زوجته ملاحظة على قسوته ، وجدت ميتة فى نفس اليوم !

وستالين بدأ حياته ثورياً ، وهو أحد آباء الثورة الروسية . ولكنه استطاع بالحيلة والخبث أن يزحف على سكرتارية الحزب . وكان لينين يخاف على الحزب منه . بل إن لينين نفسه قد حذر من ستالين قبل أن يموت !

وقد بطش ستالين بكل خصومه السياسيين . وعندما تظاهروا ضده فى إحدى المرات مزقهم جميعاً . وطرد منافسه تروتسكى من الحزب ثم من روسيا ثم قتله بعد ذلك!

ولم يبق من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى التى تأسست سنة ١٩١٧ أحد سواه .

ويروى خروتشيف أن الألمان عندما هاجموا روسيا لم يصدق ستالين ذلك . وقال إنه يثق فى هتلر . وأمر جنوده بألا يردوا على العدوان النازى . ولما زحف الألمان على الجنوب . طلب خروتشيف أن يتحدث مع ستالين بالتليفون رد عليه مالينكوف قائلاً : إنه ليس موجوداً . وكان ستالين يجلس إلى جوار التليفون وقد خشى ستالين أن يقول إنه لا يستطيع أن يعزز القوات الروسية فى الجنوب بأى سلاح .

وروى خروشوف أن ستالين كان رجلاً سكيراً عربيداً . وأنه طلب إليه فى إحدى الحفلات أن يرقص . وعندما سئل خروتشيف وماذا فعلت ؟ أجاب : رقصت طبعاً !

وأحس ستاين أن الحزب والسكرتارية واللجنة المركزية قد ضاقت به وحاول أن يسترضى كل الذين أغضبهم . وكان من الصعب عليه ذلك . وفى أول مارس سنة ١٩٥٣ أصيب بنزيف حاد . وبعد أربعة أيام مات الرجل الذى صفى كل خصومه وملايين الفلاحين وتسبب فى إسالة دماء الملايين من جنوده بسبب إهماله وغروره !

***

والشرير الثانى عشر هو رجل العصابات الإيطالى الجنسية الأمريكى الإقامة لوتشيانو . . (١٨٩٧ - ١٩٦٢) وهو من مواليد صقلية ، ككل زعماء العصابات الإيطاليين الذين يعملون فى أمريكا .

وقد هاجر مع والده إلى أمريكا وفى نيويورك تدرج فى أعمال العصابات حتى أصبح زعيماً . والعصابات فى أمريكا تدين له بكثير من التحسينات التى أدخلت على السرقة والنهب وإدارة بيوت الدعارة . . وأخطر من هذا كله : تجارة المخدرات !

فقد رأى أن أفراد العصابات لايظهرون بالمظهر اللائق بهم . لذلك قرر أن يكون أفراد عصابته من أشيك الناس وأغناهم فأصدر أوامره بأن يرتدوا جميعاً أحسن البدل والكرافتات والأحذية . أما هو شخصياً فقد اتخذ مقراً له جناحاً فى فندق والدروف استوريا . وفى أول سنة لزعامته جمع ثلاثة ملايين دولار كان يأخذها من ١٥٠٠ امرأة وألف فتاة ومائتين من أصحاب المصانع والشركات .

وكان من الطبيعى أن تكشف الدولة أن هناك تجارة خطيرة للمخدرات من الشرق الأوسط إلى شمال أمريكا . وأن هذه التجارة قد شملت الناس . وحاولوا القبض عليه .

وألقى البوليس القبض عليه بتهمة التحريض على الفسق . . وليس بتهمة الاتجار فى المخدرات وكانت مجموعة الأحكام التى صدرت ضده تتراوح بين ثلاثين وخمسين سنة ، ودخل السجن . .

وفى الحرب العالمية الثانية قرر تشرشل وروزفلت إنزال قوات فى صقلية . وتقدم محامو لوتشيانو يعلنون استعدادهم لمعاونتهم مع رجال العصابات فى صقلية . وانتقل لوتشيانو إلى نيويورك . وأصدر تعليماته إلى رجال العصابات فى صقلية ونفذت تعليماته . وبعد نهاية الحرب طلب المحامون العفو عنه ، لأنه ساعد فى الحرب ولأنه ليس أمريكياً . وصدر قرار بترحيله إلى إيطاليا .

وفى إيطاليا استأنف تجارة المخدرات على نطاق واسع جداً . وربح فى خمس سنوات ٢٠٠ مليون جنيه . وتعاونت معه أكبر شركات الدواء الإيطالية فى تصنيع مخدرات كيمائية انتقلت جميعاً إلى أفواه وألوف الملايين فى أمريكا فهى جميعاً من الآفيون والهوارين !

وحاول الأمريكان اعتقاله . ولكن البوليس الإيطالى المرتشى رفض . وقبل وفاة لوتشيانو بشهر واحد قدم الأمريكان دوسيها ضخماً بكل جرائم لوتشيانو وكلها تدينه مدى الحياة . ولكنه سبق البوليس الدولى ومات فى نابلى تاركاً مئات الملايين من الجنيهات ومئات البدل الأنيقة والأحذية وألوف الكرافتات . . وراقصة باليه هى عشيقته التى أوصى لها بعشرين مليون دولار . ونسى فى آخر لحظة أن يخبرها برقم حسابه السرى فى بنوك سويسرا !

***

والثالث عشر وليس آخر الأشرار فى العالم هو السناتور المخبول مكارثى (١٩٠٩ - ١٩٥٧) وهذا الرجل لم يقتل أحداً . ولم تكن له أية مغامرات جنسية شاذة ولا عادية . . وإنما استطاع هذا المحامى الذى تحول بالخداع إلى قاض ، ثم إلى عضو مجلس شيوخ أن يرعب الشعب الأمريكى كله . . من ترومان إلى آيزنهاور إلى أعضاء الكونجرس والجيش .

وقد جاءت إليه فكرة خبيثة وهو يستعد للمعركة الانتخابية . . كان يجلس مع اثنين من أصدقائه هما كوهين وشين . . وانضم إليهما أحد القساوسة الكاثوليك . . وفكر مكارثى فى حملة انتخابية يفوز بها مرة أخرى فى انتخابات مجلس الشيوخ وعثر القس الكاثوليكى على الفكرة : هاجم الشيوعية !

وكانت الفكرة ناجحة . وأعلن مكارثى أنه اكتشف الشيوعية فى أمريكا . وأن وزارة الخارجية الأمريكية تعلم أن هناك ٢٠٥ شيوعيين على رأس أجهزة الدولة . . وإنها عاجزة عن عمل شىء لهم و معهم .

وأخذ الرأى العام الأمريكى والصحف والكونجرس . وكل يوم تشير الأصابع إلى شيوعيين فى الصحافة والمسرح والإذاعة والتليفزيون والسينما ومعامل الذرة وأساتذة الجامعات . وفى الكونجرس انعقدت اللجان . . ورأس هو اللجان وقدم كشوفا أدان فيها مئات الألوف من الأمريكان . وبعث بمستشاريه كوهين وشين إلى أوربا للبحث والتفتيش فى السفارات عن الشيوعية وكانت فضيحة للبرلمان والدبلوماسية الأمريكية .

وانساقت أمريكا وراء الإرهاب المكارثى واسلمت أعناقها وأقلامها لهذا المخبول . ولم يحدث فى التاريخ أن استطاع شخص بمفرده بلا جيش ولا حزب ولا أجهزة دعاية ولا صحف أن يرهب دولة من أولها لآخرها كما فعل هذا الرجل !

ولم تكتشف أمريكا غباوتها ، وجنون هذا الرجل إلا متأخراً .

وزاد من الشعور بالعار أن هذا الرجل المجنون أنهى حياته فى أحد المستشفيات مصابا بمرض الصفراء . . ولما مات كانت رائحة الخمر تنزل من فمه ومن أنفه . ولكن أثره الفاضح المخجل ، لم يتلاش إلا ببطء فى المجتمع الأمريكى . .

***

هؤلاء ١٣ فقط من أشرار البشرية . . استطاعوا بقوتهم غير العادية إرهاب الناس وإضعافهم ، حتى عجزوا عن السيطرة على الناس ، وأن يغرقوا شعوبهم فى الدم والعار . . وأن يتركوا الدنيا أسوأ مما وجدوها !

الفهرس

مقدمة

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستـــاذ

أنيـــس منصـــور

(أ) ترجمة ذاتية:

١ - في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
٢ - عاشوا في حياتي.
٣ - إلا قليلاً.
٤ - طلع البدر علينا.
٥ - البقية في حياتي.
٦ - نحن أولاد الغجر.
٧ - من نفسي.
٨ - حتى أنت يا أنا.
٩ - أضواء وضوضاء.
١٠- كل شيء نسبي.
١١- لأول مرة.
١٢- شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣- الحائط والدموع.
١٤- وجع في قلب إسرائيل.
١٥- الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
١٦- عبد الناصر - المفترَى عليه والمفترِي علينا.
١٧- في السياسة (٣ أجزاء).
١٨- الدين والديناميت.
١٩- لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
٢٠- السيدة الأولى.
٢١- التاريخ أنياب وأظافر.
٢٢- الخالدون مائة - أعظمهم محمد (ﷺ).
٢٣- على رقاب العباد.
٢٤- ديانات أخرى.
٢٥- وكانت الصحة هي الثمن.
٢٦- الغرباء.
٢٧- الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

٢٨- عزيزي فلان.
٢٩- هي وغيرها.
٣٠- بقايا كل شيء.
٣١- يا من كنت حبيبي.
٣٢- قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسري فريد ريش ديرنمات:
٣٣- رومولوس العظيم.

٣٤- زيارة السيدة العجوز.

٣٥- زواج السيد مسيسبى.

٣٦- الشهاب.

٣٧- هى وعشاقها.

** للأديب السويسرى ماكس فريش:

٣٨- أمير الأراضى البور.

٣٩- مشعلو النيران.

** للأديب الفرنسى جان جيرودو:

٤٠- من أجل سواد عينيها.

** للأديب الأمريكى آرثر ميللر:

٤١- بعد السقوط.

** للأديب الأمريكى تنسى وليامز:

٤٢- فوق الكهف.

** للأديب الأمريكى يوجين أونيل:

٤٣- الإمبراطور جونس.

** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:

٤٤- تعب كلها الحياة.

** للأديب الفرنسى أداموف:

٤٥- الباب والشباك.

** للأديب الإسبانى أرابال:

٤٦- ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧- الحنان أقوى.

٤٨- من أول نظرة.

٤٩- طريق العذاب.

٥٠- ألوان من الحب.

٥١- شباب.. شباب.

٥٢- مذكرات شاب غاضب.

٥٣- مذكرات شابة غاضبة.

٥٤- جسمك لا يكذب.

٥٥- الذين هاجروا.

٥٦- غرباء فى كل عصر.

٥٧- أظافرها الطويلة.

٥٨- هموم هذا الزمان.

٥٩- زمن الهموم الكبيرة.

٦٠- الحب الذى بيننا.

٦١- عذاب كل يوم.

٦٢- كيمياء الفضيحة.

٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.

٦٥- الذين عادوا إلى السماء.

٦٦- القوى الخفية.

٦٧- أرواح وأشباح.

٦٨- لعنة الفراعنة.

٦٩- دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.

٧١- وداعًا أيها الملل.

٧٢- كرسى على الشمال.

٧٣- ساعات بلا عقارب.
٧٤- مع الآخرين.
٧٥- شيء من الفكر.
٧٦- لو كنت أيوب.
٧٧- يعيش.. يعيش.
٧٨- الوجودية.
٧٩- طريق العذاب.
٨٠- وحدى.. مع الآخرين.
٨١- ما لا تعلمون.
٨٢- لحظات مسروقة.
٨٣- كتَاب عن كتب.
٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.
٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
٨٦- أوراق على شجر.
٨٧- فى تلك السنة.
٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.
٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.
٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.
٩١- فلاسفة وجوديون.
٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.
٩٤- بلاد الله خلق الله.
٩٥- غريب فى بلاد غريبة.
٩٦- اليمن ذلك المجهول.
٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.
٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.
٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.
١٠٠- ماذا يريد الشباب؟
١٠١- الرصاص لا يقتل العصافير.
١٠٢- من أول السطر.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٣- مدرسة الحب.
١٠٤- حلمك يا شيخ علام.
١٠٥- مين قتل مين؟
١٠٦- جمعية كل واشكر.
١٠٧- الأحياء المجاورة.
١٠٨- سلطان زمانه.
١٠٩- العبقرى.
١١٠- كلام لك يا جارة.
١١١- فوق الركبة.
١١٢- هـذه الصـغـيـرة (وقصص أخرى).
١١٣- يوم بيوم.
١١٤- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٥- إلا فاطمة.
١١٦- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٧- حقنة بينج.
١١٨- اتنين.. اتنين.
١١٩- عريس فاطمة.
١٢٠- من الذى لا يحب فاطمة؟

١٢١- غاضبون وغاضبات.
١٢٢- هى وغيرها.
١٢٣- هى وعشاقها.
١٢٤- العبقرى.
١٢٥- القلب أبدًا يدق.
١٢٦- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٧- ثم ضاع الطريق.
١٢٨- النجوم تولد وتموت.
١٢٩- هناك أمل.
١٣٠- أحب وأكره.
١٣١- الحيوانات ألطف كثيرًا.
١٣٢- مصباح لكل إنسان.
١٣٣- أتمنى لك.
١٣٤- لعل الموت ينسانا.
١٣٥- اقرأ أى شىء.
١٣٦- ولكنى أتأمل.
١٣٧- حتى تعرف نفسك.
١٣٨- الحب والفلوس والموت.. وأنا.
١٣٩- نحن كذلك !!
١٤٠- اللهم إنى سائح.
١٤١- كائنات فوق.
١٤٢- تعال نفكر معًا.
١٤٣- آه لو رأيت !
١٤٤- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
١٤٥- انتهى زمن الفرص الضائعة!
١٤٦- هناك فرق.
١٤٧- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثانى.
١٤٨- يا نور النبى.
١٤٩- وأنت ما رأيك.
١٥٠- حضارة الإوز والبقر.
١٥١- حلمنا الجميل.
١٥٢- ضاع الجيل ضاع.
١٥٣- قالوا (الجزءان الأول والثانى).
١٥٤- وآخرتها.
١٥٥- من أول السطر.

(ل) الترجمات القصصية:

١٥٦- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.
١٥٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
١٥٨- (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.
١٥٩- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.
١٦٠- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.
١٦١- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

١٦٢- الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.

١٦٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.

١٦٤- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.

١٦٥- مسرح العبث الفرنسى - لإتيان ماريبو.

١٦٦- الفيلسوف الروسى برديائف - لفيكتور لوزتسيف.

١٦٧- من كيركجورد إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.

١٦٨- سيمون دوبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.

١٦٩ - رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.

١٧٠- فاشلون لكن نبلاء - لجان مارى روار.

١٧١- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.

١٧٢- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.

١٧٣- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.

١٧٤- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.

جميع الكتب الموضوع أعلاه [illegible]

موجودة بمكتبتي

شاكر لكم [illegible]

أحمد

الكتبي

٢٦ / رمضان

٢٦ أغسطس ٢٠١٠

[illegible]